Converted by Tiff Combine - unregistered

ثقافة الهند

- حل لبضا فى بوقف بسر حسر لعبا
- لسيح معص لدس لسحرى لأحمسرى قسسى هسسسو لما سسيح
- لعلسو ح لساهسد موسسه لسيح محمد عسر لسدى
- علانا لهسد مع لسرى لا سط حلال لقومى لما س حسر لسامع عسر
- سعلسو سلطسا لوحسد لوطسه
- لسيد حسسد هسا سه للدس
- لرسامسو لسلسو من لقر لعسرس
- لر صاسا فسى لسطسو لعالسسى
- حسركسه سهسالكسى لر حسسه لعصسا لهسدسسه لركسسه

Vol XLI Nos 3 1990

Converted by Tiff Combine - unregistered

Converted by Tiff Combine - unregistered

ثقافة الهند

المجلد ٤١ العدد ٣

١٩٩٠م

المجلس الهندى للعلاقات الثقافية
آزاد بوان نيو دلهى
الهند

Converted by Tiff Combine - unregistered

إن المجلس الهندى للعلاقات الثقافية منظمة حرة تحت وزارة الشئون الخارجية للحكومة الهندية، أنشئت عام ١٩٥٠م لإنشاء و تنمية العلاقات الثقافية و التفاهم المتبادل بين الهند و البلدان الأخرى، و كجزء من برنامج مطبوعاته المرجه لتحقيق هذا الحوار الثقافى بين الهند و البلدان الأخرى، ينشر، بين ما ينشر، عدة مجلات فى الانكليزية "Indian Horizons" و "Africa Quarterly" و فى الفرنسية "Rencontre Avec l'Inde" و فى الاسبانية "Papeles de la India" و فى الهندية "Gagananchal" كلها تصدر أربع مرات فى السنة. وبدل الاشتراك السنوى للمجلات فى الانكليزية و فى الهندية مطبوع فى العمود المقابل *إلا أن مجلات المجلس فى اللغات العربية و الفرنسية و الاسبانية توزع مجاناً* و المراسلات المتعلقة ببدل الاشتراك و دفع الثمن و بشئون الطباعة و النشر توجه إلى :

The Programme Director (Pub)
Indian Council for Cultural Relation,
Azad Bhavan,
Indraprastha Estate
New Delhi - 110002

© حقوق جميع المقالات المنشورة فى ثقافة الهند محفوظة فلايمكن نشرها بدون الاذن، و الاراء المظهرة فى المقالات هى للمساهمين و الكتاب، و لاتعكس سياسة المجلس بالضرورة.

بدل الاشتراك

(المجلات فى الإنكليزية و فى الهندية فقط)

عددواحد - ٥ روبيات، £1.00 - $ 2.50
سنويا - ٢٠ روبية، £4.00 - $ 10.00
٣ سنوات - ٥٠ روبية، £10.00 - $ 25.00

نشرها و طبعها، سكرتير المجلس الهندى للعلاقات الثقافية، آزاد بوان، نيو دلهى - الهند. طبعت فى مطبعة فاب انترپرائسيز جرين بارك ، نيو دلهى.

توزع مجاناً

رئيس التحرير: البروفسور نثار أحمد الفاروقى

Converted by Tiff Combine - unregistered

مجلة ثقافة الهند فصلية

المجلد ٤١ العدد ٣

١٩٩٠م

محتويات هذا العدد :

٤٨ ـ ٥ حل التضاد في توقيت سيرة خير العباد (٢)

الفقيد إسحاق النبي هلوى

٦٤ ـ ٤٩ الشيخ معين الدين السجزى الأجميرى
في ضوء التاريخ

البروفيسور نثار أحمد الفاروقى

١١٥ ـ ٦٥ دار العلوم تاج المساجد و مؤسسه
(الشيخ محمد عمران الندوى)

د/ محمد حسان خان

١٥٢ ـ ١١٦ علاقات الهند مع دول الشرق الأوسط
خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر

د/ ضياء الدين ديسائى

Converted by Tiff Combine - unregistered

١٥٣ ـ ١٥٩ تيبو سلطان و الوحدة الوطنية

أجمل مصطفى الرهدوى

١٦٠ ـ ١٨١ السيد أحمد خان و رؤيته للدين

البروفيسور وحيد اختر

١٨٨ ـ ٢٠٤ الرسامون المسلمون من القرن العشرين

د/ أنيس فاروقى

٢٠٥ ـ ٢١٥ الرامايانا فى المنظور العالمى

د/ تاراشرن رستوجى

٢١٦ ـ ٢٤١ حركة بهاكتى الروحية
و الحضارة الهندية المركبة

ك . ك . كوللر

٢٤٢ ـ ٢٤٧ رائحـــــة (قصة قصيرة)

أمريتا بريتم

٢٤٨ ـ ٢٤٩ استعراض الكتب :

شميم الحسن امانة الله

٢٥٠ ـ ٢٥٢ أنباء ثقافية

اعداد : سراج الحسن

Converted by Tiff Combine - unregistered

الملحقة الثانية :

حل التضاد فى توقيت سيرة خير العباد

بقلم :الفقيه اصحاح النبى علوى
(رامفـــــهر)

إن صفحات التاريخ تدل على أنه كانت توجد التصورات التوقيتية لدى العرب قبل ظهور الإسلام بكثير، و رغم أن الشهور و الأعوام لا تتراءى فى اللوحات و الآثار العربية العتيقة، مع ذلك لقد عثر فى جنوب العرب على لوحات تفيد أن الناس كانوا أخذوا بهذه الطريقة قبل بدء السنة الميلادية. ففى اليمن قلدت سنة " مهجوض بن أبحض " (MABHUD BIN ABHAD) التى كان تم إيجادها عام ١١٥ ق. م. فى الألفلب (١)، ظلت تتلقى رواجا إلى زمن أبرهة الفيل و تتواجد على إحدى لوحاته.

إن المسعودى و علماء التاريخ الآخرين يصرحون بأن السنين كانت متفشية بكثرة كاثرة فى العرب قبل ظهور الإسلام، و كانت كل قبيلة تعد الأيام من أحداث معروفة متباينة أو عن أسماء عظماءهم (٢)، حتى كانت السنون الأجنبية الوافدة أيضا تلقت رواجا و قبولا. مثلا إن السنة اليهودية أو السنة الإسكندرية (٣) و إن كانت هاتان مقتصرة على اليهود و النصارى لكنهما ألقت ظلالهما على التاريخ العربى. و لا أرى من الضرورى أن آخذ فى تفاصيل السنين الأخرى، لكن سوف يأتى ذكر هاتين السنتين فى عدة مواضع فأرى من المناسب أن أذكرهنا أسماء شهور هذين التقويمين.

كانت السنة اليهودية تستهل من الوجهة الدينية من شهر نيسان، و لكن شهر "تشرى" كان يعدّ الشهر الأول فى التجارة و التعامل منذ زمن طويل. و من هذا الإعتبار كان ترتيب الشهور كما يلى : (٤)

١ ـ تشرى ـ ٧	٥ ـ شباط ـ ١١	٩ ـ سيوان ـ ٣
٢ ـ هسوان ـ ٨	٦ ـ أدار ـ ١٢	١٠ ـ تموز ـ ٤
٣ ـ كسليو ـ ٩	٧ ـ نيسان ـ ١	١١ ـ آب ـ ٥
٤ ـ تبت ـ ١٠	٨ ـ ايار ـ ٢	١٢ ـ ايلول ـ ٦

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشهور اليهودية و إن كانت قمرية، لكن المسئولين للخواص كانوا يحولون السنة القمرية إلى السنة الشمسية (٥) بإلحاق شهر بعد كل سنتين أو ثلاث، و السنة التى كان يتم فيها هذا الإلحاق كان يزاد فيها بعد شهر " آوار " شهر كانوا يدعونه " واوار " (٦) يعنى (آوار الثانى).

إن شهر " تشرى " فى أيامنا هذا يستهل برؤية الهلال التى تقع فيما بين ٥ من سبتمبر و ٥ من أكتوبر (٧) كان شهر "تشرى " يكون دوما فى الاعتدال الخريفى.

و مثل اليهود كانت تروج فى القبائل المسيحية من العرب سنة على حدة (٨)، و كانت شمسية بحتة. و إن كانت أسماء شهور هذه السنة لفتده عن التقويم اليهودى، لكن الطريقة التقويمية كانت استعيرت من الروم (JULIAN) و شهورها كانت تستهل بالمسابات اليولينية بدلا من رؤية الهلال، و سنتها كانت تبتدأ من أكتوبر بدل يناير. أسماء شهور هذه السنة كما يلى و التى لاتزال تتلقى رواجها فى مصر و السورية حتى الآن :

١ - تشرين الأول - أكتوبر	٧ - نيسان - ابريل
٢ - تشرين الآخر - نوفمبر	٨ - ايار - مايو
٣ - كانون الأول - ديسمبر	٩ - حزيران - يونيو
٤ - كانون الآخر - يناير	١٠ - تموز - يوليو
٥ - شباط - فبراير	١١ - آب - أغسطس
٦ - آوار - مارس	١٢ - ايلول - سبتمبر

و عدا ذالك كانت تروج فى عدة قبائل، سنون مختلفة أخرى، لم تكن أسماء شهورها مختلفة فحسب بل الأيام أيضا كانت متباينة (٩). هذا ينكشف عن أنها لم تكن توجد فى العرب وقت ظهور الإسلام أية سنة مركزية يعتمد عليها الجميع. ثم الأمكنة التى كانت تتواجد فيها سنة على حدة كانت تحدث فيها تطورات بسرعة للغاية.

مثلا أن أهل مكة كانوا فى زمن ما يعدون الأيام ببناء الكعبة المشرفة ثم أخذوا يحسبون بغارة بخت نصر، و كانت تدعى " بعام التطريق "، ثم أحدثوا عام الفدر (١٠) و فى نهاية المطاف تأسس عام الفيل، و كانت هذه السنة الأخيرة تروج فى مكة حتى بدء السنة الهجرية (١١).

يُرى أن هذه السنين برمتها كانت تخص مكة و ما جاورها فقط، و كانت تحمل صفة دينية محلية فحسب، و لم تكن تعرف بالمدينة، على الأقل قبل نزول المهاجرين بها. فالمسعودى يقول إن أهل المدينة كانوا يعدون الأيام بالأعام (١٢) التى كانت تبنى لأهداف حربية.

إنه يترتب على قول المسعودى أن سنتين متباينتين كليا كانت تروج

Converted by Tiff Combine - unregistered

في مكة و المدينة، و كان يوجد تفاوت واضح في طريقة عد الأيام بين البلدين، فلولا سوف أسعى للعثور على التقويم المكي ثم أعمل الفكر في البنية اللازمة للتقويم المدني.

النظام السنوي لأهل مكة :

في جميع الشعوب القديمة كانت الشهور و الأعوام تنحصر على رؤية الهلال فحسب، فمن هنا الكلمة الدالة على معنى الشهر في جميع لغات العالم تقريبا تتعلق بالقمر، مثلا كلمة " ماه " في الفارسية و " مهينه " في الهندية تشيران إلى القمر، كذلك كلمة "MONTH" الإنكليزية و "MENSIS" اللاتينية و كلمتا "MOND" و "MONAT" الألمانيتان و كلمة "ماس" (מס) السنسكريتية كلها تتعلق بالقمر (١٣).

ليست هذه خصيصة اللغات الآرية بل إن اللغات السامية أيضا ليست بمنأى منها، فلعل كلمة " السنة " العربية تذكرنا إله " سن " (SIN) الذي كان يعتبر إله القمر لدى جميع الشعوب السامية (١٤) و قدماء البابل كانوا يلقبونه بـ "إله الثلاثين " (The God of Thirty) (١٥) و قد عثر في جنوب اليمن على عدة لوحات أثرية تحمل اسم إله " سن " (١٦).

و كلمة " العام " هي الأخرى في اللغة العربية التي تؤدي معنى السنة، و يبدو أن هذه الكلمة أيضا مرتبطة بالقمر. إن العرب القدمين كانوا يدعون إلاهة القمر بـ " العم " أيضا (١٧). كذلك لعل كلمة التاريخ أخذت من " يرخ " و كان يسمى به القمر بفلسطين (١٨). و فوق ذلك إن كلمة "الشهر" العربية كانت إسم إلاهة القمر عند الآراميين القدامى، و كان يستخدم في جنوب العرب بمعنى القمر بصورة عامة (١٩).

الحقيقة أن الإنسان الظاهر لما أحس بالزمن، وجد رؤية القمر في أوقات محدودة، بعد بزوغ الشمس و غروبها، أكبر وحدة للوقت التي كانها كانت أطلانا طبيعيا لإنقضاء أحد أو فترة و ابتداء فترة أخرى. و بادي ذي بدء كان في هذه الفترة القصيرة غنى لإحتياجات الإنسان جميعها، لكن مع تطور البشرية أخذ هذا النطاق يضيق إلى أن جاء وقت إحتاج فيه الإنسان إلى فترة كبرى منها لعد الأيام و حسابها.

إن التجارب المتواصلة قد كشفت على لباءنا الأولين أن القمر إذا غاب بعد طلوعه إثنتا عشرة مرة، فحينذاك تأخذ الفصول تعود على أولها، فاقترحوا الفترة الممتدة على اثني عشر شهرا قمريا، سنة واحدة، و بذلك تيسرت عملية إحصاء الأيام. يذكر أن رجالا من أصل سامي الذين كانوا يقطنون في وادي الفرات أول من قسموا كل سنة إلى إثني عشر

Converted by Tiff Combine - unregistered

شهرا (٢٠) و كل شهر إلى أربعة أسابيع، و هم أهل بابل الكلدانيون (CHALDS BABYLONIANS) (٢١) و هم الذين كانوا قاموا بتسمية أيام الأسبوع و البروج الشمسية المختلفة. و لعل الأسبوع إنما وزّع إلى سبعة أيام (٢٢) إذ لأنه الربع من جولة القمر الشهرية (أعني ٢٨ = ٤ X ٧)، و لعل طبقا لهذا الحساب نفسه كان العرب قرروا منازل القمر ثمانية و عشرين منزلا .

إن شهرا قمريا من الوجهة العسابية يتكون من (٥٣. ٢٩) يوما، فاثنا عشر شهرا قمريا أو سنة قمرية تكونت من (٣٦ . ٣٥٤ = ١٢ X ٥٣. ٢٩) يوما. لكن الفصول و المواسم ليست متقيدة بجولة القمر بل بجولة الشمس الظاهرة التي تتم في (٢٤ . ٣٦٥) يوما، فبناء على ذلك ، تختلف الجولة السنوية لكل من الشمس و القمر عن أخراها حول (٨٨ . ١٠) أعني أحد عشر يوما من الوجهة الموسمية. و من الواضح أنه بسبب هذا الإنتقاص في الأيام لا تستطيع الشهور القمرية أن تساير الفصول و المواسم و الذي كان إتمامه ضرورة أكيدة للشعوب الغابرة، لأنه في الأزمنة الماضية كانت تحتفل الأعياد الدينية لكل شعب في شهور معينة و كان من الواجبات الدينية بأن يقدم الزوار حين حضورهم عند الهتم أول حاصل من منتوجاتهم الزراعية و الحيوانية (٢٣). فكان أكيدا أن يراعوا في تعيين الأعياد، بأن توافق الفصول و المواسم دائما حتى يتمكن الزوار بإحضار قرابينهم بسهولة و يسر.

كانت هناك طريقة يمكن أن تختار بهذا الخصوص، و هي أن يعين الشهر من طريق المشاهدات الفصلية، و يعلن الكاهن متى يحين شهر العيد المقدس؟ حتى تقام طقوسه جماعيا، و ظلت هذه الطريقة البدائية الساذجة جدا تعمل بها إلى حقبة من الدهر.

قد ذكر البيروني عن نحلة من اليهود أن طريقة إحتفالهم بعيد الفسح كانت هي أن عالما ورعا منهم كان يذهب في ٢٣ من شباط إلى ضواحي البلد و يعاين حقول الشعير، فإن كان خرج الشطأ في سنابل الشعير فكان يقوم بتحديد عيد الفسح بعد خمسين يوما من ذلك اليوم، و إلاّ كان من الضروري أن يزاد شهر في السنة الراهنة (٢٤).

و من الواضح أن هذه الطريقة البدائية الساذجة جدا ـ كما يراها البيروني نفسه ـ بقدرما تبدو سهلة ساذجة للمعابد المحلية و غير المركزية كانت هي مثلها صعبة و غير قابلة للتنفيذ للمعابد المركزية حيث يتجه إليها الناس من كل فج عميق. فإن آذان العبدة و الكهنة و أخبارهم في أقطار شاسعة لم يكن أمرا ميسورا، و كانت الضرورة إلى أن يعلن قبل سنة واحدة وقت التوجه إلى المعابد بالذات ، على مسمع و مرأى كافة الزوار، متى يحين شهر العيد المقدس العام القادم؟ حتى يتمكن الزوار من السفر في وقت مناسب.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و الطريقة الأخرى التى كان من الممكن أن تتخذ بهذا الخصوص، هى أن يزاد شهر بعد ثلاث سنوات بصورة دائمة، فإن ثلاث سنوات شمسية تتكون من (١٠٩٦) يوما، و بالمقابل ثلاث سنوات قمرية و شهر اخر مزيد، يتكون من (١٠٩٣) يوما، كانه يقع تباين يوم واحد فقط فى السنة و الذى لا يشعر به بادى ذى بدء بالكلية، و لكن من الواضح أن هذا الإنخفاض لا يزال يتزايد حتى يشكل فجوة شهور و سنوات فى مدة من الزمن. و فى ثلاثين سنة فقط، يحيد تفاوت شهر كامل بالمواسم عن أوقاتها، و حينذاك يحتاج إلى إجراءات لها من جديد.

قد ذهب ميور (MUIR) إلى أن هذه الطريقة كانت شائعة بين أهل مكة و كانت أدت إلى تباين سنة شهور تقريبا فى الفصول حتى مجئ الإسلام (٢٥).

و بالمقابل كانت هناك طريقة ثالثة يمكن أن تتبنى بهذا الصدد، و هى أن تزاد ثلاثة شهور قمرية إلى ثمانى سنوات قمرية، و هذا يتسبب تباينا قليلا فى النتائج، فإن ثمانى سنوات قمرية و ثلاثة شهور قمرية تتكون من (٢٩٣٣) يوما، و ثمانى سنوات شمسية تتكون من (٢٩٢٢) يوما تقريبا، كانه يقع هنا تباين يوم واحد و نصف (١.٥٥) فقط . يرى البيرونى أن أهل مكة كانوا يتبنون هذه الطريقة الأخيرة (٢٦).

إن أصح طريقة بهذا الخصوص هى ما كان اكتشفه الإغريق، يذكر أنه عام ٤٣٢ ق . م . اكتشف رياضى إغريقى ميتون (METON) بصورة علمية، أن (٢٣٥) شهرا قمريا أى سبعة شهور و تسع عشرة سنة قمرية تعادل تسع عشرة سنة شمسية تماما. (٢٧) فإذا تم زيادة سبعة شهور قمرية إلى تسع عشرة سنة قمرية فلا يقع التباين بين عدد أيام السنين الشمسية و القمرية إلاّ تجوزا.

و هذه الفترة المتكونة من تسع عشرة سنة التى تكون فيها (٢٣٥) شهرا قمريا تسمى اصطلاحا " فترة ميتون " (METONIC CYCLE). هذا الأصل بما كان سالجا و غير فنى إلى حد كبير من وجهة المشاهدات الفلكية فتلقى رواجا كبيرا و سلم به لا فى اليونان فحسب بل فى كافة الشرق الأوسط حيث كانت تروج السنون القمرية، كقاعدة تقويمية، و حتى تبناه مثل الشعب اليهودى فى حبه للقديم و الرجعية . فالبيرونى يقول إن اليهود فى الشام و العراق كانوا يعملون بهذه الطريقة نفسها (٢٨).

بالإضافة إلى هذه الأصل الحسابية كانت التقاويم قديما تبنى أيضا على المشاهدات الفلكية و كان يستعان فى إحصاء الأيام بالبروج الشمسية و منازل القمر كما هو السائد حتى الآن فى الهند. لكن هذه الطريقة فى الأغلب كانت تقتصر على الشعوب العارفة بالكواكب، فإنه يحتاج فيها إلى العلم المستوفى بالنجوم.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و من البين أن كافة هذه الطرق إنما اختيرت فى أول الأمر لأن الحكومات الدينية للمعابد كانت تريد الإبقاء بأية صورة ممكنة على بطلها السنوى الذى كان يحصل من القرابين و النذر الزراعية، و كانت مرغمة على أن تأخذ الأعياد بعد كل سنتين أو ثلاث حتى يحين أوان حصاد الزرع. و نظرا به كانوا يزيدون شهر " الكبيسة " لكى لا تتجاوز السنة القمرية الفصول الشمسية فنرى أنه لم يكن لعامة الجماهير أى خيار فى تعيين أعوام " الكبيسة " أو فى سنة إعلانها، بل لهذا الغرض كانت الحكومة الدينية للمعابد أنشأت مصالح خاصة لم تكن ترد قضاءها.

و فى الروم، هذه الغيرة حتى عهد جوليس قيصر (JULIUS CAESAR) كانت فى يد بعض الرجال و كانوا فى أغلب الأحوال يستغلون مناصبهم و سلطاتهم و كانوا بصورة عامة يقدمون و يؤخرون السنة إنتقاما من رجل أو نفعاً لصديق، حتى لغيرا أسفرت هذه الأعمال المنكرة عن أنه لم يبق بعد زمن أى تطابق بين الفصول و الشهور البتة.

يذكر أنه فى عهد جوليس (JULIUS) ذات مرة وقعت أعياد الربيع فى فصل الصيف، فلذا نفى القيصر هذا التقويم العتيق من الروم إلى الأبد (٢٩) و أعلن عن إجراء تقويم جديد لم تكن تصله بالشهور القمرية أية رابطة. و السنة الميلادية الراهنة هى ذكرى لتلك السنة التى كان أنشأها، و شهر يوليو لا يزال يسمى باسم القيصر حتى يومنا هذا.

و فى اليهود أيضا لم يزل عمل جعل السنين كبيسة أو عدم جعلها دائما فى الأيدى الخاصة، و لم يكن لرجل غير الناشى (NASHI) (٣٠) الذى كان يعتبر أكبر عالم دينى عندهم أن يدلى برأيه بصدد تعيين أعوام الكبيسة، و كانت جميع السلطات فى يد الناشى (NASHI) فحسب أن يعلن عن الكبيسة أو لا يعلن. و ليتضح أنه لا تذكر الأناجيل (BIBLE) الكبيسة، و إنما ذكرت إثنى عشر شهرا لسنة واحدة لا غير. (٣١)

و فى العرب كانت مصلحة تعيين الكبيسة تورث فى أسرة بن بنى كنانة إلى وقت ظهور الاسلام، و العالم الذى كانت تفوض إليه هذه الخدمة كان يعرف بالقلمس أوالناشى (٣٢) و كانوا يعتبرون أعظم العلماء لوقتهم (٣٣) و كانت جميع قراراتهم محكمة و لم يكن يتجرأ شخص ما على أن يرد حكمهم، و لا تسجل صفحات التاريخ شكاوى إستغلال النساة العرب لسلطاتهم المميزة فحسب بل أضفى عليها القرآن حياة خالدة " يحلونه عاما و يحرمونه عاما ". (٣٤)

هؤلاء النساة هم الذين كانوا يملكون النظام التقويمى بكامله لأهل مكة، و كان هؤلاء بتحويلهم الأيام القمرية إلى الأيام الشمسية يحددون زمن الحج أو العمرة.

إنه قد اتضح بما ذكرنا أن الهدف البدائى للتقاويم القمرية الشمسية

Converted by Tiff Combine - unregistered

كان أن لايعوق من وصول الهدايا و النذر الزراعية إلى المعابد المركزية أي عائق، و أن توافق جميع الأعياد المهمة المواسم و الفصول لكي تستمر الدخول السنوية للمعابد.

إنه يتأكد من التاريخ أن معبد مكة كان أحد معابد العالم العتيقة جدا، و كان العرب يزعمون أن إبراهيم عليه السلام كان أرسى قواعده بيده حول عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا، و بعض الآيات القرانية أيضا تدعم ذلك (٣٥) و رغم أن بعض المستشرقين قد نفوا هذه الدعوى (٣٦) مع ذلك ارتفعت هناك أصوات في تاييدها، فقد نقل رادويل (RODWELL) حين شرحه للآيات القرانية رقم ٢ : ١٢٧ و ما إليها قول أحد المؤلفين الموثوق بهم.

" و لا يوجد هناك أي وجه معقول لأن نرتاب في أن الكعبة تأسست، كما بينها القرآن الكريم (٣٧) و بغض النظر من هذه الدعوى هناك شهادات أخرى تفيد أن تاريخ المعبد بمكة كان إبتدأ قبل السنة الميلادية بكثير.

إن هيرو دوتس (HERODOTUS) الذي كان مؤلفا قبل أربعة قرون من السنة الميلادية قد كتب عن معابد " الكعبة " (٣٨)، كذلك أخبر (DIODORUS SICULUS) عن هذا المعبد المركزي العظيم قبل السنة الميلادية بخمسين سنة تقريبا (٣٩)، و بناء منه استدل ميور (MUIR) و بالمر (PALMER) (٤٠) و الآخرون على قدم الكعبة المشرفة و منائها. على كل، إنه معترف به لدى الجميع أن هذا المعبد الشهير بمكة قد كان احتل مكانة المعبد المركزي لدى العرب ببكرة أبيهم قبل مجئ الإسلام بمدة طويلة، و حين كان يعقد بها إجتماع سنوي كان العرب أجمعون يضعون عنهم الأسلحة إحتراما لها، و كانت المذابح و إراقة الدماء من كل نوع تتوقف لمدة ثلاثة لشهر متتابعة (٤١) و كان الحجيج من كل قطر من أقطار العرب يأخذون طريقهم إليها.

و ذكر أبيفينياس (EPIPHENAS) إسم أحد شهور التقويم العربي (AGGATHUL BAITH) (٤٢) و هو غالبا صورة محرفة لذي الحجة (٤٣).

هذا يتكشف من أن الزوار كانوا يفدون هنا في العصر الجاهلي من مختلف الأقطار و كانوا يحملون معهم الهدايا و التحف، و لذا كانوا في حاجة إلى مواسم و فصول مناسبة بل تبعا لرؤية ميور (MUIR) إنه كانت الضرورة إلى أن تراعى المواسم و الفصول لإحتياجات الزوار الغذائية أنفسهم (٤٤). فإنه من الواضح أنه لم يكن هناك بد من التقويم الشمسي الذي - كما يرى - تحول بالتدريج إلى عبادة الأجرام، و أخيرا قضى عليها القرآن اعتبارا لها زيادة في الكفر، يقول القرآن الكريم :

" إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

Converted by Tiff Combine - unregistered

فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ (التوبة : ٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ " (التوبة : ٣٧).

و أثناء شرح هذه الآيات قد شرح بعض علماء الإسلام الذين لم تكن لهم، فيما يظن، معرفة من أصل الكبيسة، كلمة " النسى " بحيث تذهب الظنون إلى أنها كانت طريقة عجيبة لإحلال الأشهر الحرام، و التى كانت ابتكرتها أذهان أولئك الجهال الهمج بهدف الإثارة و شن الهجمات فقط، لكن الإمام الرازى حكى عدة بيانات أثناء شرحه لهذه الآيات، و أقربها فيما يلى : "

" إن القوم علموا أنهم لو رتبوا حسابهم على السنة القمرية، فإنه يقع حجهم تارة فى الصيف و تارة فى الشتاء، و كان يشق عليهم الأسفار و لم ينتفعوا بها فى المرابحات و التجارات، لأن سائر الناس من سائر البلاد ما كانوا يحضرون إلا فى الأوقات اللائقة المناسبة، فعلموا أن بناء الأمر على رعاية السنة القمرية مخل بمصالح الدين، فتركوا ذلك و اعتبروا السنة الشمسية، و حصل لهم بسبب تلك الكبيسة أمران :

أحدهما : أنهم كانوا يجعلون بعض السنين ثلاثة عشر شهرا بسبب اجتماع تلك الزيادات.

و الثانى : إنه كان يتنقل الحج من بعض الشهور القمرية إلى غيره "

(التفسير الكبير للإمام الرازى ص . ٤٢٤ ـ ٤٢٥)

يوضح هذا الشرح تمام الإيضاح أنه إلى الوقت الذى نزلت فيه هذه الآيات (أعنى إلى السنة التاسعة من الهجرة) كان يشيع بين أهل مكة أنهم كانوا، حسبما كانت الضرورة تدعو، يجعلون التقويم القمرى بزيادة شهر فى السنة يوافق الحسابات الشمسية، و السنة التى كانت تتم فيها هذه الزيادة كانت تعدّ ذات ثلاثة عشر شهرا بدلا من اثنى عشر شهرا، فرأى القرآن بعد من اللازم أن يعلن عن فرض الحظر على ذلك بقوله :

" إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهرا فى كتاب الله " (التوبة . ٣٦)

قد ذكر البيرونى بغاية من الإيضاح أن طريقة العرب هذه كانت

Converted by Tiff Combine - unregistered

مؤسسة على بعض الحسابات الفلكية، أنه إذا كانت السنة القمرية تواشك أن تنتقص عن السنة الشمسية شهرا واحدا، فكانوا يضيفون إليها شهرا و يجعلونها شمسية، فيقول :

" و كذلك كانت العرب تفعل فى جاهليتها فينظرون إلى فضل ما بين سنتهم و سنة الشمس، و هو عشرة أيام و إحدى و عشرون ساعة و خمس ساعة بالجليل من الحساب فيجعلونها بها شهرا كلما تم منها ماليستوفى أيام شهر، و لكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام و عشرون ساعة، و يتوالى ذلك النسأ من كنانة المعروفون بالقلامس واحدهم قلمس، و هو البحر النحرير " (٤٥)

قد أوضح المؤرخون و العلماء المسلمون بالإضافة إلى البيرونى طريقة النسى للعرب شيئا كثيرا سوف لنكرها فيما بعد، أما هنا فقد أن أشير إلى خطأ تاريخى خاص إرتكبه البيرونى و من تبعه. يرى البيرونى أن أهل مكة كانوا أخذوا هذه الطريقة من اليهود قبل ظهور الاسلام مئتى سنة تقريبا (٤٦) و لعل مهور (MUIR) أخذ هذه الفكرة نفسها، و زاد عليها أن أهل مكة كانوا يدفعون نقص الأيام القمرية بزيادة شهر واحد بعد كل ثلاثة أعوام بصورة دائمة، و نتيجة لذلك كانت سنتهم تنتقص يوما واحدا مقابل السنة الشمسية. (٤٧)

إن كلتا هاتين الفكرتين تبدو خاطئة من الوجهة التاريخية بصورة واضحة جدا، أما قول البيرونى فقد تكذبه تصريحات كتابه " *آثار البلاقية* " نفسه، فلو سلمنا على سبيل الإفتراض أن العرب كانوا أخذوا هذه الطريقة من اليهود، لسلمنا معه بالضرورة أنه كان هناك شبه بين طرقهم الحسابية و كانت كلتاهما مؤسستين على أصل واحد، مع أن البيرونى نفسه قد صرح أن أهل مكة " كانوا يكسبون كل أربع و عشرين سنة قمرية بتسعة شهر " (٤٨) بينما كان اليهود يزيدون سبعة أشهر إلى تسع عشر سنة. (٤٩)

و أما قول ميور (MUIR) أن العرب كانوا يضيفون شهرا واحدا بعد كل ثلاثة أعوام (بدون أى تعقيد حسابى) أمر لا أساس له من الوجهة التاريخية على الإطلاق، بل إن صفحات التاريخ تزفر عليها شهادات متتابعة (سوف تلاحظونها فى الصفحات القادمة) و يكفى هنا أن أقدم شهادة البيرونى هذه أن أهل مكة " كانوا يكسبون كل أربع و عشرين سنة قمرية بتسعة أشهر ". (٥٠)

و قد أبدت هذه الفكرة ذاتها فى موسوعة الإسلام (ENCYCLOPARDIA OF ISLAM) أن العرب كانوا أخذوا

Converted by Tiff Combine - unregistered

طريقة النسى من اليهود التى كانت إلى وقت ظهور الإسلام مؤسسة لا فى العرب فحسب بل عند اليهود أيضا على حسابات غير منتظمة. (٥١)

و الحقيقة أن تصور بعض علمائنا عن العرب أنهم كانوا جهالا و غير ملمين حتى بالعلوم البدائية على الإطلاق، لا يسمحنا أن نغض عنه البصر حتى حين نتصدى لحل القضايا التاريخية. قد وقع المستشرقون أيضا فى هذا الخطأ، فأهملوا جميع التصورات التنجومية للعصر الجاهلى التى توجد الإشارات إليها فى كتب التاريخ بكثرة كاثرة (٥٢) على هذا الافتراض فحسب، أنه لم تكن فيهم الكفاية التقويمية ثانيا.

و كان هذا ناتجا عن هذه الغلطة الأولى بالذات، أن يتمكن المستشرقون من حل هذه القضية البسيطة أعنى قضية التقويم مع أن هذا الأمر كان فى قيد الإمكان آنذاك كما هو الآن بمعونة الروايات و الآثار الجاهلية. فالقرآن نفسه يرد على من يقول أن طريقة العرب فيما يخص النسى كانت مؤسسة على محاكاة غير عائدة بالضرر لليهود، " إنما النسى زيادة فى الكفر، يحلونه عاما و يحرمونه عاما " (٥٣)

إنه يتخلص منه بغاية من الإيضاح أن طريقة النسى هذه كانت زيادة فى الكفر، و كان سببه معتقداتهم الشركية و عناصر عبادة الأجرام بدل اليهودية، التى كانت وقتذاك تسود العرب كله.

إن التاريخ الدينى للعرب الجاهلين كله يشهد على أن عبادة الأجرام السماوية كانت تتميز فيهم بميزات مثل سائر الشعوب السامية (٥٤). إن اللوحات و التاريخ يتكشفان عن أن العرب كانوا يعبدون القمر و الشمس و العطارد و الزهرة و المشترى و المريخ و الزحل و الشعرى (عثتار) و النسر (٥٥) حتى كانوا يعبدون منازل القمر أيضا (٥٦)، و يحتفلون بأعيادها و يجعلون لها نصيبا فى منتوجاتهم الحيوانية و الزراعية (٥٧). و كان جل الهتهم العظيمة سماوية. و لعل مجموعة (٥٨) اللات و مناة و العزى الثلاثة كانت ثالوثا اجرامها. كان "هبل" إلها سماوياً (٥٩)، و كانت عبادة الشمس متفشية فيهم منذ زمن عريق فى القدم الذى يقرره القرآن أيضا. كذلك كانت جميع معابدهم تقريبا هياكل للأجرام السماوية الفلكية. و يذكر عن بيت صمدان أنها كانت هيكل الزهرة (٦٠).

كان " ذوالخلصة " و " بيت اللات " بالطائف معابد " اللات " إلاهة الشمس (٦١)، و كان يظن من الكعبة نفسها، " إنما هو بيت زحل بناه البانى الأول على طوالع معلومة " (٦٢).

و بغض النظر عنه، تتواجد آثار الأديان الشمسية فى العرب منذ زمن سحيق فى القدم حتى أن ظهر الإسلام فيهم. يشهد القرآن نفسه على أن ملكة سبا كانت من عبدة الشمس (٦٣)، و المورخون العرب يجعلون عبد الشمس مورث قوم سبا (٦٤)، و كان بنو تميم كلهم يعبدون الشمس حتى

Converted by Tiff Combine - unregistered

عصر النبوة (٦٥)، و كان يتواجد فيهم معبد على حدة للشمس و كان "بنولدّ" و "بنوحدبّة" يعبدون العم و العدوى و العكل و الثور برمتها (٦٦)، و لعل بنو لدّ كانوا ينتمون إلى إله الشمس، فكلمة " لدّ (UD) (٦٧)، كانت قديما تطلق على الشمس، و في مشاهير قريش و أسلافهم لنفسهم نجد من كان سمى باسم " لدّ " أو عبد الشمس.

إن " أبوللو " (APOLLO) إله الاغريق الشهير كان يظن مظهرا للشمس و أمه كانت تعرف بـ "ليتو " (LETO) أو " ليتونا " (LETONA)، إن علماء العصر الراهن يقررون أن هذين الإلهين من اصل عربي، وصلا من صحراء العرب إلى اليونان (٦٨)، و يرى هؤلاء العلماء أن (APOLLO) صورة محرفة لـ " هبل " و LETO تلفظ اغريقي لـ " اللات ". إن صنما ثمينا إله الشمس هذا الذي كان يجعل من العقيق (٦٩)، كان يوضع في أرفع مكان في جوف الكعبة بالذات، و في جانبيه كانت توضع الأصنام الجرمية لكل من اللات و مناة و العزى (٧٠)، هذا يتكشف عن أنه حين جاء الإسلام كانت الكعبة نفسها بمثابة "بيت الأجرام" لكثر من كونها "بيوت الله الحرام" (٧١).

قد جاء في حديث للصحيح البخاري أنه كان عام الفتح ٣٦٠ صنما حول الكعبة و تفيد رواية أخرى " أنها كانت في الطواف بالذات و كانت مشدودة بالرصاص. (٧٢) نحن ندرك منه بالضرورة أن هذه الأصنام لم تكن من حجارة بل كانت أصناما فلزية صغيرة أقيمت حول الكعبة، فاولا إن عدة ٣٦٠ بنفسها تلفت أذهاننا إلى ٣٦٠ درجة لدائرة أو كرة فلكية (تدور فيها هذا الشمس) و ثانيا وضع هبل إله الشمس في وسط هذه الأصنام يوفر شهادة على أن هذه الأشياء كلها في الأغلب كانت تتعلق بالدائرة الفلكية التي كانت تعمل كمعالم قدسية للطواف الذي كان يقوم به هؤلاء عبدة الأجرام.

يبدو أن العرب كانت لهم صلاحة لا بأس بها في الفلكيات وقت ظهور الإسلام، و بغض النظر عن الكتب التي تعالج هذا الموضوع بوجه خصوصي، نعلم من القرآن نفسه بالبقين أن العرب الجاهليين كانت لهم معرفة تامة عن النجوم، مع أن هذا الكتاب المجيد لم يلمس العلوم التي كان يتقنها أولئك الجاهلون و تطور الحضارة و التمدن الذي كانوا يعيشونها، مع ذلك كما أن كل كتاب يعكس عصره و محيطه شيئا ما، و يحتوي على شيء مما يتفشى و يروج في زمنه، كذلك يوجد في القرآن ما كان يتعلق بعلوم المجتمع الجاهلي و حضارته و تمدنه، فيحتوي القرآن الكريم على عدة اشارات إلى العلوم الفلكية المتفشية في ذلك العصر.

مثلا يدل القرآن على أن العرب لم يكونوا يعرفون منطقة البروج فحسب (٧٣)، بل كانوا يعرفون أيضا كيف يتحرك فيها الشمس و القمر (٧٤)، و لين مستقر الشمس (٧٥) و يعلم منه أيضا أن المنجمين العرب كانوا مطلعين على المشرقين و المغربين (٧٦) أي مطالع الشمس في

Converted by Tiff Combine - unregistered

الصيف و الشتاء (كانه كان لهم علم بمدار الجدى و السرطان). إن معرفة استقامة الكواكب السيارة (٧٧) و رجعتهن، مستصعبة جدا و لكنهم كانوا يعلمون ذلك. إن مدار الكواكب السبع السيارة فى السماء مختلف و متباين كان العرب أيضا مطلعين على ذلك تمام الإطلاع. و إنطلاقا منه فى الأغلب جعلوا عدة الأفلاك سبعا و سميت بسبع طرائق أيضا. (٧٨) و كانوا يجعلون إحدى السموات متصلة بأرضنا. (٧٩) و لعله كانت معلومة لديهم أن كسوف الشمس ينتج من إجتماع النيرين (٨٠) و كانوا مطلعين على مواقع النجوم (٨١) أو بكلمة أخرى على تلك العقد التى تعرف بها بعض الكواكب الخاصة. إن خريطة البروج (٨٢) أخر مأثرة لعلم النجوم أو لعلها أول مأثرة أيضا، كان العرب فيها فى مقدم الصف، و لم يكونوا مسبوقين من شعب فى ربط قدر الإنسان بالجولة الفلكية. إن الملاحة فى البحر و إزجاء البعير فى الصحراء كلاهما يحملان منزلة واحدة. و كان العرب فى قطع هاتين المهمتين يستعينون من " القطب " و الكواكب الأخرى. (٨٣) و لعل العلم بمنازل القمر أو الأنواء الفلكية كانت عندهم فى منتهى الصحة و الدقة، فإن إحتياجات كل شخص كانت منوطة بها و كان التقويم بالكلية يدور حولها (٨٤).

القرآن نفسه يقرر أن تقويم العرب بكامله كان منوطا بالبروج و منازل القمر. و لمّ لا يكون ذلك؟ فإن جميع عبادتهم كانت تتوقف على الطوالع الخاصة و الأوقات الصحيحة و الساعات المعينة، يقول القرآن :

" تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَّ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَّ قَمَرًا مُّنِيرًا " (الفرقان - ٦)

يثبت منه أنه لدى العرب كان الشمس و القمر لا يزالان يتحركان كما هو المقرر فى البروج الفلكية، و جاء فى موضع آخر :

" وَّ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ " (يس - ٣٩)

و يترتب على ذلك أنه لديهم كانت الأشكال المختلفة للقمر (من الهلال إلى البدر و من البدر إلى الهلال الثانى) كانت تتبدل فى هذه المنازل و فق الحسابات المقررة. و فى موضع ثالث يكشف القرآن عن إرتباط الأعوام و الشهور بهذه المنازل بأسلوب واضح جدا :

" وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَّ الْقَمَرَ نُورًا وَّ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ " (يونس : ٥)

و نعلم منه بالتاكيد أن لشهر العرب و أعوامهم لم تكن ملزمة بالسلسلة

Converted by Tiff Combine - unregistered

الميتونية (METONIC CYCLE) و لم يكونوا يعيرون أى اهتمام لطريقة الكبيسة اليهودية، بل كانت الشهور و السنون العربية مرتبطة بالحسابات الصحيحة للبروج و منازل القمر، بمعنى إنها كانت مثل الهندسة مؤسسة على الأنواء و البروج السماوية فينبغى أن يكون لحساباتهم أوفر نصيب من الصحة و الدقة.

إن عبدة الأجرام السماوية يتميزون بميزات فى الشعوب المشركة للعالم لا يمكن أن نهملها و نتغافل عنها، بل لو رأينا لوجدنا أن أوهامهم العجيبة كانت أرست قواعد علم هيئتنا المعاصر قبل الاف سنة من اليوم. إن المجرى السنوى للشمس و القمر، و الإبتعاد الكامل لمنازل القمر، و أصول الكشف على أمكنة النيرين فى البروج بالضبط، و قوانين الكشف على الكسوف و الخسوف و إستقامة الكواكب السيارة و النجوم السنوية و رجعتها، لم يكشفها كلها هؤلاء فحسب بل إن ٨٠٪ فى المئة من مبادىء و ضوابط علم الهيئة المعاصر هى اليوم كما كانت تلقت الرواج قبل الاف سنة.

إن اكتشاف فائدة "البروج" و المنازل " التقويمية ليس أمرا معقدا أو مستعصيا، فلو نُفذنا بالمشاهدة قبيل بزوغ الفجر أو بعد غروب الشمس بقليل (فى وقت محدد) ما هى النجوم التى تتواجد الآن فى الأفق و سمت الرأس؟ و تمكنا من معرفتها بطريقة حسنة، بدأنا نلمس بعد أيام قلائل أن هذه النجوم تتباين فى إرتفاعها بصورة دائمة و تتبدل أمكنتها متواصلة، و تتراءى بعض النجوم الجديدة تطلع من الشرق و تغيب ما تقابلها من النجوم فى الغرب فى مرأى من الناس، و النجوم التى كانت اليوم فى سمت الرأس تبدو متمايلة إلى الغرب فى بضعة أيام، و لو تواصلت هذه العملية لتتبدل النجوم بالكلية فى سمت الرأس و الأفق، و النجوم التى أخذنا منها بالمشاهدة تصل من مكان إلى آخر و مع ذلك يأخذ الموسم يتغير و يتطور.

مثلا النجوم التى تتراءى قرب أفق الشرق وقت وجوب الشمس فى الربيع أولئك بالذات تصل مساءً فى موسم الصيف إلى سمت الرأس و تأخذ نجوم جديدة أمكنتها، و النجوم التى كانت فى أفق الغرب لا تتراءى مطلقا بل تأخذ أمكنتها تلك النجوم التى كانت شوهدت فى سمت الرأس، هذا يسفر عن أن الشمس تغير مكانها بين النجوم، هذا فى جانب و فى جانب آخر يتضح منه أيضا أن هذا التغيير بالذات يؤثر على المواسم و الفصول.

لو كان يمكن رؤية النجوم نهارا لكنا شاهدنا حركة الشمس الجازية فى يوم واحد، هب أنه أمكننا النظر إلى قلب الأسد(REGULUS) صباح ٢٠ من شهر أغسطس و وجدنا أن الشمس فى جنوب غرب من النجم بقليل، فلو

Converted by Tiff Combine - unregistered

واصلنا المشاهدة النهار كله لرأينا النجم فى شمال الشمس مساءً.

و صباح اليوم التالى رأينا الشمس على الرقم ٣ ثم إلى المساء تكون الشمس و صلت إلى الرقم ٤ (٨٩) و هكذا يتباين كل من الشمس و النجم من الآخر تباينا بعيدا فى أيام قليلة.

و إذ أن الشمس فعلا تقطع المسافة قدر قطرها المرئى طوال النهار فكان بالإمكان رؤية مجرى الشمس فى النجوم بيسر و سهولة، لكن المشكلة هى أن النجوم لا تترائى فى النهار، فيحتاج إلى إستخدام الوسائل الأخرى للكشف على جهة الشمس الصحيحة لكى يمكن الإستفادة من التكهن الموسمى.

إن الشعوب القديمة كانت اختارت طرقا متباينة بهذا الخصوص، و أسهل طريقة مما كانوا تبنوها هى أن تكتشف جهة الشمس الصحيحة بواسطة رؤيات القمر المختلفة، فإن كليهما تربطهما رابطة خصوصية.

إن الطريق بين النجوم التى تبدو الشمس مارة بها، تدعى إصطلاحا بطريق الشمس أو بالمدار الشمسى (ECLIPTIC)، و هذا الطريق يشكل دائرة عظيمة (GREAT CIRCLE) فى الكرة الأرضية التى تقطعها الشمس فى عام كامل (٢٤ . ٣٦٥ يوما)، و مجامع النجوم التى حول طريق الشمس تدعى بالبروج.

قد كان المنجمون الجاهليون قسموا منطقة البروج (ZODIACAL BELT) إلى إثنى عشر جزءا بعلامة إثنى عشر شهرا، و كانوا يرون أن الشمس يستقر فى كل برج منها شهرا واحدا، و كانوا أسموا هذه البروج كما يلى :

(١) الحمل (٢) الثور (٣) الجوزاء (٤) السرطان (٥) الأسد (٦) السنبلة (٧) الميزان (٨) العقرب (٩) القوس (الرامى) (١٠) الجدى (١١) الدلو (١٢) الحوت (٨٦).

و يختلف مدار القمر شيئا عن مدار الشمس و يقعان بحيث أن كلا من المدارين يشكلان زاوية خمس درجات، و مدار القمر يمر بمدار الشمس فى موضعين و هما يسميان بـ " العقدتين " (NODS). كان العرب يسمون إحدى هاتين العقدتين "بالرأس" و الأخرى "بالذنب". النقطة التى يمر عليها القمر من جنوب منطقة البروج إلى شمالها تدعى "بالرأس" و الأخرى "بالذنب". و القمر فى جولته الشهرية يكون أربعة عشر يوما فى شمال منطقة البروج و كذلك فى جنوبها. و بالإضافة إليه هناك بون ظاهر بين مسار الشمس و القمر و يعنى ذلك أن المسافة التى تقطعها الشمس فى ثلاثة عشر يوما، يقطع القمر هذه المسافة فى يوم واحد تقريبا، بناء على ذلك كان

Converted by Tiff Combine - unregistered

المنجمون العرب، نظرا لمسار القمر اليومي، قرروا للقمر منازل على حدة. و مع أن هذه المنازل أيضا كانت قررت باختيار بعض النجوم الفاصلة لمنطقة البروج، لكن العرب كانوا جعلوا عدتها ثمانية و عشرين، كان كل برج كان يحتوي ٢ ١/٢ من البروج، و أسماء هذه المنازل كما يلي :

(١) السرطان (٢) البطين (٣) الثريا (٤) الدبران (٥) الهقعة (٦) الهنعة (٧) الذارع (٨) النثرة (٩) الطرف (١٠) الجبهة (١١) الزبرة (١٢) الصرفة (١٣) العواء (١٤) السماك (١٥) الغفر (١٦) الزبانى (١٧) الإكليل (١٨) القلب (١٩) الشولة (٢٠) النعائم (٢١) البلدة (٢٢) سعد الذابح (٢٣) سعد بلع (٢٤) سعد السعود (٢٥) سعدالأخبية (٢٦) الفرع المقدم (٢٧) الفرع المؤخر (٢٨) الرشاء. (٨٧)

و تبعا لتصريحات المنجمين الجاهليين، الشمس تقطع هذه المنازل على مدار العام بحيث أن كل منزل من هذه المنازل يستغرق ماعدا "الجبهة" ثلاثة عشر يوما، أما الجبهة فكان يستغرق أربعة عشر يوما (٨٨). و يستنتج منه أنه لديهم كان عام شمسي"يتكون من ٣٦٥ يوما بصورة عامة (٨٩) فإنه لو ضرب ثمان و عشرون منزلا في ثلاثة عشر يوما و يزاد يوم واحد للجبهة، فالنتيجة تكون ٣٦٥ يوما (365 = 1 + 13 X 28).

كان هذا كان عاما نجوميا للمنجمين الجاهليين، و لم يكن يمت ذلك إلى رؤية الهلال بصلة ما، مع ذلك لا يصح أن يستنتج منه أن حسابلتهم السنوية كانت تعتمد على دولات الشمس فقط و لم تكن الشهور القمرية رائجة فيهم، بل يمكن أن يقال بكامل اليقين أن المنجمين الجاهليين كانوا يحددون المكان الصحيح للشمس ذاته بمشاهدات القمر المختلفة، فإن النظر في أجزاء القمر المشرقة يعلم عن التاريخ الذي يكون فيه، و كم وقع التباين بين الشمس و القمر و آنذاك؟

مثلا إن القمر حين يكون في ليلة تمه، يشكل زاوية مستقيمة ذات ١٨٠ درجة تقريبا في مقابل الشمس بالذات و في اليوم السابع أو الثامن من الشهر ينتصف و يدعى إصطلاحا بالتربيع و تكون زاوية كل من الشمس و القمر و الأرض ذات ٩٠ درجة تقريبا، كذلك المسافة بين الشمس و القمر في اليوم الثالث من الشهر تكون ذات ٤٠ درجة تقريبا، فإذا ترأى القمر في هذه المنازل يلي تاريخ حينذاك نستطيع أن نكتشف المكان الصحيح للشمس بالنظر إلى الجزء المشرق من القمر و النجوم التي تنتشر من حواليها، و أن نقدر تماما في أي برج من البروج تتواجد الشمس الآن، و بالتالي ما ينبغي أن تكون الكوائف الموسمية و الفصلية. فقد صرح إبن قتيبة و المزرقي و البيروني بجلاء بأن المنجمين العرب كان بامكانهم أن يقدروا الأحوال الموسمية و التطورات الفصلية تقديرا صحيحا بمعونة هذه الأنواء ، و كانت معظم تكهناتهم الفصلية و الموسمية تنحصر على ملاحظة هذه المنازل

Converted by Tiff Combine - unregistered

و الأنواء الفلكية.

مثلا إنهم كانوا يقدرون الإعتدالات (EQUINOXS) بطلوع منزل السرطان و سقوطه الذى كان يعتبر أول منزل لديهم، و إذا كانت الشمس تحل هذا النوء كان يعتبر هذا زمن الإعتدال الربيعى، (VERNAL EQUINOX) و إذا كان القمر يحل هذا المنزل فى حالة البدر كان ذلك يعتبر زمن الإعتدال الخريفى (AUTUMN EQUINOX) و فى كلتا الحالتين كان النهار و الليل يعدان سواسيا و معادلا. فيقول منجم :

"فإذا حلت الشمس فى السرطان اعتدل الزمان، و استوى الليل و النهار" (٩٠).

و يقول منجم جاهلي آخر:

" إذا طلع السرطان استوى الزمان" (٩١).

كان "السرطان" عند العرب اسم النجوم الأولى لبرج الحمل بل بكلمة أخرى كان برج الحمل يبتدأ من هذا "السرطان" بالذات. يقول علماء الهيئة إنه يوم الأحد فى ٢٢ من مارس عام ٢٨٥ الميلادى على الساعة الثالثة و العشرين، و ١٨ دقيقة (تبعا للوقت الهندى القياسى) كانت نقطة الإعتدال الربيعى (VERNAL EQUINOX) و "رأس الأكمل" (FIRST POINT OF ARIES) و هو السرطان كانت مطابقتين بالكلية (٩٢).

زد إليه هذا أن الشمس فى ضوء الحسابات الراهنة أيضا كانت على نقطة الإعتدال الربيعى فى ٢١ من مارس. و إبن قتيبة أيضا ذكر تاريخ حلول الشمس فى السرطان هذا بعينه "و حلول الشمس فى السرطان لعشرين ليلة تخلو من آذار" (٩٣).

إن هذا يتكشف من أن أصل العرب المذكور أعلاه، أن الشمس حينما تحل فى "السرطان" يستوى الليل و النهار لعله من مكتشفات عام ٢٨٥ م حين لم يكن بون بين نقطة الإعتدال الربيعى و منزل السرطان (٩٤) و تدعم هذه الفكرة شهادة البيرونى نفسه أن العرب بوحدهم كانوا يبدأون منازل القمر بالسرطان، أما الشعوب الأخرى فكانت تبدأ من الثريا (٩٥).

كان العرب يحسبون بطلوع السرطان و سقوطه كليهما، فإن القمر حينما كان يحل فى هذا المنزل فى حالة البدر كان يستوى الليل و النهار و آنذاك تكون الشمس فى مقابل القمر عينه فى برج الميزان أى فى ٢٢ من سبتمبر، الذى يكون زمن الإعتدال الخريفى (AUTUMN EQUINOX) و كان يعتبر هذا بالذات زمن سقوط السرطان.

إنه يعلم منه أن العرب الجاهليين فى تنسيق هذه المنازل و تحديدها كانوا وضعوا نصب أعينهم حسابات فلكية فى منتهى الصحة. و أرى من المناسب أن أقدم هنا منطقة البروج فى شكل دائرة تدور فيها الشمس و القمر، لكى تدرك الأحداث و الوقائع إدراكا تاما، و تكون شاملة للبروج

Converted by Tiff Combine - unregistered

و منازل القمر كليهما حسب تصريحات ابن قتيبة و المرزوقي و غيرهم حتى يتيسر فهم المباحث القادمة و وضع التقاويم و نستطيع أن نقدر بالنظر إلى زوايا الشمس و القمر المختلفة كيف كان المنجمون الجاهليون يدركون المواسم و الفصول بطلوع هذه الأنواء و سقوطها.

يقول ابن قتيبة إنه في كل برج كان يعلم ٢/١ * منزلا تبعا للترتيب الدائي :

١ ـ في برج الحمل	السرطان، البطين و ٢/١ الثريا
٢ ـ في برج الثور	٢/٢ الثريا، الدبران و ٢/٢ الهقعة
٣ ـ في برج الجوزاء	٢/١ الهقعة، الهنعة و الذراع
٤ ـ في برج السرطان	النثرة، الطرف و ٢/١ الجبهة
٥ ـ في برج الأسد	٢/٢ الجبهة، الزبرة و ٢/٢ الصرفة
٦ ـ في برج السنبلة	٢/١ الصرفة، العواء و السماك
٧ ـ في برج الميزان	الغفراء، الزبانى و ٢/١ الإكليل
٨ ـ في برج العقرب	٢/٢ الإكليل، القلب و ٢/٢ الشولة
٩ ـ في برج القوس	٢/١ الشولة، النعائم و البلدة
١٠ ـ في برج الجدي	سعد الذابح و سعد بلع و ٢/١ سعد السعود
١١ ـ في برج الدلو	٢/٢ سعد السعود، سعد الأخبية و ٢/٢ الفرع المقدم
١٢ ـ في برج الحوت	٢/١ الفرع المقدم، الفرع المؤخر و الرشاء (٩٦).

في ضوء هذا التصريح لو قمنا بتقديم الأنواء من برج الحمل إلى برج الحوت في شكل دائرة لكي نتعرف على كل برج و كل نوء و ما يقابلها من النجوم، فيكون شكله كما في الصفحة القادمة.

و بأن الشمس لدى المنجمين العرب كانت تحل في السرطان في ٢١ من مارس فكتبت تاريخ حلول الشمس في البروج الأخرى أيضا.

إنه يعلم بالنظر إلى هذه الدائرة أن العرب الجاهليين كانت لهم معرفة كبيرة بعلم النجوم، فقد ملأ إبن قتيبة و المرزوقي و القزويني، و البيروني نفسه أيضا، صفحات و صفحات في كتبهم بذكر التأثيرات الفصلية و الموسمية المسببة من طلوع هذه الأنواء و سقوطها، و اتجهوه صحيحات المنجمين الجاهليين الممتعة جدا و القوانين المتنوعة و أعلمونا إلى أي مدى كانت الحسابات و القوانين التي تبنوها صحيحة و هنا أقدم مثالين من هذا القبيل :

Converted by Tiff Combine - unregistered

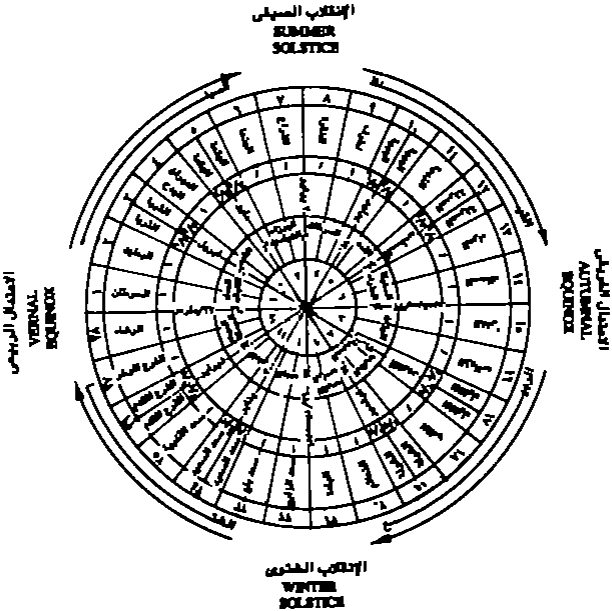

Converted by Tiff Combine - unregistered

قد حكى البيرونى موضحا كيف كان العرب الجاهليون يقدرون المواسم بهذه الأنواء ، قول أحد المنجمين الجاهليين :

إذا ما البدر تم مع الثريـــا أتاك البـــرد أوله شتاء (٩٧)

و قال نفسه فى شرحه أن القمر حينما يكون فى الثريا فى حالة البدر و آنذاك تكون الشمس فى شطر معارض له فى برج العقرب (يعنى فى نهاية أكتوبر التى هى زمن بداية الشتاء)

و حكى البيرونى قولا آخر هكذا :

" إذا ما كان الدبران يوما لأربع عشرة قمرا لتمام فقد حف الشتاء لكل أرض " (٩٨)

و قال يشرحه أن القمر حينما يكون فى الدبرين حالة البدر، تكون الشمس آنذاك حول المنزل الثامن عشر من برج العقرب و هو قلبه، و يوشك البرد أن يحف العالم كله يعنى فى بداية نوفمبر (راجع الدائرة الفلكية).

ليس هذا فقط أن العرب كانوا يقدرون المواسم بالنظر إلى القمر فى حالة البدر بل كانوا اتخذوا أصلا مختلفة لرؤيات القمر فى كل منزل، التى يمكن بها التكهنات الموسمية السديدة، فقد قال البيرونى قولا هكذا :

" إذا ما قارن القمـــر الثريـا لثالثة فقد ذهب الشتاء " (٩٩).

كان كل زاوية من زوايا الشمس و القمر كانت نصب أعين المنجمين الجاهليين و كانوا يفهمون مفاهيمها و دلالاتها جيدا و يدركون بواسطة هذه الأنواء المواسم و الفصول إدراكا صائبا، و لِمَ لا يدركون ذلك حين كانت هذه الأنواء منصرا من عناصر دينهم و كانت عبادتها من دينهم.

و قد ذكر أحمد زكى باشا فى " تكملة كتاب الأصنام لإبن الكلبى أنهم كانوا يعبدون " الجبهة " (١٠٠)، و هو النوء العاشر، و حكى إبن قتيبة الحديث الآتى ذكره بخصوص الدبر (النوء الرابع).

" لو أن الله حبس المطر عن الناس سبع سنين ثم أرسله لأصبحت طائفة به كافرين يقولون : مطرنا "بنوء المجدح " (و المجدح الدبران) (١٠١).

إن الدبرين يقعان مقابل قلب العقرب بعينه، فإذا كانت الشمس فى قلب العقرب، يترائ طالعين من الشرق فى أول المساء يعنى فى نهاية أكتوبر و بداية نوفمبر التى هى موسم الأمطار بالحجاز بالذات، و لهذا فى الأغلب كان العرب جعلوا الأمطار منوطة بهذا النوء (راجع الدائرة الفلكية).

Converted by Tiff Combine - unregistered

و جاء حديث اخر عن النبى صلى الله عليه وسلم :

" فأما من قال : مطرنا بفضل الله و رحمته، فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب، و أما من قال : مطرنا بنوء كذا و كذا، فذلك كافر بى، مؤمن بالكوكب " . (الصحيح البخارى) (١٠٢)

و بالنظر إلى هذه الأحاديث لا يصعبنا أن نقدر أن إدراكات العرب الجاهليين الموسمية كانت ترتبط بهذه الأنواء فى الغالب، و كان بإمكانهم أن يكتشفوا زوايا الشمس و القمر المختلفة بطلوع هذه الأنواء و سقوطها.

فى ضوء هذه النتائج إنه ميسور نسبيا أن نخطو إلى الأمام للبحث عن بداية التقويم الجاهلى و توسع نطاق قياسنا مزيدا.

يذكر أن السرطان كان النوء الأول لدى العرب الذى كانت تحل فيه الشمس فى ٢١ من مارس و يكون ذلك زمن الإعتدال الربيعى بالضبط، انطلاقا منه لو افترضنا أن تقويم العرب ايضا كان يستهل من هذه النقطة، لم يكن بعيدا عن الصواب، فإن تقاويم بعض الشعوب الأخرى أيضا كانت تستهل من ذات المنطلق، لكن المشكلة هى لنسه لاتدعمها الشهادات الوثائقية و لا المتجمون العرب أنفسهم يومزون إلى ذلك، بل يقال أن العرب كانوا يبدأون فصولهم من الإعتدال الخريفى الذى هو نقطة معارضة لها بالضبط ، فيقول إبن قتيبة :

" و اعلم أن العرب لا تذهب فى تحديد أوقات الأزمنة إلى ما يذهب إليه سائر الأمم و تجعل أول عدد الأزمنة فى تحديد أوقاتها إلى ما يعرف فى أوطانها من إقبال الحر و البرد و إدبارها و طلوع النبات و اكتهاله و هيج الكلاء و يبسه و يذهب فى عدد الأزمنة إلى الإبتداء بفصل الخريف، و تسمية الربيع لأن أول الربيع و هو المطر يكون فيه، ثم يكون بعده فصل الشتاء ، ثم يكون بعده فصل الصيف، و هو الذى يسميه الناس الربيع و يأتى فيه الأنواء و إنما سموه صيفا لأن المياه عندهم تقل فيه و الكلأ يهيج و قد يسميه بعضهم الربيع الثانى " (١٠٣).

و قول أبى يحيى بن كناسة فى تاج العروس أوضح بكثير من تصريح إبن قتيبة :

" حكى الزهرى عن أبى يحيى بن كناسة فى صفة أزمنة السنة و فصولها، و كان علامة بها، أن السنة أربعة أزمنة، الربيع الأول

Converted by Tiff Combine - unregistered

و هو عند العامة الخريف ثم الشتاء ثم الصيف و هو الربيع الآخر ثم القيظ و هذا كله قول العرب فى البادية. قال : و الربيع الذى هو الخريف عند الفرس يدخل لثلاثة أيام من ايلول قال : و يدخل الشتاء لثلاثة أيام من كانون الأول و يدخل الصيف الذى هو الربيع عند الفرس لخمسة أيام تخلو من آذار و يدخل القيظ الذى هو الصيف عند الفرس لأربعة أيام تخلو من حزيران " (١٠٤).

إنه يتضح من هذه التصريحات أنه لدى العرب كان موسم الربيع يستهل من الإعتدال الخريفى و إبن كناسة كتب التاريخ السريانى أيضا لبداية كل فصل من الفصول :

و هذا عين ما صرح به إبن قتيبة : فأول وقت الربيع الأول عندهم و هو الخريف ثلاثة أيام تخلو من ايلول و أول الشتاء عندهم ثلاثة أيام تخلو من كانون الأول و أول الصيف عندهم و هو الربيع الثانى خمسة أيام تخلو من آذار و أول وقت القيظ عندهم أربعة أيام تخلو من حزيران (١٠٥).

هذا يتكشف من أن العرب لم يكونوا يحسبون من طلوع السرطان بل إن حساباتهم كانت ترتكز على سقوط السرطان يعنى أن السرطان إذا أخذ يغرب فى الغرب صباحا و يطلع من الشرق مساءً، أو بكلمة أخرى إذا أمكنت رؤية القمر فى هذا النوء فى حالة البدر، كان يعد ذلك زمن الإعتدال الخريفى بالضبط، فإبن قتيبة يفسر " سقوط النجم " بالنوء بالذات. (١٠٦)

أخال أن معظم حسابات العرب الفلكية كانت مؤسسة على الملاحظات، فلذا إذا طلعت النجوم مساء من الشرق، كانت من ذات النقطة تستهل حساباتهم الفلكية. على كل حال ، لو قمنا حسب ما أشار إليه إبن قتيبة و إبن كناسة بترتيب و تنسيق فصول العرب الأربعة و وضعنا بجنبها الشهور السريانية فالنتيجة تكون كما يلى :

١ ـ ربيع الأول	٢/ من ايلول	٣/ من سبتمبر
٢ ـ الشتاء	٣/ من كانون الأول	٣/ من ديسمبر
٣ ـ الصيف (ربيع الثانى)	٥/ من آذار	٥/ من مارس
٤ ـ القيظ	٤/ من حزيران	٤/ من يونيو

كان بداية فصل الربيع لدى العرب الذى كانوا يسمونه بربيع الأول كانت تعتبر من " سبتمبر " و الآن لو افترض أن التقويم الجاهلى أيضا كان استهل من هذه النقطة و كانت شهور تقويمهم كلها موزّعة على هذه الفصول الأربعة بهذا الترتيب بالذات كما يرى البيرونى، فكاننا عثرنا على نقطة

Converted by Tiff Combine - unregistered

انطلاقا للتقويم الجاهلي يقول البيروني :

" فكانت الشهور مقسومة على فصول الأزمنة الأربعة، و كانوا يبدأون منها بالخريف و يسمونه الربيع، ثم الشتاء، ثم الربيع، و يسمونه صيفا و سماه بعضهم الربيع الثاني، ثم الصيف و يسمونه القيظ " (١٠٧).

و طبقا لشهادة البيروني المهمة هذه لو وزعنا الشهور العربية تجربة و اختياراً ابتداء من المحرم مع مراعاة الترتيب على هذه الفصول الأربعة، لتصفر عن النتيجة المذكورة أدناها، و أغلب أن هذا القياس سيأتي بنتائج مثيرة للدهشة التي تكفل لتسوية عديد من العقد التاريخية. و في الجدول الدائي قد كتبت إلى الشهور السريانية ما تقابلها من الشهور الإنجليزية أيضا :

١

الإعتدال الخريفي ٢٢ سبتمبر	١ ـ المحرم ٢ ـ صفر ٣ ـ ربيع ١	ربيع الأول	٣ / ايلول ـــ سبتمبر تشرين الأول ـــ اكتوبر تشرين الثاني ـــ نوفمبر

٢

الإنقلاب الشتوي ٢١ ديسمبر	٤ ـ ربيع ٢ ٥ ـ جمادى ١ ٦ ـ جمادى ٢	الشتاء	٣/كانون الأول ـ ديسمبر كانون الثاني ـ يناير شباط ـــ فبراير

٣

الإعتدال الربيعي ٢١ مارس	٧ ـ رجب ٨ ـ شعبان ٩ ـ رمضان	الصيف	٥ ـ آذار ـــ مارس نيسان ـــ ابريل ايار ـــ مايو

٤

الانقلاب الصيفي ٢١ يونيو	١٠ ـ شوال ١١ ـ ذو القعدة ١٢ ـ ذو الحجة	قيظ	٤/ حزيران ـــ يونيو تموز ـــ يوليو آب ـــ أغسطس

و بعد فرض أن المحرم، الشهر الأول للتقويم العربي، كان دائما يستهل من نقطة الاعتدال الخريفي أو الأقمار المتصلة بسقوط السرطان، و تتبعه

Converted by Tiff Combine - unregistered

بقية الشهور تدور منسقا وفق الجدول السالف الذكر. و ينبغى أن ننقل هذه الفكرة على محكات مختلفة. أمعنوا النظر أولا فى أسماء الشهور العربية مثلا أنه بعد شهرى الربيع الذى يعنى الربيع و كان يبتدأ لدى العرب من موسم الأمطار، يأتى شهر جمادى الذى يلفت أذهاننا رغما منا إلى فصل الشتاء. يقول المرزوقى إنه لم يرد ذكر فصل الصيف بصدد جمادى فى الشعر العربى بل إن ذكرها دائما يصاحب فصل الشتاء، و الليالى البادئة تكون شديدة الظلام، يقول الشاعر :

فى ليلـــة مـــن جمـــادى ذات أنـــديـــة
لا يبصـــر الكلب من ظلمانهـــا الطنبـــاء (١٠٨)

و بعد جمادى يأتى شهرا رجب و شعبان ثم شهر رمضان الذى يلتفت به الذهن فورا إلى الصيف المتلظى بالحرارة. قد عالج البيرونى و المزروقى البنية الموسمية للشهر العربية أيضا معالجة لغوية (١٠٩) و قال البيرونى إن العلقة التى وضعت فيها هذه الأسماء كانت لوحظت فيها المواسم تماما، و يعلم بالنظر فى الجدول المذكورقبل، أن شهر جمادى كان يوافق ديسمبر و يناير، و رمضان كان يطابق مايو و يونيو.

إضافة إلى هذه الشهادات اللغوية التى هى فى منتهى الأهمية و تحظى بمكانة أهم من التاريخ الوقائعى، حكى مارغوليوث (MARGOLIOUTH) عن شهادات المؤلفين الإغريق القدماء أن العرب كانوا جعلوا ثلاثة أشهر للخريف (AUTUMN) و شهرا للربيع حراما (١١٠) و كانت تضع فيها القبائل المقاتلة أسلحتها، و كانت تتوقف إراقـــة دمـــاء من كل نـــوع، و نكـــر نانوسس (NONNOSUS) و بروكوبيس (PROCOPIUS) هذه الشهور المحترمة كما يلى :

" شهران بعد الإنقلاب الصيفى و شهر فى وسط الربيع كان يعتقد ذا حرمة "

إن هذا التصريح أيضا يؤيد الجدول السابق بمعنى الكلمة فقد يكون الإنقلاب الصيفى (SUMMER SOLSTICE) فى ٢١ من يونيو، و تبعا للجدول المذكور إن شهرى ذى القعـــدة و ذى الحجـــة يوافقـــان مـــع الترتيب يوليـــو و أغسطس، كذلك "شهر فى وسط الربيع" يطابق رجب طبقا للجدول، الذى ينبغى أن يوافق مارس و ابريل. و ولهاوزن (WELHAUSEN) أيضا جعل رجب موافقا للربيع (SPRING) و المحرم للخريف (AUTUMN) (١١١)

Converted by Tiff Combine - unregistered

و بعض الروايات أيضا تؤيد هذه الفكرة، فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" *لا فرع و لا عتيرة، و الفرع أول النتاج كانوا يذبحونه لطواغيتهم و العتيرة في رجب* " (*الصحيح البخاري*).

العتيرة أول ما ينتج (الغنم أو الشاه) (١١٢)
و جاء في لسان العرب أن العرب كانوا يذبحون أول نتاج الإبل صغيرا لهمه كالفراة و يلصق لهمه بو بره (١١٣).

قال داتي (DOUGHTY) إن زمن إنتاج البعير(CALVING TIME) بالعرب هو الجزء الاول من فبراير و مارس (١١٤)، و طبقا لقول روبرتسن اسمث (ROBERTSON SMITH) هذا لا يخص البعير فقط بل هذا هو زمن الإنتاج للبهائم صغيرة و كبيرة تقريبا بالعرب (١١٥) و يبدو منه أن جميع ما كان ينتج أولا في فبراير و مارس كان يقدم تمشيا مع الدستور السائد قربانا إلى الآلهة في شهر رجب، و أيضا إن شهر رجب كان متصلا بزمن الإنتاج فإن الإيضاحات التي نعثر عليها ضمن كلمة " الفرع " تفيد أن هذه القرابين كانت تتم إلى منتصف مارس أو نهايته.

و لعل إنطلاقا منه جعل و لها وزن عيد الفسح المعروف لليهود الذي كان يحتفل به في شهر نيسان مطابقا لعيد رجب (١١٦) فإن اليهود أيضا كانوا يحتفلون بعيدهم هذا في ذلك الزمن بالذات تقريبا عندما تكون الشمس في برج الحمل و كانوا يقدمون الحاصل الأول (FIRST FRUITS) من منتوجاتهم الزراعية و الخروف من نعاجهم و هناهم قربانا إلى "ليواه".

لو صح هذا التطابق فإنه ليسفر عن نتيجة ذات أهمية بالغة هي أن التقويم العربي و اليهودي في العصر الجاهلي كان يستهل من نقطة فصلية موحدة تقريبا، فإنه مثل شهر رجب كان شهر نيسان اليهودي أيضا يعتبر الشهر " السابع " و كلا الشهرين كانا متصلين ببداية موسم الربيع.

إضافة إلى ذلك إن الشهادات التاريخية للمكة أيضا تثبت أن الشهر الأول لكلا الشعبين اعني المحرم و تشري كانا يستهلان من نقطة فصلية موحدة.

إن أحكم و أوثق دليل بهذا الخصوص هو روايات عاشوراء التي أرى من اللازم أن اقدمها هنا بشيء من التفصيل فإن هذه الروايات و لا شك هي النقطة المركزية لجميع ما وصلت إليه من "نظرية التقويم"، و الحق إن هذه

Converted by Tiff Combine - unregistered

الروايات نفسها أهدتنى إلى هذه النظرية الحديثة و أستطيع أن أقول مستوثقا إن هذه الروايات هى الكلمة الفصل فى شأن التقويم الجاهلى بأجمعه.

من المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى المدينة المنورة رأى اليهود أنهم يصومون عاشوراء فأمر المسلمين أيضا بذلك. كان اليهود يصومون ذلك تبعا لتقويمهم فى ١٠ من شهر تشرى الذى كان دائما يطابق سبتمبر و اكتوبر، يقول عبد الله بن العباس رضى الله عنه :

" قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال : ماهذا؟ قالوا : هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى. قال : فأنا أحق بموسى منكم فصامه و أمر بصيامه. (الصحيح البخارى) (١١٧)

و جاءت رواية أخرى عنه قال :

" قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسئله عن ذلك، فقالوا : هذا اليوم الذى أظهر الله فيه موسى و بنى إسرائيل على فرعون فنحن نصومه تعظيما له ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نحن أولى بموسى منكم، فأمر بصيامه". (١١٨)

و جاءت رواية أخرى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال :

"كان يوم عاشوراء يوما تعظمه اليهود و تتخذه عيدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صوموه أنتم" (الصحيح البخارى)

إنه يتأكد من الروايات الثلاثة أن المسلمين بل رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه صام عاشوراء ذات اليوم الذى كان ذلك يوم عاشوراء لدى اليهود.

يقال إن اليهود كانوا يصومون هذا فى ١٠ من شهر تشرى الذى كان يعتبر الشهر الأول لتقويمهم و هذا الصوم عند المسلمين أيضا سنة فى العاشر من المحرم. إن هذا يتكشف عن أن السنة التى صام فيها المسلمون عاشوراء أول مرة كان شهر المحرم العربى تلك السنة على الأقل موافقا لشهر " تشرى " اليهودى، الذى كان دائما يحين فى الإعتدال الخريفى.

Converted by Tiff Combine - unregistered

إن معظم المستشرقين يستنتجون من هذه الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اختار هذا الصوم تقليدا لليهود (١١٩)، لكن هذه الفكرة لا تصح في الواقع بل إن قريش أيضا كانوا يصومون ذلك في العصر الجاهلي قالت عائشة رضي الله عنها :

" كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه في الجاهلية فلما قدم المدينة صامه و أمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه و من شاء تركه " (الصحيح البخاري)

هذا، و كما أن اليهود يومئذ كانوا يمارسون طقوس التنقية السنوية لمعبدهم المقدس، كذلك كانت قريش أيضا تؤدي تقاليد نصب التزيينات على الكعبة و كسوتها قالت عائشة رضي الله عنها :

" كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان و كان يوما تستر فيه الكعبة فلما فرض رمضان قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من شاء أن يصومه فليصمه و من شاء أن يتركه فليتركه " (الصحيح البخاري)

إن دراسة كلتا روايتي عائشة رضي الله عنها يؤدي إلى أن هذه الطقوس في الأغلب لم تزل مشتركة بين العالم السامي كله أو بين ذرية ابراهيم عليه السلام على الأقل (١٢٠)، و كانت قريش أيضا في العصر الجاهلي تمارس هذا الشعار العنصري و بحماسة بالغة ذلك اليوم بالذات و في أوقات محدودة بالضبط.

إذا كان بيت المقدس يغلق و يتنظف في هذا الزمن ففي هذا اليوم بالضبط كانت الكعبة تكسى في مكة، و إذا كان يصوم أهالي فلسطين هذا اليوم كانت قريش أيضا تصومه، إذا هذا العيد يبدو عاما و مشتركا بين آل إبراهيم عليه السلام من الشمال إلى الجنوب.

إن تفسير ابن عباس رضي الله عنه لسورة : *"الفجر"* و تصريحات عبيد بن عمير عن المحرم يستحقان المتابعة و الدراسة بهذا الخصوص، يقول ابن عباس رضي الله عنه :

" و الفجر و ليال عشر هو المحرم فجر السنة " (١٢١).

Converted by Tiff Combine - unregistered

كان " ليال عشر " هي عشر ليالي حتى يوم عاشوراء.

" و روى عن عبيد بن عمير أنه قال : إن المحرم شهر الله و هو رأس السنة يكسى البيت و يورخ به الناس " (١٢٢).

إنه يعلم من هذه الروايات أن صوم عاشوراء لم يكن نتيجة لتقليد يهود المدينة، بل إن قريشا أيضا كانوا يعظمون ذلك اليوم في العصر الجاهلي و يصومونه. نعم ! نحن لا نجد رواج صوم عاشوراء بين أهالي المدينة قبل الهجرة، حتى إلى صباح يوم عاشوراء لم يكن أهل المدينة يعلمون أن عليهم صومها، و مرده في الأغلب إلى أن أهل المدينة كانوا في أصولهم ينحدرون من جنوب العرب. يقول صحابي مدني و هو سلمة بن الأكوع :

" أمر النبي صلى الله عليه و سلم رجلا من أسلم أن أذن في الناس أن من كان أكل فليصم بقية يومه و من لم يكن أكل فليصم فإن اليوم يوم عاشوراء." (الصحيح البخاري).

و إليكم رواية مدنية أخرى عن الربيع بنت معوذ عفراء يتقرر منها أن هذا الاعلان كان يقتصر على قرى الأنصار فقط ، قالت :

" أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة من كان أصبح صائما فليتم صيامه و من كان أصبح مفطرا فليتم بقية يومه". (الصحيح البخاري)

و بالنظر إلى هاتين الروايتين المدنيتين ينتج أنه لم يكن يوجد عيد عاشوراء بين أهل المدينة مع ما عرف من نفوذ اليهود فيهم (١٢٣) و بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم و صباح يوم عاشوراء بالذات اتخذ القرار بأن يحتفل أهل المدينة أيضا بهذا العيد فاحتيج إلى الاعلان في القرى و الأرياف و أعلن أن لا يأكل و يشرب أحد اليوم بل يقضي ذلك اليوم صائما ممتنعا عن الشراب و الطعام.

إن جميع الروايات التي سلفناها تشهد على أن صوم عاشوراء كان يصام ذات اليوم الذي كان اليهود يحتفلون فيه بيوم عاشوراء، و لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الصوم راعى فيه نفس ذلك اليوم. نعم ! تفيد بعض الروايات أنه أدخل التعديل على هذا الحكم بأن يصوم المسلمون أيضا يوما

Converted by Tiff Combine - unregistered

مثل عاشوراء أو بعده، فيقول إبن عباس رضى الله عنه :

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صوموا يوم عاشوراء و خالفوا اليهود، صوموا يوما قبله أو يوما بعده " (١٢٤)

إن هذه الرواية أكبر دليل على أن شهر " المحرم " العربى و شهر " تشرى " اليهودى كانا يوافقان تماما أو فى أغلب الأحيان فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، و كان يقع تباين يوم واحد على الحد الأقصى بين صوم المسلمين و اليهود. فهنا رواية أخرى من ابن عباس رضى الله عنه التى تفيد ما قلناه :

من الحكم بن الأعرج قال : "انتهيت إلى إبن عباس و هو متوسد رداءه فى زمزم فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء، فقال : إذا رأيت هلال المحرم فاعدد و أصبح يوم التاسع صائما فقلت هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه قال : نعم.

إنه يتضح بإلقاء نظرة إجمالية على هذه الروايات على نحو بين أن (١٢٥) شهر " المحرم " للتقويم العربى الذى يمن فيه هذا الصوم، إن لم يكن دوما ففى أغلب الأحيان، كان يطابق شهر " تشرى " لليهود فى عصر النبى صلى لله عليه وسلم، و لا يمكن ذلك بدون أن نقر بأن التقويم العربى كان دائما يستهل من الاعتدال الخريفى تبعا لأصول الكبيسة .

إن الفكرة القائلة بهذا الخصوص أن شهر المحرم للسنة الأولى للهجرة فقط بعد دورانه كان وافق شهر تشرى اليهودى ، خاطئة تماما من الوجهة الحسابية، و انطلاقا منه بالذات أبطل البيرونى جميع الأحاديث الصحيحة السابقة بناء على القاعدة الحسابية.

قد قدمت جميع مستدلات البيرونى فى المقال الأول، و أرى من المناسب أن أعيد هنا هذه العبارة فقط.

" و هذه الرواية غير صحيحة لأن الإمتحان يشهد عليها، و ذلك لأن أول المحرم كان سنة الهجرة يوم الجمعة السادس عشر من تموز سنة ثلث و ثلثين و تسعمائة للإسكندر فإذا حسبنا أول سنة اليهود فى تلك السنة كان يوم الأحد الثانى عشر من أيلول،

Converted by Tiff Combine - unregistered

يوافقه اليوم التاسع و العشرون من صفر، و يكون صوم عاشوراء، يوم الثلثاء التاسع من شهر ربيع الأول — و ليس يتفق وقوعه فى المحرم إلا قبل تلك السنة ببضع سنين أو بعدها بنيف و عشرين سنة فكيف يجوز أن يقال أن النبى صلى الله عليه وسلم صام عاشوراء لإتفاقه مع العاشر فى تلك السنة" (١٢٦)

إن فكرة البيرونى هذه و إن تبدو صحيحة بناء على الحسابات القمريه لكنه بنفسه حينما يقر بأنه فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم كانت تستخدم " السنة القمرية الشمسية" و كانت الفصول العربية دائما تستهل من الإعتدال الخريفى، و أيضا أن الشهور العربية كانت موزعة على هذه الفصول الأربعة، فلا مبرر لأن تبطل هذه الاحاديث الصحيحة الثابتة.

إضافة إلى ذلك إنه ليست سنة أهل مكة فحسب بل سنى الشرق الأوسط برمتها (ما عدا العراق و إيران) كانت تستهل من الإعتدال الخريفى بالذات، و المرزوقى قدم هذا بالذات دليلا على أن التقويم العربى كان يستهل من الخريف، فيقول :

"و ممن افتتحها فى الخريف أهل الشام من السريانيين، الا ترى أول سنتهم تشرين الأول و أنه صدر الخريف و ابتدأ الوسمى، و لعل العرب أيضا كانت قد ابتدأت السنة فى بدء الأمر على مثل ذلك فجعلوا مفتتحها فى أول الوسمى كما أنه يقدمه فى قسمة الازمان و الانواء فثبتوا على أمرهم الأول فى تقويم الوسمى". (١٢٧)

و لقد عرفنا بتصريح المرزوقى هذا أنه تبعا لرؤيته كان التقويم العربى أيضا مثل تقاويم الشعوب المجاورة يستهل دائما من الخريف، كذلك يثبت أن الفصول و الأنواء لدى العرب كانت تبدأ من هذه النقطة الفصلية و تنتهى عليها، كان تقويمهم و أنواءهم كانا متلازمين كما كانت الأنواء و الشهور متلازمة لدى الهنادك.

من هنا أرى أن العثور على التقويم الجاهلى المكى لم يعد مستعصيا شيئا ما، بل لقد برز إلى حد كبير، و كل ما علينا أن نعمل هى أن نختار أهلة لعصر الرسول صلى الله عليه و سلم بمعونة القوانين الحسابية، مراعين " دائرة الأنواء و البروج "، تمت رؤيتها قبيل حلول الشمس فى برج الميزان أو بعدها متصلة بنقطة الإعتدال الخريفى، و يمكن خلالها أن يطلع القمر فى

Converted by Tiff Combine - unregistered

برج الحمل فى حالة البدر، و نجعل هذه الشهور الشهر الأول للتقويم المكى أعنى للحرم، و نحدد بقية الشهور تبعا لهذا للحساب.

و واحد من أسهل الطرق التى يمكن أن يتخذ بهذا الصدد هى أن نتخلص من التقويم القمرى العام تلك الشهور القمرية فقط التى تمت رؤية أهلتها قريبا من نقطة الإعتدال الخريفى (أعنى ٢٤ من سبتمبر) سواء كان طلع هذا القمر فى شهر سبتمبر أو فى مستهل اكتوبر و نجعل هذه الشهور الشهر الأول من السنة ثم نرتب كذلك التقويم برمته، فإن الشمس فى عصر الرسول صلى الله عليه و سلم من الوجهة الحسابية كانت تحل فى برج الميزان فى هذا الزمن بالذات تقريبا و كان يعتبر زمن بداية الخريف.

و تعديها مع هذه الطريقة تحتاج إلى زيادة أربع سنوات ذات كبيسة فقط من سنة ١ هـ إلى سنة ١٠هـ فإن عشر سنوات شمسية تتالف من (٣٦٥٢) يوما و عشرة أعوام قمرية يتكون من (٣٥٤٢) يوما، كانه يقع بينهما تباين ١٠٩أيام أو بكلمة أخرى ثلاثة أشهر و واحد و عشرون يوما، و لا يمكن أن يجبر هذا الإنتقاص فى التقويم الشمسى و القمرى إلا أن نضيف أربعة شهور كاملة، و نتيجة لذلك تتساوى عدة أيام التقويم الشمسى و القمرى بنفسها تقريبا فى السنة الحادية عشرة.

و قد رأيتم فيما مضى أن البيرونى وبعده السير وليم ميور (MUIR) كانا ملحين على أن أهل مكة كانوا أخذوا طريقة " النسى " من يهود المدينة، و إن تم دحض هذه الفكرة لكن لا يمكن الإنكار من أن التقويم اليهودى و المكى (إن لم يكن دائما ففى أغلب الأحيان) كانا يستهلان من نقطة فصلية موحدة، و لعل كان هذه الشبه الذى أوقع البيرونى أو أحدا من رواته الأولين فى هذ الغلط العظيم، مع ذلك فى ضوء هذا الأصل المتمثل فى أن التقويم العربى و اليهودى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم كانا لا يزالان موافقين (إلى حد)، هناك طريقة أخرى للعثور على التقويم المكى المفقود، هى أن يُحيى تقويم العرب بمعونة تقويم اليهود أنفسهم الذى لا يزال حيا حتى الآن، و لكن أغلال أن هذه الطريقة ليست جديرة بالمتابعة فإنه لا يترائى فيه الإنسجام و الوحدة الراهنة وقت ظهور الإسلام، و نجد قوانين و ضوابط متباينة تماما لأعوام الكبيسة فى أمكنة مختلفة، و قد ذكر البيرونى هذه الخلافات بصراحة موسعة. و بالنظر إلى ذلك إنه من المستحسن أن نحكم أية ضابطة كانت رائجة فى المدينة أو الحجاز، و لا نقضى العجب كيف كانت أصول مختلفة قابلة للتطبيق فى شعب صغير على مسافات قليلة.

بناء على ذلك أرى أن أسهل و أمن طريقة هى أن تختار أهلة، بمعونة القوانين الحسابية العامة مرتبا على السنة، تمت رؤيتها متصلة بنقطة

Converted by Tiff Combine - unregistered

الإعتدال الخريفى (٢٢ من سبتمبر) و نجعلها الشهر الأول لكل سنة ثم نرتب التقاويم بأجمعه.
و بموجب التقاويم القمرى يمكن أن تكون هذه الأهلة كما يلى :

سنة ١	يوم الأحد	١٢/ سبتمبر ٦٢٢م
سنة ٢	يوم السبت	١/ اكتوبر ٦٢٣م
سنة ٣	يوم الخميس	٢٠/ سبتمبر ٦٢٤م
سنة ٤	يوم الإثنين	٩/ سبتمبر ٦٢٥م
سنة ٥	يوم السبت	٢٨/ سبتمبر ٦٢٦م
سنة ٦	يوم الخميس	١٧/ سبتمبر ٦٢٧م
سنة ٧	يوم الأربعاء	٥/ اكتوبر ٦٢٨م
سنة ٨	يوم الإثنين	٢٥/ سبتمبر ٦٢٩م
سنة ٩	يوم الجمعة	١٤/ سبتمبر ٦٣٠م
سنة ١٠	يوم الأربعاء	٢ /اكتوبر ٦٣١م

هذه الأهلة بأجمعها بحيث ينبغى أن تكون الشمس فى اليوم الرابع عشر منها فى برج الميزان و القمر فى برج الحمل المقابل له فى حالة البدر. و السنة السابعة من الهجرة فقط ما لا تصح بمقتضى أصل التقويم اليهودى السائد لكن فيها أرى أن أهل مكة كانوا دائما يبدأون المحرم من شهر تحت رؤية هلاله أقرب من نقطة الإعتدال الخريفى، و كانت الشمس تحل الجزء الأكبر من الشهر أو النصف منه على الأقل فى برج الميزان، فبناء على ذلك إنه من الواضح أن أهل مكة لم يكونوا يجعلون رؤية الهلال بالخامس من سبتمبر بداية شهر المحرم بأية طريقة، فإنها تكون متخلفة عن نقطة الإعتدال الخريفى، و القمر فى حالة البدر يكون آنذاك فى برج الحوت بدل الحمل، فبناء على الأوجه المبنية سلفا أرى أن بداية التقويم المكى كان يمكن من تلك الأهلة فحسب الذى اثبتت قائمتها فيما سبق.

بقيت هناك مسئلة أخرى، أية سنة من سنة ١ هـ إلى سنة ١١ هـ نجعلها كبيسة و أية نجعلها غير كبيسة، ثم متى نزيد شهور الكبيسة أ فى نهاية السنة أم فى وسطها كما كان دستورا لدى اليهود.

إنها مسئلة مستعصية جدا، فإن التاريخ لا يوفر أية شهادة إيجابية تقوم كقاعدة كلية، فبعض التصريحات تفيد أن هذه الشهور كانت تضاف إلى آخر السنة و يقول بعض المؤرخين أنها كانت تزاد إلى مستهل السنة، فنصل منها إلى أن نساءة العرب ربما كانوا يزيدون تلك الشهور إلى نهاية السنة أو ربما إلى مستهل السنة، و بضعة روايات تدل على منتصف السنة أيضا، فيقول الشهرستانى مثلا :

Converted by Tiff Combine - unregistered

و كان منهم من ينسأ الشهور، و كانوا يكبسون في كل عامين شهرا و في كل ثلاثة أعوام شهرا، و كانوا إذا حجوا في شهر من هذه السنة فلم يخطبوا و يجعلوا يوم التروية و يوم عرفة و يوم النحر كهيئة ذلك في شهر ذي الحجة، حتى يكون يوم النحر اليوم العاشر من ذلك الشهر."

(المِلَل و النحل للشهرستاني ص ٤٤٣)

و المسعودي في كتابه " *التنبيه و الإشراف* " استخدم كلمات أكثر وضوحا بالنسبة إلى الشهرستاني، فيقول :

و كانوا ينسئون في كل ثلاث سنين شهرا يسقطونه من السنة و يسمون الشهر الذي يليه باسمه، و يجعلون يوم التروية و يوم عرفة و يوم النحر الثامن و التاسع و العاشر من ذلك الشهر فيكون ذلك دائرا في سائر شهور السنة موجبا، و كانوا بذلك مقاربين لغيرهم من الأمم في مدة زمان سنيهم الشمسية."

فلم يزالوا على ذلك إلى أن ظهر الاسلام و فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فوجه أبا بكر في السنة التاسعة من الهجرة على الموسم فحج بالناس و هي آخر حجة حجها المشركون.
(التنبيه و الاشراف/٢١٩).

إنه يبدو من تصريحات الشهرستاني و المسعودي ، أن شهر النسيء كان يزاد بعد ذي الحجة بعد كل سنتين أو ثلاث دائما، بل كانت ثلاثة شعائر كبيرة للحج التي كانت تؤدى يوم التروية و يوم عرفة و يوم النحر توقف تلك السنة، و كانت تؤدى بتاريخ ١٠/٦/٨ من الشهر الذي تم زيادته لكي يمكن اطلاق إسم المحرم على الشهر القادم و تستهل السنة من المحرم الشهر المقدس و تختتم على ذي الحجة.

و يمكن أن يستنتج منه أيضا، أن نساءة العرب كانوا دائما يجعلون شهر الكبيسة ذاالحجة الذي كان بعد الشهر الحرام، لكن هذا لا يبدو صحيحا، فإن القرآن يصرح بأنهم كانوا تارة يجعلون هذا الشهر حلالا في عام و حراما في عام آخر " يحلونه عاما و يحرمونه عاما "

فلا يمكن أن يقال أن القلامسة كانوا ملزمين باطلاق اسم ذي الحجة على هذا الشهر بل فيما أرى كانت هناك ضوابط أخرى يجعل منها هذا الشهر حلالا.
يعتقد عديد من العلماء ان إسم شهر المحرم الحقيقي كان "صفر" في العصر الجاهلي، و عندما كان يحرم هذا الشهر كانوا يدعونه بالمحرم و إلاّ كان يسمى باسم صفر ذاته، فقد جاء في بلوغ الأرب أن القلمس كان يعلن قرب حجرة العقبة في أيام الحج قائما :

Converted by Tiff Combine - unregistered

إنى قد أحللت أحد الصفرين و حرمت صفر المؤخر، و كذلك فى الرجبيين يعنى رجب و شعبان " (بلوغ الأرب ٢٩٨/٢).

يبدو منه أن هذا الشهر كان تارة يزاد بين المحرم و صفر و تارة أخرى بين رجب و شعبان أيضا، و المرزوقى أيضا يرى أن هذا الشهر كان يضاف بين المحرم و صفر :

" فكان فى ذى الحجة إذا اجتمعت العرب لموسمهم يقوم منادٍ فينادى ألا إنا استنسأنا و استفرهنا ألا ان المحرم صفر و ان صفرا هو المحرم الاكبر فكانوا يحلون فى المحرم ما كان فيه من قتال و سفك دم و استباحة حريم و يحرمون فى صفر ما كان مباحا عنده ".

كان شهر النسي حينما كان يحلّ فكان يزاد بعد ذى الحجة و يسمى صفراً و الشهر الذى يتلوه كان يجعل محرما و إذا كانوا يريدون أن يجعلوه حراما كانوا يطلقون عليه اسم ذى الحجة " لو المحرم نفسه، و الشهر الذى كان يتلو المحرم كان ذلك أيضا يجعل محرما.

و ولهاوزن (WELHAUSEN) أيضا يرى أن هذا الشهر كان يزاد بين المحرم و صفر، و لكن فى ضوء تصريحات المسعودى و الشهرستانى التى مضت قبل، لا يمكن أن نعتبر رؤية ولهاوزن هذه قاعدة كلية، و أضف إليه بيان إبن حبيب الآتى ذكره :

" فكان القلمس من هؤلاء القلامسة يقوم أيام التشريق فى الحجر فيفتيهم، لا يسئل أحد عن شئ غيره، فيقوم رجل منهم عند باب الكعبة، و يقوم رجل آخر فى الحجر، فيقول كل واحد منهما :

أنا الذى لا أعاب و لا أجاب و لا يرد قضاه " فان جاء القوم يريدون الغارة فى المحرم يستلونه أن يؤخر المحرم فيحسب لهم فيقول هذا العام صفر الأول، و يقول هذا بالحساب الذى لا تدور عليه السنة، و كانت لا تأخذ بالأهلة، و لا تدرى ما ذاك، فيصدرون على ذلك، فيؤخر المحرم، و يقدم صفر، فيحل المحرم عاما و يحرمه عاما ".

و مع إن إبن حبيب ألصق عدة تهم على النساة الجاهليين مع ذلك يعلم من هذا التصريح لزوما أن الحسابات التقويمية للعرب الجاهليين لم تكن ترتكز فى الواقع على رؤية القمر و كانت لا تأخذ بالأهلة و لا تدرى ما ذاك بل كانوا يلجاون إلى أن يجعلوا رؤيات القمر تبعا للحسابات.

على كل، إن نظرة إجمالية على التصريحات السالفة الذكر تنبئنا أن

Converted by Tiff Combine - unregistered

نساة العرب كانوا يضيفون شهر النسى تارة فى نهاية السنة و تارة أخرى فى مستهل السنة، و كل ذلك كان يعلن عنه فى نفى الحجة نفسها وجوبا. أما إذا كان هذا الشهر يزاد فى آخر السنة فكانت توقف فى تلك السنة ثلاثة شعائر كبيرة للحج و كانت تمارس فى الشهر الذى تم زيادته، كذلك إذا كان هذا الشهر يضاف فى بدء السنة، فكانت الحيرة فى أيدى النساة فى أن يجعلوا هذا الشهر صفرا أو محرما، كان الأمر كله كان إلى نساة العرب فى أن يقفل الحجيج و يحقهم الأمان و السلام أو أن يسمحوا إجازة الأمن التى منحهم الدين نظرا لسهولتهم و اليسر بهم.

و أما ما حكى الله من المشركين " يحلونه عاما و يحرمونه عاما " فيمكن أن يكون موسسا على بعض الحسابات الفلكية و على محظورات الديانة الإبراهيمية، لكن أغراض نساة مكة أيضا كانت تتصل بها و تنحرف بهم من الجادة المستقيمة .

على كل، ما زالت هذه القضية محتاجة إلى البحث و الدراسة، أن شهور النسى إما كانت زيدت فى آخر السنة من سنة ١ هـ حتى سنة ١٠ هـ أو فى بدء السنة أو لية سنة منها تمت الزيادة فى آخرها و أية سنة منها استهلت بالنسى. إننى اعترف بهذا الخصوص انى لم أعثر، مع ما قمت به من الفحص و بذلت من الجهد، على ايعاز فى صفحات التاريخ يمكن أن يقدم بناء منه أصل أو قاعدة كلية. نعم ! إنه يعلم يقين أن السنة التى كانت تتم الزيادة فى آخرها كان الحجيج و الزوار يقيمون بمكة فى تلك السنة أكثر من شهر، فإن ثلاث شعائر كبيرة للحج اعنى يوم التروية يوم عرفة و يوم النحر كانت تمارس فى شهر النسى تلك السنة، و هذا كان فى الأغلب سبب تحريم ذلك الشهر. أما السنة التى كان يزاد شهر النسى فيها فى بدءها أعنى بين المحرم و صفر كانت تمارس مظاهر الحج على ميعادها، و لم يكن الحجيج يعانون من الإنتظار كثيرا.

و أغلا أن الزيادة فى نهاية السنة كانت بمثابة تصريح حلة للإنتهاب الدينى للكهنة و التجار و علماء الدين، و كان بإمكان نساة مكة أن يكتبوها متى شاؤا. على كل، جعلت هذه الزيادات فى نهاية عامين لوليين اعنى سنة ١ هـ و سنة ٤ هـ و فى مستهل سنتين أخريين أعنى سنة ٦ و سنة ٩، بحيث يكون هلال المحرم دائما متصلا بالإعتدال الخريفى، و تدخل أيام الحج حال كون الشمس فى برج السنبلة، و أغلا لعل هذه الزيادات كانت وقعت كذلك.

إن زيادة سنة ٩ هـ تكون تمت بجلاء فى أيام الحج لسنة ٨ هـ فإنه كان آخر حج للمشركين من قريش، كذلك تكون زيادة سنة ٦ هـ تمت فى أيام الحج لسنة ٥ هـ . و تمشيا مع هذه الأصول لو قمنا بوضع جداول من سنة ١ هـ إلى سنة ١٠، فتكون كما يلى :

Converted by Tiff Combine - unregistered

جدول الشهور من السنة الأولى للهجرة إلى السنة الخامسة

السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة
المحرم ١٣/سبتمبر ٦٢٢م الإثنين	المحرم ٢/أكتوبر ٦٢٣م السبت	المحرم ٢١/سبتمبر ٦٢٤م الجمعة	المحرم ١٠/سبتمبر ٦٢٥م الأثنين	المحرم ٢٨/سبتمبر ٦٢٦م السبت
صفر ١٢/ أكتوبر الأربعاء	صفر ٢١/ أكتوبر الإثنين	صفر ٢٠/ أكتوبر السبت	صفر ٩/ أكتوبر الأربعاء	صفر ٢٨/ أكتوبر الثلاثاء
ربيع الأول ١١/نوفمبر الخميس	ربيع الأول ٢٠/نوفمبر الأربعاء	ربيع الأول ١٩/نوفمبر الإثنين	ربيع الأول ٨/نوفمبر الجمعة	ربيع الأول ٢٦/نوفمبر الأربعاء
ربيع الآخر ١١/ديسمبر السبت	ربيع الآخر ٢٩/ديسمبر الخميس	ربيع الآخر ١٨/ديسمبر الثلاثاء	ربيع الآخر ٧/ديسمبر السبت	ربيع الآخر ٢٦/ديسمبر الجمعة
جمادى الأولى ٩/يناير ٦٢٣م الأحد	جمادى الأولى ٢٨/يناير ٦٢٤م السبت	جمادى الأولى ١٧/يناير ٦٢٥م الخميس	جمادى الأولى ٦/يناير ٦٢٦م الإثنين	جمادى الأولى ٢٤/يناير ٦٢٧م السبت
جمادى الأخرى ٨/فبراير الثلاثاء	جمادى الأخرى ٢٦/فبراير الأحد	جمادى الأخرى ١٥/فبراير الجمعة	جمادى الأخرى ٤/فبراير الثلاثاء	جمادى الأخرى ٢٣/فبراير الإثنين
رجب ٩/مارس الأربعاء	رجب ٢٧/مارس الثلاثاء	رجب ١٧/مارس الأحد	رجب ٦/مارس الخميس	رجب ٢٤/مارس الثلاثاء
شعبان ٨/ابريل الجمعة	شعبان ٢٥/ابريل الأربعاء	شعبان ١٥/ابريل الإثنين	شعبان ٤/ابريل الجمعة	شعبان ٢٣/ابريل الخميس
رمضان ٧/مايو السبت	رمضان ٢٥/مايو الجمعة	رمضان ١٥/مايو الأربعاء	رمضان ٤/مايو الأحد	رمضان ٢٣/مايو السبت
شوال ٦/يونيو الإثنين	شوال ٢٤/يونيو الأحد	شوال ١٢/يونيو الخميس	شوال ٢/يونيو الإثنين	شوال ٢٢/يونيو الإثنين
ذو القعدة ٥/يوليو الثلاثاء	ذو القعدة ٢٤/يوليو الثلاثاء	ذو القعدة ١٢/يوليو السبت	ذو القعدة ٢/يوليو الأربعاء	ذو القعدة ٢١/يوليو الثلاثاء
ذو الحجة ٤/أغسطس الخميس	ذو الحجة ٢٢/أغسطس الأربعاء	ذو الحجة ١١/أغسطس الأحد	ذو الحجة ٣١/يوليو الخميس	ذو الحجة ٢٠/أغسطس الخميس
ذو الحجة (نسى) ٢/سبتمبر الجمعة	+++	+++	ذو الحجة (نسى) ٣٠/ أغسطس السبت	+++

Converted by Tiff Combine - unregistered

جدول الشهور من السنة السادسة للهجرة إلى السنة العاشرة

السنة السادسة	السنة السابعة	السنة الثامنة	السنة التاسعة	السنة العاشرة
المحرم ٨/سبتمبر ٦٢٧م الجمعة	المحرم ٨/أكتوبر ٦٢٨م الخميس	المحرم ٢٦/سبتمبر ٦٢٩م الثلاثاء	المحرم ١٥/سبتمبر ٦٣٠م السبت	المحرم ٣/أكتوبر ٦٣١م الخميس
المحرم (نسي) صفر ١٨/ أكتوبر الأحد	صفر ٤/ نوفمبر الجمعة	صفر ١٥/ أكتوبر الأربعاء	المحرم (نسي) صفر ١٤/ أكتوبر الأحد	صفر ٢/ نوفمبر السبت
صفر ١٦/نوفمبر الإثنين	ربيع الأول ٤/ ديسمبر الأحد	ربيع الأول ٢٤/نوفمبر الجمعة	صفر ١٣/نوفمبر الثلاثاء	ربيع الأول ١/ديسمبر الأحد
ربيع الأول ١٦/ديسمبر الأربعاء	ربيع الآخر ٣/يناير ٦٢٩م الإثنين	ربيع الآخر ٢٣/ديسمبر السبت	ربيع الأول ١٢/ديسمبر الأربعاء	ربيع الآخر ٣١/ديسمبر الثلاثاء
ربيع الآخر ١٥/يناير ٦٢٨م الخميس	جمادى الأولى ٣/فبراير الأربعاء	جمادى الأولى ٢٢/يناير ٦٣٠م الإثنين	ربيع الآخر ١١/يناير ٦٣١م الجمعة	جمادى الأولى ٢٩/يناير ٦٣٢م الأربعاء
جمادى الأولى ١٣/فبراير السبت	جمادى الأخرى ٢/مارس الخميس	جمادى الأخرى ٢٠/فبراير الثلاثاء	جمادى الأولى ٩/فبراير السبت	جمادى الأخرى ٢٨/فبراير الخميس . الجمعة
جمادى الأخرى ١٣/ مارس الأحد	رجب ١/ ابريل السبت	رجب ٢٣/مارس الخميس	جمادى الأخرى ١١/مارس الإثنين	رجب ٢٩/مارس الأحد
رجب ١٢/ابريل الثلاثاء	شعبان ١/مايو الإثنين	شعبان ٢٠/ابريل الجمعة	رجب ٩/ابريل الثلاثاء	شعبان ٢٨/ابريل الثلاثاء
شعبان ١١/مايو الأربعاء	رمضان ٢١/مايو الأربعاء	رمضان ٢/مايو الأحد	شعبان ٩/مايو الخميس	رمضان ٢٧/مايو الأربعاء . الخميس
رمضان ١٠/يونيو الجمعة	شوال ٢٩/يونيو الخميس	شوال ١٨/يونيو الإثنين	رمضان ٧/يونيو الجمعة	شوال ٢٦/يونيو الجمعة
شوال ٩/يوليو السبت	ذو القعدة ٢٩/يوليو السبت	ذو القعدة ١٨/يوليو الأربعاء	شوال ٧/يوليو الأحد	ذو القعدة ٢٥/يوليو السبت
ذو القعدة ٨/أغسطس الإثنين	ذو الحجة ٢٧/أغسطس الأحد	ذو الحجة ١٦/أغسطس الخميس	ذو القعدة ٥/أغسطس الإثنين	ذو القعدة ٢٤/أغسطس الإثنين
ذو الحجة ٦/سبتمبر الثلاثاء	+++	+++	ذو الحجة ٤/سبتمبر الأربعاء	+++

Converted by Tiff Combine - unregistered

قد وضعت هـذه الجداول إنطلاقا من الأصل، بأن يبقى اليوم من الأسبوع (Day of the Week) الذى تم تسليمه فى التقاويم المتداولة على سابقته فى التواريخ القمرية. و قمت بهذا الخصوص بالمقابلة مع تقويمى كونينغهام (CUNINGHAM) و وستنفيلد (WÜSTENFELD) الذين تعطليان بالصيت الدولى.

إن القاعدة التقويمية العامة للسنين القمرية هى أن المحرم يعد ثلاثين يوما و صفر تسعة و عشرين يوما، و هكذا دواليك شهر بعد ثلاثين يوما والآخر تسعا و عشرين يوما، لكن اضطررت إلى مخالفة هذه الطريقة فى وضع هذه الجداول نظرا بالأصل الذى مر انفا، لكى يبقى التطابق فى كل حالة، بينها و بين التقاويم العالمية. مثلا كان على أن أعد المحرم سنة ٢ هـ ثلاثين يوما و صفر تسعا و عشرين يوما، و بناء على ذلك يستهل شهر صفر سنة ٢هـ يوم الثلاثاء فى أول نوفمبر عام ٦٢٣ م، لكن شهرا قمريا فى تقويم وستنفيلد كان يبتدى يوم الإثنين فى ٣١ من اكتوبر، و كان يوافق تبعا لرؤيتى لصفر المكى سنة ٢ هـ فجعلت غرة صفر فى ٣١ من نوفمبر بدلا من أول نوفمبر لكى تطابق الأيام و التواريخ المعترفة بها مطابقة تامة، و اخترت نفس هذا المنهج فى الشهور الأخرى، فمن الممكن أن يلمس المتابعون لهذا البحث تباين يوم واحد فى بعض المواضع، لكن هذا التباين ليس خليقا بأن يقام له وزن، فإن تباين يوم واحد من هذا النوع لا يعنى به فى التقاويم القمرية و طالما نجده فى كتب التاريخ، و يكون وراءه عوامل و أسباب، فتارة ينبع هذا التباين من اختلاف الرؤية و أخرى من اختلاف الأصل التقويمية، و ربما يحدث أن المؤرخ لا يعرف التاريخ الصحيح أو يقع فى سوء الفهم، على كل، ليست هذه المسئلة ما تستحق بحثا و دراسة أكثر.

و قلت فى المقال السابق بعد تقديم عدة أمثلة أن (٢/٣) ثلثى رواية من وقائع السيرة لا تثبت على الأصل التقويمية الشائعة، فتارة لا تطابق الأيام التواريخ و أخرى لا توافق المواسم الشهور، و قلت هناك أن عامله الرئيسى هو أن مجموع هذه الوقائع من هذا النوع كان سجّل تبعا للتقويم المكى المفقود، و لو عثرنا على هذا التقويم إذا تتلاشى هذه التناقضات بلسرها، و الآن لما عثرنا على هذا التقويم كما كنت زعمت سابقا، فمن اللازم أن تثبت التصريحات التوقيتية لجميع هذه الوقائع على هذه الجداول بالكلية، أما صحة بضعة تواريخ فمن الممكن أن تكون بالصدفة.

أريد أن أقول بهذا الخصوص أن نفع هذه الجداول الكامل إنما سيبدو للعيان فى المقال الرابع، حينما يقدم كل جانب من ذانك التقويمين و يختبر فى ضوء الشهادات التقويمية للسيرة تقريبا، مع ذلك لو أحب المتابعون لهذا البحث فليمتحنوا هـذه الجداول بأنفسهم امتحانا بدائيا. و هنا أريد أن أوضح منهجى مقدما مثالا أو مثالين.

Converted by Tiff Combine - unregistered

قد قدمت فى المقال الأول أمثلة التناقضات التوقيتية حسب أنواعها، فهيّابنا هنا نمتحن أمثلة الأنواع الثلاثة الأولى، مثلاً جاء أن تاريخ الهجرة المجمع عليه هو يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١ هـ الذى لا يصح على التقاويم القمرية العامة، فلاحظوا شهر ربيع الأول فى الجدول الذى قمت باعداده و الذى يستهل يوم الخميس فتبعا له يقع ١٢ من ربيع الأول سنة ١ هـ يوم الإثنين بالذات.

كذلك يمكن أن يمتحن تاريخ الوقائع الأخرى و أيامها، و من الممكن أن تجدوا فيها بعض بيانات تلمسون فيها تباين يوم واحد، لكنه ينبغى أن يغض النظر عن مثل هذا التباين.

و من الممكن أن يقدر التطابق الموسمى بمعونة الشهور الإنجليزية التى كتبتها تحت كل شهر قمرى مثلا أن الروايات تفيـــد أن كلا من غـزوة بدر و أحد و فتح مكة و حنين و ما إليها وقعت فى فصل الصيف، لكنها كلها تعتبر وقائع شتوية تبعا للتقويم العام. و ستعلمون بمعونة هذه الجداول أن سوء الفهم هذا كان ناتجا من نسيان التقويم المكى فحسب، فإن تواريخ هذه الوقائع كلها توافق مايو و يونيو و يوليو، كذلك تواريخ الوقائع الشتوية مثلا ذات السلاسل، و سريـــة علقمـــة بن مجزز و هلم جرا تطابق لشهر الصيف مطابقة تامة.

و الكسوف الذى كان وقع فى ٢٧ من شهر يناير عام ٦٣٢ م، يوم استنثرت رحمة الله بابراهيم إبن رسول الله صلى الله عليه وسلم يطابق ربيع الآخر و تاريخ إفتيال خسرو برويز فبراير عام ٦٢٨ م يصادف جمادى سنة ٢ هـ مصادفة كاملة و سوف اعرض هذه التطابقات بتفصيل فانتظر فى المقال الرابع، فلا ينبغى أن يستنتج من هذه التطابقات العابرة أن التناقضات التوقيتيه لوقائع السيرة قد سويت تسوية تامة و ندع تحقيقاتنا.

و للبحث صلـة ـــــــ

تعريب: ولى أختر الندوى

الهوامش :

(١) Encyclopaedia of Islam Vol. I P. 377

(٢) التنبيه و الاشراف للمسعودى/ ٢٠٢ ، ٢٠٤ و أيضا الطبرى ٢٤٢/٢ و الطبرى ٩٨/١

(٣) الطبرى ٩٨/١

(٤) W. Smith : Dictionary of the Bible, Vol . II p. 416

(٥) Story of Islam Vol . III. 8/61 و انظر كذلك Talmud Tract Sanhedrin.

Converted by Tiff Combine - unregistered

(٦) W. Smith : Dictionary of the Bible. Vol. II p. 416

(٧) Chamber 's Encyclopaedia و لكن البيرونى ذكر فى آثار الباقية / ١٤١ (بمناقرة) أن السنة اليهودية كانت تبتدأ من هلال يمكن أن يتراءى فيما بين ٢٧ من آب و ٢٩ من ايلول. إن شهادة البيرونى هذه، ذات أهمية بالغة فيما يبدو من الوجهة التاريخية و تنكشف حتما عن أنه فى زمن البيرونى على الأقل كان من الممكن أن تستهل السنة اليهودية من ٢٧ آب شهر أغسطس، و لكن فيما نرى أن هذه الطريقة كانت تقتصر على اليهود الذين كانوا يسكنون فى إيران و العراق حيث كانت المحاصيل الزراعية تحصد فى وقت مبكر و لكن اليهود الفلسطين فى الشام و فلسطين لم يكن لهم أن يبدأوها منه. ففى فلسطين لا تنضج محاصيل الشعير قبل منتصف ايريل ، و بناء على ذلك إن عيد الفسح الذى كان يحتفل يوما فى اليوم الرابع عشر من الشهر السابع (أعنى نيسان، ينبغى أن يقع حول ايريل. و لذا قسام جوزيفس (Josephus) بإيجاد الموافقة بين شهور نيسان للسنة اليهودية و الشهر المقدونى (XANTHICUS) و الشهر المصرى (PHARMUTH) (راجع JOSEPHUS ANT III 10 : 5) و راجع للتفاصيل JEWISH BIBLE DIC VOL . II p. 417 و الطبرى ٩٨/١

(٨) آثار الباقية للبيرونى / ٢١ ـ ٢٥ و راجع أيضا:ابن سيد الناس ٤٧/٩ و الطبرى ٩٨/١

(٩) ابن حبيب / ٢٠٦

(١٠) الطبرى ٩/ ٢٤٣

(١١) التنبيه و الإشراف للمسعودى ٢٠٦/

(١٢) W. Smith . Dictionary of the Bible. Vol . II p.415

(١٣) W. R Smith : Lectures on the Religion of the Semites (1889) - p. 372,459

(١٤) G Ravenscroft : The Religion of the Ancient World p. 59. 61.

Encyclopaedia of Religion and Ethics.

و راجع للعرب خاصة : Encyclopaedia of Islam Vol . I p. 379

(١٥) M. Ragozin Chaldea p 340

(١٦) Encyclopaedia of Islam Vol I p. 379

(١٧) الموضع السابق : ص . ٣٧٩ ، ٣٨٠

(١٨) W. Smith . Dictionary of the Bible. II 415. قد سعى الطبرى و البيرونى لربط كلمة التاريخ بالكلمة الفارسية " ماه روز " و ذهبا إلى أن كلمة " المؤرخ " لفلان عن " ماه روز " و منها جاء التاريخ و مشتقاته ـ الطبرى

(١٩) Author Jeffery : Foreign Vocabulary p. 187 و راجع كذلك للمخصص لإبن سيدة ١٠٦/٩

(٢٠) و العجب أنه عند الروميين كانت السنة بأسرها فى بدء تتكون من عشرة شهور قمرية فقط أعنى من شهر مارس إلى شهر ديسمبر. (أنظر Chamber's Encyclopaedia Vol . II p. 841). و يتراءى ذلك من أسماء شهور سبتمبر و أكتوبر و نوفمبر و ديسمبر أيضا فـ " Sept يعنى السبع و Oct ثمانى و Nov التسع و Dec العشر.

M. Ragozin : Chaldea. p 230, 256.

(٢١) يرى بعض العلماء أن توزيع الأسبوع إلى سبعة أيام كان بمثابة الكواكب السيارة السبعة. هذه الرؤية فيما يبدو تحتاج من الصحة إلى حد أن أيام الأسبوع إنما سميت بأسماء الكواكب ، أما ما يتعلق بعددها فلعل هذه الرؤية ليست بصحيحة. فالقدماء كانوا يزعمون

Converted by Tiff Combine - unregistered

الكرة الفلكية إلى ثمانية و عشرين منزلا قمريا بالضبط و منه كان الأسبوع الربع ٧/١ للدائرة الفلكية على وجه التحديد.

(٢٣) مثلا إنه لم يزل شائعا لدى اليهود حتى الآن أنهم يحتفلون بعيد الفسح في اليوم الرابع عشر من نيسان، الشهر الأول ، بين زوال الشمس حتى غروبها، و الإنجيل يخلصهم الحكم التالي بهذا الخصوص " تعدوا إلى الكاهن حزمة من أول حاصل لمذنوباتكم الزراعية و هو يقدمه إلى ربه حتى يتقبل ذلك من جانبكم (الأحبار ٢٣ : ٤ ، ١٠ ، ١٢)

و عند العرب أنفسهم كانت القرابين تقدم إلى إلهة القمر (عمى لدس = ميهاليس) إلى وقت ظهور الإسلام ، و صرح ابن الكلبي أن الآية القرآنية ـــــ و جعلوا لله مما ذرأ من الحرث و الأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم و هذا لشركائنا " تعني القرابين التي كانت تقدم إلى ميهاليس ، " يقسمون له من أنعامهم و حروثهم قسما بينه و بين الله " كتاب الأصنام / ١٣ و راجع كذلك الباقورة ٢/٢٢٧ .

(٢٤) آثار الباقية للبيروني ٦٧/ و أنظر أيضا W. Smith : Dictionary of the Bible, Vol II p. 416

(٢٥) Montgomery Muir : Life of Mohammed p. C II

(٢٦) و يقول البيروني إن أهل مكة كانوا يزيدون تسعة شهور إلى أربع و عشرين سنة، و يعني ذلك ما ذكرناه (24 + 3 = 8) و (9 + 3 = 3) راجع آثار الباقية /١٢

(٢٧) Vol : V p. 285 : و أيضا Chamber 's Encyclopaedia Vol III p. 230

(٢٨) آثار الباقية (سخاو) / ١٤٢ و أيضا W. Smith : Dictionary of the Bible, Vol II. p. 416 كان اليهود تبدأ هذه الطريقة في سنة ٣٦٠ هـ .

(٢٩) Chamber 's Encyclopaedia Vol II p. 641

(٣٠) Talmud Tract Sanhedrin p. II Encyclopaedia of Islam Vol . III p. 586

(٣١) W. Smith : Dictionary of the Bible

(٣٢) ـــ " و يتوالى ذلك نسأة من كانانة المعروفون بالقلامسيين واسمهم القلمس و هو البحر العرء و هم أبو ثمامة جنادة بن عون بن أمية بن قلع بن عباد بن قلع بن حذيفة و كانوا كلهم نسأة ـ آثار الباقية /١٢

(٣٣) راجع ابن حبيب

(٣٤) القرآن ٩ : ٣٨

(٣٥) القرآن ٢ : ١٢٧

(٣٦) Montgomery Muir : Life of Mohammed p C II

(٣٧) J. M . Rodwell : The Qur'an Translated from Arabic, the suras arranged in chronological order with notes and index, Second edition London (1876) p. 351

(٣٨) Montgomery Muir : Life of Mohammed p. C II , C III 351

(٣٩) المرجع السابق : C III

(٤٠) E . H . Palmer : A Version of the Qur'an p. XVI

(٤١) Margoliouth : Mohammed & the Rise of Islam p. 5

(٤٢) Encyclopaedia of Islam " Hajj " p. 200 و إن يرى صاحب المقال أن هذا الشهر يكون متصلا بصيح أي صعيد لشمال العرب

(٤٣) صيرورة محرفة لحجة البيت.

(٤٤) Montgomery Muir : Life of Mohammed p. C II

Converted by Tiff Combine - unregistered

(٤٥) آثار الباقية /١٢

(٤٦) يقول البيروني : " و كان لهذا ذلك من اليهود قبل ظهور الإسلام بقريب من مئتي سنة " آثار الباقية /١٢ و راجع أيضا القانون للمسعودي /٩٢

(٤٧) Montgomery Muir : Life of Mohammad p 11

(٤٨) — " كانوا يكسرون كل أربع و عشرين سنة قمرية بتسعة شهر " آثار الباقية /١٢

(٤٩) آثار الباقية سخاو (SACHAU) /١٢

(٥٠) آثار الباقية /١٢

(٥١) Encyclopaedia of Islam Vol III p. 856

(٥٢) Encyclopaedia of Religion and Ethics p. 660

(٥٣) القرآن ٩ ٣٧

(٥٤) هذا يتفق و ما يراه السروليم ميور أن الصابئة أو عبادة الكواكب كانت رائجة في العرب منذ زمن سحيق، حتى أنه يرى أن طواف الكعبة سبع مرات بالية مـن عبادة الكواكب. كذلك راجع : Encyclopaedia of Religion and Ethics p. p. 660 Arabs Ancient .

(٥٥) و راجع Encyclopaedia of Islam Vol I Arabs

(٥٦) تكملة كتاب الأصنام لأحمد زكي باشا

(٥٧) أيضا ذكر هيلنبرنس / ٤٣

(٥٨) G. Rawlinson : Religion of the Ancient World 56.

(٥٩) G. Rawlinson : Religion of the Ancient World

(٦٠) — " و منهـا بيت الضمدان الذي بمدينـة صنعـا اليمـن بناه شمعاه علـى إسـم الزهـرة " الشهرستاني / ٤٣٢

(٦١) و لنظر بخصوص الذات : Encyclopaedia of Islam : Vol III P. 16 , W . R . Smith : Lectures on the Religion of the Semites (1889) p. 530 . 56

(٦٢) — " و بهذا تعرف كذب من قال إن بيت الله الحرام إنما هو بيت زحل بناه البانى الأول على طوالع معلومة و اتصالات مقبولة و سماه بيت زحل " . الشهرستاني / ٤٣١

(٦٣) القـــرآن .

(٦٤) إبن حبيب /٣٦١

(٦٥) إبن حبيب / ٣١٦

(٦٦) M. Rugwin : Childlife p. 171

(٦٧) لنظر إبن خلدون ١/ ٣٢٢

(٦٨) But we may point out in conclusion that in all probabe the Greeks borrowed from Arabia at an early period through South Arabian in Cenco merchants there Apollo and his mother Lato (Latin form Lantona) (Encyclopaedia of Islam Vol . I p. 388 .

(٦٩) البيانونية ٨/ ٥١٢ . و أنظر كذلك Encyclopaedia of Islam Vol . II p. 327

(٧٠) و يقول أبوعبيدة : " كانت اللات و العزى و منات أصناما من حجارة في جوف الكعبة " (مثير العزم لإبن الجوزية / ١١٢

(٧١) الصحيح البخاري باب بيان فتح مكة

(٧٢) إبن هشام ٤/٩٥

(٧٣) القرآن : ١٥ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٦١ ، ٨٥ : ١ ، يرى علماء اللغة أن كلمة البروج مأخوذة من " البُرْج "

Converted by Tiff Combine - unregistered

الذي يعني الظهور (لنظر البيطاري و أيضا لسان العرب ٣٣/٣) لكن بعض المستشرقين يرون أن هذه الكلمة من أصل يوناني أو لاتيني (BURGUS) و معناه منارة سور البلد (JEFFRY) لو صحت هذه الرؤية لتكشف من أن التأثيرات الإغريقية على علم الهيئة و النجوم الجاهلي كانت متواجدة قبل ظهور الإسلام.

(٧٤) ٢٥ : ٦١

(٧٥) ٣٦ ، ٣٨ و لنظر أيضا كتاب الأنواء

(٧٦) ٥٥ : ١٧ و لنظر أيضا كتاب الأنواء / ١٤١

(٧٧) القرآن ٨١ : ١٦

(٧٨) أيضا : ٣٣ ، ١٧

(٧٩) أيضا ٣٧ : ٦

(٨٠) أيضا : ٧٥ ، ٨

(٨١) أيضا ٦ : ٧٥

(٨٢) أيضا ٥٠ : ٥٥ ، ٤٨ : ٦

(٨٣) أيضا : ٦ ٩٧

(٨٤) أيضا ١٠ : ٥

(٨٥) كتاب هيئة جديد ٦/ ١٥

(٨٦) كتاب الأنواء ١٢١/٦ و كتاب الأزمنة و الأمكنة ١/ ١٧٠ و راجع أيضا المخصص لإبن سيدة ٩ / ١٢ ، ١٤

(٨٧) كتاب الأنواء / ١٢ و آثار الباقية (سخاو) / ٣٥١ ، ٣٥٢ و الأزمنة و الأمكنة ١ / ١٨٦ و المخصص ٩ / ٩

(٨٨) كتاب الأنواء / ٧٠ و قزويني عجائب / ١٢

(٨٩) ـ " قال أبو إسحاق الزجاجي أن السنة لربع لجزاء كل جزء منها سبعة لنواء ، كل نوء منها ثلاثة عشر يوما و يزداد فيها يوماً لتتم السنة ثلاثمائة و خمسة و ستين يوماً و هو مقدار قطع الشمس فلك البروج " ـ القزويني / ٥١ (٣٦٥ = ١٣ + ١ x ٧ x ٤)

(٩٠) ـــ " فإذا حاذت الشمس بينهما إعتدل الزمان و إستوى الليل و النهار " ـ القزويني / ١٢

(٩١) " إذا طلع السرطان إستوى الزمان " إبن قتيبة / ١٨

(٩٢) Ibi- The latest point of ecliptyca or Sidereal zodiac coincident with the mean equinoctial point (Vernal the or point of aries) of the mean Vernal equinox day of 285 A . D . which occurred on Sunday March 22 , 29 18 1 S.T. of the year Almanac 1962 position page 2.

(٩٣) ـــ " و حلول الشمس بينهما لعشرين ليلة تخلو من آذار " إبن قتيبة / ١٨ و لنظر أيضا القزويني / ٤٢ و للرزوقي ١٢٧/١

(٩٤) قد تغيرت الآن أمكنة البروج و حل برج " الحمل " محل برج " الحوت " و " الجوزة " محل " الدلو " و هكذا تحول كل برج من مكانه.

(٩٥) آثار الباقية (سخاو) /٣٤٢

(٩٦) كتاب الأنواء /١٢٦

(٩٧) " إذا ما البدر تم معه الثريا فذاك البرد أوله فشتاء البيروني/٣٣٧

(٩٨) " إذا ما كان الدبران يوما لأربع عشرة قمرا تمام فذاك الشتاء لكل أرض". البيروني/٣٣٧

Converted by Tiff Combine - unregistered

(٩٩) آثار البلادية /٢٣٧

(١٠٠) أنظر كتاب الأصنام. حينما تطلع "الهيهـــا" يكثر الرطب بالعرب (و تلفظ جميع أنواع الفواكه في النضج) (أنظر المخصص لإبن سيدة) و حينما تسقط . تضع أنثى الجمـــال حملها و معها جميع البهائم الصغيرة و الكبيرة.

(١٠١) إبن التنبية / ٣٧ و أيضا مسندا الإمام حنبل ٣/ ٧

(١٠٢) الصحيح البخاري و أنظر أيضا باب الإستمطار بالنجوم.

(١٠٣) كتاب الأنواء / ١٠٣ و أيضا أنظر كتاب الأزمنة ١ / ١٧١

(١٠٤) تاج العروس ٥ / ٣٤٠ . ٣٤١ و أيضا أنظر كتاب الأزمنة و الأمكنة ١/ ١٧١، ١٧٥ و أيضا أنظر لسان العرب / ٤٩٠ . ٤٩١.

(١٠٥) كتاب الأنواء / ١٠٤ ، و أيضا أنظر الأزمنة ١ / ١٧٦ و آثار البلادية / ٢٣٥ .

(١٠٦) ذكر إبن التنبية معنى النوء في كتاب الأنواء كالآتي : " معنى النوء سقوط النجم منها للغرب مع الفجر (كتاب الأنواء /٦) يعني حينما تتراءى " نجوم الأخذ" غاربة شطر المغرب صباحا، كان يسمى بالنوء، لأن هذه النجوم ذاتها تتراءى طالعة في الشرق مساءً. إنه يمكن تقدير سقوط النجم تقديرا سديدا و ميسورا في ١٣ أو ١٤ من التاريخ القمري حينما يطلع القمر بدءاً من الشرق و يغرب صباحا في الغرب. و النجوم التي تكون لنذائه حوالي القمر يمكن لرجل عادي أن يعرف الوقت الصحيح لسقوطها. و أنظر كتاب الأنواء / ١١. و راجع أيضا المخصص لإبن سيدة ٩ / ١٣ .

(١٠٧) آثار البلادية / ٢٣٥ . و يرى صاحب المقال في " موسوعة الإسلام " أن العرب كانوا يسمون فصل الأمطار ربيعا . ١ / ٣٢١ (و الأمطار في العرب تنزل في الصيف).

(١٠٨) الأزمنـــة / ١٦٨

(١٠٩) و يقول المرزوقي ـــــ "إن كثيرا من علماء الرواة يزعمون أن شهري ربيع إنما سميا للربيع، و إن جمادين إنما سميتا للجفاء و وجود الماء، و إن شعبان إنما سمي شعبان لتشعب القبائل فيها هم من الرابع للمحاضر، و إن شهر رمضان لشدة الحر و الرمض و إن الصفر نسب إلى الزمان الذي يسمى صفرى ، و هذا الذي ذكروا أمر قريب لا معنى في الوهم لأنا على الترتيب نجد أزمان السنة مذهم. الأزمنة / ١٦٢ . ١٦٨ .

(١١٠) و يقول مارغوليـــيث " For three months : months and one spring month a truce of God was observed by many tribes who therein laid down their arms to their enemies"

و ذكر في الهامش في هذا الموضع بالذات "Nonsense and preconceptions" " Two months after the summer solstice and one in mid spring " (Margoliouth : Mohammed & the Rise of Islam p. 5)

Encyclopaedia of Islam Vol . II P. (١١١)

(١١٢) لسان العرب ٦ / ٢١٠ و أنظر أيضا نهاية غريب الحديث ٣ / ٣٦٥ .

(١١٣) لسان العرب ١٠ / ١٢٠ و أنظر أيضا نهاية غريب الحديث ٣ / ١٩٥ .

(١١٤) The calving time for camels is in February and early March. W. R. Smith : Lectures on the Religion of the Semites (1889) .

(١١٥) المرجع السابق :

(١١٦) المرجع السابق : ص : ٢٢٧ . ٢٢٨ .

(١١٧) الصحيح البخاري و أنظر أيضا مسند الإمام حنبل ١ / ٢٦٤ و / ٢٨٣ .

(١١٨) الصحيح البخاري ـــ إنه يبدو من هاتين الروايتين لإبن عباس رضي الله عنهما أنه إما

Converted by Tiff Combine - unregistered

وجّه يوم عاشوراء ليهود المدينة أمام رسول الله صلى الله عليه و سلم توجيها غير صائب أو أخطأ الرواة المسلمون في فهمه ، فإن خروج بني إسرائيل ليس مما وقع في شهر تشرين (راجع الفاروق ١ : ١٢ ـ ٦) .

(١١٩) Margoliouth : Mohammed & the Rise of Islam p. 250

(١٢٠) ذرية إبراهيم هم السكان القدامى لشمال العرب .

(١٢١) البداية و النهاية ٣ / ٢٠٧ و راجع أيضا الطبري ٢ / ٢٥٣ .

(١٢٢) البداية ٣ / ٢٠٧ .

(١٢٣) ليس من المعلوم لماذا كان أهل المدينة يتجنبون هذا الصوم إلى هذا العهد، ففي زمن معاوية رضي الله عنه ارتفع هذا التساؤل مرة أخرى ، فتحدى علماء المدينة و فكر لهم حديثا لرسول الله صلى الله عليه و سلم بهذا الخصوص " يقول حميد بن عبد الرحمان بن عوف إنه سمع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يوم عاشوراء عام حج على المنبر يقول : يا أهل المدينة أين علماءكم سمعته رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول هذا يوم عاشوراء و لم يكتب الله عليكم صيامه و أنا صائم فمن شاء فليصم و من شاء فليفطر " (للوقوف بباب صيام يوم عاشوراء) . (١٢٤) مسند الإمام حنبل ٤ / ٢١٥٤ .

(١٢٥) مسند الإمام حنبل ٤ / ٢١٣٥ و لنظر أيضا / ٢٥٤ و / ٢٢١٤ .

(١٢٦) آثار الباقية للبيروني / ٣٣٠ .

(١٢٧) الأزمنة و الأمكنة ١ / ١٦٧ .

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشيخ معين الدين السجزى الأجميرى
فى ضوء التاريخ

بقلم: الدكتور فيصل نثار أحمد الفاروقى
رئيس قسم اللغة العربية و آدابها - جامعة طنطا

راجت فى الهند أول ما راجت سلسلتان للصوفية، أولاهما السلسلة السهروردية التى كانت قد لقيت قبولا ملحوظا فى المناطق الغربية، و كان رجالها و دعاتها يتقدمون نحو الهند الشمالية أيضا، و الثانية السلسلة الچشتية التى تداولت و ازدهرت منذ قدوم الشيخ الفواجه معين الدين حسن الملقب "غريب نواز" رحمه الله (ف ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧م) الذى اجتاز الحدود الغربية لينشر رسالته فى قلب الهند و يجعل مدينة "أجمير" قبلة للروحيين و مهوى لأفئدتهم للأبد. كان الشيخ شهاب الدين السهروردى مؤسس السلسلة السهروردية (ف ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤م) قد استفاد منه شيوخ السلسلة الچشتية أيضا، و كان مؤلفه الجليل القدر "*عوارف المعارف*" يعتبر "الدليل" لرجال التصوف، و هو من الكتب العديدة التى أثبتت بالقرآن و السنة أن التصوف ليس شيئا أعجميا أو غير إسلامى بل هو عبارة عن روح الدين، و تداولته كذلك سائر مباحثه النظرية بالبحث و المعالجة. لقد فنّد كتاب "*عوارف المعارف*" و كتاب "*كشف المحجوب*" و أمثالهما من الكتب كل ما كان يوجهه علماء الظاهر إلى أهل التصوف من اعتراضات و شبهات، و جعلته أوهن من بيت العنكبوت؛ و لم يبق عند أهل الظاهر شئ يستندون إليه لمعارضة الصوفية سوى مسئلة "السماع". إن شيوخ السلسلة السهروردية قد كتبوا الكثير حول مسائل التصوف النظرية، و ظلت هذه السلسلة مستمرة طوال قرون فيما بعد.

و أما مقبولية السلسلة الچشتية فكان لها سببان هامان، أحدهما هو أن شيوخها و رجالها لم يرتبطوا برجال الحكم و السلطة، و إنما أقاموا علاقات عميقة مع طبقات الجماهير المتخلفة المنبوذة المضطهدة. إن رجال السلسلة

Converted by Tiff Combine - unregistered

السهروردية كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى البلاط الملكى حتى عهد سلاطين أسرة "تغلق"، لدرجة أنهم لم يكونوا يرفعون إلى السلطان طلبات و عرائض أهل الحاجة فحسب بل كان الشيخ ركن الدين الملتانى (ف ٧٣٥ هـ/١٣٣٥م) قد استخدم نفوذه ليحفظ مدينة ملتان من أن تتعرض لمجزرة شاملة على يد السلطان محمد تغلق (ف ٧٥٢ هـ/١٣٥١م) لكن شيوخ السلسلة الچشتية كانوا يكتفون "بالدعاء و عمل التمائم و التعاويذ لهؤلاء البائسين المحزونين المساكين، و قلما كانوا يشفعون لأحد إلى الملك. و الأمر الثانى الذى يجدر بالذكر هو أن شيوخ الأسرة الچشتية اجتنبوا فى البداية من التأليف و الكتابة، و إذا قال الشيخ نظام الدين (ف ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥م) "إن أحدا من مشائخنا لم يؤلف كتابا" فمعناه أن شيوخ الچشتية لم يخلفوا كتابا حول مسائل التصوف النظرية مثل كتاب "*مرصاد العباد*" و "*قوت القلوب*" و "*كشف المحجوب*" و "*التعرف*" و "*عوارف المعارف*" و "*آداب المريدين*" و ما إليها، و يرجع ذلك إلى أن شيوخ الچشتية اعتبروا التصوف "حالا" يحتا و لم يهتموا فيه بـ "القال"، حيث أنهم كانوا يعتقدون أن التصوف عمل كله، و لا يمكن أن يسعه الشرح والبيان على غرار الفلسفة، و أن الذى تصفه الكلمات لن يكون "تصوفا"، و لذلك فإنهم ركزوا عنايتهم على شكل التصوف العملى و قطعوا النظر من صورته النظرية، و ذلك هو سرّ النجاح الذى أحرزوه فى تعميم رسالتهم.

ورد فى كتاب "*فوائد الفواد*" أن شابا ذهب يوما بزميل له هندوكى إلى زاوية الشيخ نظام الدين أولياء و قدمه للشيخ قائلا "هذا أخى" فسأله الشيخ : هل لأخيك هذا رغبة فى الإسلام أم لا؟ فقال الشاب إننى جئت به إلى حضرتكم لكى يصبح مسلما بفضل نظرتكم العطوفة، فافرورقت عينا الشيخ نظام الدين أولياء و قال : "إن هذا القول لا يفيده" المقال"، و لكن إذا حصلت له صحبة صالح تقىّ، يرجى أن يكون مسلما بفضله و بركته".

وردت هذه القصة فى "*فوائد الفواد*" لدى ذكر مجلس ٤/ رمضان المبارك سنة ٧١٧هـ على نحو همشى، لكنها تحمل أهمية بالغة من أجل فهم رسالة شيوخ الچشتية ، و سؤال الشيخ نظام الدين أولياء "هل لأخيك رغبة فى الإسلام أم لا" يدل على صلته القلبية العميقة بدعوة الحق، كما أن الفرورق عينيه لدى طلب الشاب الدعاء منه تعبير عملى عميق عما جاء فى قول الله تعالى "وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ". (٣ : ١٠٤) بالإضافة إلى أن ذلك يدل على مدى تفهم هؤلاء الشيوخ لروح الدعوة الإسلامية. و كما جاء فى الحديث الشريف : "الدين النصيحة" فإن النصيحة الصادقة هى التى جعلت الشيخ نظام الدين تدمع عيناه بهذه المناسبة.

و مهما كان سلوك علماء السوء فى القرون الوسيطة، فإن العلماء

Converted by Tiff Combine - unregistered

الصالحين من أصحاب العمل و التقوى كانوا قد أدركوا جيدا أن الدعوة الإسلامية في الهند تحتاج إلى "التصوف" لا إلى الجدال و المناظرة، و هنا لا بد أن نذكر قصة :

كان الشيخ العلامة رضي الدين الصغاني (ف ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م) معاصر حضرة الشيخ معين الدين حسن الأجميري و صاحب كتاب "*مشارق الأنوار*" عالما و محدثا جليل الشان، لا يدانيه أحد من معاصريه في الحديث و الفقه، و كان من العلماء المعدودين الذين كانوا قد رحلوا في ذلك العصر إلى بغداد و الحجاز بغرض أخذ و سماع الحديث، و قد أثنى عليه الشيخ نظام الدين أولياء في كتابه "*فوائد الفؤاد*" ثناء بالغا، و لا يزال كتابه "*مشارق الأنوار*" يدرس في المدارس الإسلامية و يعد من كتب الحديث الموثوق بها. و قد كان للعلامة الصغاني كتاب آخر إسمه "*مصباح الدجى*"، فلما وصل مدينة "نافور" (NAGAUR) كان قد تلا كتاب "*مصباح الدجى*" بكامله في مجلس واحد يضم جمعا كبيرا من السامعين، منهم القاضي كمال الدين و القاضي حميد الدين الناغوري اللذان كانا من أجل فضلاء ذلك العصر ـ

كان الصغاني يلبس عمامة كبيرة تتدلى شملتها إلى الأمام، و يرتدي قميصا فضفاضا واسع الكمّين على غرار علماء تلك الأيام. و قد طلب منه رجل في نافور أن يعلمه علم التصوف، و لما ألحّ الرجل قال له: إنه لا يتوفر لي هنا فرصة، لأن الناس يجتمعون لديّ من أجل أخذ الحديث، و إذا كنت ترغب في تعلم التصوف فالترافقني؛ فحين نصل إلى مناطق غير المسلمين حيث لا يتزاحم عليّ طلاب الحديث و الفقه فسأعلمك "علم التصوف" بهدوء و طمأنينة.

و انطلق الصغاني و طالب التصوف هذا، و توجها من نافور إلى جالور (JALAUR)، فلما وصلا حدود فجرات خلع الصغاني عمامته الكبيرة و قميصه الواسع الكمين و ارتدى قميصا قصير الكمين على غرار الصوفية و وضع على رأسه قلنسوة، و ليس قبالقبا مكان الحذاء، و حمل كوبا من خزف لشرب الماء، و بدأ يقطع سفره و هو يصلي و يتطوع. و لما مرت على ذلك عدة أيام قال له طالب التصوف: سيدي! كنت قد وعدتني أنك تعلمني التصوف فرافقتك تاركا وطني و أهلي، لكنك لم تعلمني حتى الآن شيئا. فقال الصغاني: إن علم التصوف "حال" و ليس "قالا"، فلتتعهد مثلما أعهد و لتعامل الناس كما أعاملهم، فذلك هو "التصوف". (*سرور الصدور و نور البدور*، مخطوط، مكتبة حبيب گنج بعليجره)

كان الشيخ العلامة الصغاني من أجل علماء و محدثي عصره، و كان العلماء و الفضلاء يتلمذون عليه و يأخذون عنه، لكنه هو الآخر كان قد أدرك و تأكد من أن هذه البحوث العقلية و النقلية، و هذه المناظرات و المجادلات، و هذه الفلسفة و القضايا و التأويلات لا تمثل إلا مظهر الاسلام، و هي تمثل

Converted by Tiff Combine - unregistered

الستار على روحه و جوهره، و أن التعليمات الإسلامية الصحيحة هي تلك التي تظهر في سلوك الصوفية و أعمالهم، و هي التي نشرت الإسلام في الهند و وحدت بين القلوب، و لذلك فعندما يصل الصفائي مناطق غير المسلمين، يرتدي ملابس الصوفية و يحكي طيلسانه.

و من خلال هذه المقدمة لتضح أمران، أحدهما هو أن شيوخ السلسلة السهروردية شرحوا التصوف و فسروه على المستوى النظري و وضعوا مؤلفات حول نواحيه العلمية و الفلسفية لستفاد منها الآخرون أيضا، و أنهم أرادوا الجمع بين الدين و الدنيا في زواياهم، كما حاولوا النفوذ في رجال السلطة و السيادة، و لذلك أصبحت زواياهم محدودة من حيث الزمان و المكان، بينما امتدت زوايا شيوخ الچشتية إلى القرى و الأرياف الصغيرة القاصية و اتخذت موقعها من قلوب الجماهير. لقد كان شيوخ الچشتية شعروا في بداية الأمر بالتناقض الذي ينشأ من امتزاج الدين بالدنيا، فركزوا على فلسفة "الزهد في الدنيا"، و درّبوا أصحابهم عليها، و كان من ثمرة "فلسفة الزهد" هذه أنه عندما بدأ شيخ الإسلام في دهلي يحسد الشيخ قطب الدين بختيار الكعكي (ف ٦٣٤ هـ) على مقبوليته و محبوبيته بين الناس، و شكاه إلى مرشده الشيخ معين الدين الچشتي، فأمر الأخير الكعكي بأن يصحبه إلى مدينة أجمير و يغادر دهلي حتى لا يتسبب في إيذاء أحد، و غادر الكعكي مدينة دهلي امتثالا لأمر المرشد، فخرج في وداعه آلاف من الرجال و الشيوخ و النساء و الأطفال و هم يبكون و يعولون، و كان بين الجموع الملك المسنّ شمس الدين إيلتتمش (ف ٦٣٤ هـ) أيضا، فلما رأى الشيخ معين الدين الچشتي حالة الجماهير هذه، فسخ نيته للذهاب بالكعكي إلى مدينة أجمير.

هذه القصة معروفة، و هي أقدم و أبرز دليل يوجد في كتب التاريخ على علاقات رجال الچشتية المباشرة مع الجماهير، فإنها تدل على أن هؤلاء الشيوخ لم يكونوا معتزلين في الزوايا للحصول على النجاة الفردية، بل كانوا قد ربطوا أنفسهم بقضايا العصر الإجتماعية ربطا عميقا. إنهم لم يلتفتوا إلى الملوك و السلاطين و قصورهم و بلاطهم و لم يقبلوا على تحصيل ثروة الدنيا قط، و إن جاءتهم الثروة فلم يدخروها، و بذلك فإنهم قد أثبتوا بعملهم أن الفقر أيضا ثروة عظيمة في الواقع.

إنهم كانوا يمثلون الفقراء و المساكين و اليائسين و الطبقات المتخلفة، و يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم اتباعا صادقا، و كان دعاؤهم : "*اللّهم أحيني مسكينا و أمتني مسكينا و احشرني في زمرة المساكين*". و من هنا فقد كانت زوايا شيوخ الچشتية تغتصّ و تزدحم بالمساكين و المعوزين دائما.

عندما كان الشيخ نظام الدين أولياء إبن ١٢ أو ١٣ عاما، و كان يتعلم

Converted by Tiff Combine - unregistered

علم اللغة في مدينة بدايون (BUDAON)، ذكر له رجل إسمه أبوبكر الفرّاط أحوال مختلف الزوايا و الشيوخ الذين كان قد زارهم، و لما ذكر زاوية الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني، كان من اللازم أن يذكر ثروته و خدامه و تواجده، لكن الشيخ نظام الدين لم يتأثر بذلك قطعيا، بينما شعر بكيفية خاصة حين ذُكر له فقر الشيخ بابا فريد الدين مسعود (ف ٦٧٠ هـ) و قرر من ساعته أنه سيزور زاويته يوما، و ذلك لأنه كان يميل بطبعه إلى "الفقرالجشتي" الذي كان الله قد قيضه لنشره و ترويجه فيما بعد.

و قد قال هو بنفسه أن العالم كله كان " شيئا لا يعبأ به" في نظر مرشده الشيخ بابا فريد الدين.

فذات مرة كان يسير و معه عصا، فخطر بباله أن يتكئ عليها، و ما أن خالجه ذلك حتى رمى بالعصا على الأرض. و كذلك كان حال مريده الشيخ نظام الدين، فقد بلغه يوما أن الشيخ بهاء الدين زكريا كان قد علّم إبنه الشيخ ركن الدين وردا خاصا، فظل مدة طويلة يسعى للإطلاع على ذلك الورد، و لما لقي الشيخ ركن الدين الملتاني و سمع منه الورد وجد فيه كلمة يا مسبّب الأسباب، و ما أن رأى كلمة الأسباب حتى أبت نفسه و لم يقرأ هذا الدعاء الذي سعى للحصول عليه سنوات و لو مرة واحدة.

إننا نجد في كتب التاريخ حقائق و وقائع عن الشيخ بابا فريدالدين و الشيخ نظام الدين أولياء (و هما من أبرز شيوخ الجشتية) تدلنا على نظام الزوايا الجشتية و تعليمات شيوخها، لكن كتب التاريخ و السيرة لا توفر لنا من الشيخ معين الدين الجشتي الأجميري إلا معلومات قليلة جدا، و هذه المعلومات القليلة هي الأخرى أصبحت مشبوهة بسبب ما أضيف إليها من روايات و قصص غير واقعية في الأزمنة المتأخرة. و قد ذكر البروفيسور محمد حبيب المرحوم في أحد مقالاته أن أقدم كتاب حول سيرة الشيخ الأجميري هو كتاب "*سير الأولياء*" الذي ألف بعد نحو ١٢٥ عاما من وفاته. و المعلومات التي وردت في هذا الكتاب أضاف إليها بعض الأشياء الشيخ جمالي الدهلوي صاحب "*سير العارفين*" الذي كان من شيوخ السلسلة السهروردية و كان قد ذهب إلى "سيستان" الوطن الأصلي للشيخ الأجميري و لعله أخذ بعض المواد فيما يتعلق بالشيخ الأجميري و أسرته و ما إلى ذلك من الروايات المحلية. و إن البروفيسور محمد حبيب قد أصاب فيما ذهب إليه بصفته مؤرخا من أن الشيخ الأجميري و الشيخ جمالي تحول بينهما ثلاثة قرون، و من المستبعد أن يكون الشيخ جمالي قد لقي في سيستان بعد مضي هذه المدة الطويلة رواةً موثوقا بهم هبلوا له معلومات مستندة عن الشيخ الأجميري.

و بقطع النظر عن أن المعلومات التي تتوفر لنا اليوم في كتب السيرة المتداولة عن الشيخ الأجميري هل هي مأخوذة من رحلة الشيخ جمالي إلى

Converted by Tiff Combine - unregistered

سيستان و ما هي مدى ثقتها؟ فإنني أريد أن أقول في هذا المقام أن هناك متسعا لمقالة رثى المرحوم البروفيسور محمد حبيب، و ذلك لأن بعض مؤرخي القرون الوسيطة قد أكدوا أن أول ذكر لسيرة الشيخ الأجميري ورد في كتاب "طبقات ناصري" الذي هو تأليف سنة ١٢٦٠ ميلادية، و كان مؤلفه القاضي منهاج سراج الجوزجاني ولد في سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م و كانت مناطق أجمير و سوالك وهانسي و سرسي و ما إليها قد تمّ عليها الانتصار في سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٤م، و في العام القادم (٥٨٩هـ) كان قطب الدين أيبك انتصر على مدينة ميرت (MEERUT) ثم على دهلي. و كان القاضي الجوزجاني قد ذهب ببعثة إلى "تهستان" سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م و بعد العودة منها عين أستاذا مراقبا لمدرسة "فيروزي" (أوفى) سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، و قدم دهلي في سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م برفقة جنود "ايلتتمش". و هكذا فإنه إن لقي الشيخ الأجميري فإنما تمّ هذا اللقاء فيما بين سنة ٦٢٥ ـ ٦٣٣هـ حين كان الشيخ الأجميري يطوف في مختلف مناطق الهند بمعيّة جنود الملك، بيد أن الجوزجاني لم يذكر لقاءه مع الشيخ الأجميري بصورة واضحة و مباشرة، و إنما قال لدى ذكر هزيمـــة "راي بتهورا" :

"سمعت من ثقـــة كان من معارف جيـــال بلاد "تولك" و كان لقبـــه "معين الدين"، قال لي إني كنت مع السلطان الغازي في تلك الجيش، و كان عدد الفارسين في الجيش الإسلامي قد بلغ آنذاك سبعـــين ألفا و مائة" (طبقات ناصري: ١١٩)

على أن هذا المقتبس من "طبقات ناصري" يحتاج إلـــى تحليـــل دقيق، و إني لا أكاد لسلّم بأن المراد من "الثقة الذي لقبه معين الدين" هو الشيخ الأجميري. صحيح أن أكثر الفاتحين و الغزاة كانوا يحملون مع جيشهم شيوخ السلسلة الچشتية للحصول على البركة، و كان هؤلاء الشيوخ يشاركونهم في الغزو لا تطمع في الأرض و المال و لكن بغية نشر الدين و حماية الشرع المتين، و صحيح كذلك أن الشيخ الأجميري كان في الهند آنئذ، و أن السلطان شهاب الدين غوري كان يستصحب بعض الشيوخ و العلماء و الدراويش في كل حملة من حملاته، فقد كان نور الدين مبارك الغزنوي ابن اخت الشيخ شهاب الدين السهروردي و نظام الدين أبو المزيد ابن أخت الغزنوي برافقانه في معركة عليجره، و كان قضاء تلك المنطقة أُسند إلى أسرتهما بعد الفتح، بالإضافة إلى أننا لا نزال نسمع في الروايات المتوارثة أبا عن جد أن روحانية الشيخ الأجميري كانت قد دعمت حملة أجمير دعما كبيرا، إلا أن الأسلوب الغابر الذي استخدمـــه القاضي الجوزجانـــي في هـــذا المقتبس، يوحي بأنه لا يعني الشيخ الأجميري، حيث أنه لا يمكن أن يُشار إلى شخصية عظيمة مثل

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشيخ الأجميري بكلمات "سمعت من ثقة" المعبرة.

و إذا سلّمنا أن هذا المقتطف من "طبقات ناصري" لا يشير إلى الشيخ الأجميري، فإننا نجد أقدم ذكر له في مجموعة أقوال و مجالس الشيخ نظام الدين أولياء. فقد ورد إسم الشيخ معين الدين حسن السجزي في ثلاثة مواضع من "فوائد الفواد" (مجموعة أقوال الشيخ نظام الدين) و لكن بصورة ضمنية لا بشكل مباشر.

كان الحديث يجري في مجلس ١٥/محرم الحرام من سنة ٧١٠هـ حول موضوع "ما هي آثار و علامات بقاء الإيمان؟" فقال الشيخ نظام الدين للحضور "إن الشيوخ يصلون ركعتين بعد صلاة المغرب من أجل حفظ الإيمان" ثم ذكر طريقة أداء هاتين الركعتين و سرد القصة التالية قائلا:

سمعت الخواجه أحمد حفيد الشيخ معين الدين حسن السجزي - رحمه الله - و كان الخواجه أحمد رجلا صالحا جدا - يقول : "كان لي رفيق يرتبط بالجيش، و كان هو يصلي هاتين الركعتين لحفظ الإيمان. و ذات مرة كنا في حدود أجمير في وقت غير مناسب إذ حان وقت صلاة المغرب، و كانت تلك المنطقة يكثر فيها قطاع الطريق، بل كنا قد رأينا القطاع من بعيد، فصلينا ثلاث ركعات المغرب و ركعتي السنة على عجل و سارعنا إلى جانب المدينة، لكن رفيقي ذلك اشتغل بأداء ركعتي حفظ الإيمان رغم ظهور القطاع. و لما توفي هو إلى رحمة الله جئت قبره لفحص الأحوال فرأيت أنه ارتحل من الدنيا بنفس الشان الذي كان ينبغي له و قال الشيخ نظام الدين أن الخواجه أحمد كان يقول بعد ذكر قصة رفيقه هذا : إنه لو طلب مني القاضي الشهادة فإني أشهد بأنه مات مؤمنا". (فوائد الفواد: ٧٦، ٧٧)

و جاء ذكر الشيخ الأجميري مرة ثانية في مجلس ٢١/ ذي القعدة سنة ٧١٨هـ حيث أن الشيخ نظام الدين قال لدى ذكر الشيخ حميد الدين سوالي أنه كان من مريدي الشيخ معين الدين الأجميري. (فوائد الفواد: ٣٤٦)

و ورد ذكره مرة ثالثة في مجلس ٥/ رمضان سنة ٧٢٠هـ و ذلك ضمن حكاية قصة و هي فيما يلي:

> *"جاء الخواجه وحيد الدين حفيد الشيخ معين الدين السجزي رحمه الله زاوية الشيخ "بابا فريد" في "اجودهن" و أظهر رغبته في المبايعة على يديه، فقال له "بابا فريد" إنني ما حصلت على هذه النعمة إلا من لسرتك لذت، فلا يناسب لي أن أبايعك، و لما ألح الخواجه وحيد الدين مدّ إليه يده ليبايعه"*
> *(فوائد الفواد: ٤٠٥)*

لم يأت ذكر الشيخ الأجميري في "فوائد الفواد" في موطن سوى هذه

Converted by Tiff Combine - unregistered

المواطن الثلاثة، التي هي الأخرى لا تذكره مباشرة، و إنما تذكر حفيديه الخواجه أحمد و الخواجه وحيد الدين. و إذا سلمنا أن ما جاء في "طبقات ناصري" لا يشير إلى الشيخ الأجميري، فإن كتاب "فوائد الفؤاد" هو الكتاب الأقدم الذي ورد فيه اسم الشيخ الأجميري أول مرة، و ذلك ضمن مجالس من مجالس سنة ٧١٠هـ و إن قيل أن ما جاء في "فوائد الفؤاد" لا يتعلق به مباشرة، و إنما جاء ذكره ضمن تذكرة لحفاده، فلا يبقى لدينا كتاب من المصادر القديمة الموجودة ورد فيه ذكره إلا كتاب "سير الأولياء". و من خلال كتاب "سير الأولياء" نعرف أن الشيخ الأجميري كان قد رافق شيخه الخواجه عثمان هروني طوال مخربن عاما سفرا و حضرا، كما نكتشف من خلاله أنه كان قد رحل إلى بغداد و الحجاز و تشرف بحجّ بيت الله، مع أن الشيخ نظام الدين قال: إن أحدا من مشائخنا لم يحجّ.

كما أن مؤلف سير الأولياء ـ و هو الأمير خُرد الكرماني ـ قد ذكر عدة كرامات للشيخ الأجميري نقلها بعض المؤرخين الآخرين أيضا، و فيما يلي مقتطف هام من كتاب "سير الأولياء":

> *"و لا أدل على صدق كرامات الشيخ الأجميري و علو درجاته من أنه قد ارتبط بسلسلته مرشدون جليلو القدر اهتدى بهم عباد الله و نهوا من مكر الدنيا و خداعها، و لذلك فسوف يدوي صيت عظمتهم في لذان الأفلاك و الملائكة إلى يوم القيامة، و سوف يحظى الذين يحبونهم بـ " مقعد صدق عند مليك مقتدر".*

و يضيف المؤلف :

> *" إن قبس الهداية هذه (أي الشيخ الأجميري) نورت الهند بنور الإسلام و سوف يبلغه الأجر و الثواب ما بقي الإيمان و الإسلام في ذرية أولئك الذين اعتنقوا الإسلام بفضل دعوته و تربيته و تعليماته".*

و وردت في كتاب سير الأولياء بعض أقوال الشيخ الأجميري أيضا، منها أنه قال : "إن علامة معرفة الحق هي الاعتزال عن الخلق و الإستغراق في المعرفة. و قال : عندما نظرنا إلى ما وراء عالم الشهادة وجدنا أن العشق و العاشق و المعشوق شيء واحد، أي أن عالم التوحيد ليس فيه إلا الوحدة.

و قال : إن الحاج يطوف بالكعبة بقالبه، لكن العارفين يطوفون بقلوبهم حول العرش و حجاب العظمة و يطلبون رؤية رب الكعبة. و قال: من علامات

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشقاوة أن يرتكب المرء الذنوب ثم يرجو قبوله عند الله. و قال : من شاء أن ينجو من عذاب يوم القيامة فليقم بالعبادة التي لا عبادة أفضل منها عند الله. قيل و ما هي؟ قال : إغاثة الملهوفين و قضاء حاجات اليائسين و إطعام الجائعين. و قال : من كانت فيه ثلاث خصال فاعلموا أنه من أولياء الله : جود كالبحر، و عطف كالشمس، و تواضع كالأرض".

لقد ألّف كتاب *سير الأولياء* على عهد السلطان فيروز تغلق (٧٥٢ هـ - ١٣٥١م / ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨م)، و يبدو من التاريخ المدرج في آخر الكتاب و الذي يطابق تاريخ وفاة فيروز شاه تغلق (٧٨٩هـ) أن الأمير كُرد كان على قيد الحياة حتى ذلك الوقت، و أنه قد واصل مراجعة الكتاب و الزيادة فيه طوال ٢٥ أو ٣٠ عاما بعد الانتهاء من تأليفه، و إنّا فإن ما ورد في *سير الأولياء* هو الأخر ليس ببالنا معاصرا حيث أنه ألّف بعد نحو ١٢٥ عاما من وفاة الشيخ الأجميري.

و حسب دراستي لنا، فإن أقدم و أهم مصدر لسيرة و أقوال الشيخ الأجميري (الفواتح معين الدين الجشتي) هو كتاب "*سرور الصدور و نور البدور*" الذي لم يطبع حتى اليوم، و لم يبق الآن من نسخه الخطية إلاّ ٢ أو ٣ نسخ في العالم كله.

لقد استفاد من الشيخ الأجميري ملايين الرجال و لا تزال هذه السلسلة جارية؛ و في أيام حياته حظي الاف الرجال بمبايعته، لكننا لا نجد في قائمة خلفائه إلاّ ثلاثة أسماء، أولها الفواتح قطب الدين بختيار الكعكي الذي توفي و كان شهيده حيا. و الخلافة الثانية لمعاصره الشيخ الأجميري و بختيار لكعكي معًا للشيخ بابا فريد الدين مسعود كنج شكر، و لكن بما أن "بابا فريد كان قد نال الخلافة الأولى من الشيخ الكعكي فهو يعتبر من خلفائه هو و أما الخلافة الثالثة فقد نالها للشيخ أبو أحمد حميد الدين بن محمدسوالي الناغوري الذي كان من الأفذاذ في مجال "الترك و الزهد و التجرد" و لذلك لقّبه الشيخ الأجميري نفسه بـ "سلطان التاركين". و قد عمّر طويلا و توفي في ٩/ ربيع الثاني سنة ٦٧٣هـ و ضريحه في ناغور بولاية راجستان.

كان الشيخ حميدالدين الناغوري طالما يقول : "أنا أول مولود وُلد في بيوت المسلمين بعد فتح دهلي"، و كان فتح دهلي - كما أسلفنا - قد حصل في سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م على يد المالك قطب الدين أيبك، و هي السنة التي تولّد فيها الشيخ الناغوري؛ على ذلك فإنه عُمّر نحو ٨٤ سنة. كان الناغوري عالما و عارفاصاحب مؤلفات، و كانت مؤلفاته يطالعها و يستفيد منها الشيخ نظام الدين أولياء الذي كان قد نسخ بقلمه عدة مقتبسات منها نالها صاحب *سير الأولياء* أيضا. و قد أدرج الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي في كتاب *أخبار الأخيار* بعض مقتطفات من مؤلفات الشيخ الناغوري و ذكر أنه قد

Converted by Tiff Combine - unregistered

يمكن أن يكون هو قد لقي الشيخ نظام الدين أولياء.

و كان الشيخ الناغوري يملك أرضا يزرعها بيده و يعول نفسه و عائلته بإنتاجاته، و كان إسم نجله الشيخ عزيز الدين الذي ولد له ثلاثة أبناء: أحدهم الشيخ وحيد الدين الذي انتقل إلـــى رحمـــة الله في سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م، و الثاني هو الشيخ نجيب الدين ابراهيم الذي كان قد تقفى بعض أباءه في زاوية الشيخ نظام الدين أولياء بدهلي و لستفاد منه. كان يقول :

"ذات يوم كنت في حضرة الشيخ نظام الدين إذ جاءه شيخ مسنّ يلبس عمامة كبيرة و جلس عنده و قال: سيدي! كيف نال القاضي عالم هذا القبول و هذه الشعبية. إننا نقيم في الزوايا دائما و لا يدارينا أحد، لكن الناس يتسلقطـون على القاضـي عالم و يحترمونه و يبجلونه و يقدمون له النذور و الهدايا".

و ظل الشيخ نظام الدين يستمع له صامتا و لم ينطق كلمة، ثم بدأ ذلك الشيخ المسنّ يقول بنفسه : سمعت أن ناغـــور كان فيها شيخ يسمـــى الشيخ حميد الدين و أن القاضي عالم هذا من مريديه و تلاميذه هو. و عند ذلك أشار الشيخ نظام الدين إليّ و قال له: هذا من أحفاد الشيخ حميدالدين، فنهض ذلك الشيخ المسنّ و رمى بنفسه على قدميّ.

و كان الشيخ فريد الدين أصغر أبناء الشيخ عزيز الدين من معاصري الشيخ نظام الدين أيضا، و قد قال هو في أثناء مجلس من مجالس صفر سنة ٧٢٩هـ (ديسمبر ١٣٢٨م): "أنا لا أزال أقوم بالوضوء منذ ٧٧ عاما، و كنت اعتليت المنبر لأول مرة حين بلغت السابعة من عمري". و ذلك يعني أن عمره في سنة ٧٢٩هـ/ كان ٨٤ سنة، و أن ولادتـــه حصلت في سنـــة ٤٥هـ/١٢٤٧م. و أما والده الشيخ عزيز الدين فإنه قد توفي فيما بين ٦٦٦ ـ ٦٧٧هـ.

و كان الشيخ فريد الدين الناغوري يختلف إلى دهلي ثم لتطنها في أواخر أيام حياته، و كانت وفاته وقعت في سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م أي بعد ٩ سنوات من وفاة الشيخ نظام الدين أولياء، و في أواخر سنوات حياته (أي فيما بين ٧٢٩ ـ ٧٢٤هـ) سُجّلت أقواله و محاضر مجالسه في مجموعة تحتوي على أقوال و تعليمات جدّه الشيخ حميد الدين الناغوري أيضا، و هذه المجموعة هي التي سميت "*سرور الصدور و نور البدور*"، و قد كتب نسخة خطية منها موجودة في زاوية الشيخ شاه نجم الدين الصوفي، أعدّت لها نسخة ثانية سنة ١٣٠١هـ و هي موجودة في مكتبة النواب حبيد الرحمن خان الشيرواني المرحوم الذاتية التي نُقلت الآن إلى مكتبة جامعة عليجره الإسلامية. و تضم النسخة ٢٥٩ ورقة، و يحتوي ثلثها على "*سرور الصدور*". أما الثلثان الأخيران فيضمّان رسائل و مكاتيب الشيخ حميد الدين و الشيخ عزيز الدين و الشيخ فريد الدين رحمهم الله و توجد فيها معلومات قيّمة نافعة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

تفيد هذه الرسائل أن الشيخ فريد الدين الصوفي النافوري كان قد ورد دهلي في صفر ٦٨١هـ/ أبريل ١٢٨٢م لأول مرة، و كان كاتب من دهلي رسالة إلى أخيه الشيخ نجيب الدين إبراهيم أوصاه فيها بما يلي :

"إنني ما وجدت في مدينة دهلي على الاجمال شيخا عارفا محبا للإنسانية سوى الشيخ نظام الملة و الدين (يريد الشيخ نظام الدين أولياء) فتسلّم عليه من قبلك. لذت و سائر أصدقائك في رسائلك التي سترسلها إلى. أوصل الله بركات أنفاسه إلى كافة المسلمين".

و قد خرج الشيخ نظام الدين أولياء بنفسه للقائه مرتين و أبدى رغبته في الاستماع إلى وعظه؛ و لما رأى أنه (أي الشيخ فريد الدين) يقيم في حجرة ضيقة مظلمة أرسل إليه أحدا من أصحابـــه ـ و هو محمد صوفي ـ ليأتي به و متاعه إليه فيقيم فوق حجرته، لكن الشيخ فريد الدين اعتذر و لم يقبل ذلك. يقول في إحدى رسائله :

" إن الشيخ نظام الدين شيخ الوقت ـ سلمه الله تعالى ـ يلحّ عليّ كثيرا لإلقاء المواعظ، و بما أنه أكثر الناس إحسانا إليّ فإني لا أستطيع أن أرفض ـ و قد حضر الشيخ مندي مرتين و قال لي متعجبا: كيف تقيم في هذه الحجرة الضيقة؟. ثم أرسل إليّ الحاج محمد لأنتقل إليه في مكان فوق حجرته، لكنني اعتذرت لأن المسجد الجامع قريب من هناء و لأني أختلف إلى الشيخ شرف الدين موصمي من حين لآخر أيضا ـ و بجانب ذلك فإنه حينما يُدعى لإلقاء الوعظ فهو يصطحبني معه و لا يدخر جهدا في إكرامي بحكم طبعه الكريم وفقنا الله تعالى لأداء حق لطفه و كرمه".

و متى قدم الشيخ فريد الدين الصوفي إلى دهلـــي مرة أخرى؟ هذا لا نعلمه، لكن يبدو أن عودته من دهلي في هذه المرة كانت قد حصلت في شهر محرم سنة ٦٨٧هـ (فبراير ١٢٨٨م). و في رحلته الأخيرة كان قد وصل دهلي مع زوجه و أولاده في ٢١/ رمضان سنة ٧٣٠هـ/ يوم الإثنين، و كانت دهلي في ذلك الوقت قد تدمرت و تخربت، و كان السلطان محمد بن تغلق قد نقل منها سائر السكـــان إلى "دولت آباد". غير أنه قـــد حـــدث في ملتان ثورة و اضطراب سنة ٧٢٩، فجاء السلطان محمد تغلق دهلي من أجل السيطرة عليها، و أمر الشيخ فريد الدين هو الآخر بالارتحال إلى "دولت آباد" فانتقل

Converted by Tiff Combine - unregistered

إليه في أواخر سنة ٧٣١هـ و لعله هنا قد لقي الشيخ برهان الدين غريب (ف ١٣صفر ٧٣٨ هـ / ١٠ سبتمبر ١٣٣٧م) و أمير حسن علاء السجزي الدهلوي (ف ٢٩ صفر ٧٣٨ هـ / ٢٦ سبتمبر ١٣٣٧م) اللذين كانا موجودين في "دولت اباد" وقتذاك.

لقد تأكد السلطان محمد تغلق بعد ما واجهه من مشكلات و عناء في إخماد ثورة ملك ابراهيم (متبنّى غياث الدين تغلق) في ملتان، تأكد من أنه سوف لا يستطيع أن يحكم الهند الشمالية و هو في دولت اباد، فاصدر الأمر بالعودة إلى دهلي مرة أخرى و يبدو أن الشيخ فريد الدين هو الآخر قد عاد إلي دهلي في شعبان ٧٣٢هـ/ أبريل ١٣٣٢م. و قد توفي إلى رحمة الله في غرّة جمادى الأولى سنة ٧٣٤هـ/ ٨ يناير ١٣٣٤م.

و أيضا توجد في "سرور *الصدور*" معلومات عن الشيخ حميد الدين الناغوري رواها نجله الشيخ عزيز الدين، كما أن الشيخ فريد الدين نفسه قد أودعه معلوماته و مشاهداته. و يتضح من كتاب "*سرور الصدور*" أن الشيخ حميد الدين سوالي الناغوري كان قد تشرف بالحج، و إنه كان مُكرما بالإمامة في زاوية الشيخ الأجميري حيث أن الشيخ الأجميري كان يصلي خلفه، و كان أحيانا يأتيه أحد لإستفتاء أو إستيضاح أمر فيصرفه إلى الشيخ حميد الناغوري.

و ذات مرة كان الشيخ الأجميري في قلعة أجمير إذ جاءه "درويش" و سأله : ما هي الأمور التي لابد أن توجد في زاهد و تارك للدنيا؟ فقال الشيخ : أما في الشريعة فكل من عمل بما أمر به الله و انتهى عما نهى عنه فهو يستحق أن يدعى "تاركا"، و أما في الطريقة فهناك تسعة أمور أخرى لابد أن توجد في الرجل حتى يكون تاركا. ثم التفت إلى الشيخ حميد الدين الصوفي الناغوري و قال له: أخبر هذا الدرويش التفاصيل المتعلقة بـ "الترك" و اكتبها له، لكي يعرضها على أحد من العلماء العارفين ثم ينفع بها المسلمين.

فأخبره الشيخ الناغوري من حقيقة "الترك" عند صوفية السلسلة الچشتية و ذكر له شروطه و مواصفاته التسع على النحو التالي :

أولا: أن لا يقوم بالكسب. ثانيا: أن لا يقترض. ثالثا: أن لا يكشف سرّه و لا يستمين بأحد و لو أصابته الفاقة سبعة أيام. رابعا: أن لا يُبقي شيئا للغد مما توفر له من طعام أو فلة أو نقود أو ملابس. خامسا: أن لا يدعو على أحد. و إن ضايقه أحد فليدع له بالهداية فحسب. سادسا: إن صدر منه عمل حسن فليعتبره من عناية شيخه و شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم و رحمة الله تعالى. سابعا: و إن صدر منه عمل سيئ فليعتبره من شؤم نفسه، و يبعد نفسه عن السيئات، و ليخش الله دائما حتى لا تبدر منه تلك السيئة مرة أخرى. ثامنا: و لما لتمّ ذلك فليصم نهاره و يقم ليله. تاسعا: أن يلتزم

Converted by Tiff Combine - unregistered

الصمت و لا يتكلم إلاّ لحاجة حقيقية. و ذلك لأن الشريعة الإسلامية قد حرّمت الكلام و السكوت كليهما، فمعنى ذلك أن لا يتكلم المرء إلاّ بما يرضى به الله".

لقد بيّن الشيخ النافورى فى هذا الكلام المقتضب الذى يحتوى على تسع نقاط خلاصة السلوك و الطريقة الصوفية، و كل ما زاد على ذلك فهو شرح و تفسير لهذا الكلام. و هنا قد يتساءل أحد لماذا أكد على " الترك و الزهد " تأكيدا بالغا، فليكن ملحوظا أن " الزهد " فى رأى حضرة الخواجه ليس إلاّ عبارة عن الإمتثال لأوامر الله و الإجتناب عما نهى عنه.

و كان الشيخ نصير الدين چراغ الدهلوى (ف ١٨- رمضان ٧٥٧ هـ / ١٣ سبتمبر ١٣٥٦م) أيضا يوصى مريديه بهذا الحديث نفسه فكان يقول لهم " وصيتى لكم هى أن لا تأتوا ما نهى عنه الله و رسوله".

و قال الشيخ النافورى : " إن الله لا يسأل المرء عما فعله من أجله، و إنما يسأل عما تركه من أجله".

و هذه الفلسفة هى التى كلف بها كل مسلم بموجب قول الرسول صلى الله عليه وسلم " الدين يسر ". و أما الأمور التسعة التى ذكرها الشيخ النافورى فهى تتعلق بالصوفية أى أن العمل بها ينتظر من الخواص الذين يريدون التوصل إلى روح الشريعة.

فى تلك الأيام كان فى طبقة العلماء بل فى الصوفية أيضا رجال اشروا ثروة الدنيا، و لذلك كانوا مصابين بالآفات التى تجرها الثروة، بل يبدو أن فى العالم الإسلامى كله كان يدور وقتذاك جدال حول " أن الفقر أفضل أم الغنى "، و قد كان الشيخ سعدى الشيرازى أيضا وضع فى كتابه " فلستان " بابا حول موضوع " معركة الفقر و الغنى " بعنوان " جدال سعدى مع المدعى "، و كان براسل الصوفية فى هذا الخصوص أيضا. فقد كان فى مدينة " ناغور " تاجر يذهب كل سنة بالسمسمة إلى " ملتان " ليبيعها فى سوقها، و يعود منها بالقطن، و كان هذا التاجر يحمل رسائل الشيخ حميد سوالى إلى الشيخ بهاء الدين زكريا الملتانى و يعود بردودها إلى الأول. كان الشيخ النافورى انتقد الشيخ الملتانى لثرائه و غناه من خلال هذه الرسائل، فردّ عليه الأخير بأن الله تعالى وصف متاع الدنيا بأنه قليل (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ) و أن ما عندى هو أقل من القليل، و ماردّ الشيخ النافورى على ذلك بشىء مرة أخرى، لم يحر الشيخ الملتانى جواباً.

و أيضا يفيد هذا الكتاب أنه عندما اتهم الشيخ نجم الدين صغرى الشيخ جلال التبريزى بتهمة، و أقيمت عليه الدعوى فى بلاط الملك ايلتتمش و قدم هو الشيخ بهاء الدين الملتانى كشاهد، كان يتواجد فى ذلك المجلس الشيخ حميد الدين النافورى أيضا، فسأل هذا الأخير الشيخ الملتانى ما هى الحكمة فى أنه حيثما توجد الثروة (المال) توجد معها الحية (مار)، و هل توجد بينهما صلة معنوية؟ فقال الشيخ الملتانى " نعم ! بينهما نسبة

Converted by Tiff Combine - unregistered

معنوية، و هي أن الحية كما تقتل الناس بسمها، كذلك المال يهلك معظم الناس". فعاد الشيخ الناغوري يقول : " و معنى ذلك أن الثروة و الحية من قبيل واحد، و أن من يدخر الثروة فكأنه يدخر الحية ". فنبّه الشيخ الملتاني أن في ذلك إشارة إلى ثروته فقال : " إن من يعرف رقية الحية لا يضره سمّها". فقال الشيخ الناغوري : " و هل من الحكمة أن نرمي حشرة خبيثة سامة خطرة ثم نحفظ رقية لدفع ضررها؟ ". و لما رأى الشيخ الملتاني أن دليل الناغوري أقوى و أسمع بدأ يقول : " هذه التهمة لا تعود عليّ فحسب بل تعود على مرشدي أيضا". فحضرت روح الشيخ شهاب الدين السهروردي و أشارت على الشيخ الملتاني بأن يقول للناغوري : " إن زهدك ليس من الجمال بحيث يخشى عليه أن تصيبه العين، و أما زهدنا فهو جميل لحد أنه يحتاج إلى وصمة لكي لا تصيبه العين، و لذلك فقد وصمناه بسواد الدنيا". و عندما قال الملتاني للناغوري هذا الكلام، عاد الناغوري يقول : " سبحان الله ! و هل زهدكم أجمل من زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن الرسول فضّل الفقر على الغنى و قال : *الفقر فخري و الفقر مني* ". و عند ذلك سكت الشيخ الملتاني و لم يجب شيئا.

و يدلنا كتاب "*سرور الصدور*" أن أحد أنهال الشيخ بهاءالدين الملتاني قدم ناغور فوجد أن الشيخ حميد الدين الناغوري لم يكن موجودا في صلاة الجمعة، فأثار ضجة على ذلك، فقال الشيخ الناغوري إن ناغور ليست مصرا فلا تجب فيها الجمعة، لكنه أفحم العلماء هنده و جادله جدالا، فقال الشيخ: "إننا نعطيك في قبضة الدراويش بقدر ما أخذت من أوقاتنا" و بعد وفاة الشيخ حميد الدين الناغوري كان نهل الشيخ الملتاني هذا في طريقه إلى مكان فاعتقله أحد من قطاع الطريق و قال له: " أنتني بما ورثت من تركة أبيك و إلا قلن أفرج عنك". فكتب إلى أخيه الشيخ صدر الدين الملتاني قصة اعتقاله وشرط النجاة فأرسل إليه المال، و عند ذلك أفرج عنه.

كان الشيخ ركن الدين الملتاني حفيد الشيخ بهاء الدين الملتاني ورد دهلى سنة ٧٢٠هـ على دعوة من السلطان قطب الدين مبارك الخلجي الذي دعاه ليقضي على نفوذ الشيخ نظام الدين أولياء، لكن خسرو خان قتل السلطان في نفس العام و تربع على العرش. و مع ذلك فقد أقام الشيخ ركن الدين في دهلى أربع سنوات، و هو الذي كان قد صلى على جنازة الشيخ نظام الدين أولياء و قال : اليوم علمت أن الله تعالى إنما أبقاني في مدينة دهلى أربع سنوات لكي أتشرف بإمامة الصلاة على سلطان المشائخ. (*سير الأولياء*)

فهر أن سبب إقامته الطويلة في دهلى هو - فيما يبدو - أنه كان قد وقع من برج قصر خسرو خان مما أصاب وجهه بجروح خطيرة و انكسر عظمه أيضا، و من الظاهر أن ذلك يكون قد أتجاه إلى إقامة طويلة في دهلى؛ و الأغلب أن هذا الحادث وقع في سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢١م، حيث أن في ذلك العام

Converted by Tiff Combine - unregistered

نفسه كان خسرو خان أقتل على يد فهاث الدين تغلق بعد أن تولى الحكم أربعة أشهر و بضعة أيام.

قال الشيخ فريد الدين : سمعت شيخي أن الخواجه معين الدين كان كثيرا ما ينشد بيتين فارسيين معناهما :

" أيها القلب ! عايش الآهات و الزفرات، و عايش العين الدامعة و الوجه الأصفر. و إذا كنت لا تجد دواء فعايش الألم و تفاعل معه".

و قال إن " الشيخ جيو " طالما سمع " الخواجه جيو " يقرأ هذين البيتين اللذين فحواهما :

" أيها القلب، لا تحـزن لما سيحدث غدا، فإن ذلك يقضى على كل مسرة. و إن ما قضـــى بـــه ربّ العالمين سيقـع لا محالة، سواء علمناه مسبقـا أو لم نعلمه".

و قال الشيخ فريد الناغوري في ٥/جمادى الآخرة سنة ٧٢٧ هـ :

" كان الشيخ الأكبر ـ قدس الله روحـه ـ قد أمّ " الخواجه جيو " أيضا. و عندما قدم " الخواجه جيو " مدينة أجمير ، بايعه حاكم المدينة و أرسل إليه جارية، و كان " الخواجه جيو " قد أسنّ آنذاك و بلغ من عمره نحو تسعين سنة، فولد له من الجارية إبنان. فقال " الخواجه جيـو " للشيخ الأكبـر مرّة : " عندما كنت شابا أعزب و مستنى حاجة فدعوت الله تعالى، كان دعائى يستجاب من سامته. و الآن ـ و قد بلغت الكبر و أصبحت صاحب أولاد ـ حين تمسنى حاجة و أدعو الله تعالى، لا يستجاب الدعاء و لا تتحقق الحاجة إلاّ بتأخير بالغ، فما هى الحكمة فى ذلك ؟ ". فقال الشيخ الأكبر : " يا شيخ ، لك خير مثال فى قصة مريم عليها السلام، فعندما كانت مريم عزبى كانت تصلها فاكهة الشتاء فى الصيف و فاكهة الصيف فى الشتاء بدون رغبة منها لكى يتفرغ قلبها لله و ينهب إليه، و عندما ولد عيسى عليه السلام كانت مريم تنتظر أن تصلها الفاكهة كذلك، لكن قال الله لها : " *هزّى إليك بجذع النخلة* " أى أننا لا نريد أن يتوزع قلبك لأجل الطعام بعد أن انشغل بالله بولدك ". فلما سمع " الخواجه جيو " ذلك استحسنه و أعجب به ".

كما يفيد كتاب "*سرور الصدور*" أن قافلـة تضمّ أربعين زميلا كانت قد وردت دهلى على عهـد السلطان شمس الدين ايلتتمش، و كان السلطان قد منح كلا منهم جائزة ثمينة، و كان من بين القافلة الشيخ نجيب الدين النخشبى أيضا، الذى وزع جزءا من جائزته على الفقراء و أنفق البقية فى استضافة الأصدقاء و الزملاء، و اتخذه السلطان ايلتتمش أبا لنفسه و أسند إليه منصب "شيخ الإسلام" لدهلى، فاقتطن هو دهلى، و تفرق الزملاء الآخرون فى مختلف المدن و سكنوها، و قدم الشيخ معين الدين مدينة أجمير. و قد كان الشيخ الأجميرى ورد دهلى للقاء الشيخ نجيب الدين أيام كان "شيخ الإسلام" فيها، و كان الشيخ حميد الدين الناغورى هو الآخر

Converted by Tiff Combine - unregistered

يختلف إلى دهلى.

و قد حدث مرة أن الشيخ نجيب الدين الخشبى، و الشيخ معين الدين الأجميرى، و الشيخ جلال الدين التبريزى، و الشيخ قطب الدين بختيار الكعكى، و الشيخ حميد الدين الصوفى الناغورى اجتمعوا فى حفلة طعام، و جرى الحديث حول "من هو شيخ الوقت فى هذا الزمان و من يمكن أن يكون؟" فأبدى كل واحد من رأيه، لكن الشيخ حميد الدين الناغورى قال : "إن شيخ الوقت فى هذا العصر هو الفلوس أو البهيمة". فقالوا له إننا نتحادث بجدية و أنت تُطرف. فقال الشيخ الناغورى: و أنا الآخر جادٌ فيما أقول، فإن من يملك نقودا و أموالا طائلة هو الذى يعتبر شيخ العصر فى هذه الأيام. فلما سمعوا كلمته البليغة هذه سكتوا.

و قد قال الشيخ حميد الدين الصوفى مرة (و ذلك فى الخامس من جمادى الأولى سنة ٦٦٦هـ): لى ثلاثة شيوخ، شيخ بايعته و هو الشيخ معين الدين الأجميرى، و شيخ صاهرته و هو الشيخ شمس الدين الطواشى، و شيخ أعطانى الخرقة و هو الشيخ حميد الدين محمد البويتى.

غير أنه كان قد نال خرقة البيعة و الإجازة من الشيخ الأجميرى أيضاً، و كانت الخرقة محفوظة لدى حفيده الشيخ فريد الدين الصوفى، و قد كان هذا بعث بعمامة إلى جمال الدين "متصرف" ناغور و أرفقها رسالة كتب فيها:

> *"أرسل لك هذه العمامة التى أعطانى إياها شيخى، الذى نالها من شيخه معين الدين السجزى (الأجميرى) قدس الله أرواحهما. فمن وضعها على رأسه بكل أدب و احترام و صلّى ركعتين ثم طلب بُغية، يرجى أن تتحقق بفضل الله تعالى".*

و قد كانت خلعة الشيخ الأجميرى هى الأخرى وصلت إلى الشيخ فريد الدين الناغورى، و كان الشيخ الأجميرى قد أخذ منه ـ وقت مبايعته ـ ميثاقا بأنه " سيحبّ التصوف و يخدم الصوفية " ثم ألبسه عباءته و قال : " هذه عباءة كساانيها شيخى، و ها أنا اليوم ألبسها لك ".

و تصارى القول أن هذا الكتاب (*سرور الصدور*) أغلى و أهم مصدر لسيرة و أقوال الشيخ الأجميرى و أحد خلفائه الكبار، و قد وردت فيه إشارة إلى كتاب إسمه "*شرف الأنوار*" و هو نادر الوجود الآن، و يُقدّر أن هذا الكتاب كان يحتوى على أقوال الشيخ حميد الدين الناغورى و كان موزعا على عدة فصول و أبواب. و لو عثرنا على هذا الكتاب فسنجد فيه ـ أيضا ـ معلومات قيمة للغاية عن الشيخ الأجميرى، و سيعتبر هو مصدرا أقدم من كتاب "*سرور الصدور*" فى سيرة الشيخ الأجميرى و تاريخ حياته.

Converted by Tiff Combine - unregistered

دار العلوم تاج المساجد و مؤسّسه
(الشيخ محمد عمران خان الندوى)

بقلم : الدكتور محمد حسان خان
الاستاذ المشارك، جامعة بركة الله بهوپال

بهوپال : (إمارة إسلامية)

مدينة بهوپال (BHOPAL)، و من قبل، الإمارة المسماة بهوپال، تقع فى وسط الهند، تقسم شطر الجنوب من الشمال، و هكذا أصبحت قلب هذه البلاد، كانت عظيمة حقا ، و هذه الأهمية لمدينة بهوپال باقية إلى اليوم.

كانت إمارة بهوپال المنطقة مركزا للعلوم الدينية و لم توجد أية إمارة سوى حيدرآباد بعد زوال الدولة المغولية العظيمة فى الهند ، ان تساويها. فهى أضاءت شمعة العلم و العرفان و نشرت العقائد الإسلامية الصميمة الصافية غير مشوبة بالشرك و الرسوم و البدعات. و هى مشهورة فى العالم بالدور الذى لعبته فى مجال الدين و العلم و خدمة الثقافة الإسلامية الفذية و الشريعة الغراء ، فقد كانت بها داراً للقضاء الشرعى و إدارة رسمية لشئون المساجد و الأوقاف و مدارس ذات شهرة واسعة و لجنة للتأليف و النشر، و لم يكن بها تعصب بغيض ضد أى مذهب، و كانت توجد إدارة خاصة للمعابد الهندوسية و الأديان الأخرى. و كانت تنفق على كل ذلك بميزانية الدولة.

و إمارة بهوپال تمتاز بميزة خاصة قلما توجد مثلها فى أى مكان آخر، و هى أنها حكمت من أربع أميرات على التوالى لعدم وجود ذكر فى أسرتهن. و هن الأميرة قدسيه بيكم و سكندر جهان بيكم و شاهجهان بيكم و أخيرا سلطان جهان بيكم، و عهد هؤلاء الأميرات عهد ذهبى، و هن خدمن العلم و الدين أكثر بكثير من الأمراء الذكور و اشتهرت بسببهن هذه الإمارة

Converted by Tiff Combine - unregistered

الصغيرة ضمن البلاد الهندية فى العالم أجمع.

و الأميرة سكندر جهان بيكم قد عينت المنشى جمال الدين من نسل أبى بكر الصديق رئيس الوزراء بالإمارة، ثم تزوجت به (١) بعد وفاة زوجها الأول، و كان من العلماء و الشيوخ الصالحين، محبا للعلم و العلماء ، و ما ترى بالإمارة من المساجد و الجوامع و مدارس القرآن و الحديث و الفقه كلها بجهوده المخلصة، و هذه الأميرة أنشأت مسجدا كبيرا ببهوبال باسم مسجد اللؤلؤ / موتى مسجد.

ثم تولت الإمارة ابنتها شاهجهـــان بيكم التى حكمـــت الإمـــارة من ١٦ نوفمبر ١٨٦٨م إلى أن توفيت فى ١٦ يونيو ١٩٠١م (٢) و كان زوجها توفى قبل توليها السلطة بسنة. فلما التقت الأميرة بديوك اف ايدنبرا بكلكتا، أشار إليها بالزواج الثانى لأنها تحتاج إلى المشير و المساعد و نعم المشير هو الزوج، فتشاورت الأميرة برئيس وزرائها المنشى جمال الدين فنصحها بأن تتزوج بالعلامة نواب صديق حسن خان القنوجى العالم المتبحر و كان إذ ذاك رئيسا لقسم التاريخ بالإمارة ، فتزوجت به سنة ١٨٧١م، و بعد زواجه و توليه السلطة نيابة عن زوجته ، و كان من قبل عالما محررا ماهرا مبقريا، تمكن من إصلاح الإمارة و أنهى جميع البدع و المنكرات، و خلق جوا علميا فى هذه البقعة، و قدر بمساعدة الطلبة و المتفرغين عليه بأن يؤلف أكثر من ثلاثمائة كتاب فى اللغات الثلاث العربية و الفارسية و الأردية حتى ذاع صيته فى الشرق و الغرب و اعترف بتبحره و فضلـــه علمـــاء العرب و العجم على السواء.

و العلامة صديق حسن خان لقب بعد زواجه بالأميرة بـ " نواب والا جاه أمير الملك " بجهود الأميرة شاهجهان بيكم، فحاول العلامة أن ينشر الإسلام الصحيح البعيد عن البدعات و الرسوم المشـركة بين المسلمـــين. و كان عهد الإنكليز، يكتب عن مساوئهم فاتهم بالوهابية فامرت الحكومة الإنكليزية، و لها انتداب على إمارة بهوبال، العلامة بأن لا يتدخـل فى السياســة الأمارتيـة، و أخذت منه الألقاب.

و تشرفت الإمارة فى عهد شاهجهان بيكم بإمام الحديث فى عصره الشيخ حسين بن محسن الأنصارى الخزرجى اليمانى تلميـذ العلامـــة محمد علي الشوكانى، و كان هو سببا فى نشر علوم الحديث بالهند، و كثير من علماء الهنـد و فضلائها تلمذوا عليه.

و فى عهـد الأميـــرة شاهجهان بيكم الميمون نشرت مؤلفات الإمام ولى الله الدهلوى أمثال "*حجة الله البالغة*" و " *إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء*" بالفارسية و "*فتح البارى شرح البخارى*" للعلامة إبن حجر العسقلانى أول مرة، و "*تفسير نيل الأوطار*" و " *تفسير إبن كثير*" و جميع مؤلفات الأمير صديق حسن خان ، و ذلك كله بنفقات باهظة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

تاج المساجد :

أمراء بهوبال و أميراتها كانوا ذوى شغف للبناء و العمارة كالملوك حكام الهند فى السابق، و شاهجهان بيكم أكثرهم شوقا و رغبة فى البناء و التشييد مثل شاهجهان السابق (و كان ملك الهند و مؤسس "تاج محل") (٣) فالعمارات التى شيدت فى عهدها تاج محل، عالى منزل، بسى نظير، كلثوم اقبال، نور محل، و من أهمها اطلاقا هذا المسجد العظيم المسمى بـ "تاج المساجد" و هو يعتبر من أحد جوامع العالم الإسلامى الضخمة العظيمة، و لا يدانيه مسجد آخر فى سعته بالهند على أقل تقدير و هو يشبه جامع دلهى المشهور و إن كان هذا الأخير يصغر عنه كثيرا.

مساحته :

عرض فناء المسجد و طوله ٣٢٥ X ٣٢٥، و ارتفاع المحراب ٧٤ قدما، و حواشى المسجد و طولها ٣٢٥ قدما و عرضها ٩٨ و نصف قدما و ارتفاع المنارة ١٧٠ قدما، أما الجزء المسقف من المسجد يبلغ سعته إلى ٢١٨ X ٩٤ قدما (٤) . و شيّد جزءان خاصان جانبى المسجد للنسوة، و استعمل الحجر فى بناء المسجد من بهوبال و أكره، و الأعمدة الحجرية نقشت عليها نقوشا جميلة و هو قطعة واحدة، و استعمل الرخام بسخاء و جلبت المصلى و اللبن (لبناء الحوض للوضو) المصنوع من الكتجلاس بهلجيكا، و كان البناء من بهوبال و أكره و مثورا و جيبور و غيرها.

و كانت مدرستان كبيرتان فى هذا المسجد الجامع، و عدد طلابها يتجاوز الألف، و كان هؤلاء الطلبة ضيوفا على الدولة أيام رمضان و يؤدون صلاة التراويح بتاج المساجد.

ثم خلفت الأميرة سلطان جهان بيكم أمها فى الحكم، و كانت مقدرة للعلم محبة لأهله كوالدتها، قد رفقها الله سبحانه و تعالى أن يتم على يديها طبع كتاب "سيرة النبى" المهم للعلامة شبلى النعمانى العالم الهندى الكبير، و كانت رئيسة فخرية لجامعة عليجر الإسلامية. و لكنها لم تكمل هذا المسجد الناقص لإختلاف بينها و بين أمها.

و انتهت هذه الإمارة الفتية بعد ضمها فى عموم الهند سنة ١٩٤٩م.

أسرة الشيخ عمران خان :

كان الشيخ محمد عمران خان الندوى من أصول أفغانية و كان جده لأبيه نورمحمد شغوفا بالقرآن الكريم يدرسه و يعلمه و كانت له علاقة وثيقة

Converted by Tiff Combine - unregistered

بحضرة الشيخ أحمد سعيد المرحوم، و كان أجداد نورمحمد قد انتقلوا من الحدود الأفغانية إلى دلهي.

بعد ثورة ١٨٥٧م الفاشلة انتقل مع أهله إلى بهيكن بور و أميرها استقبله لحسن استقبال و رحب به ترحيبا حارا و طلب له المقام هناك إلى ان شاء الله أن ينتقل إلى إمارة بهوبال الإسلامية الشامخة، و كانت الإمارة تقدر العلماء و لأصحاب الفضيلة حق قدرهم، فاستقبل بحفاوة بالغة و لقي الاحترام الكثير، خصوصا لأن ابنيه الصغيرين حافظا القرآن المجيد مع التجويد و الترسيل و عمرهما يتجاوز العاشرة. و كان أكبرهما المقرئ محمود خان عين مديرا لشئون المساجد و المنح. و كان قول الصدق و الحق الصريح مشهورا عنه، لا يخالف لومة لائم فيها، مرة غضب على فعل أمير بهوبال السئ فتركها و هاجر إلى البلاد المقدسة. و لما ذهب الأميرة سلطان جهان بيكم للحج أرضته و رمته إلى بهوبال.

المفتي عبد الخالق :

و الابن الثاني لنورمحمّد المفتي عبدالهادي جد الشيخ عمران، و كان عالما جليلا و مقرءا ماهرا، اعترف بمهارته العلامة عبدالرحمن البانتي بتي المشهور بعد مناقشته في مسائل القراءة ثم أعطاه شهادته الخاصة.

فقد ترجم المفتي "*الشاطبية*" كتاب التجويد المشهور إلى الأردية بإسم "*تحفة القراء*" و ألف خطبا بالعربية تلقى قبل صلاة الجمعة و لم تطبع بعدُ، و كان خطيبا بالمسجد الجامع ببهوبال، و كان يخطب بالعربية البليغة ارتجالا، و لما سمع سائح عربي يتجول بالهند و وصل إلى بهوبال خطبته العربية قال قولته المشهورة : "يجب أن يكون هذا الشيخ خطيبا بالحرم المكي".

عين على المناصب الكثيرة ببهوبال إلى أن عين مفتيا للإمارة و بقي عليه إلى أن وافاه الأجل.

في آخر عمره غلب عليه شوق السفر إلى الديار المقدسة فسافر للحج في ١١/ابريل ١٩٢٩م و كان مريضا و ضعيفا، و انتقل إلى رحمة الله تعالى هناك في ١٠/مايو ١٩٢٩م قبل الحج بعشرة أيام و دفن بجنة المعلى جنب قبر السيدة خديجة الكبرى رضي الله عنها. (٥)

الشيخ محمد إلياس خان :

و كان والد الشيخ عمران خان محمّد إلياس خـــان، و هو كان عالمـا و منتظما ماهـــرا و مديرا كاملا و ما رأينا من الصلاحية الإدارية الفخمـــة

Converted by Tiff Combine - unregistered

و سليقة النظام العجيبة فى ذات الشيخ عمران هو عكس والده. و كان الشيخ عمران يقول بنفسه أن ما يوجد فىّ من النظام و الإدارة سببهما تربية الوالد و الشيخ مسعود على الندوى المرحوم المدير السابق لدارالمصنفين باعظم كره.

عين الشيخ محمد الياس خان مديرا لشئون المساجد و المنح و المناصب بعد وفاة عمه الشيخ محمود خان فى ١/يونيو ١٩٢٤م، و أضاف الأمير حميدالله خان شئون الأوقاف الإسلامية إليه فى ٣١ أغسطس ١٩٣١م، بعد أن عرف مهارته و مقدرته على النظام و الإدارة، فقد أصلح إصلاحات واسعة النطاق فى جميع هذه المصالح و المرافق ثم تقاعد سنة ١٩٤٠م.

مرض الشيخ محمد الياس خان بعد تقاعده و لما اشتد مرضه و كان إبنه الشيخ عمران خان عميدا لندوة العلماء عند ذلك الوقت لصطحب أباه إلى ندوة العلماء للعلاج بلكناؤ. و عالجه هناك الدكتور الشريف عبد العلى المرحوم المدير السابق لندوة العلماء و الأخ الأكبر للسيد أبى الحسن علي الندوى، و كان ماهراً فى طبه و نمولجا فى تقواه فاوصى والد الشيخ محمد عمران ابنه إذا يتوفى يجب أن يشترك الشيخ عبد العلى فى غسله و يصلى عليه صلاة الجنازة. ثم توفى فى ٢/ديسمبر ١٩٤١م و صلى عليه الشيخ عبد العلى و دفن فى مقبرة دالى كنج بمدينة لكناؤ.

الشيخ محمد ادريس خان أخ صغير للشيخ محمد الياس و عم للشيخ عمران، و كان من العلماء و خطيب الجامع، و عين بعد أخيه فى مناصبه و توفى فى ديسمبر ١٩٤٨م.

ولادة الشيخ محمّد عمران خان :

ولد الشيخ محمد عمران خان فى ١٣ أغسطس ١٩١٣م على المشهور، و سمى بهذا الإسم، حفظ القرآن الكريم فى صباه كعادة أسرته و أتمم القرآن الكريم فى التراويح فى مسجد شكورخان (مركز الدعوة و التبليغ لولاية مدهيا برادیش) و لم يتجاوز من العمر تسع سنوات، و درس الدراسة الإبتدائية فى المدرسة الجهانجيرية و مدرسة الايكزندرا ثم أراد والده أن يعلم اولاده الدراسة الدينية فنظر فى مناهج جميع المدارس الموجودة بالهند فى ذلك الوقت ثم اختار ندوة العلماء لإبنيه محمد عمران خان و محمد عرفان خان، و كان اسم الندوة معروفا ببهوپال لأجل زيارات العلامة شبلى النعمانى لهذه البلدة مرارا، ثم طبع سيرته النبوية على يدى سمو الأميرة سلطان جهان بيكم.

دخل الشيخ بندوة العلماء فى الصف العربى الثانى فى ١/يونيو ١٩٢٦م و منذ ذلك الوقت إلى يوم وفاته كانت علاقاته بندوة العلماء قوية

Converted by Tiff Combine - unregistered

متينة كما سبقتي قريبا، و كان يريد أن يسافر إلى لكناؤ للاشتراك في مجلسها الأعلى الذي كان يعقد في وقت قريب و لكنه توفي قبل ذلك.

كانت دارالعلوم ندوة العلماء عند ذهاب الشيخ هناك للدراسة تضم علماء جهبذين مهرة و منتظمين أكفاء من أمثال النواب علي حسن خان بن النواب صديق حسن خان كمدير للدار، و السيد سليمان الندوي كمعتمد للتعليم، و الشيخ حيدر حسن خان كعميد لها.

و كان الشيخ عمران مجداً في الدراسة و النشاطات التعليمية و الثقافية، و قابليته للنظام و الإدارة الجيدة قد اشتهرت من أول وصوله هناك، فاصدر مجلة قلمية باسم "*الهاتف*" في سنة ١٩٣٣م و في آخر سنته الدراسية أصدر مجلة "*المنقاب*" و كان رئيسا لاتحاد طلبة ندوة العلماء سنتين متتاليتين، و كان محبوبا لدى الطلاب و الأساتذة على السواء و اعترفوا جميعا بصلاحياته *الإدارية*.

و في عهد تعلمه زار النواب مزمل الله خان مفتي البرلمان التشريعي للولاية الشمالية ندوة العلماء، و أرضى الشيخ عمران مسئولي الدار أن تكون المأدبة و الترحيب من قبل اتحاد الطلبة لا من المسئولين فتم ما أراد و كان نظام الجلسة صارما مقبولا، و أحسن من نظام الفندق كارلتون الشهير. و كان مطمح أنظار مسئولي الدار أن يكلفوه بنظام المأدبة إذا كانت الجلسة تنعقد من قبل مسئولي الدار، فافرح النواب بجهده و حسن سليقته و أهدى إلى الإتحاد (حزب الطلبة) ألف روبية و قد أنفق الشيخ هذا المبلغ في شراء الأثاث و الضروريات *لدار الإتحاد*.

فقد اشتهر بهذه المناسبة العظيمة، و تحولت الأنظار إليه، فلما تخرج من دارالعلوم، أخذ شهادة الدراسات العليا بتقدير جيد جدا، حين منصرما. و كان التعيين أصلا في وظيفة المؤقف، و كان لفظ المؤقف صغيرا فوضع لأجل الشيخ اصطلاحا جديدا و هو المنصرم. و كان عمر الشيخ إذ ذاك عشرين سنة، فقد عمل في هذه الفترة مشاكل الطلاب الدراسية و نظام الطعام بطريقة مرضية حتى اطمأنوا، و شغل هذا المنصب خمس سنوات.

دراسته في مصر :

بعد فراغه من ندوة العلماء أراد الشيخ أن يدرس بالأزهر الشريف القمة الإسلامية الشامخة، فقدم طلبا لـ "منحة عبيدالله خان" فقبل طلبه فسافر إلى القاهرة في ٦ من اكتوبر ١٩٣٧م و رجع إلى الهند بعد حصوله على التخصص من الأزهر في ١٠ ديسمبر ١٩٣٩م. فقد قبل هو و رفيقه *المولوى سعدالدين* المرحوم أستاذ الجامعة الملية الإسلامية بدلهي، بقسم التخصص بالجامع الأزهر. شهادته كانت تساوي الدكتوراه في العهود السابقة

Converted by Tiff Combine - unregistered

و تساوى الآن لشهادة (Master of Philosophy) بالهند بجهود الشيخ عمران، و استفاد فى ذلك بالعلاقات القائمة بين شيخ الجامع الأزهر الشريف و الإمام الأكبر مصطفى المراغى و السيد سليمان الندوى. و كان من قبل تعطى شهادة بسيطة لغير المصريين و كانت تسمى "عالمية الغرباء" التى كانت ذات أهمية بالهند، و جهود الشيخ أثمرت فقبل هو و رفيقه فى الصفوف الأزهرية العامة و اعتبر ذلك نجاحا باهرا و حدثا عظيما، و لما نهج هذا الهندى بتقدير ممتاز نشر هذا الخبر مصورا فى الجرائد المصرية، و ظهرت التعليقات على صفحاتها، و أرسل فى وفد أزهرى للحج و الزيارة، و كذلك اهتمت الصحافة الهندية بهذا الخبر السار، و كتب السيد سليمان الندوى بمجلة "معارف" المجلة العلمية المعروفة تعليقا على نجاحه، و عند رجوعه استقبل استقبالا حارا بدلهى و لكناؤ و بهوبال. (٦)

بعد وصوله إلى بهوبال كانت المناصب الرفيعة فى انتظاره لمرتبة والده الكبيرة ببهوبال، و من جهة أخرى كان السيد سليمان الندوى و الأستاذ مسعود على الندوى و الدكتور عبدالعلى لم يسمحوا له السفر إلى مصر إلا بوعد الخدمة بعد رجوعه فى ندوة العلماء، فكتب السيد سليمان الندوى رسالة رقيقة إلى والد الشيخ، و كان يميل أيضا أن يبقى ابنه جنبه و يخدم ببهوبال :

" المحترم ـــــــ دام لطفكم

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته،

لنا أهنئك بنجاح ابنك الأخ الموادى حافظ محمد عمران خان سلمه الله تعالى البارى. و الحقيقة إننى لم أتوقع منه هذا النجاح و لكن بفضل الله و كرمه تم ذلك، و اجتهد اجتهادا عظيما فوفقه الله إلى ذلك، و سعدنا به و بجده، فأهنئك تهنئة مباركة، و أتوقع أن يكمل جميع آمالك، و لكن أتمنى من كل قلبى أن تضحى بإبنك هذا للدين و الملة و العلم و الفن، و لا توجد فى هذا الطريق مال أو متاع و لكنه يوجد فيه شىء لأجله نستطيع أن نضحى بكل شىء". (٧)

فرضى الشيخ الياس بعد رسالة السيد سليمان الندوى أن يضحى بابنه للدين و لدار العلوم ندوة العلماء.

و كان من ضمن شروط المنحة التى حصل عليها من إمارة بهوبال أن يخدم الإمارة بعد رجوعه من الدراسات العليا.

و كان الشيخ مائلا إلى ندوة العلماء و مشتاقا لها، فحاول المحاولات كلها حتى سمح له حكام الإمارة بالخدمة فى ندوة العلماء المعهد العلمى العظيم ذائع

Converted by Tiff Combine - unregistered

شهرة عالمية. ففرح الشيخ جدا و سافر إلى لكناو مسرورا و مبتهجا لحصوله على مبتغاه.

في نحوة العلماء مرة أخرى :

عين الشيخ محمّد عمران خان نائب عميد ندوة العلماء في ٢٧ يناير ١٩٤٠م بتعيين السيد سليمان الندوي معتمد تعليم ندوة العلماء و لم يتجاوز ٢٩ سنة، و بعد سنة من تعيينه على هذا المنصب دعى مولانا حيدر حسن خان الطوكي عميد ندوة العلماء إلى إمارته طونك (TONK) حيث ولد و نشأ، و إمارة طونك تحتاج إليه بشدة فغادر الندوة إلى مقره طونك، فشغر هذا المكان، فأصدر السيد سليمان الندوي أمرا بتعيينه على منصب قائمقام العميد في ١/ فبراير ١٩٤١م، و كانت مقدرته على النظام و سيطرته على الإدارة بكاملها أكثر بكثير من جميع الموجودين بندوة العلماء، و كان عمره صغيرا جدا فاخترع كلمة جديدة قائمقام العميد حتى لا يحس الكبار بشيء في نفوسهم من تعيين شاب على هذا المنصب (٨) و إن كانت أعباء المسئولية بكاملها. ثم عين عميدا في ٢٦ ابريل ١٩٤٢م بقرار من المجلس الأعلى لندوة العلماء و عمل على هذا المنصب إلى سنة ١٩٥٨م (و قد أخذ الإجازة الطويلة لبعض الأعمال الضرورية في أثناء هذه المدة و سيأتي تفصيلها في الصفحات الآتية) و كان هذا الوقت صعبا و شاقا على ندوة العلماء. و الحالة الإقتصادية محاطة بالمخاوف، و كانت لا تصرف للرتبات للأساتذة شهورا عديدة فتصدى الشيخ للتغيير الجذري في الحالة الإقتصادية لندوة العلماء و هو جعل ندوة العلماء حركة شعبية حتى يتهرع الشعب بالنفس و النفيس، فنجح في هذه المهمة ففتح الباب من أوسع طرقه و حلت هذه المشكلة إلى الأبد، فجاب البلاد طولا و عرضا من حيدرآباد و مدراس إلى بومبائي و كلكتا فجمع التبرعات و كل هذه الأسفار ذات مشقة بالغة، و خصوصا سفر كلكتا الذي تم في رمضان (١٣٦٤هـ / ١٩٤٥) و تولدت إبنته الوحيدة صالحة زوجة الدكتور مسعود الرحمن خان، الإبنة و أمها كانتا مريضتان شديدتان، و كان الشيخ متفكراً عن صحتهما، يكتب الرسالة إليها كل يوم و يبرق البرقيات للإطمئنان على صحتهما و لم يرجع إلاّ بعد الحصول على ثلاثين ألف روبية، فسرّ أهل الندوة بهذا الخبر السار و شكره مدير ندوة العلماء الدكتور عبدالعلي و أهداء العربية الجميلة التي كان يستقلها بندوة العلماء. و كتب الشيخ مسعود على الندوي إلى الشيخ محمد عمران خان :

" مسرورت جدا بنجاحك الباهر، أدعو الله لنجاحك في المستقبل

Converted by Tiff Combine - unregistered

ليضاء، و لم ينجح أحد مثلك بندوة العلماء في هذه المدة القليلة و حصل على هذا المبلغ العظيم." (٩)

و كتب السيد أبوالحسن علـــي النـــدوي إلى الشيخ محمد عمران من كلكتا في ٢٧ شعبان ١٣٧٦هـ :

خطبتهم خطبة بليغة و جيتهم إلى ندوة العلمـاء فهـم تأثروا و لكن قالوا يجب أن يأتي الشيخ محمد عمران كالسابق حتى يحصل المبلغ الكبير. فلا أعطاه التبرع لشخاص لم نتوقع منهم أبدا ..." فاعتذرت إليهم بطريقة مناسبة من عدم مجيئك، و لكنهم لصروا أن يكون جمع التبرع بطريقة مؤثرة، و هم الذين قالوا يجب أن تمشي أنت أيضا إلى برما، هذه المسئلة أصبحت شديدة، و يجب الاهتمام لذلك و أخي الدكتور عبدالعلي متفكر في هذه المسئلة.

ثم سافر الشيخ عمران إلى بنجلور سنة ١٩٥١م و حصل على ١٥ ألف من الروبيات، و حصل على ٢٠ ألف من بومبائي و كذلك من مدراس. و بعد رجوعه من سفر كلكتا يكتب إلى زوجته إلى بهوبال :

" ليتك تعلمين كيف حالة ندوة الإقتصادية الآن، أنت تاخذين فلوسا فـــي أول التاريخ فلا تستطيعين أن تفهمـي كيف حال الندوة، نحن محتاجون إلى فلس فلس، ستمائة روبية من حيدرابـاد توقفت، و تبرعات برار لا تصل، فلتجول متفكرا." (١٠)

و يكتب إلى زوجته من ندوة العلماء :

" جاءت الرسالة من الدكتور عبدالعلي مدير الدار لا يوجد شيء بندوة العلماء لتسديد المرتبات، أنا متحير ماذا أفعل هم يعطونني ١٥٠ روبية و يريدون مني أن أفعـل كل شـيء و خصوصا مسئلة إحضار الفلوس أصبح من لحتى وحيدا، إذا حصل نقص في المورد المالي ينظر إليّ كل شخص بنظر فيه سؤال و لستعطاء عقلي متحير لا ألو جهدا و لكن الأحوال هندا." (١١)

و يكتب إلى زوجته من حيدرأباد:

Converted by Tiff Combine - unregistered

" كيف أفهمك حتى تقتنع إننى لا أحب أن أتجول كالسائل فى سائر أنحاء الهند و الله يعلم أن حب الندوة و الإحتفاظ بهذه القلعة الدينية العظيمة يحملنى على التجول و التسول." (١٢)

و يكتب الشيخ محمد رضوان القاسمى :

" و تود عمادة الشيخ عمران بندوة العلماء يحفظ فى تاريخها من حيث النظام و الإدارة و السليقة و الرقى المالى." (١٣)

و كان الشيخ عمـــران شـديـدا فى النظام و لكنه كان رقيق القلب و رحيما فى غير ذلك و كان يهتم بأشياء صغيرة للطلاب و الأساتذة إذا يعتذ على أحد برهبه بطريقة أخرى.

يكتب الأستاذ الشيخ مجيب الله الندوى :

" كان أخلاقه مع الطلاب مثاليا الطالب المعارض كان يعترف بفضله و يطيعه أيضا، و إن كنا كطلاب صغار نخالفه متأثرين بسياسة بعض الأساتذة و الطلاب المكرين و كنا نرى جميع أعماله و أفعاله ضد الطلاب و تقييده و التشديد عليه." (١٤)

و نستطيع أن نعرف دوره على حقيقته و طريقة عمله و نظامه فى رسالته كتبها إلى سماحة الشيخ أبى الحسن علي الندوى :

" لنا تعامل مع الاساتذة و الأعضاء غير الدراسية على حساب علمهم و هذا شيء مشهـور علـى حتى المعارض يشهـد بذلك و محكى العمل لا الكلام و لا دخل فى إدارتى للأحاسيس الحب و البغض أبدا و لذا نستطيع أن أقول بالوثوق إنى فى مدة عملى الطويلة ما أخرجت من دارالعلوم لندوة العلماء، و ما شكوت لذلك إلى المسئولين الكبار و لا تحايلت و لا وضعت خطة لذلك حتى اختير المعارضين بهذا الخط بل أكثر من ذلك إننى لا أستشير إلا بالمعارضين لا المطيعين و المتملقين.
و نستطيع أن أقول بالتحديد أن فى فترة عمارتى الطويلة لم يغادر أحد دارالعلوم بسبب سوء معاملتى ربما قلت لأحد شيئا للتأديب و أحس بشيء من ذلك فى نفسه و هذا شيء فطرى و هو من واجبات العميد الصحيح أن العميد إذا يداهن

Converted by Tiff Combine - unregistered

لان يكون محبوبا لدى الجميع و يبتسم فى الأشياء الإدارية الهمة و لا ينبه الغطى، على خطاءه و يتجنب من المسئولية الملقاة عليه و يحول الناس إلى المسئولين الكبار. فى رأيى هؤلاء لا يؤدى المسئولية كاملة و لا يحق له أن يبقى معهدا و يأخذ مرتبا كبيرا." (١٥)

استقالة الشيخ من عمادة ندوة العلماء :

إستقال الشيخ عمران من عمادة ندوة العلماء فى وسط فبراير ١٩٤٨م و أسباب استقالته غير واحدة، فقد كان يريد الانتقال إلى بهوبال بعد إلغاء الإمارة و انضمامها فى عموم الهند، حتى يخدم أهلها و ينظم شئونهم الدينية ثم كانت اختلافات مع مسئولى الدار فى وجهة النظر و طرز العمل فأثر أن يغادر ندوة العلماء و كان صادقا مع نفسه و كان يعتقد أن الشيخ أبا الحسن الندوى يكون مفيد جدا لندوة العلماء و هذه أصبحت حقيقة واقعة اليوم، و كان الشيخ عمران من عادته أن يعترف بالحق و لم يدخل الحسد قلبه أبدا و مع أهميته و قدرته و سيطرته على النظام رأى أنه أفيد لندوة العلماء فتركها و اختار بهوبال بجهوده الدينية و نجح جدا و كان الله ألهمه إلهاما فى ذلك فترقى المعهدان و نفعا المسلمين نفعا كثيرا.

و لما انتقل من لكنؤ إلى بهوبال لشتغل بالدعوة و التبليغ التى اختارها من قبل، و فتح أولا مطعما صغيرا جنب بيته، ثم فتح بقالة.

و لما انتقل الشيخ عمران إلى بهوبال، و السيد سليمان الندوى من قبل استدعى إلى إمارة بهوبال لتولى القضاء، و الجامعتين العربية و الفارسية وجد فراغ إدارى كبير بندوة العلماء يذكر عنه الشيخ أبوالحسن علي الندوى فى رسالته إلى الشيخ عمران :

" أنت هدد فطرتك فضيت علينا لا جواب للرسائل و لا سلام و لا كلام، أنت وعدتنا بدعوتنا إلى بهوبال فما دعوت فلا نهتكى و لكن جواب الرسالة ضرورى، الإنهماك بالدعوة و التبليغ على الرأس و العين، و الاشتغال بالتجارة جائز و محمود، و لكن العلاقات التى تحيط على سبع عشرة سنة إلا تحاول نسيانها أكثر من سنة."

بعد شكوى الصديق لصديقه أقول الآن جاء وقت يجب أن أتى إليكم لو أكتب الرسالة .

" و خلاصة الكلام أن دار علومنا فى أخر منزلة الإنحطاط و الزوال بعضهم يعبرون عن ذلك بالاحتضار و بعضهم يقول

Converted by Tiff Combine - unregistered

إن هذه علامات الموت. الوصف واحد و لكن الفرق فى الألفاظ. قيل قليل عندما جاء السيد سليمان الندوى و الشيخ مسعود على الندوى وجدت الفرصة لأن أتكلم عنهما، بعد التشاور بهما كتبت مذكرة طويلة و كان فيها أهم شيء صدى رجوعك و الشكل المناسب لذلك أن تأتى بكل احترام و عزة و مرتب مناسب على منصب نائب مدير دارالعلوم لندوة العلماء و الأمر الآخر الذى تقرر فى هذه الجلسة أن يكون مجلس تنفيذى يشتمل على أربعة أو خمسة أشخاص و كل الصلاحيات فى يده، و كان فيه اسمان متفقان اسمك و اسمى و الأسماء الأخرى تعين بترشيحهما أى السيد سليمان الندوى و الأستاذ مسعود على الندوى.

" إقرأ هذه السطور المفصلة و فكر أننا واقفون على شفا جرف و حيرى فى وسط الطريق، و نقرأ الفاتحة على الندوة و نلقى جميع المشروعات و الخطات العظيمة التى حلمنا بها لرقى هذه الدار العزيز على نفوسنا." (١٦)

لما انتقل السيد سليمان الندوى إلى بهوپال لتولى مسئوليات كبيرة بإمارة بهوپال و كان معتمدا للتعليم بندوة عين الشيخ أبوالحسن علي الندوى نائب معتمد للتعليم فى ٧ يناير ١٩٤٩م.

بعد تعيينه على هذا المنصب حاول الشيخ أبوالحسن علي الندوى جاهدا لأن يرد الشيخ إلى ندوة العلماء فراسله بهذا الخصوص ثم سافر إلى بهوپال و لكن دخل الشيخ عمران فى حركة الدعوة بحماس و نشاط، فتكلم الندوى بالشيخ عمران فى الرجوع إلى ندوة فاعتذر الشيخ لانشغاله بالدعوة و لكنه أصر على رأيه فوجهه الشيخ إلى أصحابه ببهوپال و مربيه المرشد الشيخ محمد يعقوب المهدى و هم بدورهم ما قبلوا ذهاب الشيخ إلى لكناؤ و ترك بهوپال يتيما. و بعد القيل و القال و المباحثات رضى الشيخ عمران أن يقيم بندوة العلماء ١٣ يوما كعهود، و الأيام الباقية من الشهر يقضيها ببهوپال فى إشراف عمل الدعوة و بدأ العمل على هذا القرار من ٧ يناير ١٩٤٩م.

ثم قرر المجلس الأعلى لندوة العلماء فى ٩ يناير ١٩٥٢م أن يعطى الشيخ ١٨ يوما لندوة العلماء، فوافى الشيخ على هذا القرار أيضا و عمل عليه.

فى سنة ١٩٥٧م بدأ إصرار الشيخ أبوالحسن علي الندوى على انتقال الشيخ عمران إلى ندوة العلماء كلية، فاعتذرالشيخ للمشاغل الدينية الكثيرة و أعمال الدعوة، و دارالعلوم تاج المساجد بهوپال عن الإنتقال الكلى

Converted by Tiff Combine - unregistered

إلى لكناؤ، و لكن زاد إصرار الشيخ على ذلك فاستقال من عمادة ندوة العلماء في ٢٣ يناير ١٩٥٨م.

و لذكر هذا بعض الأمور المهمة من إستقالة الشيخ عمران التي قدمت إلى المجلس الأعلى لندوة العلماء في جلسته في ٤ أغسطس ١٩٥٨م.

"كتبت إليه أيضا أن دارالعلوم بهوبال و مدرسة البنات و أعمال الدعوة بهوبال و ما حولها كلها من أعمال الندوة و في حسابها، و هو قد اعترف بنفسه بأهمية هذه الأعمال و فائدتها و ضرورتها، و لكنه أصر مع ذلك على انتظامي كلية إلى ندوة العلماء و خاصة في عطلة رمضان الماضية أصر بهذا الخصوص إصرارا شديدا، فتشاورت بأهل بهوبال و أصحابي و رفقائي الذين ساعدوني و ساعدوني منذ البداية و كانوا جميعا متفقين أن الأعمال الدينية التي بدأتها لم تنضج و لم تكتمل بعد تتأثر بانتظامي كلية عن بهوبال، ثم سألنا جميعا بشيخي و مرشدي الشيخ يعقوب المجددي و كان مشرفا لجميع الأعمال التي أقوم بها، و الذي قبلت عمادة ندوة العلماء جزئيا بمشاورته، و ذكرت له جميع التفاصيل لم يرض بقبول هذه الفكرة، ثم كتب الشيخ أبوالحسن الندوي رسالة إلى الشيخ المجددي بنفسه فأجابه المرشد بالنفي القاطع و منعني من الانتقال إلى ندوة العلماء كلية، وانبع من الخطرات التي تتدرج تحت ذلك و قال لي إنا يقبلوا منك ٢٤ أو ٢٥ يوما بندوة العلماء و الأيام الخمسة تجمع ثلاثة أو أربعة أشهر فتأتي إلى بهوبال لعشرين يوما حيث لا تتأثر مصالح ندوة العلماء." (١٧)

فلم تقبل هذه الحلول الوسط و بقي الإصرار على الانتقال الكلي إلى ندوة العلماء فانقطع إلى بهوبال، و نفع به الله مسلمي بهوبال و وسط الهند و غيرها.

قيام الشيخ ببهوبال :

إنقلبت الحال بجميع الإمارات التي كانت تحكم عن طريق الأمراء المستقلين من الإنكليز و خاصة إمارة بهوبال التي كانت تؤدي جميع الأعمال الإسلامية و الدينية للمسلمين و غيرهم تنفق عليها من ميزانية الدولة، و الشعب بمعزل من النفقات التي تنفق على هذه الأعمال بسخاء و لم يتعودوا على دفع التبرعات و الإنفاق على هذه الأشياء بأنفسهم، و الشيخ عمران كان يسمعنا من هذا عجبا، يحكي لنا أنه لما كان يختلف إلى بهوبال في زمن دراسته بلكناؤ و يجمع التبرعات لندوة العلماء، كان أهالي بهوبال يندهشون و يقولون أ لم يوجد هناك في لكناؤ أمير يؤدي هذه الخدمات على حسابه الخاص أو ميزانية إمارته، ثم تغيرت الحالة بعد قيام الشيخ ببهوبال و تكوين أذهان الشعب فأهالي هذه البلدة قد تبرعوا لتكمل

Converted by Tiff Combine - unregistered

تاج المساجد بمليون روبية أو تزيد، و أعمال الترميم و الإصلاح مستمرة في كثير من مساجد الإمارة السابقة و عدد ثمانمائة مسجد.

أما الأجزاء التي كان يحكمها الانكليز مباشرة. و كان الناس يقومون بجميع الخدمات الإسلامية بالتبرعات مثل ندوة العلماء، دارالعلوم بديوبند، و مظاهر العلوم بسهارنفور.

عندما علم الشيخ المرحوم باستقلال الهند و أن الإمارات الإسلامية و غير الإسلامية انضمت في عموم الهند تحير و تفكر و إذا يدبر للجهود الإسلامية، و كان ببهوبال شيخ كبير الشان من نسل المجدد للألف الثاني، و من قبل من نسل عمر الفاروق رضي الله عنه، و كان شيخا كاملا عاملا على الكتاب و السنة و مبتعدا من البدع و الرسوم و إسمه الشيخ محمد يعقوب المجددي كما مرّ ، و كان الشيخ عمران مريدا لهذا الولي، فقام الشيخ ببهوبال حسب مشورته.

و أخذ الإجازة من ندوة العلماء في ١٥ سبتمبر ١٩٤٧م ، و طالت هذه الإجازة إلى ١٣ فبراير ١٩٤٩م ، و كانت حاجته لبهوبال شديدة لأجل الإنقلاب الذي تم بالامارة، و كانت الندوة تحتاج إليه أيضا لأجل الضائقة المالية و لصلاحياته الإدارية، و كان الشيخ محمد يعقوب المجددي لا يترك الشيخ أن يبتعد عن بهوبال في هذه الأحوال و لكنه رضي على إصرار الشيخ أبي الحسن أن يمكث أياما ببهوبال و أياما بندوة العلماء كما مرّ في الصفحات الماضية.

الشيخ عمران و علاقته بحركة الدعوة :

عرف الشيخ محمد عمران حركة الشيخ محمد الياس الكاندهلوي المعروف بحركة الدعوة و التبليغ، بندوة العلماء من طريق الشيخ أبي الحسن علي الندوي، و كان الشيخ عمران يختلف إلى المركز العام للحركة بدلهي و يقضي هناك أياما، و لما اقترب الشيخ بالشيخ إلياس و عرف هو أيضا صلاحيته و ميزاته قبل الشيخ بالحركة بشرائطه، كان يحكي الشيخ عمران لنا أنه لما تقابل الشيخ بلكناؤ و دعاني للاشتراك بأعمال الدعوة قلت له صراحة أن في ذمتي أعمال كثيرة و اشتغل بمشاغل إجتماعية و تعليمية كثيرة و حركتكم هذه للبطالين و القاعدين فوضح الشيخ الياس أمامه و شرح له أننا لا نطالب أبدا أن يترك الإنسان أي عمل يعمله، إن كنت تشتغل في عشرين شغل إجعل الدعوة و التبليغ في آخر حسابك، و لما جد في الحركة استعمله الشيخ إلياس لدعوة العلماء و أهل المدارس للدخول بالحركة، و جعل جلّ همه و حياته في نشر الحركة و إصلاح الناس عن طريقها.

أما مدينة بهوبال فسعدت بورود جماعة التبليغ إليها سنة ١٩٤٤م

Converted by Tiff Combine - unregistered

و بدأ العمل قليلا، و بعد ثلاث سنوات جاء الشيخ من ندوة العلماء على الإجازة الطويلة فنفخ فيها روحا جديدة و انتشر العمل فى هذه البقاع بسرعة شديدة ، فتحمل مشاق السفر و ذهب إلى البلاد البعيدة، و استفاد أهل بهوپال بهذا العمل المبارك كثيرا و خاصة بعد انتهاء إمارتهم المسلمة فى وقت قريب و انعقدت اجتماعات دينية كبيرة أوقفت الهجرة إلى باكستان بعد ما رأس الناس الجموع الكبيرة من المسلمين يشتركون بهذه الإجتماعات و ظهر زيف الوهابية أن جميع المسلمين هاجروا و لم يبق متنفس بپهوپال.

و بعد إنتشار العمل بأوسع أبوابه سافر إلى الإمارة السابقة كلها و بومبائى و أجزاء من ولايتها و حيدرآباد و إماراتها و مدراس و غيرها.

إصدار مجلة نشان منزل :

فى بداية الأمر كان عمل الدعوة بپهوپال تؤديها "جماعة هداية المسلمين" و كان الشيخ عمران رئيسا لها، و لم تكن العلاقة بالمركز بدلهى قويا و لم تنتشر جماعة التبليغ بهذا الشكل إلاّ فى الخمسينات، فجماعة "هداية المسلمين" تتخذ مشروعات كثيرة لرقى المسلمين، منها تكوين جماعات و إرسالها إلى البلدان القريبة و البعيدة، و منها فتح دارالعلوم للعلوم الدينية، و منها إصدار مجلة نصف شهرية باسم "نشان منزل" (أى علامة الطريق) و كان مقصد إصدارها تكشيف الجهود العلمية و الدعوية. و هى أول مجلة صدرت تبع حركة الدعوة و ساهمت فى نشر الدعوة و التبليغ علميا فى أجزاء الهند المختلفة و قد صدرت أول عددها فى ٣٠ نوفمبر ١٩٤٨م، كان رئيسها العام الشيخ محمد عمران خان الندوى، و رئيس التحرير الشيخ اشفاق الرحمن الكاندهلوى و هذه المجلة مستمرة إلى الآن.

الإجتماع الأول للتبليغ :

بدأت الجهود الدعوية منذ ١٩٤٤م كما مر ثم انتشرت بپهوپال و ضواحيها فوجب أن يعقد إجتماع كبير بپهوپال لتنسيق الجهود، يحضر به مسئولو الحركة من المركز العام بدلهى حتى تنتشر هذه الجماعة بأوسع ميدان، فحضرت جماعة من پهوپال فى خدمة الشيخ محمّد يوسف الكاندهلوى رئيس التبليغ آنذاك، فقبل مشكورا رأى عقد هذه الجلسة، فعقد هذا الإجتماع بين ٣٦ و ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨م ، حضر فيه الشيخ أبوالحسن علي الندوى و الشيخ منظور النعمانى، و لم يتمكن من الحضور

Converted by Tiff Combine - unregistered

رئيس التتابيع للأسباب الطارئة، و اشترك وفد من المركز العام، و كان مكان الإجتماع تاج المساجد المسجد التاريخي العظيم لكبره و توسعه و إن كان ناقصا مهجورا مكسورا، و الجزء المسقف كان مملوءا بالتراب و فضلات الخفافيش، و كان ممكنا للسراق و قطاع الطرق يقسمون فنائهم هناك و لم تصل الصلواة فى هذا الجزء المسقف، بل المصلون يؤدون صلاتهم بالفناء الجنوبى الذى تحول بعد بناء دارالعلوم إلى الغرف و فيه مكتب الدار الآن و أما صحن المسجد فكانت فيه حفرات كبيرة بعمق عشرين أو ثلاثين ذراعا و الناس المشتركون اجتمعوا فى الجزء المخصص للنساء على يسار الجزء المسقف من المسجد، و كان الشيخ اجتهد كثيرا و تحمل هو و أصحابه العناء و المشقة فى عقد الجلسة فى هذا المسجد المهجورة حتى يكون حق المسلمين ثابتا على المسجد و ميادينه بعد إلقاء الإمارة التى تظهر بوادرها بوضوح فى ذلك الوقت، أما بعد انعقاد الإجتماع عرف الناس أن هذا المسجد لحركة الدعوة، و بعد قليل من الوقت فتحت فيه دارالعلوم المذكور.

و كان عدد المشتركين لا يزيد من خمسة آلاف شخص و لكنه كان كبيرا بالنسبة للحالات التى أقيم فيه الإجتماع و كانت الهجرة إلى باكستان على قدم و ساق، و كان الإجتماع فى ذلك حدثا عظيما بهبوبال توقفت الهجرة على إثره و الحمد لله . و من ذلك اليوم المبارك يعقد الإجتماع سنويا و بالإستمرار، و الإجتماع الذى عقد بين ٢٤ و ٢٦ ديسمبر ١٩٨٩م كان ٤٢ إجتماعا.

خصائص إجتماع بهوبال :

هناك خصائص كثيرة لإجتماع بهوبال :

١- هذا الإجتماع بتاج المساجد يعقد سنويا، و لا يعقد إجتماع كل سنة فى الهند إلاّ بهوبال.

٢- يعقد الإجتماع بتاج المساجد و ميادينه التى تسع لثلاثمائة ألف شخص.

٣- يشترك فيه الناس من جميع أنحاء الهند مدينة بهوبال تقع فى وسط الهند. و السفر إليها بجميع الوسائل سهل، و جوّه معتدل فى كل الأزمان.

٤- يشترك فيه المثقفون و التجار و كبار الناس مع عامة الشعب لأن وسائل الراحة و الاطمئنان و التسهيلات ممكنة أكثر من أى إجتماع آخر.

٥- يشترك فيه عدد كبير من الدول الإسلامية الذى لا يشترك فى أى إجتماع آخر يعقد فى أى بقعة أخرى فى الهند.

Converted by Tiff Combine - unregistered

تاسيس دارالعلوم تاج المساجد بهوبال :

إن إمارة بهوبال الإسلامية الفهيت و انضمت إلى عموم الهند في ١٠ من يونيو ١٩٤٩م، كان الشيخ عمران باشر عمله بندوة العلماء في ١٣ فبراير ١٩٤٩م بعد الاستفادة من الإجازة الطويلة التي قضاها ببهوبال في جهود الدعوة و الإرشاد و كان رجوعه إلى ندوة العلماء جزئيا ١٥ يوما للندوة و ١٥ يوما لبهوبال.

الحاكم المدني الذي أخذ السلطة من أمير بهوبال النواب حميدالله خان ألفى بدون سابق إنذار الجامعة الأحمدية، (المعهد العربي العظيم) و الجامعة السليمانية (المعهد الفارسي العظيم) و المدارس الإسلامية الكثيرة الأخرى و مدارس التحفيظ و التجويد في ابريل ١٩٥٠م. هرع الشيخ بعد سماع هذا النبأ العظيم - و كان بندوة العلماء - إلى مسقط رأسه بهوبال متلهفا على إلغاء الإمارة و أمس هو و رفقاءه بشدة ضرورة إنشاء مركز ديني إسلامي يتولى تخريج علماء أكفاء و نصاة إلى الحق أتقياء و يتولى التوجيه الديني و التربية الإسلامية للشعب المسلم في هذه البلاد و ما جاورتها من البلدان و الأقاليم حتى تعوض الخسارة التي منيت بها هذه المدينة من ناحية العلوم الدينية و العربية بسبب إلغاء الإمارة الإسلامية الفتية و علاوة على ذلك أن مدينة بهوبال تقع بين شطري الهند جنوبها و شمالها، و أصبحت قلب البلاد، و فيها جميع وسائل المواصلات و بذلك فهي على نقطة اتصال بين أكثر الولايات الهندية و تصبح همزة وصل بين مدارس الشمال و جنوبها تستطيع أن تورد و تصدر و تنفع و تنتفع و ترسل نشرتها إلى جميع أنحاء الهند بجهوده قليلة و وسائل قصيرة.

و كان الشيخ يعقوب المجدي في مساندة هذه المهمة بقلبه و قالبه يدعو الله و يبعث في الشيخ الروح أن يوصل هذه المهمة إلى نهايتها الطبيعية.

في نفس الوقت كان السيد سليمان الندوي مقيما ببهوبال و كان قاضيا لإمارة بهوبال و رئيس الجامعة الأحمدية و الجامعة السليمانية و كان الشيخ عمران تلميذا له و كان يعرف صلاحيته الإدارية الجبارة و قد أشار هو أيضا على الشيخ لفتح مدرسة تكون فرعا لندوة العلماء بالمنطقة، فعقدت جلسة للتبليغ و الدعوة كعادتها بيوم الأربعاء بالمسجد الجامع في ابريل ١٩٥٠م بدعوة من الشيخ عمران خان و كان السيد سليمان الندوي رئيسا للجلسة، ففي آخر الجلسة حث الشيخ الندوي المسلمين على فتح دار العلوم بقيادة الشيخ عمران حتى تكون أمينة للتراث الإسلامي و العلمي للإمارة الإسلامية المرحومة بعد مدة وجيزة ثم وضع السيد سليمان الندوي حجر الأساس للمدرسة في مسجد عبد الشكور خان التي تقع أمام بيت

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشيخ عمران مباشرة و هو مركز الدعوة و التبليغ لولاية مدهيا برديش.

و كان الشيخ ثاقب النظر، و كان بريد تاج المساجد المتهدم المهجور مكانا متروكا من قبل حكام إمارة بهوبال لكبره و تهدمه و عدم إكماله فعلد الشيخ فى هذا المسجد اجتماعين كبيرين للدعوة و التبليغ، فلما وجد الفرصة سانحة نقل المدرسة إلى تاج المساجد فى شوال ١٣٦٩هـ الموافق يوليو ١٩٥٠م ، ثم افتتحت المدرسة رسميا بتاج المساجد فى ٤ من شوال ١٣٦٩هـ الموافق ٢٠ يوليو ١٩٥٠م ، و عقد الجلسة فى الجزء المسقف من المسجد و اشترك فيها أناس كثيرون و عدد كبير من العلماء الأفاضل و كان المطر غزيرا ذلك اليوم.

افتتحت الجلسة بتلاوة القرآن الكريم تلاه أولا طالبان من المدرسة ثم استاذان، بعد ذلك تكلم الشيخ عمران و خطب فيهم و بين أهمية الدراسة الدينية و قدم أمثلة من حياة الصحابة رضوان الله عليهم و تمنى لغريبى الدار أن يكونوا وسيعى القلب و النظر و غيارى على الدين و العلماء الذين لهم معرفة فى كل الشئون، و أن يعملوا على ما يعلموا و يمثلوا الإسلام بعملهم، و يكونوا فخرا و اعتزازا للملة الإسلامية . ثم قال :

" إن الجامع الأزهر قائم فى المسجد و تفتح دارنا فى المسجد أيضا و كما أثبت الجامع الأزهر مقامه العلمى و جدارته أمام العالم المتطور أتمنى أن تثبت دارنا أيضا. أما نجاحنا فى مهمتنا نعلم عنه فى المستقبل و ما علينا إلاّ الجهد بقدر الإستطاعة و أما ثمارها و إنجاحها فى يد الله سبحانه و تعالى نحن نتمنى أن يكمل النقص الناقص لو جهودنا الحقيرة ستنتج يوما بإذن الله، و التعليم الدينى يعم و ينتشر و النقص الموجود فى التربية الإسلامية سيزول، و المسجد العظيم المهجور من أول يوم بنائه سيعمر بعباد الله المخلصين و أحباء الرسول صلى الله عليه و سلم إن شاء الله." (١٨)

بعد أيام قليلة أعلن الحاكم المدنى الذى تولى سلطة الإمارة بعد إلغائها أن الحكومة العلمانية لا تتحمل مصارف و نفقات المساجد و دور العبادة الأخرى فمن يريد تولية المسجد عليه أن يكون لجنة و يقدم طلبا إلى "قسم شئون المذهبيات". فكل المساجد أخذها الناس بعد إجراءات بسيطة إلاّ هذا المسجد اليتيم لكبره و ضخامته و تهدمه و كان الشيخ يقول لنا أيضا كنت أتردّد فى أخذ هذا المسجد خوفا من تهدمه و ضياعه و تكون مسئوليتى أمام، و لكن الشيخ محمد يعقوب المجددى و كان ينظر بنورالله

Converted by Tiff Combine - unregistered

أصر على أخذ المسجد و تقديم الطلب لذلك، و كان يعتقد أن الرجل العظيم مثل الشيخ عمران بجهوده الجبارة يجعله مركزا لإحياء الإسلام فى المنطقة، و سيكمل المسجد على يديه بإذن الله. فقدم الطلب إلى رئيس قسم شئون المذهبيات فى ١٨ أغسطس ١٩٥٠م فجاء الرد فى ١٤ سبتمبر ١٩٥٠م و قبل الطلب، و جاء المسجد فى تولية دارالعلوم تاج المساجد.

و افتتحت هذه الدار كثكهر و أهم فرع لندوة العلماء منهجا و فكرا مع تبعية الدار لندوة العلماء فكرا و منهجا و هى مستقلة ماليا و إداريا و تعتمد على التبرعات الشعبية المسلمة، و لا تعتمد على حزب أو حكومة و ذلك للإحتفاظ بحريتها فى سياستها التعليمية و التربوية و الدعوة.

و بلغت ميزانية الدار سنوياً مليون روبية هندية. و بلغ عدد الطلاب إلى ستمائة و عدد المدرسين و الإداريين إلى ٥٠ شخص.

و هذا المسجد بصفة الإتساع يحوى جميع فروع دارالعلوم من الفصول الدراسية و دارالإقامة و قاعة الطعام و المكتبة العامة و الإدارة و نشاطات النادى العربى و اتحاد الطلاب بعد حول مدير الدار الأفنية الجنوبية و الشرقية و الغربية فى الحجرات.

و الدراسة بجميع أقسامها تقوم فى الجزء المسقف من المسجد الذى يشبه الجامع الأزهر القديم.

و لكن الآن زاد عدد الطلاب كثيرا فيفكر أهل الدار بناء المكتبة العامة خارج المسجد فى ميدان المسجد الملحق به بل بدأ فعلا بناءها بإسم قاعة العلامة سليمان الندوى. و كذلك يريد مسئولو الدار بناء دارالإقامة خارج المسجد.

نظام التعليم :

المرحلة الإبتدائية : و عمرها ست سنوات و مواد الدراسة بها التوحيد، و المعلومات الدينية الإسلامية، قراءة القرآن الكريم و تحفيظ بعض سوره ، و التجويد، و سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم و نبذة عن سير الأنبياء و المرسلين ، و معلومات عامة ، و التاريخ ، و جغرافية عامة، و الحساب ، و التعليمات الصحية ، و اللغة الأردية و آدابها و اللغة الهندية.

المرحلة الثانوية : و هى ست سنوات، و يضاف إلى المواد السابقة اللغة الإنكليزية، و اللغة العربية، من نحو و صرف و نثر و شعر، و مبادئ اللغة الفارسية و مبادئ العلوم الكونية و الكيمياوية و العلوم الإنسانية.

كلية الدراسات الإسلامية : مدة الدراسة بها ثلاث سنوات. أما مواد الدراسة فيها فهى كما يلى :

التوحيد و العقيدة، التفسير و أصوله، الحديث و العلوم المتعلقة به،

Converted by Tiff Combine - unregistered

الفقه و أصوله، و علم الفرائض، الأدب العربي و تاريخه، النحو و الصرف، التاريخ الإسلامي، و جغرافية العالم الإسلامي، المعارف العلمية العامة، و اللغة الإنكليزية.

و معهد دار العلوم تاج المساجد يخدم خدمات جليلة منذ ٤٠ سنة في الميدان التعليمي، و كان الشيخ عمران له نظرية خاصة في إعطاء الشهادة و ما كان يرضى أن يعطي الشهادة من معهده بعد مضي نصف قرن على تأسيسه، بالعكس من المعاهد الأخرى التي تمنح الشهادات الكبيرة و لم تمض على تأسيسها خمس سنوات، و كان يقول إذا يُصر عليه المسئولون الآخرون من الدار في قضية إعطاء الشهادة. إعطاء الشهادة مفيد للمعهد و يكون سببا لشهرة الدار و لكن الطلاب يتضررون من هذه الشهادة من المعهد الحديث و الصغير، أما الشهادة من الدار القديم و المهم ينفع الطلاب بشكل كبير. و كان مقصدنا ليس الحصول على الشهرة بل خدمة العلوم الإسلامية و المسلمين بإخلاص و تفان و نحتسب الأجر من الله سبحانه و تعالى فكان طلاب دارالعلوم تاج المساجد بهوپال يدرسون في معهدهم إلى ما قبل سنة الشهادة، و بعد ذلك يحصل الطلاب إلى دارالعلوم ندوة العلماء و يدرسون هناك سنة واحدة و يأخذون شهادة الندوة المهمة و المعتبرة. و يلقب بالندوي، و لم يرض الشيخ بإعطاء الشهادة إلى حين وفاته.

و بعد وفات المغفور له أحس مسئولو الدار بأن إعطاء الشهادة أصبح ضروريا فقرروا في سنة ١٩٨٧م إعطاء شهادة "العالم" التي تساوي في التعليم الحديث بالدول العربية شهادة الليسانس.

خدمات دارالعلوم تاج المساجد :

مضت على تأسيس هذه الدار أربعون سنة و زيادة، و هذه المدة ليست بالكبيرة إذا نظرنا إلى الخدمات التعليمية و التربوية و المشروعات البنائية الضخمة في نطاق وسائلها المحدودة، نتكلم عن المشروعات البنائية بعد قليل، و أما هنا فنذكر الخدمات التعليمية و التربوية.

قد تخرج من هذه الدار أكثر من ثلاثمائة طالب كملوا سنتهم النهائية بندوة العلماء و أخذوا شهاداتها، و بعضهم سافروا إلى الدول العربية و الجامع الأزهر للتعليم الإسلامي العالي و أخذوا الشهادات من هناك و رجعوا و أفادوا و بعضهم درّسوا هناك إلى مدة طويلة، و كلهم يؤدون لهذه الدار ما عليهم من حقوق.

و استظهر مئات طالب القرآن الكريم و حفظوه عن ظهر القلب، ثم تزودوا بالعلوم الدينية و انتشروا في ربوع الهند كلها و نصف الهند الجنوبي بالأخص يخدمون الإسلام و اللغة العربية، و بعضهم فتحوا المدارس

Converted by Tiff Combine - unregistered

و نشروا التعليم الديني في مناطقهم و لشتركوا في التوعية الدينية و الثقافية.

في المدة الأخيرة قررت دارالعلوم بقيادة السيد منظور حسين سروش (الذي انتخب مديرا للدار لخمس سنوات عن المجلس الأعلى المشتمل على ٣١ عضوا من مدينة بهوبال و سائر أنحاء الهند من أشهرهم السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي) أن مدارس ملحقة بالدار بمدينة بهوبال، و ولاية مدهيا برديش فتحت مقرون مدرسة في السنتين الماضيتين، و ستفتح أخرى في السنوات المقبلة.

مكتبة دارالعلوم تاج المساجد بهوبال :

و للدار مكتبة كبيرة عامة تحتوي على ٧٥ ألفا من الكتب، و في هذه الذخيرة العلمية الثمينة عدد محترم من نفائس الكتب و مما له أهمية تاريخية أو فنية خاصة. و المكتبة التابعة للوقف الملكي أيضا منحت لدارالعلوم و فيها كتب قديمة ذات نفع عظيمة. و أغلب الكتب باللغة العربية ثم تليها الأردية فالفارسية. و أما الإنكليزية فهي محدودة جدا و من بين هذه الكتب مقرون موضوعا أدبيا و فكريا و علميا.

و تعد هذه المكتبة من أهم المكتبات للعلوم الإسلامية في وسط الهند، يستفيد منها طلبة دارالعلوم و أهالي هذا البلد استفادة كاملة و ينهلون من منهلها العذب و يتوجه إليه الدارسون و الباحثون العلماء من أنحاء ولاية مدهيا برديش.

المؤتمرات و الندوات التي عقدت بالدار :

دارالعلوم تاج المساجد بهوبال معهد علمي، ليست لها علاقة بالسياسة العملية كما سطر في دستور دارالعلوم، فلم تعقد أبدا من المؤتمرات السياسية. بل تعقد إجتماعات دينية و مؤتمرات و ندوات علمية و ثقافية.

عقدت ثلاثة مؤتمرات في عهد المرحوم الشيخ محمد عمران خان و كان مشهورا في النظم و الإدارة في ربوع الهند كلها، و كذلك يقال إنه من قلة العلماء النادرين الذين يعرفون النظم و الإدارة، و لما تقرر عقد مهرجان الـ ٨٥ لندوة العلماء بلكناؤ سنة ١٩٧٥م اختير مديرا لهذا المهرجان العظيم. و ذهب الشيخ عمران بفرقة كاملة من بهوبال لبرامج الإطعام و الإسكان و النظم الآخر. فنجح المهرجان نجاحا باهرا.

و البروفيسور مسعود الرحمن خان الندوي استاذ اللغة العربية بقسم الدراسات الآسيوية الغربية و تلميذ الشيخ عمران خان النابغ و وريثه

Converted by Tiff Combine - unregistered

لعلمه و سليقته الإدارية و عضو المجلس الأعلى للدار كان مساعدا للشيخ عمران خان فى عقد هذه المؤتمرات الثلاثة، و كان جهوده و جهود الأساتذة و مسئولوها و منتسبيها سببا فى نجاح هذه المؤتمرات.

الأول: جلسة اللجنة التنفيذية لمؤتمر الطب اليونانى لعموم الهند:

قررت اللجنة التنفيذية لمؤتمر الطب اليونانى أن تعقد جلستها بين جدران تاج المساجد فطلبوا الإذن من الشيخ المرحوم، فرحّب الشيخ بهذه الفكرة، فعقدت الجلسة فى ١٦ و ١٧ مارس ١٩٧٤م ، و موضوع الجلسة كان أهمية هذا العلاج، و اشترك الأطباء من جميع أنحاء الهند و وصّوا فى توصياتهم حكومة ولاية مدهيا برديش أن تهتم بترقية العلاج اليونانى (الشعبى).

و كل المشتركين اطمئنوا على خدمات الدار و شكروا الشيخ المرحوم على حسن سعيه لعقد هذا المؤتمر و إنجاحه، و أثنوا على مشروع تكميل تاج المساجد الناقص. (١٩)

الثانى: الجلسة السابعة لمؤتمر العباسات الإسلامية لعموم الهند:

عقدت هذه الجلسة بين ٩ و ١١ سبتمبر ١٩٧٤م بدارالعلوم تاج المساجد بببوبال على دعوة الشيخ المرحوم.

كان من المقرر أن تعقد هذه الجلسة بدارالعلوم ندوة العلماء بلكناؤ و انها لم تعقد لأسباب مختلفة منذ أربع سنوات متتالية و جاءت السيول و الفيضانات فى لكناؤ قبل انعقاد المؤتمر، فعمل الشيخ المشكل بعقد هذه الجلسة بدارالعلوم تاج المساجد ببوبال.

و لم يتمكن رئيس المؤتمر من الحضور فترأس الشيخ أبوالحسن الندوى الجلسة و قد حضر لافتتاحها، و اشترك ٥٥ مندوبا، و قدمت ٢٧ مقالة، عشرة منها بالإنكليزية، و تسع بالعربية و ست بالأردية و إثنان بالفارسية.

و قدم الشيخ المقالة الترحيبية و كانت علمية تحقيقية، و كذلك مقالة الشيخ أبوالحسن الندوى الإفتتاحية ذات معلومات و تحقيقات جادة.

و فى الجلسة النهائية خطب الشيخ أبو الحسن علي الندوى المستمعين، و فرح بنجاح المؤتمر و قال :

" إننى استفدت من هذا المؤتمر، و أشهد أنه ناجح جدا، و من سوء الحظ قد نشأ تباعد غير فطرى بين القديم و الحديث، و لكن رأيت فى هذا المؤتمر تقاربا ملحوظا بينهما، و هكذا

Converted by Tiff Combine - unregistered

غير ممكن في أماكن أخرى و كذلك عقد المؤتمر في المسجد قد أحيا التقاليد الإسلامية القديمة و تذكرنا ما فعل الجامع الأزهر و جامع قرطبة، و أخبركم بأني لما علمت أن أصحاب المؤتمر انتخبوا بهوپال لعقد المؤتمر فرحت جداً، و إذا كان يناسب أي مكان لعقد المؤتمر بعد لكنا فهو بهوپال بدار علومها التي نعتبرها دارنا و نفرح بالاشتراك في أعمالها و نظمها."

و قد ألقى كلمة الشكر البروفيسور السيد مقبول أحمد الأستاذ السابق بجامعة عليكره، و مدير تحرير "ثقافة الهند" السابق، و السكرتير العام (الأمين العام) لمؤتمر الدراسات الإسلامية، فشكر السيد أبا الحسن الندوي و المشاركين بالندوة و أضاف قائلاً :

" الذين يعرفون تاريخ جامعة عليكره يعلمون أن السير سيد أحمد افتتح أولا بفتح مدرسة، و بدأت كدارالعلوم و لكن بعد مضي وقت طويل أصبحت درجة الجامعة في سنة ١٩٢٠-٣١م ، و كانت مشهورة قبل ذلك بـ "دار العلوم المسلمين الهنود". و كانت تدرس بها الفلسفة الإسلامية و الكلام و اللغة العربية و آدابها، و أرى أن دارالعلوم تاج المساجد بهوپال تمشي على نفس المنوال، و لو استمر الشيخ محمد عمران في جهوده العلمية و العملية ستصبح هذه الدار مركزا إسلاميا عظيما يفتخر عليه المسلمون، و لذا ألقب الشيخ عمران بلقب "شاهجهان الثالث" (الأول : مؤسس تاج محل باكره و الثانية : بانية تاج المساجد) و ألقبه كذلك بـ "سير سيد الوجود" و قليل هم الذين يحصلون هذه المرتبة العظيمة نحن مشتغلون في العلوم و التدريس و الكتابة و لكن العمل البنائي العملاق كتكميل تاج المساجد صعب جدا و توصيله إلى النهاية محيّر."

"نحن عقدنا ثلاث جلسات لهذا المؤتمر بعليكره، و نحن نعلم جيدا أن عقد هذه المؤتمرات تعرقلها مشاكل جمّة و إذا نظرنا هنا و نعرف المشاكل المعترضة سبيلنا نمدح الشيخ على كل نجاح المؤتمر نجاحا باهرا، و كل هذا بسبب الشيخ عمران خان و هو مشهور بحسن نظامه و الملكة الإدارية الجبارة الموجودة فيه." (٢٠)

Converted by Tiff Combine - unregistered

الثالث : مهرجان الاحتفال بالمئوية لميلاد العلامة السيد سليمان الندوي :

هـــذا المهرجان عقـــد بين ٤ - ٧ سبتمبر ١٩٨٤م. العلامة السيد سليمان الندوي من العلماء الكبار و من العلماء الأفذاذ الذين لا يولدون إلاّ بعد مدة طويلة، و كانت شخصية العلامة متعـــددة الجوانب فهـــو عالم كبيـــر و محقق من الطراز الأول و لا نقدر على ذكر فضائله الخلقية و أعماله العلمية و الأدبية و السياسية إلا في الاف الصفحات.

و كانت علاقة الشيخ عمران بالعلامة علاقة الحب و الود و الشفقة فهو يقول (٢١) :

> *" إن علاقات الحب و الود و الشفقة التي حظي بها راقم السطور من قبل حضرة صاحب الفضيلة استاذي المحترم العلامة سيد سليمان الندوي وثيقة و طويلة و تمتد من أوائل عمري حينما كنت طالبا في دارالعلوم لندوة العلماء بلكناؤ إلى سفري إلى مصـــر و رجوعي منهـــا و تعليمي مهام وظيفة العميـــد في دارالعلوم بلكنـــاؤ و قيام العلامة ببهوبال."*

عقدت مهرجانات و ندوات و مؤتمرات على عهده المئوي في العالم لجمع في أوروبا و باكستان، ثم عقدت ندوات بالهنـــد و بدأت من جامعـــة عليجر و كان حسن الختام لهذه الندوات ببهوبال و كان حقا على الشيخ عمران أن يعقد لهذه الشخصية المحترمة و لاستاذه هذه الجلسة.

و كان الشيخ المرحوم يفكر في هـــذا الموضـــوع و يشـــاور مع رفقائـــه و زملائه عن عقد هذه النـــدوة، في هذه الفتـــرة بالذات نزل البروفيسور نثار أحمد الفاروقي ضيفا عند الشيخ عمران و لمرّ عليه أن يعقد هذه الندوة بأسرع وقت ممكن، فوعد المرحوم بالتفكير الجدي في هذا الموضوع ثم شاور نائب مدير الدار و المجلس الأعلى و البروفيسور مسعود الرحمن خان الذي لا تعقـــد النـــدوة بالدار إلاّ بمعاونتـــه العمليـــة الفعالة. بعد المشاورات و المباحثات تقرر عقد الندوة العلمية بدارالعلوم تاج المساجد بهوبال من ٤ إلى ٦ سبتمبر ١٩٨٤م.

و كان هذا الإجتماع المبارك منفردا من حيث الكم و الكيفية، فقد اشترك فيها المؤلفون و المصنفون و العلماء و الفضلاء من جميع أنحاء الهند، من الجامعات الحكومة العصرية و دور العلم الخاصة بالمسلمين، فقد اشترك فيها أصحاب الفضل من دارالمصنفين باعظم كره، و دارالعلوم نـــدوة العلمـــاء و جامعة عليجر و الجامعة الملية الإسلامية و جامعة جواهر لال نهرو و جامعة

Converted by Tiff Combine - unregistered

دلهي و الجامعة العثمانية حيدر آباد و غيرها من دور العلم و تراس المؤتمر السيد أبو الحسن علي الندوي و كان ضيف الشرف صاحب السعادة عمر موسى المحترم سفير جمهورية مصر العربية لدى الهند، و افتتح الندوة سيد هاشم علي نائب رئيس جامعة عليجر حينذاك.

كان هذا المؤتمر إشعارا بفضله و إسداء القليل من الواجب لخدمات العلامة العظيمة في ميدان العلم و الأدب و للدين و الملة، و قدمت خمسون مقالة مهمة لتوضيح جميع العلوم و الفنون السليمانية.

و أقيم معرض بمساعدة البروفيسور عبد القوي الحسني، قدمت فيه كتب العلامة القيمة و رسائله و فتاواه و الأقضية التي فصل فيها، و السطور المهمة التي قيلت في تأكيد عمله و فضله، و صوره المهمة.

و قد عيّن الأستاذ مسعودالرحمن خان الندوي ناظما للندوة، راقم السطور نائبه، و كان نجاح المؤتمر رهين جهد الأستاذ مسعودالرحمن الندوي، يقول الأستاذ اقبال أحمد الأنصاري أستاذ اللغة الإنكليزية بجامعة عليجر (٢٢) :

> " كان نجاح المؤتمر مؤكدا بسبب داعيه و هو الشيخ عمران، و كان فضل ناظم الندوة في إنجاح المؤتمر الكبير و هو أيضا مشهور بطريقته و مهارته في إدارة شئون الندوات و المؤتمرات."

في آخر الجلسة قال السيد أبو الحسن علي الندوي :

> " إن ما أقول هو من القلب و ليس فيه مجاملة أن نجاح المؤتمر الكبير بسبب إخلاص الداعي و المشتركين و قبولية العلامة السيد سليمان الندوي عند الله سبحانه و تعالى، و كنت لا أتوقع أن تقدم مقالات علمية عظيمة بهذه الكثرة. "

و أخيراً شكر الشيخ عمران الحضور و المشتركين الذين تحملوا متاعب السفر و كان مريضا شديدا حمل على الأيدي حتى يشترك في الجلسة النهائية. ثم قام الأساتذة الثلاثة السيد صباح الدين عبدالرحمن و الشيخ أبوالعرفان الندوي و الدكتور نثار أحمد الفاروقي و شكروا إصالة عن أنفسهم و نيابة عن المشتركين لداعي الندوة و العاملين بها و كلهم دعوا للشيخ عمران الصحة و العافية و طول العمر.

و كانت الوصيتان المتعلقتان بدارالعلوم قد اكتملتا :

Converted by Tiff Combine - unregistered

الأول : أن تشيد قاعة باسم العلامة السيد سليمان الندوى ، فقد بدأ العمل لتشييدها فى حياة الشيخ، و هـــو مستمـــر منـــذ أربع سنوات و ستكمل قريبا، و قرر المسئولون أن يجعلوها مكتبة عامة يستفيد بها الناس.

الثانى : كانت التوصية الثانية متعلقة بطباعة المقالات التى ألقيت بالندوة كما عقدت الندوة فى وقت قليل، طبع مجموع المقالات بالسرعة فى وقت قليل جدا. فقد كلف الشيخ محمد عمـران خان و الدكتور مسعود الرحمن و راقم السطور أن نتولى هذه المهمة، فقد قام الدكتور مسعود بهذه المهمة العسيرة خير قيام، جمعت فيه ١٨ مقالة وزعت فى خمســة أبواب و أدرج الثقافى الذى دار بين الباحثين بعد قراءة المقالات تتميماً للفائدة، و صفحات الكتاب ٥٧١ صفحـة من القطـع المتوسط، و طبع طباعة فاخرة يسُرّ الناظريـن و سمى الكتاب بـ "*مطالعة سليمانى*".

و لبس الكتاب حلة الطباعة قبل وفاة المرحوم بثلاثة أشهر ففرح الشيخ جدا و شكر الدكتـــور مسعـــود و الذين اشتركـــوا فى هـــذه المهمـــة، و تعتبر هذا الكتاب من آخر أعماله العظيمة.

مشروع إكمال تاج المساجد الناقص :

هذا المشروع هو أضخم مشروع دينى خاص، (غير حكومى) قام به المسلمون فى الهند بعد استقلالها و الذى تبناه المرحوم محمد عمران خان الندوى و هذا الإنجاز المبارك يعتبر من أعماله العظيمـة الجبـارة، و من عظيم همته و إقدامه على كل ممكن و مستحيل، فقد كتب البروفيسور مرتاض حسين من نوساري غجرات فى رسالـــة تعزية ذكر فيها أنه قال للشيخ المرحوم : "لو ألفت كتابا مهماً يكون لذكراك به و يستفيد منه الناس". فقال الشيخ المرحوم : " أنا ألفت "تاج المساجد" و من يريد أن يعتبر فليفعل."

تاج المساجد و بانيته العظيمة :

هذا المسجد إسم على مسمى، بنته شاهجهان بيكم حاكمة إمارة بهوپال فى سنة ١٨٨٥م و هو مسجد عظيم ضخم، و يعتبر من أحد الجوامع العظيمة فى العالم و لا يدانيه مسجد آخر فى سعته فى الهند على أقل تقدير و هو يشبه جامع دهلى و إن كان أكبر منه مساحة و ذا طوابق ثلاثة و إليكم مساحته :

Converted by Tiff Combine - unregistered

عرض فناء المسجد و طوله : ٣٢٥ X ٣٢٥ قدما.
مساحة المحراب : ٧٤ قدما.
و حوائش المسجد طولها ٢٢٥ قدما و عرضها ٥٨ قدما.

أما الجزء المسقف من المسجد تبلغ مساحته إلى ٢٤٨ X ٩٤ قدما فقد جاءت شاهجهان بيكم بانية المسجد بالصناع المهرة علاوة على الصناع فى بهوبال، من اكره و مشورا و جبلبور، و انفقت الأميرة على هذا المشروع العظيم فى حياتها مليون و نصف مليون روبية تقريبا و إذ ذاك اجرة البناء نصف روبية، و لذلك يقول المهندسون المهرة أن ما شيّد فى زماننا لو شيّدناه الآن لاحتجنا إلى إنفاق أربعين مليون روبية.

الأميرة شاهجهان بيكم اشترت بثمن غال مصلى الكتجهلاس و كانت تريد أن تفرشها بالمسجد بدل المصلى الحجرى و نافورة من نفس المواد، و الأشياء الأخرى لتزيين الجزء النسائى من المسجد. و كانت الأميرة تحتجب و تستعمل النقاب فبنت جزئين للنساء على اليمين و الشمال و استعملت سلكا حجريا منقوشا جميلا يأخذ بالألباب.

هذا المسجد بدأ تشييده على يد الأميرة شاهجهان بيكم و استمرت عملية البناء إلى أربعة عشر عاما، و انفق عليه بكل شهامة و سخاء و انتقلت الأميرة السعيدة البالغة إلى جوار رحمة ربّه سبحانه سنة ١٩٠١م. و توقف البناء منه ذلك الحين، و لم يكتمل للتطورات السياسية. فكل من يزور هذا المسجد الراشع الذى يشبه جامع قرطبة فى عظمته و سعته يتمنى أنه لو رآه كاملا، قد شيّدت حجراته و رفعت مناراته العالية و اكتملت صورته الرائعة التى تنعش الإيمان و الوجدان و تقر العيون و تثلج صدور المسلمين المناضلين لأجل دينهم و آثارهم و مساجدهم و مدارسهم فى هذه البلاد.

الشيخ عمران خان أخذ هذا المسجد الفخم المنهدم من قسم المذهبيات فى حكومة بهوبال الجديدة فى ١٤ سبتمبر ١٩٥٠م (٣٣) و كان قد فتح فيه مدرسة فى ٢٠ يوليو ١٩٥٠م كما مرّ.

بعد أخذ المسجد فى ذمته أجرى ترميمات جزئية صغيرة و كبيرة كثيرة قبل ثبنى مشروع تكميل تاج المساجد على نطاق واسع فى سنة ١٩٦٩م ليكون قابلا لسكنى الطلاب و دراسة الطلاب و للمحافظة على البقية الباقية من المسجد التاريخى العظيم.

- تصليح و بناء بعض فناء المسجد.
- تغطية ثلث صحن المسجد بالحجارة للمصلين.
- تطوير أفنية المسجد الجانبية إلى حجرات كاملة و تصليح سقوفها حتى تصلح لسكنى الطلاب، دارالطعام، و المكتبة العامة، إدارة

Converted by Tiff Combine - unregistered

دار العلوم و غيرها من المصالح الكثيرة للدار.
- إصلاح بعض السقف القديم المنهار.
- بناء درج من الرخام في الجناح الوسط.
- بناء درج من الحجر في ما بقي من المحاريب.
- إنشاء شبكة كهربائية في داخل المسجد و خارجه.
- تزويد شبكة من الحديد في صحن المسجد لإستعمالها لتغطية لائحة الشمس في أيام الحرّ.
- توصيل أسلاك كهربائية في فناء المسجد لمكبرات الصوت.
- بناء حمامات للغسل و الطهارة.
- بناء حوض ٥٠ . X ٥٠ في وسط الصحن.

و كانت الترميمات و الاصلاحات استمرت طول العهد لأن المسجد للإهمال الطويل قرب التهدم الكامـــل، و الإصلاحات الجزئية أفادتـــه كثيرا. و الشيخ كان يحلم من أول يوم أخذ المسجد أن يكمله. فهو يقول :

" هذا الحلم تراودنا منذ الابتداء و لكن قلة رأسمال دائما توقفنا من البدء في هذا المشروع." (٢٤)

و لكن الله منّ على عباده ففي يوم من أيام سنة ١٩٦٨م نزلت رحمة الله على عبده المقبول و استجيبت دعوته فحدث ما لم يكن في الحسبان فقد سقط جزء من سقف الطابق الثالث لعدم خروج مياه الأمطار من السقف لعدم وجود انحدار مناسب فذعر الشيخ من إنهدام المسجـــد فتوجـــه إلى شيخـــه محمد يعقوب المجددي الفاروقي و قص عليه القصة. فقال الشيخ المجددي للشيخ عمران فجـاءةً : "يجب أن تكمل المسجد الآن و إلا ينهدم" فأجاب الشيخ : "كيف استطيع تكميله و لم يستطع أمراء الإمارة ٩ " فقال الشيخ : "اسكت و لا تتكلم و اجتهد و سترى الكرامة و يكمل المسجد" أخبر الشيخ في مقابلته مع الدكتور أخلاق أثر ان هذا الحوار هو حجر الأساس لتكميل المسجد (٢٥).

و يوجد في تقرير جلسة المجلس الأعلى للدار الذي عقد في ١٢ أغسطس ١٩٦٩م، قال الشيخ عمران رئيس الجلسة :

" و كان مقصدنا من أول يوم تكميل تاج المساجد و لكن لأجل قلة وسائلنا كنا نتمنى و نتحسر، بعد سكوت الشيخ يعقوب المجددي زمانا طويلا قال أيها الشيخ إلى متى يبقى المسجد هكذا لماذا لا تكمله، فأظهرت بعد أعمال الفكـــرة اضطرابـــي

Converted by Tiff Combine - unregistered

و هو إنى لا أستطيع أن أعارض الشيخ فى هذه الأمنية و من جهة أخرى كنت أتفكر كيف أعمل للحال، و كان الشيخ يصر علىّ مرارا، مرة كان الشيخ أبوالحسن موجود، فقال خفية، ماذا قال الشيخ هو له أهمية لأن المشائخ و أولياء الله إذا توجهوا فجأة إلى شىء فهذا دليل على أن العمل سوف يكمل و قال يجب أن نخبر الشيخ من المواضع فى حصول الجواز، فوضعنا هذه المشاكل أمامه، ففرح الشيخ برضاء الشيخ عمران فى البدء فى هذا المشروع الجبار و قال اجتهدوا من جديد ستنتهى العراقيل إن شاء الله، فرأينا أن الله سهل علينا جميع المشاكل." (٣٦)

و كان الشيخ يخبرنى و أنا فى أسفار جمع التبرع رفيقه، عن هذه القصة الممتعة، فقلت للشيخ :

" كيف يكمل المسجد و لا أحد يعطى تبرعا للمسجد، هم يعطون تبرعات للمدرسة و لكن لما أتكلم من تكميل المسجد يقولون إن المسجد لا يمكن أن تكمل فلماذا نفكر فى شىء محال ـ؟ فسمع الشيخ جميع كلامى و قال :

" إن أهل بهوبال أثرياء فيجب أن تذهب أولا إلى الخارج و أجمع من هناك مائتى ألف روبية و ابدء بالعمل ثم ترى أن الخزانة تفتح."

سألنى الشيخ بعد أسبوعين فلم أحر جوابا ثم قلت كنت أحاول منذ زمن بعيد إدراج بعض بلاد أفريقيا و أفريقيا الجنوبية و ماريشيوس حتى أسافر إلى هذه البلدان لجمع التبرعات الأولية و لكن كل جهودى ذهبت سدى أمام هناك مدير الجوازات و كان المرشد وليا من أولياء الله قال : " يجب أن تمضى هذه المرة تحل مشكلتك و حلت المشكلات بسهولة و يسر و أيقن الشيخ إن الله أراد تكميل المسجد."

و سافر الشيخ عمران إلى الجهاز و الكويت و ليبيا و كينيا و سيشلس و ماريشيوس و جمع هناك قرابة مائتى ألف روبية. و كان مبلغا حقيرا أمام المطلوب و هو سبعة ملايين و نصف مليون روبية. و لكن هذه حقيقة لا تجحد إذا ما جمع المبلغ الأساسى فى أفريقيا ما بدأ هذا المشروع الضخم، و لم تبدأ مرحلة التكميل فى حياة الشيخ الفاروقى، لأن الإذن من البلدية و قسم تخطيط المدينة و مصلحة مساحة الأرض و وضع حجر الأساس لتكميل المسجد الناقص على يد صاحب السعادة أنس يوسف يسين المرحوم سفير

Converted by Tiff Combine - unregistered

المملكة العربية السعودية لدى الهند. و بقى العمل مستمرا من ٩ ابريل ١٩٧١م إلى وفاة الشيخ عمران، بل الأعمال المتبقية مستمرة إلى الآن.

و بعد أن استأنف العمل لتكميل المسجد الناقص بعد توقيف لستمر سبعين سنة، قرر الشيخ عمران أن يزور جميع المدن الهندية الكبرى و التى عدد المسلمين بها كبيرا أن يزورها و يدعو الناس إلى التبرع لإكمال المسجد فسافر إلى بومباى و دلهى و كلكتا و حيدراباد و بنجلور و ولاية غجرات، و الجميع فى الهند يعرفون هذا المسجد لإجتماعه السنوى للدعوة الذى يعقد منذ مدة طويلة، و لمدرسته المشهورة، و للشيخ عمران، لكل أبى حلقه و تبرع للمشروع بهمة عالية و أهل بهوبال ليسوا بأثرياء و لكنهم اشتركوا فى هذا المشروع بهمة عظيمة و جمعوا ما يربو على مليون روبية و خاصة نساء بهوبال اللاتى اعتبرن المشروع مشروعهن لأن المسجد من تشييد إمرأة، و هنّ قررن التبرع بمبلغ مالى فى كل شهر و استمرت هذه السلسلة إلى وقت قريب.

عندما جمعت التبرعات من جميع أنحاء الهند و أوشك الرصيد المالى أن ينتهى تفكر الشيخ أن يسافر إلى خارج الهند مرة أخرى و مرشده نصحه أن لا يتوقف العمل بعد المشروع فيه لأنه إذا توقف مرة أخرى ربما يطول إلى نفس المدة السابقة و كان دائم التفكير و يدعو الله سبحانه و تعالى ماذا يفعل - ؟ أين يذهب - ؟ من أين يجمع الفلوس فجاءته الدعوة من جمعية العلماء بريطانية للاشتراك فى مؤتمر السيرة الثانى الذى عقدت بلندن فى ٢١ مايو ١٩٧٨م فكتب الشيخ إلى دعاة المؤتمر :

"أنا مريض جدا و حالتى لا تسمح لى بالسفر، و لكنى بدلت المشروع الكبير لتكميل المسجد فاذا تجمعون لى التبرع و تساعدوننى فى ذلك فسوف أحضر المؤتمر".

و هم سمحوا له أيضا أن يأخذ رفيق السفر لأن قواه قد وهنت فى المدة الأخيرة، و كنت رفيقا له فى سفره هذا كما كنت دائما ارافقه، لأن مقصد رجوعى من ليبيا و عدم توقفى هناك بعد أخذ شهادة الليسانس بالإمتياز كان خدمة الشيخ و لم أكن لتوقف بعد، فذهبت معه فأقام هناك مدة خمسة أشهر مع الأمراض و العوارض السميمة الأخرى و جمع نصف مليون روبية. (٣٧)

فالله سبحانه و تعالى مَن عليه و أعطاه الملكة فى جمع التبرع و الكلام المؤثر الغلاب، كل يتأثر بكلامه ثم يسلم له نفسه و ماله، و كانت هذه الصلاحية قطرية ظهرت لثراته بندرة العلماء و هنا بهوبال فقد تمكن من تكميل المسجد بهذه السهولة و فى هذه المدة القصيرة نسبيا.

و لغيرا سافر إلى امريكا و كندا بدعوة الإخوة الهنود المقيمين هناك

Converted by Tiff Combine - unregistered

و على راسهم الأستاذ شموم لحمد و الأستاذ سميح الله سنة ١٩٨٠م و كانت حالته الصحية ارداء من قبل و لكن همته و نشاطه فى قمة، و كنت مرافقه فى هذا السفر و جمع هناك مائتى ألف روبية.

و كان مسك الختام تبرع سمو الشيخة مريم بنت راشد زوجة حاكم قطر السابق و كان دورى فى هذا الجمع الأخير مهماً فلما قلت لسموها تفاصيل المشروع و علمت دور المرأة فى هذا العمل الجبار قدمت مليون و نصف مليون روبية و كان السفر إلى نُبنى سنة ١٩٨٣م بدون الشيخ لأن صحته قد تردت كثيرا و كان بامره و مشورته و الجمع على يدى محبه و مخلصه محمد نعيم المحترم و لكن نصائحه و تربيته و طريقة عمله و كلامه رفيقى فى السفر، و كان النجاح مضمونا و الحمدلله على ذلك، و كان الشيخ فرحا مستبشرا برجوعى و قد منّ الله علىّ و أكرمنى.

منذ أن بدأ المشروع لتكميل المسجد شيّدت الأجزاء التالية :

- إكمال قبب المسجد حتى حسن منظر المسجد و حفظ نصف سقف المسجد من تسرب مياه الأمطار، و البقية من السقف ستصلح قريبا.
- إكمال الأفنية الشمالية للمسجد و هى تحتوى على ٢٢ باباء و جعلت مكتبة دارالعلوم مؤقتاً.
- إكمال الباب الرئيسى (الشرقى) للمسجد و سمى بمدخل سمو الشيخة مريم.
- استفاد أهل الدار من تلك الهوة الواسعة التى تقع فى ناحية الشمال الشرقى و جعلت فيها أربعة أحواض للوضوء، مجموع مساحتها ٩٠ X ٥٠ ذراعا.
- تغطية المسجد بالأحجار حتى صلح للمصلين.
- إكمال منارات المسجد و إرتفاعها ٢٢٤ قدما حتى أصبح منظره بهيجا.
- إصلاح جميع سقف الأجزاء القديمة.

و هنا وصلنا إلى المرحلة المهمة من حياة الشيخ محمد عمران خان، و نختم هذا الفصل بكلمات فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى (٢٨) :

"و كان تاج المساجد ناقصا فتولى فضيلة مسئولية تكميله و أعماره و كان عملا عملاقا فوق طاقة فرد واحد و لكن الشيخ بعزيمته الحديدية بدأ هذا العمل الجبار متوكلاً على الله و مستعينا به و بمساعدة إخوانه من أهل الغيرة و العاطفة الإسلامية إلى إنهائه فى أكثر من ثلاثين سنة و لقد بذل فى هذا العمل مؤهلاته التنظيمية و جهوده العلمية

Converted by Tiff Combine - unregistered

و صلاحيته الأدبية و هو يعد بإكماله مآثرة مذكورة من مآثره."

يقول فضيلة الشيخ مجيب الله الندوى (٣٩) :

" تاج المساجد الذى يقع ببهوبال هو فى اعتقادى أكبر مسجد فى الهند و باكستان بناه أحد أمراء بهوبال، و بعد إنتهاء الإمارة تولى فضيلة الشيخ عمران خان تكميله و بعد إنفاق الملايين من الروبيات كمّله. و هذا صنيعه العظيم الذى يكتب فى تاريخ الهند بحروف ذهبى."

أمراضه و وفاته :

كان الشيخ مريضا منذ مدة طويلة، من أمراضه الكثيرة وجع المفاصل الذى أتعبه كثيرا، و كان مرض تجلط الدم أعاقه من الحركة و كان يحس وجعاً شديداً فى قلبه، و أخيرا تحمل المشاق الكثيرة من أمراض البول فقد أجريت له عمليتين جراحيتين للبروستاتة و ما نجحتا و كان يعسر طول الليل و يبول مرات و مرات و ينام قليلا لأن أثرات المرض فى الليل أكثر، و لذلك بدأ ينام بعد الفجر و إن كان يرفض النوم صباحا و كان يقول تغيب البركة من النائمين بعد الفجر و لكنه أجبر على ذلك بسبب مرضه. و أجريت له عمليتين جراحيتين للكترك و كانتا سببا لضعفه.

و كان يعمل على نصيحة شيخه "إذا أمسكت السرير يمسكك"، فمهما يكن من وجع هو لا يستلقى و لا يترك ما اعتاده أبدا و يكون مشغولا فى مشاريعه الدراسية و البنائية.

فى آخر أيامه كان يحس الوجع كثيرا فى صدره لمدد طويلة. ففى صبيحة ١٨ أكتوبر ١٩٨٦م كان يستعد للذهاب إلى دارالعلوم تاج المساجد، و جاءت سيارة المسجد (و كان يعطى أجرة سيارة الدار التى تنقله إليها و كان من حسن سليقته أنه قرر من يجلس على سيارة الدار يعطى الأجرة و إن كان مدير الدار و لا يأخذ مرتبا أو يستفيد ماليا فلا يتجرأ أحد أن يركبها بدون أجرة). فلما إن أراد أن يخرج للركوب على السيارة حتى أحس بوجع شديد فى قلبه استمر لمدة نصف ساعة فلما تخفف وجعه أراد أن يدخل دورة المياه فخرج فغشى عليه بالباب، فحملوه إلى السرير و أراد الناس أن يأتو بالطبيب و لكنه منع ذلك و قال لا فائدة من دعاء الطبيب فقد دنا أجلى، ألقت زوجته ماء زمزم فى فمه فشرب قليلا ثم فاضت روحه - إنا لله و إنا إليه راجعون - و دُعى الطبيب و لكن دون جدوى.

Converted by Tiff Combine - unregistered

انتشر خبر وفاته ببهوبال مسرعا، و اغلقت الدكاكين، و جاء الناس افواجا إلى بيته للتعزية، و بدأ مركب الجنازة الضخيم و الذى اشترك فيها اكثر من مائة ألف شخص على أقل تقدير فى الساعة التاسعة ليلا. و لم ترفع جنازة بهذا الشان إلاّ لشيخه العظيم محمد يعقوب المجددى الفاروقى و دفن بجنب شيخه، و صلى عليه إبن الشيخ يعقوب محمد سعيد المجددى بعد إصرارى الشديد و انتهى الفراغ من الدفن فى الساعة الحادية عشر ليلا.

و كانت جميع الصحف الصادرة من بهوبال و فى ولاية مدهيابرديش معلومة بخبر وفاته و دفنه، و الصحف الهندية و الإنجليزية اهتمت بهذا الحادث و قلما تهتم، و كذلك نشر الخبر فى الصحف القومية.

و كان الشيخ عمران لا يحب الشهرة و لا يتمناها و لا يتخذ لذلك سبلا معوجة فالله سبحانه لشهره و لذاع صيته بعد وفاته يكتب الأستاذ خواجه احمد الفاروقى (٣٠) :

" و كان نبأ وفاته ورد فى الصحف الإنكليزية القومية و إن كانت الصحافة الإنكليزية لا تهتم بالشخصيات العلمية و الدينية، و كذلك نكرت الصحف خارج الهند فى باكستان و بنغلاديش و ليبيا و السعودية و مصر نبأ وفاته و كتب عنه أنه من العلماء المسلمين الذين أدوا واجبهم العملى."

و قد تعطلت المراكز الإسلامية حدادا عليه و انعقدت جلسات التعزية فى كل المراكز الإسلامية ببهوبال، و فى دارالعلوم تاج المساجد، و فى دارالعلوم ندوة العلماء بلكناؤ، و فى مركز الجماعة الإسلامية بدلهى و غيرها.

حضر الأستاذ الندوى إلى بهوبال للتعزية لأهل صداقته و زمالته، و كذلك حضرت وفود من دار المؤلفين باعظم كره و من الجامعة الملية الإسلامية و اهل التعلق من بومباى و سورت و حيدرآباد و غيرها من المدن، و وصلت رسائل التعزية إلى زوجته المحترمة و إخوانه و أبنائه بمات.

اهله و أولاده :

زوجه المحترمة إسمها امنه سلطان و هى إمرأة عظيمة حقا، و كانت وراء نجاح الشيخ فى هذه الأعمال الجبارة، و هى ربتنا فاحسنت تربيتنا و حفظتنا القرآن و وجهتنا إلى التعليم الدينى، و كان الشيخ المرحوم مشغولا جدا فى الخدمات الإسلامية و الاجتماعية و كان كل ثقل التربية عليها و كان الشيخ يستعمل لتخويفنا، فاذا لم تكن أمنا لم نحصل على شيء نى بال.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و هي خطيبة بارعة، اشتركت في جماعة الدعوة و التبليغ و عملت كثيراً لنساء بهوبال من الإصلاح الديني و فتحت مدرسة البنات لتعليم النسوة و تثقيفهن، و كانت بيتها مكان تربية نساء الأسرة بكاملها، و في المدة الأخيرة حفظت القرآن الكريم بنفسها، و هي ولية من أولياء الله الصالحات كما يقول الشيخ منظور النعماني صاحب "الفرقان".

و للشيخ أربعة أبناء و بنت واحدة : أكبرهم الأستاذ حبيب ريحان الندوي الأزهري، درس العربية و الدين الإسلامي في ليبيا مدة ثلاثين سنة و رجع أخيرا بعد وفاة الشيخ إلى بهوبال، و هو مشغول الآن في تنظيم دار التصنيف و الترجمة التي أسسها قبل مدة، و هو معتمد لتعليم دارالعلوم تاج المساجد بهوبال. و يليه محمد رضوان خان ماجستر في اللغة العربية و كان مؤظفا في مكتبة الكلية السيفية و استقال قريبا و الآن أصبح مقاولا. و الأستاذ محمد صفوان خان ابن ثالث له أخذ شهادة الليسانس من جامعة ليبيا و هو أستاذ العلوم الدينية بالمملكة العربية السعودية منذ أكثر من عشر سنوات. و رابع السطور الدكتور محمد حسان خان الأستاذ المشارك للغة العربية بقسم اللغات و الحضارات المقارنة بجامعة بركة الله بهوبال، أخذت شهادة الليسانس من جامعة ليبيا و لم أتوظف هناك و فضلت خدمة الوالدين و رجعت إلى الهند بتوفيق الله و كان والدي مشغولا جدا في تكميل المسجد في ذلك الوقت و كان يحتاج إلى خدمتي فوفقني الله بالرجوع إلى الهند، و بدعائه المستجاب أنا كملت هنا تعليمي و أخذت الوظيفة المرموقة في بلدي.

و أما أختي صالحة سلطان و هي وحيدة، و كانت محبوبا لدى الوالد كثيرا و زوجت بالدكتور مسعود الرحمن خان الندوي الأزهري بروفيسور اللغة العربية بقسم الدراسات الأسيوية الغربية بجامعة عليجرة الإسلامية.

مصنفاته و مقالاته :

كان الشيخ ممران منذ نزول شديد و ميلان طبيعي للكتابة و كان أسلوبه نقدي لاذع على المجتمع و قساده كما كان خطابه. و كان يكتب مقالات في "الندوة" الأردية و "الضياء" العربية بندوة العلماء. ثم بعد رجوعه من مصر كتب سلسلة مقالات في جريدة "هندوستان" التي كانت تصدر من بومباي تحت رئاسة تحرير رئيس أحمد جعفري الندوي ، و في الجرائد التي كانت تصدر في الأربعينات و الخمسينات كتب مقالات كثيرة.

و لما بدأت جريدة "نشان منزل" في سنة ١٩٤٨م تحت إشرافه كان يكتب مقالات في هذه الجريدة و كان يوجه توجيهات جليلة لمديريها دائما.

و ألف مقالات افتتاحية علمية لمؤتمرى الدراسات الإسلامية و ندوة على

Converted by Tiff Combine - unregistered

السيد سليمان الندوى الذين ماتا بالدار.

و كانت له توجيهات خاصة فى تأليف "*مطالعة سليمانى*". و كان ينصح دائما أن لا نكتب مقالات طويلة بل المختصرة دائما لأن الناس لا فرصة عندهم للقراءة.

أما مصنفاته فهى موجزة كخطابه فقد ألف كتيبين و كتاب :

١- *مآثر نعمانى* : جمع فيها الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فقد ألفها سنة ١٣٦٧هـ ، و آخر طبعها السابع و الثلاثين. فهى مجموعة مختصرة جامعة للأدعية الدينية و الدنيوية، و الأدعية من المفثرة و توفيق الطاعة، و الاجتناب من المعاصى، و ترجم الأدعية إلى الأردية.

٢- *نماز: فضائل و مسائل* : ذكر فى هذا الكتاب فضائل الصلاة و مسائلها مختصرا و موجزا حتى يحفظها الإنسان بسهولة و يستعملها فى صلاته. و ترجم جميع الأوراد و الأذكار و الأدعية و بعض الآيات التى تتلى فى الصلاة إلى الأردية.

٣- *مشاهير أهل علم كى محسن كتابين* : هذا الكتاب ألفه سنة ١٩٤٦م، و هو فى الأصل مجموعة مقالات التى طبعت فى مجلة "*الندوة*" الصادرة من ندوة العلماء لكبار علماء الهند، ذكروا فيها الكتب التى تأثروا بها. فجمع الشيخ هذه المقالات و أضاف فيها مقالتين لم تطبعا فى "*الندوة*" و هما مقالة السيد أبو الأعلى المودودى و مقالة السيد أبوالحسن علي الندوى، و كتب الشيخ عمران مقدمة فاضلة على هذه المجموعة حيث حث فيها كعادته على تهيئة الأدب النافع و الصالح من الفوضى الأخلاقى العارم و طبع الكتاب بمطبعة معارف باعظم كره.

اهميته السياسية :

كان للشيخ المرحوم اراء سياسية مهمة و تفهمه للمسائل و القضايا الدقيقة الملتوية و تحمله و عزمه و حكمته و حنكه و قوله الصريح فى كل مكان و معرفته التامة بالنظام و الإدارة و تجربته الناجحة فى ميادين العمل كل ذلك كان يرشحه لميدان السياسة، و لكن فهمه السليم ساعده أن يبتعد عن هذه الشهرة الممنوعة، و لكن اختار التدريس و نشر العلم الدينى و الدعوة و الإرشاد ثم وقف نفسه على ذلك و كان لا يحب أن يدخل فى أشياء كثيرة فى وقت واحد، و كان خيرا له لأن السياسة المعاصرة مشتملة على الكذب و الخداع و النفاق، كان الأستاذ الكبير العلامة عبدالماجد الدريابادى يقول :

"*إذا كان الأستاذ عمران يدخل فى ميدان السياسة ينجح نجاحاً باهراً*".

Converted by Tiff Combine - unregistered

و كان الشيخ فى شبابه متأثرا برابطة المسلمين لنشاطه فى الإمارة الإسلامية بهبوبال. (٣١)

كانت علاقته بجواهرلال نهرو علاقة معرفة فقد أخبر عن ذلك بالتفصيل فى مقابلته التى نشرت، يقول الدكتور أخلاق اثر (٣٢) :

" و كانت علاقة الشيخ عمران بنهرو باعث حيرتى و لكن ما سمعت عن ذلك شيئاً قبل اليوم و إن كان الناس عموماً يخلقون قصصا مفتراة لعلاقاتهم بالعظماء فسألت منه متعجباً - ؟ فأجاب الشيخ فى حركة العصيان المدنى المتعلق بالملح اشتركنا مع نهرو فى سنة ٣٢ و ٣٣ ، فى نفس هذا الوقت كان الأستاذ خان عبد الغفار خان المرحوم (الزعيم السياسى البارز فى باكستان) فى سجن هزارى باغ، و ابنه خان عبدالولى خان (سياسى بارز الآن فى باكستان) يعيش عيشة فقر و مسكنة فى بيشاور، و كان نهرو زعيم حزب المؤتمر يريد أن يرسل له مبلغا من المال و كان لسيد سليمان الندوى و مسعود علي الندوى علاقة مع نهرو و والده، و كان الشيخ مسعود علي مشغولا فى بناء مسجد ندوة العلماء فطلب نهرو منه المساعدة لإرسال المبلغ و قال فى بيشاور أحكام عرفية و أريد شخصا إذا قتل أو رمى بالرصاص فلا يستفز منه أحد و حزب المؤتمر يكفل أسرته إن مات، فقال الشيخ مسعود علي هنا شخص واحد يؤدى المهمة بنجاح ثم التقيت به و أعطانى نهرو ألفى روبية و رسالة إلى عبد الولى خان. ثم نظم الشيخ مسعود علي برنامج السفر و كان ماهرا فأوصانى أن أتظاهر إنى مسافر لجمع التبرع لمسجد الندوة، و أقيم عند الندويين المقيمين هناك بكثرة فأخذت الإعلانات و الإيصالات و سافرت إلى بيشاور.

و كان نهرو يقيم فى بيت المسز بخطى عند ما يزور لكناؤ فذهبت إلى بيتها كثيرا فتبعنى الجواسيس و جاءوا ورائى بعد كل خطوة حتى وصلت إلى بيشاور فلما تعينت لى فرصة وضعت المبلغ و الرسالة تحت مقعد فى عربة مجاورة، و فتشونى فى كل نقطة و محطة، و بعد أن وصلت إلى بيشاور قلت لمضيفى أن يأخذ المبلغ و الرسالة من العربة المجاورة ثم وصل الخبيثان إلى عبد الولى خان فأبت من السفر فائز المرام ففرح نهرو و ربت على كتفى، هذا كان أول تعارف به فلما كان يأتى نهرو إلى لكناؤ يستدعينى للقاء.

ثم كانت معرفة أخرى، عند ما كنت أدرس بالأزهر الشريف بمصر زار نهرو كزعيم كبير للهند، فقد دعى إلى جلسة الوفد و كان زعيمه يومئذ سعد زغلول له ثقل فى مصر مثل غاندى فى الهند، فجاء نهرو مع ابنته انديرا غاندى، و كان مأويا فى الفندق و كنت مع الدراسة فى الأزهر مراسلا لصحف و مجلات هندية منها "زميندار" الصادرة من لاهور و كنت أقابل الناس جميعا بدون مشقة، عند ما التقيت بنهرو عرفنى و فرح بلقائى و كان نهرو يعرف الإنكليزية و المثقفون المصريون ماهرون فى الفرنسية،

Converted by Tiff Combine - unregistered

و كان يزمل من رحمته و يأتي هو و إبنته إلى بيت الطلبة بالعباسية و يجلسان على سريري و لما أمشي للدراسة أضع مفتاحي في المكان المقرر بمرقده فلما أتيا في غيبتي يأخذان مفتاحي و يجلسان في غرفتي.

ثم لما صوبر جوازي التقيت به عن طريق الشيخ مسعود علي الندوي فعرفني و قال كم تغيرت أنت يا شيخ عمران -؟ فقلت حصل التغير في الطبيعة، كنا نشترك في العصيان المدني عند ما داهمتنا البوليس و ضربتنا أنت هربت و أنا تحملت الهراوات على رأسي و أما الآن فالعصا في يدك فقال ماذا حصل -؟ قلت حكومة سيادتكم صادرت جوازي فقال ستأخذ جوازك يقيناً فحصلت على مبتغاي" - (ملخصا من ملاقات).

خدماته لندوة العلماء :

له خدمات جليلة بندوة العلماء لا يمكن أن تنسى و كل الندويين القدامى متفقون أنه أعطاها حياة جديدة من النواحي الإدارية و المالية و التعليمية يكتب الشيخ منصور نعماني الندوي المرحوم في مقالة له بعد وفات الشيخ (٣٣) :

" إن الشيخ عمران من خريجي ندوة العلماء المشهورين و كان وارثا لمقاصد ندوة العلماء ثم خدم خدمات ممتازة بندوة العلماء. فلما باشر إدارة ندوة العلماء كعميد شهرت صلاحيته الإدارية الجبارة و تحير الناس من صلاحياته الفذة فطار طائر شهرته و كان له دوىّ خاص في القارة الهندية. و هذه حقيقة لأمراء فيها أن الندوة كانت في هاوية مالية حرجة، و في نظري كان ذلك الدور شديداً جداً فلم يضعف و لم ينهزم و لم يحجم و عرّف الندوة إلى الشعب الهندي لم يسبق له مثيل و بدا إهتمامهم للندوة و حصل على التبرعات الكبيرة الضخمة، و يرتب هذه الأيام تاريخ ندوة العلماء يجب أن تذكر خدماته بطريقة مناسبة لأن أرض ندوة سيقت بتضحياته و خدماته فقد قدم جميع أماني شبابه هدية إلى ندوة العلماء."

يقول الشيخ مجيب الله الندوي (٣٤) :

" عند ما تولى الشيخ محمد عمران العمادة بندوة العلماء كانت الإدارة غير مرتبة فأصلحها، و لذلك إنا يستعمل لفظ

Converted by Tiff Combine - unregistered

(المهتمم/العميد) مطلقا فلا يراد به إلا الشيخ عمران."
"و كانت الحالة المالية لندوة العلماء متردية و كانت قروض مئة ألف و خمسة مئة ألف على ندوة العلماء فقام بجهود ذاتية كبيرة في ذلك و حثّ السيد سليمان الندوي و الشيخ مسعود على الندوي أن يسافر إلى حيدرآباد و حصل على ثلاثين ألف روبية و هذا المبلغ يعتبر الآن نصف مليون روبية و هكذا انتهت الضائقة المالية هناك."
"و كانت الندوة قبله ليست معهدا شعبيا بمعنى الكلمة فكانت تحصل على الإعانات من بعض أمراء الكنائر و غيرها فقربهم بها بجهوده الخاصة."

و يقول الشيخ مجيب الله الندوي أيضاً (٣٥) :

إن في خريجي ندوة العلماء رجلين مشهورين في النظام و الإدارة و السليقة و الذوق البنائي : في القدماء الشيخ مسعود علي الندوي و في المتوسطين الشيخ محمد عمران."

سلاحيته الإدارية و السليقة :

كان الشيخ المرحوم في أول حياته مائلا إلى الكتابة و كان أسلوبه ساخرا على الفساد الإجتماعي مثل خطابته، فكان يكتب مقالات علمية في *"الندوة"* و *"الضياء"* الصادرة من ندوة العلماء و مجلات و صحف أخرى أسبوعية و يومية في جميع أنحاء الهند كما مرّ في الصفحات السابقة.

و ثانى أعماله الذي زاوله مهنة التدريس و كان له أسلوب متميز فيه، و كان يدرس علوم القرآن بندوة العلماء بطريقة تفهيمية جيدة، و كان لكاتب هذه السطور شرف لتدريسه بدارالعلوم تاج المساجد بهوپال و كان يدرسنا كتاب *"درس التاريخ"* و كنا نتلذذ بطريقته و نتنظره بشوق و رغبة و كان يربي الطلاب بقصص القدماء أثناء الدرس و لكن صلاحيته الخاصة إدارة الأعمال و الإنشغال بالنظم و الانتظام، و كان مشهور عند ذلك لما كان طالبا بالندوة و قد قدمنا قصة زيارة النواب مزمّل الله خان.

كما فعل العلامة شبلي النعماني مع تلميذه الشيخ مسعود علي الندوي عند ما ألف مقالة و قدّمها إليه مزّقها و قال أنت لم تخلق لهذا، هكذا كان الشيخ عمران، فلم يجعل الكتابة مهنة و قلل من أعباء التدريس و توجه كلية إلى النظم و الإنتظام فرأينا أنه أصلح إدارة ندوة العلماء و قواها من

Converted by Tiff Combine - unregistered

الناحية المالية حتى أتى الدور الجديد فى قيادة الشيخ أبـى الحسن النـدوى و تأتى مبالغ كبيرة من الدول العربية، و كذلك تمكن من طريق هذه الصلاحية فتح دارعلوم كبيرة بهيوبال التى أصبحت وريثة فى خدماتها الدينية الجبارة، ثم تتويجها لهذه المهمة الإدارية الجبارة كمثل تاج المساجد الناقص و ما استطاع تكميله الأمراء و الأثرياء.

و هذه الخصوصية و الإمتياز لها أهميتها الكبيرة لأن العلماء عموما مع علمهم و فضلهم بعيدون من النظام و السليقة. و لهذا السبب كل شخص يذكر هذه الخصوصية، لأن أصحاب التصانيف و المدرسين العظماء عددهم كبير جدا بالعكس من الإداريين الذين هم بقلة فى كل زمان و مكان و خاصة فى طبقة العلماء.

بعض خصوصياته و أصوله الإدارية :

و من أصوله أنه كان لا يعد الملف للموظف أو الأستاذ و يكتفى بنصحه و زجره إن لفظا حتى لا يؤخذ الموظف بسبب الملف، و لكن الناس مختلفون، بعضهم لا يحبون الزجر و لو فيه مصلحتهم.

و كان شديدا فى النظام لا يفرق بين حبيب و غير حبيب و كان يقول لم يكن لى حزب بندوة العلماء لأن أصحاب الحزب يريدون التسهيلات و الراحة و لا يعملون بجد و الاعفاء عن التكاليف و هذا يعتبر ظلما، و كان يقول أنا أحب فقط الشخص الذى يعمل بإخلاص و لو لا يحضر فى مجلس و لا يحسن.

و كان كذلك شديدا فى معاملة العاملين بالدار من الأسرة و الأقرباء، و كان يضعف عليهم الجزاء إذا أخطأوا عملا بأسوة الفاروق رضى الله عنه.

العمل الواحد فى الوقت الواحد :

و كان من عادة الشيخ أن لا يشتغل فى أعمال كثيرة فى وقت واحد، بل يختار العمل الواحد و يتقنه هذا كان أسلوب حياته كلها، يقول الشيخ مجيب الله الندوى (٣٦) :

> " كان الشيخ محمد عمران خان يتوجه إلى عمل يختاره بكليته و كان لا يشتغل فى أعمال كثيـرة فى وقت واحـد و لا يقدر أن يؤدى حقها كلها."

و يقول أيضا (٣٧) :

> " الشعبية التى حصل عليها الندوة من طريق الشيخ عمران

Converted by Tiff Combine - unregistered

كان بسبب اشتراكه فى عمل الدعوة و الإرشاد. تمن التقينا بالشيخ الياس مع الشيـــخ أبـــى الحســـن الندوى أول مـــرة و أمضينا إجازات كثيرة فى مركز الدعوة بدلهى. و لكن لما ساهم الشيخ عمران فى حركـــة الدعـــوة و التبليغ أصبح لها وحدها و لم ينظر إلى أى عمل آخر أبداً و أصبحت من جهوده الدعوية بهوبال مركزا للدعوة."

فى أول شبابه اختار خدمة ندوة العلماء فقدم كل ما عنده فى إنجاز هذه المهمة حتى نجح نجاحا باهرا فقد جعل الله الندوة " *كشجرة طيبة أصلُها ثابتٌ و فرعُها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربّها*" (٣٨)

و فى آخر حياته اختار تأسيس و تطوير دارالعلوم تاج المساجد بهوبال و تكميل هذا المسجد العظيم و لم يتوجه إلى أى شىء آخر فاذا جاءت حاجة ملحة أو شيئا مهماً أقام شخصا آخر للمهمة و كان يبتعد عن السياسة العملية و لما تكون المجلس الإستشارى الإسلامى فى قيادة الشيخ أبى الحسن الندوى أصرّ على الشيخ عمران أن يقبل عضويته فلم يرض إلاّ بعد إصراره و إلحاحه الشديدين و كان يجله و يحترمه و لكنه كتب الاستقالة من عمـــل الدعوة و التبليـــغ و أعطى هذه الإستقالة المكتوبة لأبى الحسن الندوى و طلب منه أن يقرأها ثم يرسلها إلى الشيخ يوسف رئيس التبليغ انذاك. و لما علم أبو الحسن الندوى أنه يريد الإستقالة عن عمل الدعوة حتى يدخل فى المجلس الإستشاوى لم يرض بذلك و تركه و حاله.

رعبه و مهابته و شدته فى الأصول :

و كان الشيـــخ أصوليا يحب الأصول فى كل شىء و كان نموذجا للحديث الشريف " *ما كان الرفق فى شىء إلا زانه و ما كان الخرق فى شىء إلا شانه*" فـــى البيـــت و الإدارة فـــى الحضـــر و السفـــر يقول الشيخ مجيب الله الندوى : (٣٩)

" كنا فى مجلس الشيخ إلياس بـ "نظام الدين" و كان الشيخ "المهتمم" (و كان مشهورا بهذا اللقب بندوة العلماء و مركز التبليغ بدلهى) معنا و قدم إلينا الفطور و كانت أخبازا لذيذة و شوربة و قليل من البسكويت و الشىء المالح فى صحن واحد و الحضور كثير فأخذ الشيخ عمران صحناً آخر و قسم الأشياء فيهما فمسك الشيخ إلياس يده و قال نحن نحب سليقة أهل الندوة هذه."

Converted by Tiff Combine - unregistered

و كان شديدا في النظام ظاهرياً و في حياته العامة سهلاً ليّناً و ذا اخلاق عالية، كاتب السطور أمضى إجازته مرة بندوة العلماء، و قبل بداية رمضان دعاني الشيخ و قال ! لا تقرأ القران في التراويح فقلت إن طلب أهل أحد المساجد فاقرأ فنظم لي مسجدا و قال كل الطعام بندوة العلماء.

جاءته الرسالة من أمير بهاغلبور أن يرسل طالبا إلى إمارته كي يدرس أبناءه في أيام الإجازة فسأل مني الشيخ فرضيت فلما رجعت بعد الإجازة سأل الشيخ عمران هل أعطاك الأمير مبلغا غير نفقات السفر -؟ قلت نعم ! و لكني ما قبلت فكتب إليه الشيخ فوراً أن ذلك الطالب خجول و كان يجب أن تعطيه هذا المبلغ بالإصرار، على كل حال أرسل المبلغ إليّ فوراً حتى أعطيه، و هناك حوادث كثيرة للينة و الاهتمام بالأصول و لكن الطلاب لتشديده في تنفيذ الأصول لا يحبونه و كنت منهم و كان متشدداً و لا ينتقم من أحد أبداً. بعد إضراب الطلاب سنة ١٩٤٢م نقص عدد الطلاب فنقل بعض الطلبة من رواق شبلي إلى بناية دارالعلوم و كان من أصدقائي عبدالرحمن و كان يحلب من شاة الشيخ المربوطة بالمطبخ و كان الشيخ يلوم الخادم و علم مرة بالعلبقة ، و كان من أصدقاء عبدالرحمن خليل و كان يأتي باللحم يوم الخميس تاكل و نمرح و نقرأ الأشعار بأصوات عالية، و كان العميد يسكن في الجزء الشرقي من البناية فصبر يوم الخميس الأول و في الأسبوع الذي يليه ثم جاء و المجلس على أشده فخفنا و لكنه قال بالهد . إذا تحتاجون إلى الحليب فلتأخذوا من البيت حتى لا تكون الضجة على الخادم و لو تخفضون أصواتكم قليلا حتى لا يقال إن هذا سول، و كان من أثر نصيحته الحكيمة اننا تركنا شيئين.

و كان من حسن إدارته أنه يهتم مع شدته و أصوليته بالمصالح و الحالات الخاصة و يقص علينا الشيخ محبوب الله الندوي قصتين معتعين في هذا الصدد و هو يقول (٤٠) :

" لما قرر الحزب المؤتمر الهندي قرار عدم الإنكليز و طلب منهم أن يغادروا الهند سجن جميع أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب و جميع الزعماء الرابطة الإسلامية و لكنه احتراما لمطالبة الطلاب أعلن العطلة، و الطلاب اشتركوا في الفوضى طول النهار و لما علم طلاب الندوة أن طلاب جامعة لكنلا متوجهون إلى المدينة لإغلاق المتاجر و الإقدامات الثورية الأخرى أوقفتهم البوليس عند جسر موتي محل و استعملت الهراوات فلمعت التظاهرة بعد إطلاق النار على العزل فجرح كثيرون و مات بعضهم، هذا الخبر أثار الطلاب

Converted by Tiff Combine - unregistered

فتجهروا و يريدون التوجه إلى جسر موتى محمل و حملوا علم الحزب و تحركوا إلى الباب لما علم العميد ذلك جاء فوراً إلى الباب لابسا اللباس العادي و القلنسوة التركية و قال للطلاب أن يفعلوا ما يريدون في الحرم الجامعي و لا يخرجوا منه فاشتعل بعض الطلاب و ارتفعوا النعرات ضد الرابطة الإسلامية و ضده و قالوا " متعلق الحكومة يموت " فلم يتأثر بل وضع قلنسوته على الأرض و استلقى على الأرض لا أسمح لكم بمغادرة الحرم فلو تريدون الخروج فعليكم أن تدوسوهما، هذه الطريقة الناصحة أطفأت نار الغضب و دخل الطلاب و رجعوا إلى غرفهم.

في نفس اليوم في الساعة العاشرة ليلا اجتمع عشرة طلاب سريا و كنت منهم و قطعنا أسلاك التلفون أمام ندوة العلماء و حلفنا بالله أن لا نفشي سرا فاستعمل سلم المسجد و اخترنا الأسلاك البعيدة من باب ندوة العلماء حتى لا يعلم أحد و لم يعلم بالحادث أحد نمنا بالراحة، ففي الصباح في الساعة الثامنة و كنا مشغولين بالدراسة رأينا سيارة البوليس المسلح تدخل من الباب و كان العميد في غرفته فدخل إثنان منهم و قالا إن طلابكم قطعوا الأسلاك بالبارحة و نريد أن نفتشهم و العجيب أن الأخ رفيق رذولوى قد أخبر العميد بهذا الحادث قبل مجيء البوليس تقريبا إليه زلفى فاحس العميد بالحالة الحرجة و قال للضابطين أنا أرجع بعد دقيقتين و خرج من الغرفة و قال للملتقى سعيد مراقب الطلاب أن يجمع عشرين طالبا هزلاء ضعفاء أمام إدارة الدار ثم رجع العميد إلى غرفته و تكلم منهما و قدم إليهما مشروبا و قال لابد أن نحقق في ذلك ثم خرج معهما إلى الغرفة و أشار إلى الطلاب الضعفاء هل هؤلاء يستطيعون هذا العمل الكبير، و هذا العمل يسهل على طلاب مدرسة الآداب أو الجامعة الذي نشروا الفوضى بالأمس أيضا. و قال العميد هذا الكلام بطريقة مؤثرة حتى اقتنعا و رجعا بدون تحقيق زائد."

و هذا السلوك المثالي يقرب إليه الدّ أعدائه. و هناك أمثلة كثيرة لإهتمامه بالأصول و أخلاقه العالية و لكن نحن طلاب صغار كنا نتأثر بالبيئة التي خلقها بعض الأساتذة و الطلاب السياسيون ضده حتى نفهم كل أعماله ضد الطلاب.

Converted by Tiff Combine - unregistered

إبتعاده عن المتملقين :

كان أسلوب الشيخ في تسيير شئون المعاهد بلكنلا و بهوبال ان الذي يعلم بإخلاص هو محبوب، و ما كان له صديق شخصي، و كان لا يحب المدح من أحد و لا يمدح نفسه، و هي صفة نادرة في الناس و العلماء و خصوصا أصحاب التاليفات و الأعمال العظيمة، و هذا وراء نجاحه في جميع الأعمال فلا ظلم و لا غمط لحق أحد و لا محسوبية و لا ترجيح بلا مرجح و هو وسائل نجاح جميع الإداريين و العلماء.

مهارته في جمع التبرعات و نزاهته :

كان الشيخ محمد عمران ماهرا في جمع التبرعات للأعمال الخيرية و خاصة للمساجد و المدارس و كانت هذه صفة فطرية فيه ثم صقلت في معية أستاذه الشيخ مسعود علي الندوي.

كان الشيخ مشهوراً في ذلك منذ كان عميدا لندوة العلماء كما مرّ فقد جمع لندوة العلماء ألوفا من الروبيات و كانت طريقه و أسلوبه ممتازا، يقول الأستاذ عبدالحفيظ ميناز سورتي من معتقدي الشيخ عند ما زار الشيخ بومباي و التقى بوالدي الشيخ عمر فحدّد مبلغ عشرين ألف روبية لندوة العلماء فلبغ إلى حده في مدة قريبة و لم يقبل الزيادة و رجع إلى لكنلا و قال لمتبرعين أن يرسلوا رأسا إلى ندوة العلماء. فتأثر والدي جدا و فهم أن هذا الشيخ رجل مهم ليس مثل الآخرين الذين لا يرجعون أبداً.

و الشيء الآخر أنه كان يطلب التبرع بعزة النفس فلا يزول نفسه أبدا و يقول أنا أجمع للمسجد و المدرسة ليس لي فيه نصيب فلم أخاف أو احتقر نفسي و كان من عادته الشريفة أنه إذا تكلم أحد بكلام لغو فلا يقبل تبرعه و لو كان عشرة الاف. و كنت في سفر إلى كلكتا فزعل من كلام أحد الأثرياء فزجره و ربّخه و لم يقبل تبرعه و إن قبل معذرته.

ثم جاء دور أكبر برنامج جمع التبرعات ألا و هو لتكميل تاج المساجد فقد جمع قرابة سبعة ملايين من الروبيات و كمل هذا المسجد بجهده الفردي و دعاء الشيخ محمد يعقوب المجددي و مساعدة المسلمين في الهند و خارجها، جمع المال من جميع أنحاء الهند ثم سافر إلى انكلترا و امريكا و كندا و كنت معه في هذه الأسفار رأيت جهده و مصابرته و تأثيره على الناس.

و كان دائما في مساعدة جامعي التبرع لأعمال مهمة خارج بهوبال، فقد جمع التبرع لـ "دار المصنفين" و مجلة "الفرقان" و "مهرجان ندوة العلماء" و لمتأثرى الإضطرابات الطائفية.

و من عجيب الاتفاقات أن مدينة بهوبال لم تتعود على دفع التبرعات

Converted by Tiff Combine - unregistered

للأعمال الخيرية لكونها إمارة إسلامية و كان أهلها يعتقدون أن أعمال الخير من حق الأمير و الإمارة و الشعب لا ينفق شيئاً في ذلك، أما بقية الهند التي كانت سيطرة البريطانيين مباشرة كانت تؤدي جميع الخدمات بالتبرعات. كان الشيخ يحكي لنا قصة متعة لما كان يدرس بندوة العلماء، مميدها أعطاه إيصالا لجمع التبرعات ببهوبال. فالناس تحيروا عند ما سمعاهم لدفع التبرع و قالوا ! ليس هناك أمير ينفق على الشئون الدينية و الخيرية.

و لكن بجهود الشيخ عمران في هذه المدينة الوادعة و الإمارة السابقة بأكملها تعود الناس على الإنفاق على المساجد و المدارس بأنفسهم، فقامت دارالعلوم تاج المساجد بمساعدتهم و كمل المسجد العظيم و فيه مساهمة أهل بهوبال قرابة مليون روبية و سال بعد ذلك السيل فالآن يبنى كل مسجد و يوسع و يجدد، و هذه الحسنة في حسابه.

كان الناس يثقون عليه و كان نزيهاً و أميناً في المال، فقد قدم ما عنده للمعهد و تكميل المسجد و جمع ملايين من الروبيات و لم يأخذ طول حياته لا مرتبا و لا علاوة و لا فخرية من دارالعلوم تاج المساجد بهوبال. و كان الشيخ أكثر من ذلك يفعل إذا يركب سيارة الدار يدفع أجرتها بحساب العدة و كان قصده من ذلك نعم نظامه فإن واحد من الدار لا يتجرأ على الجلوس على السيارة بدون دفع الأجرة لأن رئيسها بنفسه لا يركبها مجانا.

كانت أميرة بهوبال الأخيرة صاحبة السمو ساجدة سلطان تأثرت بجهده و تعبه في تكميل المسجد الذي بنته أم جدته فأعطته سيارة هدية و لكن الشيخ وهبها للدار و كان إذا يركب عليها أيضا يعطي الأجرة.(٤١).

أسلوبه الخطابي الخاص :

كان الشيخ يحب الصمت و السكوت و لا يتكلم إلاّ لضرورة عملا بالمثل العربي السائر "المكثار مهذار و قلما أقيل له مثار" (٤٢) أنا رأيناه يتكلم كلمتين ثم يسكت و يطول السكوت فيتقي بهذا من شرور المفسدين و الكاذبين يقول الشيخ مجيب الله الندوي (٤٣) :

" كان يتكلم قليلا عادة و إذا يتكلم يتكلم بقدر الحاجة و الناس يعتقدون لسكوته أنه سيء الأخلاق."

و كان خطيبا ماهرا و لكن كان لا يتوق شوقا إلى الخطابة. و كان يخطب في اجتماعات الدعوة و التبليغ التي اختارها حركة دينية لإصلاح نفسه و إصلاح المسلمين و لم يتوجه إلى غيرها حتى مات، و كان خطابه حلوا و فيه نقد لاذع على الأوضاع، بكلامه يضحك الإنسان و يتوجه كليا إليه للذة

Converted by Tiff Combine - unregistered

كلامه فلما قلوبهم مالت إليه يقول كلاما مؤثراً ذا إصلاح بدأوا يبكون من شدة تأثرهم و يخرون فوراً إصلاح نفوسهم.

يقول الشيخ مجيب الله الندوى (٤٤) :

" كان يخطب قليلا و لكن لما يخطب يخطب بطريقة ممتازة."

و يقول الدكتور أخلاق اثر (٤٥) :

" بجملة من الشيخ و النكت اللائمة تحولت الجلسة كلها ضاحكة و بجملة أخرى متصلة تبكى جميعا فى صلاحية خصوصية أعطاها الله إياه."

و يقول الدكتور معين الدين الفاروقى (٤٦) :

" كان أسلوبه الخطابـــى نادرا و عجيبا فيـــه النقـــد اللاذع و الساخر بجنبه السمع و كانت الطبقة التى تعتقد أن الدروس الدينية و الخطب الإصلاحية غير مرغوب فيها لهجوها و جدها و هى لا تشترك فى مثل هذه الاجتماعات، هى التى تنتفع و تستفيد أكثر و كانوا يتمنون دائما أن يكون الخطاب للشيخ معراز."

و يضيف قائلا :

" إن خطابه قد غير مجرى حياة آلاف الناس و توجهوا إلى المقصد العالى و السمت الرفيع إلـــى طريق اللّـــه سبحانـــه و تعالى و رضائه. و كان سببا لقرب هؤلاء الآلاف المؤلفة البعيدين عن الدين و كانوا يتصورون إن الدين أمـــر صعـــب و بدأ طلاب المدارس و الكليات الحكومية يأتون أفواجا للاشتراك فى اجتماع الجامع فى ليلة الأربعاء بسبب خطابه الجميل الجذاب."

. يقول الشيخ مجيب الله الندوى (٤٧) :

" و كان العميد ليس خطيبا فذيا و لكنه كان يخطب فى الإجتماعات التبليغية خطابات تربوية بطريقة حلوة و كان يشترك أحيانا فى اجتماعات السيرة النبوية المطهرة و كان

Converted by Tiff Combine - unregistered

شركاء المجلسة لا يعرفون كيف يشتركون فى مثل هذه الاجتماعات و كان ينتقد على ذلك بأسلوب لاذع مرة اشتراك فى اجتماع السيرة و رأى النساء المتبرجات جالسات مع الرجال فبعد أن حمد الله و أثنى عليه قال هذه المجلسة مشابه لمجلسة الحكومة مثلا ترفع فيها ملما حينما هذه جلسة السيرة و البيئة بيئة الأجانب فما أن سمعت النساء هذا حتى غطت رؤوسهن و كتمن وجوههن."

و يقول الدكتور أخلاق اثر (١٨) :

"و كان الشيخ يوضح الأصول الستة للدعوة مع وقائع الأسلاف فيأتى أمامنا نموذجا يسهل الاتباع لمن يشاء و كان ينصح أن لا نشدّد على النسوة للصلاة كما أن الرجال لم يتعودوا إلاّ بعد جهد و مشقة و كان يقول إن بلال رضى الله عنه و إن كان أسود اللون و لكن ما كان يمكن للأشراف من قريش أن يمنعوا تزويج بناتهم منه إذا جاءت خطبته. و كان يفنّد تفريق المسلمين باسم الاشراف و البلتان و الصديقى و الفاروقى. نحن لا نعود مرضى المجاورين و أن مرض أصحاب السلطة نحضر للعيادة فوراً. و كان يصر على إكرام الزوجة و يقول نحن جعلناها أسواء من الخادمة. و كان يفهمنا الفرق بين النظافة و الطهارة حتى نضحك ملء فينا. و كان يخلق فينا روحا إصلاحية و كان يستشهد بأبيات إقبال ".

هذا أسلوبه فى الخطاب و كان فى حياته اليومية يحب النكتة و المزحة و له نكات كثيرة مشهورة سائرة فى العالم مع جماعة التبليغ، و كان متأثرا فى أسلوبه هذا بالشيخ مسعود علي الندوى.

شجاعته و قوله الحق فى كل مكان :

كان الشيخ عمران شجاعا ذاهمة عالية لا يخاف من أحد سوى الله و هذا دأبه فى كل وقت و حين و كان يعمل على الحديث الشريف " *أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر*" لذا سألت منه شخصيا أنت لم لا تخاف من قول الحق أمام أصحاب السلطة ـ؟ هو أجاب : أنا أصلى صلاة الحاجة فيزول الخوف إن كان و أحس بجرأة فائقة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

نذكر هنا بعض أهم الحوادث من هذا النوع :

فلما استشاره رستم جي حاكم بهوبال عن إيقاف الإضطراب الطائفي ببهوبال قال الشيخ :

" أعطني السلطة و أغلق البوليس فلا يكون إضطراب أبدا." (٤٩)

مرة قرب الإنتخابات الهندية العامة جاء وزير الغذاء الهندي آنذاك السيد فخرالدين على أحمد و طلب في جلسة شركاءها من أعزة أهل بهوبال و الرجال المخصوصين أن قووا أيدي السيدة انديرا غاندي فقال الشيخ بعد الجلسة للوزير المحترم يجب أن تنصح المسلمين أن يقووا رؤسهم بنفس القوة لأنها إذا قويت تقع عليهم بشدة، فتضجر السيد الوزير من وضوحه و صراحته و قال لم يقل لي طيلة حياتي أحد بهذه الصراحة ثم تصافحا و كان رجلاً شريفاً ذا أخلاق عالية.

كان الشيخ عمران متفكرا و متحيرا في موضوع إجازة الحكومة لبناء المنور الثاني فوق مكانين المسجد، فدعا كبير وزراء مدهيا براديش السيد أرجن سينغ ثم شرح له الموقف كله و في أثناء كلامه قال :

"نحن نعلن في الملأ علمانيتكم بعقد الإجتماع العمومي بتاج المساجد و الناس من الدنيا يشتركون و ينظرون أن في الهند حرية القول و بعد رجوعهم يخبرون أهل بلادهم من ذلك و لكنكم تتعبوننا في أشياء حقيرة."

و كان كبير الوزراء رجلا شريفا فقال أعطني يوما واحدا سأحل مشكلتك، و أعطى إجازة البناء في الوقت المحدد مشكورا و دعا له الشيخ.

و كان الشيخ شجاعا يقول كل شيء بصراحة و كان لا يهتاب أحدا و لا يحب المؤامرة عند أحد فالناس الذين يعرفون هذه العادة النادرة يحبونه و يؤقرونه. و كان يقول كل شيء صريحا لرئيس التبليغ السابق الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي و كذلك للرئيس الحالي.

و كان يزعل و يقول عند ما يطلب المشورة من أحد يقول ما في نفسه و لا يحاول إرضاء الشيخ أو الرئيس أو صاحب السلطة و لا يحرف عنه قلقا و لا يسكت من الحق لأن النصيحة لله و لرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم.

فقد قص علينا الشيخ أبوالحسن الندوي عند ما ورد إلى بهوبال لتعزية الوالد قال :

" بيننا كان اختلاف في وجهات النظر فقرر الشيخ عمران البقاء ببهوبال، بعد رجوعه من ندوة العلماء أعلن إضراب

Converted by Tiff Combine - unregistered

الطلبة بندوة العلماء فلم يفرح و لم يشمت بل سافر إلى لكناؤ فوراً و تولى المسئولية حتى انتهى الإضراب ثم أتى بى إلى بهوبال لأروّح عن نفسى، و لم يقل فى ذلك الوقت و لا طيلة حياته أن مغادرتى ندوة العلماء تسبب الإضراب."

يقول السيد صباح الدين عبد الرحمن (٥٠) :

" و كان يختلف مع الأصدقاء و المعاصرين و لكن بالمروءة و الأخلاق."

بعده عن الحسد :

و كان الشيخ من قلة العلماء الصالحين الذين لا يكتون الحسد و الضغناء لأحد و لو كان هذا الشخص أقل منه مرتبة و ترقى إلى المنصب و المرتبة الأعلى و كان يحترمهم حق احترامهم. و هذه خاصية يجب إن نهتم و نعظم شأنها لأنها فى الحقيقة نادرة.

كان الشيخ أبو الحسن علي الندوى صديقه و زميله من بدء الدراسة و كان الشيخ عمران عميدا لندوة العلماء و كان الشيخ ابوالحسن استاذ التفسير، و كان الشيخ عمران يحب أبا الحسن و يحس بأهميته و علمه و إخلاصه و تفانيه لندوة العلماء. فى الأخيرة أصبح الشيخ الندوى مديراً لندوة العلماء و صار الشيخ عمران تابعاً له فلم يحسده و لم يحقد عليه بل زاد من إكرامه و حبّه و لم نسمع منه إلاّ مدح صديقه أبى الحسن فى رقى الندوة و توصيلها إلى هذه المرتبة العالية و المقام الرفيع.

و المثال الثانى لذلك أنه إقترب من حركة التبليغ بتوجيه الأستاذ الندوى و لكنه بعد ذلك وجد مرتبة عظيمة و خطوة لدى مؤسس الدعوة الشيخ إلياس الكاندهلوى. و إبنه الشيخ يوسف لم يكن قريبا من الدعوة قبل وفاة والده و كان الشيخ عمران له مساهمة فى تقريبه إلى الدعوة. فلما عيّن الشيخ يوسف رئيس التبليغ بعد وفاة والده احترمه حق احترامه.

اهتمامه بالظاهر :

و كان الشيخ يخاف الله فى الظاهر و الباطن و لذلك لا يهضم حق أحد بل يعطى الحق للمبغض و المحب. و كان الشيخ مع ذلك يهتم بالظاهر لأن الناس يحكمون بالظاهر و كان يحتاط جدا فى حياته و كان يقول لنا دائما : *" إتقوا مواضع الشبهات".*

Converted by Tiff Combine - unregistered

تركه مطالبة حقه :

و كان يهتم بهذه الناحية كثيرا و يترك حقه إبتغاء درء الفتنة و الفساد و الحصول على الجنة، هو عامل على ذلك فى كل حياته فى ندوة العلماء فى جماعة الدعوة و التبليغ، فى أسرته و فى جواره، و كان ينصحنا دائما أن نتبعه فى ذلك و كان يقدم أمامنا حديثا يرغبنا فيه و هو : " من ترك المراء و هو محقا ضمن له الجنة ".

يقينه فى أقوال الرسول صلى الله عليه و سلم :

كان إيمانه و يقينه على أقوال الرسول صلى الله عليه و سلم كثيرا. و كان موضوع خطبه دائما، و يسمعنا قصصاً كثيرةً من حياة الصحابة رضى الله عنهم حتى يثبت ذلك فى أذهاننا.

يكتب السيد شاهد زعيم فاطمى فى مقالته " بڑے لوگ بڑی باتیں" (الرجال الكبار و أقوالهم الكبيرة) طبعت فى مجلة " سيارة " فى فبراير ١٩٧٦م. (٥١) :

" فى سنة ١٩٦٤م لثناء سفرى بالهند وصلت مشجولا إلى بهوپال عاصمة الولاية المتوسطة و هناك التقيت بالشيخ محمد عمران خان الندوى عميد ندوة العلماء السابق فى اليوم الأول للقاء طلبت منه أن يحصل لى على صحيفة فقال الصحيفة الأردية لا توجد الإنكليزية ميسرة فاكتفيت بها. فى زقاق قريب من بيته كان يسكن محاميا فذهب الشيخ لياتى بالصحيفة فلما رجع رأيت سروالـه ممـزق و الصحيفة فى يده مجزأة و الدم يسيل من رجله، أنا تأسفت لحاله هـذه فقال كان كلبا مجنونا فـى الزقاق هاجم علىّ و عضنى.

خجلت جداً أنه تعب لأجلى و لكنه افتخر و قال إن الصحيفة مفروقة. و كان إبنه يصر عليه ان يذهب إلـى الطبيب لو المستشفى فلم يجد هذا الرأى قبولا عنده، و طلب أن يتفقد العجوة من التمور قال عليه السلام : ما معناه " لو أكل العجوة عددا معينا لأيام معينة لا يؤثر فى أكله أى سُمّ. بعد تفقد شديد وجدت العجوة بالعدد المطلوب فاطمئن كأنه وجد ترياقا للسُّم الإيمان بقول الرسول صلى الله عليه و سلم بهذا الشكل فى هذا الدور الإلحادى من حظ أولئك الذين يصدقون حقائق الإسلام الأبدية."

Converted by Tiff Combine - unregistered

استفاد التصوف بين البشر جميعاً :

هذه الميزة و الخصوصية لا أهمية لهـا عنـد العـرب المسلمين الذين لا يفرقون بين إنسان و إنسان و لكن هذه الخصوصية قليلة نسبيا فى الهند لوجود الفوارق الطبقية، و كان الشيخ يهتم بهذه الخصوصية كثيرا. و إذا توجه إليه أى دعوة أو مأدبة كان يشترط أن يأكل معه سائل الدار فالبعض يأكلون هذا احتراما للمدعو و لكن البعض الآخر لا يأكلون فلا يشترك فيها أبداً.

هذا تنتهى مقالتنا التى كتبناها باختصار شديد و نشكر البروفيسور نثار أحمد الفاروقى الذى أولاه لما ألقت هذه المقالة، و قد طلب الشيخ عمران، بل باصراره أدى حق الشيخ الذى كان عليه.

الهوامش :

١- "نزهة الخواطر" ج/٧ ، العلامة سيد عبدالحى الرائبريلوى، ص: ١٣٢

٢- "تزك سلطانى" ج/١ ص: ٤١٤

٣- "نشان منزل" ١٥ مايو ١٩٣١م تاج المساجد، ص: ١٢٢

٤- كتيب تاج المساجد، ص ٥

٥- "تاريخ الشاه و مقتديان بهوپال" السيد وجدى الحسينى، ص: ٢٨٩

٦- جريدة "نديم" بهوپال، ١٨ ديسمبر ١٩٣٩م، ص: ٦

٧- رسالة السيد سليمان الندوى إلى محمد إلياس خان و إلى الشيخ عمران فى تاريخ ٢١ أغسطس ١٩٣٩م.

٨- رسالة الأستاذ مسعود على الندوى إلى محمد إلياس خان فى تاريخ ١٠/ديسمبر ١٩٤٠م.

٩- رسالة الأستاذ مسعود على الندوى إلى الشيخ عمران فى تاريخ ٦٢/سبتمبر ١٩٤٥م.

١٠- رسالة الشيخ عمران إلى زوجته و التاريخ غير موجود.

١١- رسالة الشيخ عمران إلى زوجته فى تاريخ ٦٦/أبريل ١٩٤٩م.

١٢- رسالة الشيخ إلى زوجته فى تاريخ ٣١/أكتوبر ١٩٥١م.

١٣- مقالة الشيخ رحمان القاسمى طبعت بجريدة "السياسة" حيدرآباد فى تاريخ ٢٧/أكتوبر ١٩٨٦م.

١٤- مقالة الشيخ مجيب الله الندوى بمجلة "الرشاد" باعظم كره نومبر ١٩٨٦م.

١٥- رسالة الشيخ عمران إلى أبى الحسن الندوى ديسمبر ١٩٩٨م.

١٦- رسالة الشيخ أبى الحسن إلى الشيخ عمران ٢٢/ شعبان ١٣٦٧هـ.

١٧- دفاتر محاضر جلسات المجلس الأعلى لدار العلوم ندوة العلماء المؤرخ ٢٦-٢٧/أغسطس ١٩٤٨م، ص: ٢٧-٢٨

Converted by Tiff Combine - unregistered

١٨- صحيفة "نشان منزل" ٢٠ يوليو ١٩٥٠م، ص: ٢
١٩- "نشان منزل" ١٩٧٤م، ص: ١٠
٢٠- كلمة ترحيب بالمؤتمرين و المندوبين طبعت بالدار، ص: ٢
٢١- كلمة ترحيب بالمؤتمرين و المندوبين طبعت بالدار، ص: ٢
٢٢- "مطالعه سليمانى" ص: (ث)
٢٣- رسالة رسمية من قسم المذهبيات في حكومة بهوپال إلى عميد دارالعلوم تاج المساجد.
٢٤- "نشان منزل" ١٥/أغسطس ١٩٧٠م.
٢٥- "ملاقات" ص: ٣٧
٢٦- دفتر محاضر جلسات المجلس الأعلى لدارالعلوم تاج المساجد بهوپال.
٢٧- "ملاقات" ص: ٣٥
٢٨- مجلة "البعث الإسلامي" الصادرة بلكناؤ، يناير ١٩٨٢م، ص: ٩٦-٩٢
٢٩- مجلة "الرشاد" الصادرة باعظم كره، عدد نوفمبر ١٩٨٦م ص: ١١
٣٠- مجلة "فكر و نظر" الصادرة بدلهي عدد نوفمبر ١٩٨٦، ص: ٥
٣١- مجلة "الرشاد" الصادرة باعظم كره عدد نوفمبر ١٩٨٦م.
٣٢- "ملاقات" ص: ٣٩ إلى ٣٣
٣٣- صحيفة "الأفكار" الصادرة بهوپال، ١٥/نوفمبر ١٩٨٦م.
٣٤- مجلة "الرشاد" ص: ٦٤
٣٥- نفس المصدر ص: ٤٣
٣٦- نفس المصدر ص: ٤٢
٣٧- نفس المصدر ص: ٤٣
٣٨- سورة إبراهيم الآية: ٢٤-٢٥
٣٩- مجلة "الرشاد" ص ٤٤-٤٥
٤٠- نفس المصدر ص ٤٥-٤٦-٤٧
٤١- "ملاقات" ص: ١٢
٤٢- "مقامات حريري" ص: ٥
٤٣- مجلة "الرشاد" ص ٤٧
٤٤- نفس المصدر ص ٤٧
٤٥- "ملاقات" ص: ٩٠
٤٦- ملاقاتنا هذه كما رأيتها ص في صحيفة "نديم" بهوپال ٢٠/ديسمبر ١٩٨٦، ص: ٤
٤٧- مجلة "الرشاد" ص ٤٧-٤٨
٤٨- "ملاقات" ص: ٢٠
٤٩- نفس المصدر ص: ١٢
٥٠- مجلة "معارف" باعظم كره نوفمبر ١٩٨٦م، ص: ٣٣٣
٥١- "ملاقات" ص: ٤٠

Converted by Tiff Combine - unregistered

علاقات الهند مع دول الشرق الأوسط
خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر

بقلم : د / ضياء الدين ديسائي
المحرر المساعد (في المكتبات المتخصصة بقسم الأشياء)

منذ أقدم العصور، كانت للهند علاقات مع العالم الخارجي بما فيه الشرق الأوسط و الشرق الأدنى. و في بداية الأمر كانت هذه العلاقات، علاقات تجارية أو استكشافية على وجه العموم. كما و في أوائل العهد الإسلامي لم يقم المسلمون بمحاولة جادة لفتح أية دولة وراء ايران شرقا، بل الحقيقة أن الخليفة الثاني عمر الفاروق كان - على ما يعرف عامة - يعارض تحركات من ذلك القبيل، و إنه بالفعل أمر القادة العسكريين المسلمين و نوّابهم بإيقاف المحاولات التي استهدفت وضع بعض المناطق في غرب الهند تحت سيطرة الإسلام السياسية. إلا أن إنتشار دين بديناميكية الدين الإسلامي، لم يكن ليمضي دون أن يحطم الحدود الجغرافية، فانه لصبح بسرعة مذهلة قوة سياسية عظيمة، و اجتاح امبراطوريات الشرق و الغرب، و صار أتباعه سادة أكبر جزء من العالم المتحضر عند ذاك.

و كان من الطبيعي أن يأتي انتشار المدنية و التحضر و تنامي الوعي السياسي - أو لامتداد الرقعات بخلق زوايا مناطق نفوذ واسعة و مدّ السلطة السياسية - مقرونا بالمزيد من تقوية الأواصر التي ربطت الهند مع دول الشرق الأوسط و الشرق الأدنى قديماً. إلا أنه قبل دخول الإسلام إلى الهند كقوة سياسية، أو بالأحرى قبل مجيء أتباعه لفرض سلطتهم على أرض شبه القارة، كان العالم الإسلامي قد انقسم إلى عدة مملكات سياسية، و بالرغم من تبعيتها الاسمية لسيادة الخليفة إلا أنها كانت مستقلة من بعضها البعض، كما و تناحرت فيما بينهما من حين لآخر. بيد أن تيارا قويا ظل يدفع هذه المملكات و الدول إلى اتخاذ مجموعات معينة من القيم و النظريات المشتركة

Converted by Tiff Combine - unregistered

و الحاملة لجميع حقول و أنماط الحياة. و ازداد الشعور بقوة بتلك القيم و النظريات باتساع السلطان السياسي و تغلب النفوذ الإسلامي و امتداده إلى أقاصي شبه القارة الهندية، و تعززها - لحد كبير - نتيجة الصلات المشتركة التي ربطت تلك الشعوب.

و لأجل ذلك فان روابط الهند مع الدول الواقعة غربا استمرت تنمو و تتوسع ابتداء من الألف الثاني الميلادي، أسوة بعلاقاتها الخاصة مع دول شرق شبه القارة خلال الألف و الخمس مائة سنة السابقة. لكنه لابد من الاعتراف بأن هذه العلاقات بين الهند و دول غرب آسيا، لم تكن علاقات سياسية بأي وجه من الوجوه، و إنما انحصرت في المحيطين : الجانب الإجتماعي و الجانب الثقافي. و على الرغم من أن الهند أصبحت بمرور الزمن تتهاجد سياسيا حتى من جيرانها المباشرين (حيث أتى منهم مؤسسو الحكم الإسلامي في الهند)، إلا أنها ظلت في نفس الوقت تحافظ على الروابط مع دول الشرق الأوسط. و ذلك لأكثر من سبب. أولا و قبل كل شيء فان مكة المكرمة، بوصفها مركزا دينيا بالنسبة للعالم الإسلامي، يؤمها المسلمون سنويا في مواعيد الحج من كل فج عميق، أصبحت لها مكانة مركزية لدى المسلمين جميعهم صغارا كانوا أم كبارا، حكاما كانوا أم محكومين، أغنياء كانوا أم فقراء. لهذا فان مكة أصبحت توفر ملتقى سهل المنال بالنسبة للمسلمين من جنسيات مختلفة - إذا جاز استعمال هذا المصطلح الحديث - و تساعد في خلق و تنمية حب الاستطلاع على أحوال الآخرين، و على أوطانهم و عاداتهم، و تقاليدهم في الملبس و المأكل. بكلمات أخرى فان هذه الاجتماعات السنوية أتاحت فرصا ثمينة لتبادل الأفكار والنظريات، و كان لها تأثير - مباشر أم غير مباشر - على أنماط و عادات التقسيمات المتقاطعة للبشرية بوجه عام. و كون هذه المراسيم فريضة على وجه التقريب، عوّد الناس على السفر إلى أماكن نائية، و بفضل ذلك فان الحجيج تعرفوا على مختلف الشعوب و البلدان ذاهبين و عائدين من رحلاتهم إلى مكة المكرمة. أضف إليه الرغبات في اكتساب العلوم التقليدية خاصة القرآن و السنة باعتبارهما أصلا لجميع المعارف الإنسانية حسب الإعتقاد السائد آنذاك. و الزيارات إلى مكة و المدينة في الحجاز و غيرهما من مراكز العلوم الدينية في مصر و سوريا و اليمن لتعلم اللغة العربية التي هي لغة القرآن و الحديث (١) و ثمة أيضا عامل الهجرات الذي كان له دور في تفاعل المسلمين من بلدان و أمصار شتى. فالهجرات الواسعة في تلك الأزمنة شملت الناس من مختلف الطبقات، و كانت ثابتة و دائمة أكثر منها عارضة أو انتقالية. كما و أنها عادة تمت تحت ظروف قسرية و هزات سياسية كمثل التي حصلت في القرن الثالث عشر حيث اكتسح غزو التتار الخلافة العباسية و كاد أن يهزّ الإسلام من أسسه.

الخلاصة أن هذه الظروف ساعدت الهند في تنمية الروابط القريبة مع

Converted by Tiff Combine - unregistered

جيرانها في الشرق الأدنى، و تلك الروابط ظلت تتميز قرنا بعد قرن. و لا ريب في أن دراسات عابرة للروابط الهندية - العربية ابتداء من بزوغ فجر الإسلام إلى القرن التاسع عشر، حظيت باهتمامات العلماء الهنود، و مع ذلك فانه يمكن تناول الموضوع بمزيد من التعليق و البحث. غير أنه - من سوء الحظ - في الفترات اللاحقة لم يبذل مجهود لتسليط الأضواء على هذا الجانب الهام من تاريخ الهند رغم أن دراسته بامعان لساعدت في إبراز المنظور التاريخي الذي لابد منه لبناء فكرة سليمة عن القوى و العوامل التاريخية التي صنعت تاريخ البلاد خلال معظم قرون الألف الثاني خاصة القرون المتوسطة. و لقد حاول كاتب هذا المقال معالجة هذا الموضوع في ورقة أعدها بعنوان *"الهند و الشرق الأدنى خلال القرون الثالث عشر و الخامس عشر"* (مجلة ثقافة الهند المجلد ٤١ العدد ٢ / ١٩٩٠م) و ضمنها خلاصة الأعمال التي تم إنجازها بهذا الخصوص. (٢)

لقد ذكرت في ذلك المقال أن هذا الجانب الهام من تاريخ الهند مازال يتطلع إلى من يتناوله بحثا بمهد و عناية، و يستحق اهتمام الدارسين و الباحثين الذين يمكنهم الاستفادة من المواد المتوفرة. و الواقع أنه يعكس المشاكل التي تواجه الدارسين عادة و تتمثل في قلة أو ندرة المواد المطلوبة لمواصلة البحوث، فان العقبة الرئيسية التي تحول دون تناول هذا الموضوع بحثا و تحقيقا، تتمثل في كون المواد المطلوبة باللغة العربية و بين طيات الكتب التي ألفت في الدول الأجنبية مثل مصر و الحجاز و سوريا الخ - و ثانيا فانه لم يتم طبع أي شيء من تلك المواد في الهند، و لا تتوفر حتى الكتب المطبوعة - فضلا عن المخطوطات غير المطبوعة التي تتضمن المعلومات حول الموضوع، و منها خاصة الرجال و الرحلات - في أذخر المكتبات الوطنية.

بيد أن نظرة عابرة فيما يتوفر من مواد قليلة، تعطي معلومات وافية عن مختلف أوجه الحياة في الهند، و عن مساهمة قسم من سكانها في تمتين أواصر الأخوة العالمية حينذاك، و دور الأجانب في الساحة الهندية. و يبدو أن هذه العلاقات بين الهند و الدول العربية قد نمت و بلغت أشدها خلال القرن السادس عشر و السابع عشر - و هي الفترة التي تزامنت مع تكاثر السلطة السياسية في الهند، و انقسام الإمبراطورية البهامانية (BAHMANIS) في الجنوب إلى خمس مملكات مكنية، و اضمحلال مملكتي مالوا و غوجرات بعد أن استمرتا تعرفان بقوة و تماسك لفترة غير قصيرة من الزمن. أما عن الفترات التي سبقتها بقليل، فانه يمكن تلمس وجود العنصر الأجنبي و تحالفه بالتيار الهندي في الشمال أكثر منه في الجنوب، و ذلك لأن الشمال عندئذ كان مركز القوة و السلطة السياسيتين المتمثلتين في سلطنة دلهي، و هذه الساحة انتقلت - بعد ما - إلى الجنوب في

Converted by Tiff Combine - unregistered

منطقة الدكن من جراء ظهور الملوك الباهامسان على رأس مملكات مستقلة و ذات سيادة. و بالنسبة للعناصر الأجنبية الزاحفة إلى أرض الهند، فانها تكونت في الغالب من المهاجرين من مناطق آسيا الوسطى أو المملكات الإيرانية بعد استقرارهم في شمال الهند، ذلك فيما تألف العنصر الأجنبي بالجنوب من قلب إيران. و في نفس الفترة التي نحن بصددها تدفق العرب على الهند بأعداد أكبر مقابل الفترات السابقة، و مساهمتهم في الحياة الهندية لم تقتصر على جانبها الثقافي فقط، و إنما تعدته فشملت الجانب السياسي أيضا. و علّ ذلك لأن الدول الشرق أوسطية مرت عندذاك بأوضاع سياسية متفجرة نتيجة وقوعها تحت أمرة الحكام الممثلين للسلاطين الأتراك الطموحين، و ظهور تركيا كأكبر قوة عسكرية و بحرية و محاولاتها لفرض السيادة التركية على ايران و الهند أيضا (٣). بيد أن الأتراك لاقوا مقاومة شديدة من قبل بعض الدول الأوربية، و بوجه خاص من قبل البرتغاليين و بحارتهم الذين سعوا للتحكم في المراكز التجارية على سواحل العرب و الخليج بهدف القضاء على الاحتكارات التركية للتجارة الرابحة - برا - مع الشرق الذي كان مصدرا خصبا لكسب ارباح هائلة بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية (٤). و إن هذا الصراع التركي البرتغالي و الذي يعتبر فصلا هاما من فصول تاريخ الشرق الأوسط، قد تعاظم و امتد حتى إلى الشريط الساحلي للمملكات الهندية في غوجـــرات و أحمدنجر و بيجابور.

و بالإختصار فان هذه الفترة شهدت - بسبب العوامل آنفة الذكر - تبادلات ثقافية و إنسانية كبيرة بين الهند و الدول المأهولة بناطقي اللغة العربية. و في هذا المقال بودّنا أن نلمس بعض الجوانب من تلك الاحتكاكات الهنديـة - العربيـة أملين بان هـــذا المجهود سـوف لا يـذهب أدراج الـرياح، و إنما سيساعد في الحث على المزيد من تناول موضوع العلاقات الهندية - العربية بحثا و تحقيقا، و في تقويم التفاعلات بين مختلف القوى و ما ترتب عليها من آثار على المجالات السياسيـة و الثقافيـة و الاجتماعيـة، و التي كان لها دور هام في صياغة تاريخ المناطق التي تقع وراء سلاسل جبال فينديا (VINDHYA). و مع الاعتراف بأن هذه الدراسـة قـد تكون سطحيـة و عابرة، فان الإعتذار الوحيد الذي يمكن أن أقدمه لتبرير ذلك، ليس ندرة المواد أو المجهود التي بذلت بصدد اكتشاف الجوانب الهامة من التفاعل الهندي - العربي، و إنما هو عدم توفر تلك المواد في الهند و ذلك يعود إلى النفور من اللغة و الآداب العربية في هذه البلاد (٥).

الحقيقة أن الأعمال التي أنجزها المهتمون بالعرب تنطوي على كنوز عامرة بالمعلومات المتنوعة عن شئون الهند و عن دور الهنود في الدول العربية و عن دور الأجانب في الهند. و البيان الوصفي للوقائع و الأحداث يأتي أفضل شاهد على اهتمامات العلماء العرب بشئون الهند من

Converted by Tiff Combine - unregistered

الناحيتين العلمية و العملية، و للجهة - خاصة من الناحية ثانية الذكر- فى مكوف هؤلاء الأعلام على شئون دولة نائية كالهند بما عليه أمرها من تنوع. و كما ذكرنا آنفا فان هذه المهام سهلت عليهم - بوجه رئيسى - بسبب الرحلات السنوية إلى مكة لأداء فريضة الحج و زيارات قبر رسول الإسلام فى المدينة المنورة، و التى وفرت للآلاف من المؤمنين من أصقاع المعمورة الدانية و القاصية فرصا للالتقاء و تبادل المعلومات. و الأمر لم يقتصر على ذلك بل أن الأسفار المتكررة سنويا إلى الأماكن المقدسة فى الحجاز، أتت تمهد الطريق لملاقاة مختلف التكتلات البشرية الأثنية و الإقليمية من دولة ما فى مكان الإجتماع. علاوة على هذا فان العربى بات يضرب به المثل فى حبه للمعرفة و روح المغامرة المدعوم بحبه البرئ للاستطلاع و لانشغاله فى التجارة عبر البحار، و التى تجسد فى نقل البضائع و المعارف من الشرق و الشرق البعيد إلى الدول الغربية، و نفس الخصائص مكنته من أن يترك للأجيال - إما عن طريق الكتابات أو من خلال المأثورات المنقولة إلى الأعلام و العلماء - البيانات الوصفية الهامة لرحلاته و اتصالاته التى أصبحت الآن مصادر رئيسية لمعرفة الموضوع.

و كون الكاتب أو الناقل يتجنى وجهة نظر معينة أو يمتهن مهنة خاصة، قد أثر على تلك الكتابات و المأثورات، فجعلها تنطبع بطابع المحدودية. و بالرغم منه فانها تحتوى على معلومات جديدة و ممتعة عن الهنود و عن الشئون الهندية، و تجعل تلك الكتابات مفيدة لدارسى تاريخ الهند الاجتماعى و الثقافى و حتى السياسى أحيانا. إذن فاننا نتجه بادئ ذى بدء إلى الجانب السياسى، معيدين إلى الذاكرة أن المصادر العربية المعاصرة تشكل مرجعا وحيدا للتعرف على حقائق جديدة و وثيقة عن تاريخ البنغال زمن حكم الملوك من السلالة "الالياسة" فى أواخر القرن الرابع عشر، و زمن حكم الملوك من أسرة راجا كانس (أو أسرة غانيش حسب تسمية المؤرخين الهنود) فى القرن الخامس عشر (٦). و هكذا نجد بين دفات تلك الكتب العربية معلومات مماثلة عن ملوك الدكن و مالوا و فوجرات من السلالة الباهامانية (٧).

بالإضافة إلى ذلك تتضمن المصادر العربية موادا مفيدة حول تواريخ الهند و مصر و اليمن و مكة و تركيا و غيرها من الدول الإسلامية من نفس الفترة التى نحن بصددها. و من جملة هذه المصادر، أعمال عبدالقادر العيدروس، (ابن حضرمى من مواطن اليمن الجنوبى، هاجر إلى الهند فى القرن السادس عشر) (٨) و أبى بكر الشيخلى (٩) و إبنه جمال الدين محمد الشيخلى الحضرمى (١٠) و نجم الدين الغازى (١١) و الحاج دابى العيور (١٢) و محمد بن فضل الله المحبى (١٣) و الشيخ العيدروس (١٤) و الشوكانى (١٥) و على بن معصوم (١٦) و أمثالهم (١٧).

و "*النصوص المنقرة*" لصاحبها العيدروس، تتميز بين تلك الأعمال

Converted by Tiff Combine - unregistered

بمعالجة أحداث و سير الأشخاص الذين عاشوا فى القرن السادس عشر، و كان غالبهم من معاصرى المؤلف. هذا الكتاب يحتوى أيضا على معلومات قيمة و مفيدة عن التاريخ السياسى لفوجرات و بعض إمارات الدكن، و منها خاصة أحمدنجر و بيجابور، و تم نشرها فيما سبق (١٨). و بالإمكان تلخيص بعض المواضيع التى تناولتها النصوص السابقة فى: - وفاة الأمير سلطان، أمير البحر التركى، و مجيء مصطفى، ابن بهرام، و إبن أخت الأمير سليمان، إلى الهند، حملة الإمبراطور المغولى همايون و فتحه لفوجرات، فتح الإمبراطور أكبر لفوجرات، قتل على عادل شاه، موت قطب شاه (الشيعى التزمت حسب وصف المؤلف)، سقوط حكم مرتضى نظام شاه فى أحمدنجر و وفاته، انهيار الفرقة المهدوية فى أحمدنجر، الفتح الثانى لـ داندا - راجبورى الواقع على ساحل كونكان (١٩).

من خلال مؤلفات الشيشلى (٢٠) والمحبى و الحاج دبير نطلع على أحوال سكان اليمن أو جنوب العرب الذين استقدموا إلى الهند فى أول الأمر كعبيد، و من جراء اكتساب العلوم و التدريب فى مختلف الفنون بما فيهما الفنون العسكرية، ارتفعت مكانتهم، و احتل عدد منهم مناصب هامة فى الإمارة (٢١).

و بجانب العرب فان المستوطنين الأتراك فى فوجرات (يسميهم حاجى دبير بالجماعة السلمانية) الذين وردوا إلى الهند كأحرار أو كعبيد، أيضا لعبوا أدوارا لم تكن أقل أهمية من أدوار العرب فى أماكن استقرارهم. و المؤلفات العربية تتضمن بيانات تسلط أضواء كاشفة على الأدوار التى لعبها هؤلاء المستوطنون فى النزاعات المدنية التى اضطرمت عندما تعرضت سلطنة فوجرات و أسرة نظام شاهى فى أحمدنجر للإنهيار.

إن البيانات التى تتعرض للنازحين تستمد أهميتها الخاصة من واقع أنها تساعد فى بناء فكرة واقعية أولا عن تركيبات المجموعات الأثنية التى تشكل جزءا من سكان هذه المناطق الهندية، وثانيا عن الحرف و المهن التى مارستها تلك المجموعات، و لم يطرأ عليها - فيما يبدو - تغيير لغاية الآن. إنهم أصالة ينحدرون من الدخلاء الأجانب و الربابنة المرتزقة الذين كانوا عبيدا من بلاد الحبشة، و وقعوا فى الأسر أثناء الغزو الإسلامى للحبشة عام ١٥٣٧م، و أحضرهم مصطفى بن بهرام فى جماعات إلى الهند لمساعدة السلطان بهادر شاه، عامل فوجرات، لمحاربة البرتغاليين، بأمر من السلطان عثمان (٢٢). و يقال إن السلطان بهادر شاه كان يفضل الأجانب و يثق بهم أكثر من الهنود الذين لم يتمتعوا - فى رأيه - بكفاءات قتالية (٢٣). و خدم تحت لوائه حوالى عشرة آلاف من المرتزقة الأجانب الأحباش و الأتراك و العرب من أمثال الهاشمى (٢٤) و المهرى (٢٥). و فى سنة ٩٥٥ هـ وجد ستة آلاف جندى أجنبى فى العساكر المشاة بميناء ديف (DIV) (٢٦) التى استولى

Converted by Tiff Combine - unregistered

عليها البرتغاليون فيما بعد، و استمرت تحت سيطرتهم حتى بعد استقلال الهند بعقد سنين.

لقد أوفد بهادور شاه رئيس وزرائه عبدالعزيز أصف خان برفقة نسائه و مئات من الصناديق المليئة بالدنانير و اللآلئ إلى المدن العربية المقدسة حينما فتح الإمبراطور المغولي همايون إمارة غوجرات. و إنه لدى عودته من مكة عام ٩٥٥هـ بعد وفاة السلطان بفترة وجيزة، قام بتشكيل حرس للقصر الملكي قوامه ١٢٠٠٠جنديا أجنبيا للسلطان محمود شاه الثالث الذي خلف بهادور شاه في حكم غوجرات. و هذا الحرس تالف من الجنود الأحباش و الأتراك و العرب من قبائل يافع و المهرة و من جنود جافانيين و حتى البرتغاليين (٢٧). و بجانب الجيش الملكي وجد العنصر الأجنبي في الكتائب الخاصة بالنبلاء والأمراء أيضا، فقد خدم عدد كبير من العرب من قبائل المهرا و هم: محرم رومي خان، أمير نيف في سنة ٩٥٣ هـ (٢٨) و وجد ٣٠٠ من الأتراك في كتيبة إبراهيم رستم خان في عام ٩٨٠ هـ و عندما فتح الإمبراطور أكبر إمارة غوجرات تكون الجيش السلطاني من ١٢٠٠٠ جندي، و مقابل ٥٠٠٠ من الجنود المحليين، وجد ثمة ٧٠٠ فارس من الأحباش، و ٣٠٠ من الأتراك و ٤٠٠ من باهليم، و ٦٠٠ خوري، و ٥٠٠ مغول، و ٥٠٠ سيد من بخارا، و ٤٠٠٠ أفغاني.

و لقد تميز الأتراك بين الأجانب بإتقان استعمال سلاح الهندقية و المدفعية، و كانت مساهمتهم في هذا المجال عظيمة. عندما إنهارت ترسانة غوجرات وجدت ٥٠٠ بندقية نحاسية، ٦٠٠٠ كوكبان، و ١٢٠٠٠ مدفعية (٢٩). و مصطفى رومي خان و خواجه سفار خداوند خان و قمبرا حسن جهانكير خان و محمد خان رومي و أحمد ابن علي رومي، من أبرز القادة الأتراك لسلاح المدفعية، و انتموا جميعهم إلى فيلق الجامعة السلطانية. و وجود إسم علي رومي بين المدفعيين الذين خدموا في جيش الإمبراطور همايون، يدل على أنه انشق عن جيش غوجرات و انضم بجانب مصطفى رومي خان و غيره إلى جيش الإمبراطور المغولي همايون (٣٠). و هناك عدد من الأجانب البارزين الذين تولوا مناصب هامة مثل منصب المشرف على الحرس الملكي أو الوالي لمقاطعة من مقاطعات غوجرات، و القائمة بأسمائهم تتعدى العشرات إن لم تكن المئات. و هنا نذكر أسماء بعض الأحباش بمن فيهم المهرة : ناصر حبش خان، مندال أولوغ خان، ياقوت بهار خان أمهري، بلال محسن الملك و خلفه الملقب بجوهر، فيروز خواص الملك (٣١)، فرهان مهلسار خان، هلال رومي خان، بلال جوجهر خان، دريا خان نصيرالملك ريحان جهانكير خان، ياقوت أولوغ خان، عبدالله النبهان، صندل غالب خان، ريحان بهجلي خان، جهان خان، أمير عبدالنبي، أولغو خان قادر شاهي، أولغو خان ركن الدولة

Converted by Tiff Combine - unregistered

و أمثالهم. و من الأعيان و النبلاء الأتراك الذين تولوا مناصب رفيعة فى سلطنة غوجرات : آقا آلتشين، آقا حسن شركس، آقا إسماعيل شركس، أسد خان، آقا فرهاد، فتح جنك خان، أمير مرجان استانبولى، أمير مرجان شامى، آقا مصطفى قاسم، آقا شعبان شلابى، آقا جان (٣٢)، سفار خداوند خان (٣٣) و أبناءه رجب و محرم، عماد الملك اسلان، و إبنه جنكيز خان و من بين الوافد و المضارم نعثر على أسماء سيد عبدالرحمن بامقيل البداوى، تقى الدين أبى بكر الحضرمى، جلال بن طراز اليافعى، مالك طاهر اليافعى و ابنه و غيرهم.

و هكذا فان دويلات أحمدنجر و بيجابور و خاندیش (٣٤) فى الجنوب، استخدمت عددا غير قليل من الأجانب الأتراك و الأحباش و غيرهم فى مختلف المؤسسات و الشعب. ففى إمارة أحمدنجر استفاد الملوك من سلالة نظام شاهى من خدمات جهانكير خان حبشى، أمير خيرلا، و جمال خان و سهيل خان و ياقوت خداوند خان و اسماعيل شركس و أسد خان (٣٥) و فرهاد خان الذى تضمنت كتيبته أسماء دلاور خان و شمشير خان و حبش خان و أبهانج خان و مسعود خان و صلابت خان و ملك عنبر و أمير جواهر (٣٦) و بهزاد الملك. و نجد من بين وجهاء و كبار مسئولى إمارة بيجابور أسماء دلاور خان و اخلاص خان و غيرهما من كبار و صغار المسئولين الإداريين. و الكتيبة التى تبنتها العائلة الفاروقية فى إمارة خاندیش شملت أسماء صندل فولاد خان و ابنه عبدالكريم فولاد خان (٣٧) و ريحان حبش الملك، و اختيار خان رومى و جوهر خان و غيرهم (٣٨).

سبق و أن ذكرنا أن الغالبية الكبيرة من المذكورين، قد تم شراءهم عبيدا، و أتيحت لهم الفرص للوصول لأعلى المناصب من خلال تعليزهم على تلقى العلوم و التدريب العسكرى، و لا نكون قد تخطينا الموضوع إذا ما أوردنا بضعة أسطر عن الطرق التى اتخذت لتثقيف و تربية بعضهم. يقال إن جوهر خان نظام شاهى الذى تولى الوزارة و غيرها من المهام الإدارية، قد أوتى مع شقيقه إلى الهند و هما طفلين، و اشتراه برهان نظام، و أوكله إلى معلم لتدريس القرآن. و بعد حفظه القرآن و عددا من الكتب الدينية. توجه إلى تعلم الفروسية و ضرب السيف و رمى السهام و الرماح، فاتقنها جميعا. و بعد تعيينه على رأس ٢٠٠ راكب خيل، تابع دراسة العلوم و الفنون برعاية كبار علماء زمنه، و بات يقرأ الكتب و يصاحب الصوفية و أجلة العلماء، و منحه الشيخ العيدروس، الصوفى الحضرمى الذى استقر فى الهند، و اشتهر بزهده، خرقة الخلافة. (الشيخ العيدروس توفى بمدينة أحمدآباد عام ٩٩٠ هـ). و العلامة جلال محمد الشهلى الحضرمى صاحب " *المشرع الروى* " و غيره من الكتب و المؤلفات المشار إليها سابقا، قد سكن مع جوهر خان بعد قدومه إلى الهند فى زيارة وجيزة. و الأخير قرأ مع

Converted by Tiff Combine - unregistered

الضيف الحضرمي كتب الحديث و الدين و النحو و غيرها من العلوم و الفنون بما فيها التاريخ (٣٩). بملاحظة الطائل سالفة الذكر يجوز الإستنتاج بأن تربية و تثقيف العبيد و سبايا العرب كان من التقاليد المتبعة - و لو بدرجات متفاوتة - في تلك الفترات من الزمان و يتبين أيضا أن العشرات من العبيد قدر لهم النهوض من مكانتهم و الوصول إلى أرفع المناصب الحكومية و العسكرية، بيد أن المهم في الأمر أن المؤرخ المحبي خص ذلك بالذكر. و نفس المؤرخ و كاتب السير يقول في سياق التعرض لأحوال ملك عنبر الذي كان وزيرا و قائد الجيش في حكومة نظام شاهي، (٤٠) إنه شجع على امتلاك أكبر عدد ممكن من العبيد الأحباش، و كان يولي على أمر أي عبد بعد شرائه، معلمين لتدريسه القرآن، و الكتابة، و بعدئذ يعين مندوبين لتدريبه على الفروسية و السباقة و رمي السهام و غيرها من الفنون العربية، إلى أن يتمكن من الإستراتيجية و فنون و حيل الحرب، و بعد إكمال الدورات التدريبية يشجعه على التنافس و كسب السبق على أقرانه. و هؤلاء الناس كانوا يحافظون على صلوات الجماعة و غيرها من الأمور الدينية، فبعضهم شغل نفسه في تلاوة القرآن، و الآخر قضى ليالي الجمعة و الإثنين في الصلوات، فيما أقام أمير الجماعة وليمة فخمة. و المحبي يلخص بيانه ذلك قائلا : إنهم كانوا عبيدا أحباشا ، إلاّ أنه لم يكن للعرب أي فضل عليهم عدا فضل النسب (٤١).

بالإضافة إلى ما ذكر فان هؤلاء المستقرين بدورهم عرفوا بالإقبال الشديد على رعاية العلوم و الفنون و أنزلوا العلماء و الشعراء و الصوفية منزلة تكريم و احترام كبير. و انضم إليهم أقاربهم و أبناء وطنهم من حضرموت و اليمن بجنوب العرب، و عدد من الواردين الجدد، بدورهم استقدموا غيرهم من الأوطان العربية. (٤٢). ريحان بيجلي خان، أحد أمراء فوجرات من الأصول الحبشية، و الذي أقتبل عام ٩٧٩ هـ كان يقوم بتجنيد الأحباش الذين أجادوا فنون الحرب، و كان يحرص على مصاحبة العلماء، و منهم خاصة العلماء العرب، و يقدم إليهم الهدايا الثمينة، و ينفق أموالا طائلة على استقدام الصناعيين و الوسيقيين من اليمن و الحجاز. و إنه أيضا كان يبالغ في تقدير و إجلال الشيوخ و الصوفية السادات من منطقتي تريم و حضرموت، فيأمر الخدم و المؤسسين برعاية أمرهم و توفير وسائل الراحة أثناء الإقامة و السفر. كما كان يوفر الزاد و المركب للراغبين في العودة إلى بلدانهم. و إن الشيوخ و الصوفية، على الأخص من منطقة حضرموت، كانوا يأوون إلى ديوان ملك عنبر و إبنه فتح خان، و من أبرز هؤلاء العصارم كان الشيخ جعفر العيدروس (٤٣) و الشيخ عمر بن عبدالله باشيبان و السيد حداد العلوي و زين بن عبدالله جمال الليل و أحمد بن أبوبكر الشيخلي (أخ المؤرخ الشيخلي) و الشيخ إبن عبد الله

Converted by Tiff Combine - unregistered

العيدروس (٤٤) و الشيخ أبوبكر إبن حسين العيدروس و أمثالهم (٤٥) و كان ديوان رجب خداوند خان (توفى عام ٩٦٨ هـ) فى سورت (فوجرات) مركز ثقل آخر بالنسبة للشيوخ و الصوفية و العلماء و رجال الشعر و الأدب من دول شتى. و من كبار الشخصيات التى زارت ديوان رجب خداوند خان كان الشيخ أبو سادات الفاكهى الحنبلى (توفى عام ٩٩٢ هـ) شاعر العربية و أحد أجل علماء عصره (٤٦) و الشيخ عبد المطيع باختير المكى الحضرمى، شاعر العربية و من كبار محدثى زمنه (توفى عام ٩٨٩ هـ) و خطيب أبوسادات ابن زهيرة عبد الله العراقى، و الشيخ محمّد بن عبد الطيب الهامى المكى، الذى دعى مخدوم زاده، و قرض الشعر بالعربية و والده الأجل فى عام ٩٩٧ هـ و الشيخ عبد اللطيف بن محمد سلجوقى المدنى (٤٧). علاوة على رجب خداوند خان، وجد ثمة عدد من النبلاء الذين أكرموا العلماء و الشعراء و قائمتهم تتضمن أسماء الشيخ سعيد العيشى السلطانى، و محمّد لولوخ خان و غيرهما.

و كانت حيدرآباد من أهم مراكز الأدب العربى خاصة فى النصف الثانى من القرن السابع عشر، و لستر ديوان الملك عبد الله قطب شاه مركزاً للعلماء و الأدباء الأجانب لفترة طويلة من الزمن، و غالبية هؤلاء الأجانب المستقرين فى حيدرآباد، كانوا من الكتاب و الشعراء الذين استدعاهم زوج ابنة السلطان و وزيره سيد نظام الدين أحمد المستكى الشيرازى الذى كان هو الآخر يقرض الشعر بالعربية، و عرف بحرصه الشديد على رعاية العلماء و الشعراء. و ابنه على معصوم الذى بدوره كان من الأجانب الذين أتوا إلى حيدرآباد، و كان كاتبا و شاعرا بالعربية، أورد فى مؤلفه "سلافة العصر" بيان هؤلاء الشعراء، و هم : الشيخ أحمد الجوهرى المكى، الشيخ جمال الدين موسوى الدمشقى، محمّد بن على العمولى الشامى، يحيى بن أحمد المستكى (شقيق على بن معصوم) ، السيد إمداد الدين البركاتى، الشيخ محمّد المكى، شهاب الدين أحمد بن على المكى، حسن بن على المدنى، علامة محمّد بن على الشامى، الشيخ على بن حسن المزوقى اليمنى، السيد محمّد بن على البحرانى و غيرهم. و من بين العلماء المنضمين إلى الديوان الملكى فى حيدرآباد، نعثر على أسماء العباقرة من أمثال الشيخ أحمد إبن رضام، قاضى أحمد بن سلامه الجزائرى و الشيخ جعفر البحرانى. (٤٨)

بيد أن العناية بحال الأدباء و الشعراء و إكرامهم، لم تقتصر على الأعيان أو الوجهاء الذين نزلوا إلى الهند من دول أجنبية، بل يروى أن الملوك و الأمراء أيضا استقبلوا العلماء، و خاصة المحدثين و الفقهاء، برحابة صدر، و أكرموهم بالغ الإكرام. و هذه الحفاوة و التقدير لمكانة العلماء عند الملوك، وجدت تعبيرا لها فى الهدايا و المنح و الهبات الثمينة، و فى بعض الحالات

Converted by Tiff Combine - unregistered

فى قبولهم بعلاقة المصاهرة مع الأسرة المالكة. و عدد غير قليل من العلماء الأجانب استخدموا الأموال المحصلة بذلك الطريق لشراء العدائق و بناء المنازل الفخمة، لكى يأووا إليها بعد تقاعدهم و عودتهم إلى أوطانهم الأصلية (٤٩).

لقد استمر ديوان السلطان محمود، ملك غوجرات، مزدحما بالعلماء من الدول العربية و الإسلامية، و على وجه الخصوص المحدثين من الدول العربية. و لبرز هؤلاء العرب كان الشيخ المصرى العلامة محمّد المالكى المعروف بابن سويد. إنه كان محدثا جليلا، و لقب من السلطان محمود بلقب "ملك المحدثين" (٥٠). و هناك أيضا العلامة الأجل القاضى جمال الدين محمّد المضرمى، الذى دعى بهرالى، و كان من أعاظم علماء عصره، و اشتهر بتبحره فى علوم النحو و المعانى و اللغة و الحديث و الأدب و الرمل و الرياضى، و حظى بعناية خاصة فى ديوان مظفر شاه الثانى، الذى خلف السلطان محمود فى حكم غوجرات. و يليه فى القائمة المحدث الكبير الشيخ أبو القاسم بن أحمد المكى و المعروف بابن فهد، فانه أيضا كان من المقربين إلى السلطان مظفر شاه الثانى، و بعد وفاة الأخير، انتقل إلى مالوا إلى أن توفى ببلدة مانذو (MANDU) فى عام ٩٢٥ هـ عن عمر يناهز ٨٠ سنة. و هكذا نجد عددا من أسماء كبار الشيوخ و العلماء الذين اجتمعوا فى ديوان الملك ابراهيم و الملك محمّد من عائلة عادل شاهى (٥١). و المذكور فى كتب التاريخ أن الإمبراطور المغولى شاهجهان رعى الشيخ أبابكر بن أحمد العيدروس الذى توفى بدولت آباد عام ١٠٤٨هـ (٥٢). و الشيخ عبدالرحمن جمال الليل، و عبدالرحمن بن عقيل اليمنى و عبدالله بن حسين بافقيه و عمر بن عقيل حسن بن شدقام المدنى و أبوطالب بن أحمد المبشى (٥٣) أيضا من كبار العلماء الذين رحلهم الإمبراطور شاهجهان.

الحقيقة أن قائمة الشيوخ و العلماء - غير المذكور أسماءهم - الذين أتوا و استقروا فى الهند (٥٤)، و عاشوا فى ظل رعايات الملوك و الأمراء و السلاطين فى مختلف الإمارات و الدويلات، طويلة جدا، و المكان لا يسع لذكر أسماءهم جميعاً و بالرغم منه لم يرق لنا أن نمضى من دون أن نذكر أسماء بعضهم. فالعلماء الذين استقروا فى غوجرات، هم: على الديبا الشيبانى، محمّد بن الفضل المكى، الإخصائى القانونى، و الشاعر و الأديب محمّد الزبيدى، الخبير القانونى و الشاعر عبدالله بن أحمد المضرمى، الإخصائى القانونى العلامة شهاب الدين العباسى المصرى، الفلكى و الرياضى الشيخ أحمد البوسكرى، العالم و الشاعر أحمد بن محمّد باجابر، القانونى الشيخ جمال الدين محمّد المشيرى، المولى الحافظ نورالدين أبوالفتوح الطاوسى، الشيخ العلامة حسين البغدادى، الشيخ ابن عبدالله العيدروس مؤسس دارالعيدروس فى الهند، و المتصوف و الشاعر و الأديب الكبير،

Converted by Tiff Combine - unregistered

و عدد من أعضاء أسرته، و العلامة جمال الدين محمّد العمودي، الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمّد باجابر الحضرمي، و أحمد بن عبدالحق المصري.

و هكذا تدفق عشرات من كبار العلماء الأجانب و الشيوخ و الرحالة و الصوفية و أعيان العبيد على إمارات أحمدنجر و جولكوندا و غيرهما في مختلف أنحاء الهند. ففي فترة حكم عائلة نظام شاهي لأحمدنجر، قدم إليها و إلى المقاطعات التابعة لها عبدالله بن أحمد الحضرمي، و أبوبكر بن أحمد العيدروس، و أحمد بن أبي بكر بافقيه العيدروس، و السيد حسن بن علي المدني (٥٥). و استقر في بيجاپور و المناطق التابعة لها بافقيه الحضرمي، و أحمد بن حسين بافقيه، و أبوبكربن حسين بافقيه الحضرمي، و أحمد بن عمر الحضرمي، و عبدالله بن زين الحضرمي، و الشيخ عمر بن عبدالله باشيبان، و عمر بن علي باعلوي. أما من العلماء أو الشيوخ الذين استقروا أو واقاهم الأجل في أماكن هندية أخرى مثل دلهي و اجرا و لاهور و سانبال (SAMBHAL) و أوض و أورنج اباد و أوجاين (UJJAIN) و كالپي (KALPI) و غيرها، فهم: مولانا ضياء الدين المدني، و الشيخ أبوالفتح المكي، و الشيخ محمّد بن موسى المكي، و أحمد بن محمّد باجابر الحضرمي (٥٦)، و الشيخ معاذ بن تاج، و الشيخ محمّد بن شاه مير الحلبي، و الشيخ إبراهيم بن أحمد العمودي، و الشيخ عبدالقادر البغدادي (٥٧)، و السيد إبراهيم البغدادي.

و يبدو من المناسب الإشارة إلى أن معظم هؤلاء الأجانب و منهم على الأخص الصوفية و السادات دفنوا في مقابر منفصلة. و على سبيل المثال فان أسماء "تربة العرب" (مقابرالعرب) الواقعة بالقرب من القصور الملكية في أحمدآباد، و "مقبرة السادات و العرب الباعلوي" داخل أسوار مدينة بيجاپور، ترد مرارا و تكرارا في كتب السير و التواريخ (٥٨).

و بإستثناء الأجانب من العبيد المستقدمين إلى الهند، فان غالبية الشيوخ و العلماء سابقي الذكر، قدموا إلى الهند بحثا عن الرزق و تحسين الأحوال المعيشية، و اتخذوا من الهند موطنا لهم و منهم القليلون الذين آثروا الرحيل إلى أوطانهم الأصلية بعد جمع الأموال و الثروات، فيما نجد عددا منهم قدأرسلوا الأموال و الهدايا إلى أوطانهم حتى بعد الاستقرار في الهند. و بعضهم رجع إلى أماكن استقرارهم في الهند بعد زيارة أوطانهم الأصلية لفترة.

و هنا نذكر على سبيل المثال أبا سادات محمّد الفاكهي المكي، و أحمد الجوهري المكي، فانهما قضيا سنوات طويلة على التوالي في نجوجرات و حيدر آباد، و رجعا إلى نفس الأماكن بعد أن سافرا إلى ديار العرب و عاشا هناك عاما أو عامين. و يقول السيد علي بن معصوم :

" إن حسن بن شداقم المدني جاء إلى الهند في ريعان شبابه، و تزوج من ابنة أحد الملوك، مما اكتسبه - بجانب الثروات -

Converted by Tiff Combine - unregistered

مكانة عز و نفوذا و قوة. و في أعقاب وفاة والد زوجته، عاد إلى وطنه حيث امتلك قصورا فخمة و حدائق زاهرة. لكنه يئس من أمره عند ما أدرك أن تلك الثروات و الممتلكات، لا تعوض من الجاه و السلطة، فرجع ثانيا إلى الهند و نال نفس مكان الشرف و السطوة."(٥٩)

و الأمر كذلك بالنسبة لأحد إخوة المؤرخ الشهير و العالم الكبير - الشيخلي - فانه خلال فترة مكوثه بالهند حاز على الطاف ملك منبر و الملك نفسه، و الأمر لم يقتصر على ذلك، و إنما يقال إن زين بن عبدالله جمال الليل الذي عاد إلى موطنه في المدينة المنورة بعد قضاء سنين مع ملك منبر في الهند، قد تلقى ملأ سفينة من البضائع من قبل وزير عرف بأنه مدين و لا يملك شيئا يسدد به قروضه. و يروى المحبي انه انتقل إلى جوار ربّه يوم رست السفينة بميناء جده (٦٠). و لقد وصلت الهدايا من الهند حتى إلى الشيوخ و الصوفية - منهم مثلا عبدالرحمن الإدريسي المكناسي المغربي الذي استقر في مكة - الذين لم يزوروا الهند (٦١). يبدو أن بعضهم أرادوا شراء ممتلكات و حدائق في أوطانهم و إقامة منح لأبناء بلادهم. فيروى أن الصوفي العيدروس شيخ خلد اباد(دولدا)، أحد المحتمين بملك منبر و ابنه فتح خان، أرسل النقود و البضائع إلى حضر موت لهذا الغرض، لكن السفينة التي كانت تحملها، قد انقلبت و غرقت (٦٢).

و لقد حدث أن بعض العلماء المغتربين شعروا بالحنين إلى أوطانهم، و الآخرون ينسوا من أمرهم أو لم يساعدهم الحظ مثل غيرهم أثناء مكوثهم في الهند. فيقال إن محمّد بن أحمد حكيم الملك المكي، بعث برسالة إلى القاضي تاج الدين الذي كان إماما في الحرم الشريف للمذهب المالكي، يشتكي فيها على العيش في ديار الغربة بعيدا عن الأهل و الوطن (٦٣). و لقد ورد أيضا أن المدعو زيد الهديلي واجه متاعب بعد وفاة عمّه الذي حظي برعاية أحد الوزراء (٦٤).

بدراسة ما تضمنته المراجع من تفاصيل حول أحوال المهاجرين الجدد، يظهر للعيان - أولا - أن الهجرات في النصف الثاني من القرن السادس عشر و النصف الأول من القرن اللاحق، تمت بوجه رئيسي من جنوب شبه الجزيرة العربية و خاصة من حضرموت، و في الغالب فان الأعيان و ذوي النفوذ و القوة من أمثال ملك منبر كانوا يوجهون دعوات إلى عائلات عرفت بمكانتها في التقوى و العلم، و يلتمسون من أعضائها بالقدوم إلى الهند لنشر العلوم الدينية التقليدية مثل القرآن و الحديث و الرمل في مختلف المراكز كأحمد اباد و باروش (BHAROCH) و سورت و دولت اباد و أحمدنجر و بيجابور و بيلجام و حيدرأباد و غيرها. (في هذه المدن و العواصم

Converted by Tiff Combine - unregistered

للطبقة توجد الأسر التى انحدرت من سلالات هؤلاء المغتربين) (٦٥). و يبدو أن هذه الهجرات توقفت كليا بشكل فجائى بسقوط سلطنة فيجاينجر فى أعقاب غزو الإمبراطور المغولى أكبر، و تعرض سلطنتى أحمدنجر و بيجابور لنفس المصير على أيادى أخلافه: جهانكير و شاهجهان و اورنكزيب. بيد أن توقف الهجرات من شبه الجزيرة العربية لم يتزامنا مع تدفق مماثل من آسيا الوسطى و بلاد الفارس، بطارق أن المغتربين هذه المرة توجهوا إلى ديوان الملوك المغول فى الشمال بدلا من الجنوب.

و جدير بالذكر أنه قبيل سقوط سلطنة قطب شاهى فى الجنوب، انتعشت الحركات الشعرية و الأدبية العربية لعهد ملوص خاصة زمن حكم عبدالله قطب شاه و إبنه أبى الحسن (٦٦). و ذلك فى مرده يرجع إلى أن الشعر و الأدب من بين الفنون التى امتلكت تفكير نظام الدين أحمد الذى انحدر من الأصول الساداتية الدستكية فى فارس، و عاش فى مكة، و بنفسه قرض الشعر بالعربية. و يبدو أنه فى منتصف أواخر القرن السابع عشر أصبحت مدينة حيدرآباد أهم مراكز الأدب و الشعر العربى، و جلبت عددا كبيرا من الشعراء العرب و خاصة من سوريا، و غالبيتهم كانت من أتباع المذهب الشيعى.

غير أن هذه الهجرات لم تكن مقصورة على طرف دون آخر، بل الحقيقة أنه فى الوقت الذى لقى فيه الأجانب من أصحاب الفنون أو التقوى أو العلم ترحيبا حارا فى العواصم الهندية، فتجد عددا أكبر منهم من الهنود شابا و كهلا زاروا الدول العربية. و لاشك فى أن غالبية هؤلاء الهنود كانت تسافر عامة لأداء فريضة الحج و زيارة قبرالرسول عليه السلام فى المدينة المنورة، لكن عددا غيرقليل منهم ذهبوا لاكتساب العلـــوم الدينيـــة خاصة الحديث و الالهيات، و رجعوا إلى الهند بعد الحج و زيارات الأماكن المقدسة أو إكمال الدراسات. مع إنه لا توجد أرقام و إحصاءات مسجلة لعدد الذين سافروا إلى مكة سنويا لأداء الحج المبرور، لكن الشواهد تقطع بأن القائمة كانت كبيرة. بل الحقيقة أن قائمة الحجيج التى يمكن إعدادها من خلال مراجعة المصادر المختلفة، أيضا طويلة جدا (٦٧). و من هؤلاء الزوار من قام بأداء الحج عدة مرات، إما بالسفر مرة تلو أخرى (٦٨). أو أثناء فترة الإقامة هناك لمدد متفاوتة من ٤ إلى ٥ سنوات، و إلى ٥٠ سنة فى بعض الحالات (٦٩). و عدد كبير من هؤلاء الهنود توجهوا إلى الحجاز و غيرها من الدول العربية، لإثراء معرفتهم بالعلوم الدينية بعد أداء الحج، أو انتهزوا فرصة تواجدهم هناك لاكتساب تلك العلوم من منابعها الأصلية، و اشتغل العائدون منهم إلى الهند بالتدريس و تعميم العلوم الدينية و القرآنية، و أثناء فترات إقامتهم فى مكة و المدينة أو فى بغداد و القاهرة - من المدن العربية التى زارها الحجيج قبل أو بعد أداء الحج - تلمذوا على أيادى لجل علماء عصرهم من أمثال

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشيخ شهاب الدين بن حجر الهيثمي و الشيخ محمّد بن أبي الحسن العسكري و الشيخ شمس الدين العلقمي و شيخ الإسلام زكريا الأنصاري و الشيخ متقي و الشيخ جارالله بن فهد و الشيخ ابن عراق و الشيخ حسن البكري، و أبرز هؤلاء الهنود كان : سيدي سعيد العبيدي، أحد نبلاء فوجرات، و الشيخ محمّد بن طاهر پاتاني، المحدث و مؤلف "مجمع البحار في غرائب التنزيل" و أحمد بن خليل البيجابوري، و حاجي ابراهيم السرهندي الذي درس الحديث على يد ابن حجر المكي، و كان أحد علماء ديوان الإمبراطور أكبر، و الشيخ علاء الدين بن اسماعيل من سكان مانذو في مالوا، و الملا شنكرف كشميري، و الشيخ عبدالوهاب بخاري، و الشيخ علاء الدين من سكان رهولي، و مولانا علي طارمي، و ملتي فيروز كشميري (الأخير سافر إلى المدن المقدسة في أيام طفولته) و الشيخ محمّد بن منفان الملانوي، و القاضي محمّد نايطي البيجابوري، و الشيخ يسين من أهل سامانا في البنجاب، و الشيخ يعقوب صرفي الكشميري، و الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي، و الشيخ عبد الواحد السنبلي، و مولانا علم الله الأميثوي و زين الدين علي الكشميري و مولانا ميراك شيخ (٧٠) وغيرهم.

كما أن عددا من الهنود الذين تنقلوا بين الدول العربية و الإسلامية، انضموا إلى جماعة من الجماعات الصوفية، و بعد إكمال دورات الرياضة و المراقبة و إقامة حلقات الذكر، منحوا خرق الخلافة في مصر و سوريا و اليمن و الحجاز. و قائمتهم تتضمن أسماء الشيخ بهاء الدين الأنصاري الجنيدي و الذي حصل على الخرقة القادرية من الشيخ أحمد الجيلاني في مكة المكرمة، و الشيخ حاجي حامد حضور المتصوف الشهير من سكان جوالیار، و الشيخ سليم من السلسلة الچشتية، و الشيخ محمّد بن حسن الجونپوري الذي انشغل في العبادات و الرياضات عند شيوخ اليمن من الجماعة الجيلية (٧١) ، و الشيخ قاسم البيشاوري الذي تعلم السلوك في الشام، و الشيخ محمّد البيجابوري، مريد الشيخ عبدالعظيم المكي (٧٢).

و جدير بالملاحظة أن الإسماعيليين الذين أتوا من اليمن و استقروا في فجرات، كانوا يقومون بإيفاد المتعلمين و الدعاة إلى اليمن لدراسة العلوم الدينية برعاية العلماء من الطائفة الإسماعيلية. و يروى لنا أن الشيخ يوسف بن سليمان السهيدوري و الشيخ جلال الدين بن حسن و الشيخ داؤد بن عجب شاه و الشيخ داؤد بن قطب شاه قد سافروا في النصف الثاني من القرن السادس عشر و النصف الأول من القرن اللاحق إلى اليمن لاكتساب العلوم بين أيدي العلماء من أمثال الشيخ عماد الدين إدريس اليمني. و الثلاث الواردة أسماءهم في آخر القائمة المذكورة تولوا منصب الداعي بين الإسماعيليين المقيمين في الهند (٧٣).

Converted by Tiff Combine - unregistered

لقد أثر بعض هؤلاء الهنود الاستقرار فى أماكن زيارتهم بعد إكمال الدراسات أو تأدية الفريضة، فيما حقق قليل منهم قدرة فائقة فى موضوع أو موضوعات معينة، فاتخذوا من التدريس مهنة لهم. و إنهم وقعوا موقع تقدير و احترام كبير لدى العلماء و الشيوخ المعاصرين، و انهماكهم فى العلوم و الزهد و التقوى من الخصائص التى جعلت الزوار الهنود المقيمين فى الدول العربية، يحظون بمكانة إجلال. كما و يبدو أن للشيوخ من الأصول الهندية كانت علاقات صداقة خاصة مع العلماء العرب، و انهم كانوا يجتمعون ببعضهم من حين لآخر (٧٤). فللمحدث الكبير الشيخ ابراهيم من سكان مانيكبور بولاية اترابراديش، درس التفسير و الحديث فى بغداد لمدة سنة و نصف، ثم درس الحديث فى القاهرة بين يدى علماء و شيوخ بمكانة الشيخ العلقمى، و تلقى "الإجازة" من الشيخ عبدالرحمن بن فهد المغربى، و الشيخ مسعود المغربى، و الشيخ على المتقى بمكة المكرمة، ثم عاد إلى القاهرة و علم الحديث لمدة ٢٤ سنة إلى أن قرر بدافع الحب للوطن أن يعود إلى الهند و يستقر فى أجرا (٧٥). و السيد صبغة الله النقشبندى من أهالى بروش (غوجرات) شيخ هندى آخر اكتسب تقديرا و إعجابا واسعا فى الحجاز. انه كان - حسبما ورد فى المراجع العربية - معلما مفيدا و متصوفا بارزا و عارفا بالعلوم الإلهية و غيرها من صنوف و شعب المعارف، و ألف عدة كتب، و بعد الاستقرار فى المدينة المنورة بالحجاز، اشتغل بالتدريس فى حوالى عام ١٠٠٠هـ و من أبرز تلاميذه السيد أمجد ميرزا، و السيد أسعد البلخى، و عبدالله بن ولي المضرمى، و الشيخ ابراهيم الهندى الصنعانى (٧٦) و الشيخ محى الدين المصرى، و الملا الشيخ الكردى، و الشيخ عبدالعظيم المكى. و يقول المؤرخ العمرى المعيبى :

" إن جلالته على تفسير البيضاوى حققت سمعة واسعة فى جميع أصقاع العالم الإسلامى (و الأمر كذلك حتى الآن) و خاصة فى تركيا. "(٧٧)

و لعل أرفعهم مكانة كان الشيخ على المتقى، صاحب "*كنز العمال فى سنن الأقوال و الأفعال*" فانه تسنم مجدا لا يدانيه أحد من العلماء الهنود المغتربين، من ذلك العصر، و فاز بتكريم و شرف لدى الملوك (بمن فيهم السلطان سليمان) و فى حلقات الشيوخ و التلامذة بوجه سواء، و شخصيته فى غنى عن المزيد من التعريف سوى القول بأن كبار الشيوخ و العلماء من أمثال أبى الحسن البكرى، و الشيخ وجيه الدين الأمدى، و الشيخ شهاب الدين بن حجر الهيثمى، و الشيخ شمس الدين الأنصارى المصرى، و الشيخ شمس الدين الباكى و غيرهم من أجل الفقهاء أو المحدثين

Converted by Tiff Combine - unregistered

الذين قابلوه أو عاصره هو إليهم لمقابلتهم، قد أثنوا عليه عظيم الثناء، و كان بيته بمثابة الصفا و المروة بالنسبة لزوار كعبة الله الشريفة فى مكة المكرمة (٧٨)، و إنه حقا يليق بأن يوصف بما وصفه به صاحب "النور السافر" من أنه كان من "مفاخر الهند" (٧٩). و من بين كبار العلماء الهنود الذين تناولهم المحبى، و الشيخ أحمد النخلى المكى تفصيلا فى كتب السير، الشيخ تاج الدين السنبهلى الذى أنزله العلماء فى العالم الإسلامى منزلة احترام كبير، و اعترفوا بفضله كصوفى و مؤلف و عارف بمختلف العلوم و الفنون بما فيها الزراعة و الطباعة، و الشيخ محمّد ميرزا الدمشقى، و أمير يحيى بن على باشا، و الأستاذ أحمد أبوالوفا، و الشيخ محمّد علان المكى، و الشيخ عبدالله العيدروس، و الشيخ عبدالباقى الزمجاهى الزبيدى، و الشيخ ابراهيم المشناتى، و الشيخ أبوبكر بن سعيد العيدروس من كبار العلماء و المشائخ و الأعيان الذين تلمذوا لهذا الشيخ الهندى الجليل و استرشدوا به أثناء أسفاره بين الأقطار و الأمصار العربية قبل استقراره فى مكة المكرمة، و بعدئذ فى مكة نفسها (٨٠).

و هناك عائلة هندية لامعة أخرى، تمتعت بنفوذ و مكانة رفيعة فى الأوساط العلمية - ألا و هى عائلة المفتى قطب الدين محمّد النهروالى، مؤلف "تاريخ مكة" الشهير، و المسمى بـ "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام" و المعروف أيضا بـ "التاريخ القطبى" (٨١). و هاجر والده علاءالدين أحمد إلى الحجاز، و درس بين يدى الشيخ عبدالعزيز بن فهد و غيره من أجل علماء عصره، و بنفسه اشتغل بالتدريس، و التحق - فى الغالب - مدرسا بمعهد مكة الذى أنشأه سلاطين غوجرات. و الإبن المفتى قطب الدين محمّد النهروالى الذى فاق مكانة والده، اكتسب احتراما كبيرا لدى السلاطين و أعيان الخلافة العثمانية الذين أبوا - كما يروى الشوكانى - تلبية مراسيم الحج إلاّ بإمامته و قد عمل لفترة وجيزة ناظرا للمدرسة التى أنشأها فى مكة الملك أحمد شاه (الأول) سلطان غوجرات، و بعدئذ درس فى "المدرسة الحنفية السليمانية" التى أسسها السلطان سليمان، و كان من أكثر الناس شرفا و احتراما عند الخليفة السلطان سليم و السلطان مراد (٨٢). و شقيقه محب الدين و ابن اخته عبدالكريم أيضا كانا من علماء عصرهما، و الأخير عين أولا مفتى مكة سنة ٩٨٨ هـ و بعدئذ خطيب مكة فى عام ٩٩٠ هـ و اشتغل أيضا بالتدريس فى المدرسة السليمانية المرابية هناك (٨٣). و حفيده المعروف عامة بلسم "القطبى" نسبة إليه، حقق سمعة واسعة كعالم بارز من علماء مكة و شيوخها. انه توفى عام ١٠٥٥هـ (٨٤).

و من بين العلماء الهنود الذين هاجروا و استقروا فى مكة المكرمة، كان المحدث المستعرب و العالم بالعلوم الإلهية السيد فضل الله الذى درس فى الحرم الشريف، و كان من كبار تلاميذه الشيخ أحمد السناوى، و الشيخ

Converted by Tiff Combine - unregistered

عبدالرحمن المرشدي مفتي الحرم، و الشيخ عبدالقادر الطبري المكي (٨٥).

و في القائمة نجد أيضا إسم الشيخ موسى بن جعفر الكشميري الذي اشتغل بالإرشاد و التدريس في عدن في مستهل القرن السابع عشر الميلادي (٨٦). و هناك الشيخ عبدالوهاب، من مواليد بروش (فوجرات). انه استقر في مكة و تلمذ للشيخ علي المتقي صاحب كنز *العمال*، و الشيخ عبد المالك الفوجراتي الذي مارس أشغالا مماثلة في مكة (٨٧).

و كان أحد المستقرين الهنود في اليمن الشيخ صارم الدين إبراهيم بن صالح الهندي. والده كان هنديا غير مسلم، و عمل تاجرا في صنعاء، عاصمة اليمن، و دخل في الإسلام. و الشيخ صارم الدين ابراهيم اكتسب اعترافا مديدا كشاعر قرض القصائد في مدح أئمة اليمن و المراثي لدى وفاة أعيان البلد و العلماء. و تعرض للحبس و علي بن معصوم لأحواله بوجه تفصيلي (٨٨).

و نعطي فيما يلي أسماء البعض الآخرين الذين هاجروا إلى بلاد العرب و اكتسبوا مكانة إحترام بفضل تبحرهم في العلم أو التدريس أو الإرشاد. و منهم العالم و المحدث الكبير الشيخ عبدالوهاب المتقي، أستاذ الشيخ عبدالحق المحدث، و المعروف باليمن بلقب "قطب مكة" (٨٩)، و الشيخ عبدالله السندي و أبناء الشيخ رحمة الله و عبدالحميد (٩٠) المشهورين بمعرفتهم العميقة للحديث و العلوم الإلهية الإسلامية، و الشيخ أفضل حسين الكشميري و الشيخ أولياء الكالبوي و الشيخ عبدالله الفوجراتي (٩١) و الشيخ عبدالله اللاهوري الذي ورد إسمه في مؤلفات علماء مكة، و الشيخ أبوبكر السندي و رفيقه الملا محمّد علي الهندي، (انهما استقرا في دمشق، و كانا يسكنان في حيّ شرق الجامع الأموي) ، و الشيخ نظام الدين السندي أحد رفقاء السيد صبغة الله الذي سبق ذكره في مكان. بعد إكمال دراساته في المدينة المنورة ذهب مع شقيقه إلى دمشق ثم إلى القدس و غزه، و في آخر الأمر إلى مصر حيث وافاه الأجل (٩٢). و أيضا من تلاميذ السيد صبغة الله كان الشيخ موسى السندي الذي سافر من المدينة المنورة إلى دمشق لزيارات قبور الأنبياء، و استقر في آخر عمره في القدس (٩٣). و من علماء الهند أيضا الشيخ خضر الجونبوري الذي استقر في القدس (٩٤)، فيما سافر عالم آخر بنفس الإسم - الشيخ خضر الماريني - أولا من الهند إلى حلب في عام ١٠١٣هـ و كان يجيد ثلاث لغات و قرض الشعر فيها، و تسنم ذروة المجد فأوفده الوزير نصوح بوصفه مبعوثا للسلطان العثماني أحمد إلى بلاد فارس لمقابلة الملك عباس. و يذكر المحبي أنه تمكن من عقد مصالحة بين الإثنين. و الوزير اصطحبه إلى قسطنطنية حيث وافاه الأجل عام ١٠٢٢هـ (٩٥).

إن عددا من هؤلاء العلماء الهنود المقربين مثل الشيخ فضل الله

Converted by Tiff Combine - unregistered

للجمالي و الشيخ ابراهيم المحدث الاكبرابادي، و السيد إبراهيم غياث بوري، و الشيخ يعقوب صرفي، زاروا - قبل عودتهم إلى الهند أو استقرارهم في مكان من أماكن الزيارة - عدة دول و مدن عربية و إسلامية كالعراق و سوريا و لبنان و مصر و اليمن و شمال إفريقيا أو بلخ و بغداد و البصرة و القدس و دمشق (٩٦).

و لقد بعث بعض ملوك الهند (بمن فيهم الإمبراطور أكبر) عددا من هؤلاء العلماء إلى الخارج على رأس قوافل الحجيج (أميرالحج). كما كلف عدد منهم بالقيام بمهام السفارة لدى الملوك، و الإمبراطور شاهجهان بعث محمد بن أحمد البيهاري سفيرا له لدى السلطان العثماني و أمراء المدن المقدسة (٩٧).

و هناك أيضا قائمة بأسماء العلماء و الأعيان الذين تم نفيهم إلى المدن المقدسة تحت أسباب سياسية و لوقوعهم موقع السخط و عدم الرضى لدى الملوك و السلاطين. و منهم الملا عبدالله السلطان بوري مخدوم الملك، و الملا عبدالنبي، صدر الصدور، فانهما أعفيا عن المناصب و نفيا إلى المدن المقدسة، و الظروف التي تم فيها إجلاءهما عن الهند معروفة لدى دارسي التاريخ عامة. و الإمبراطور المغولي أكبر - الذي قام بإجلاء المنكورين - أيضا قام بنفي الشيخ حسين الجشتي الأجميري، و الشيخ عبدالقادر اللاهوري في ظروف مماثلة و لكن غير معروفة على وجه العموم. و نجد في هذه القائمة أسماء بعض الأشخاص الذين عوقبوا بالتغريب على إستقلالية أفكارهم، و آثروا الاستقرار في المنفى إلى أن وافاهم الأجل. و منهم الشيخ آدم البنوري الذي كان متصوفا ذا نفوذ و شعبية واسعة - وصل عدد أتباعه ٤ مائة ألف نسمة - فانه اتخذ من مكة المكرمة موطنا دائما له و لعدد كبير من أتباعه بعد اضطراره للرحيل من الهند زمن حكم الإمبراطور شاهجهان (٩٨). و الحكيم شمس الملك الكيلاني كان من الأناس الآخرين الذين هاجروا الهند في ظروف قسرية زمن حكم الإمبراطور أكبر (٩٩).

بيد أن أحداث النفي أو الإجلاء خاصة إلى المدن المقدسة تمت في بعض الأحيان تطوعا أو تحت ضغوط الظروف، كما حصل - مثلا - في حالة عبد العزيز أصف خان الذي كان رئيس الوزراء في سلطنة غوجرات أيام حكم بهادر شاه فانه أرسل إلى مكة المكرمة برفقة ألف من الأعيان و الجنود و نفس العدد من الخدم و الحشم محملين على متن عشرة قوارب، بجانب مئات من الصناديق المليئة بالمجوهرات و الكنوز الملكية و العلمية و الأقمشة النفيسة. إنه استقر في مكة لمدة عشرة أعوام قبل عودته إلى أحمدابهاد عام ٩٥٥ هـ. و في فترة مكوثه هناك عاش أصف خان حياة زهد و تقى و ورع، و زاد في رعاية رجال العلم و التقوى و أنفق على دور العلم و على الفقراء و المساكين (١٠٠) بسخاء لم يسمح أحد عن مثله في

Converted by Tiff Combine - unregistered

تاريخ مكة (١٠١).

و فى قائمة الأشخاص الذين هاجروا الهند لأسباب سياسية، نجد إسم ميرزا عزيز كوكا الذى كان حاكم غوجرات، و لعلاقاته مع الإمبراطور أكبر على سياسته الدينية، انتقل إلى الحجاز فى عام ١٠٠٢هـ مع عائلته و مائة من الخدم. و يروى أنه لم يقم فقط بتوزيع الأموال بين الفقراء و المساكين من سكان مكة، و إنما منح فرصا نفس القدر من المال لمدة ٥٠ سنة إلى أمير مكة، كما أنه تصدق بممتلكات عقارية بالمدينة المنورة قبل رجوعه إلى الهند بعد سنة (١٠٢).

و قد رتب بعض الأعيان و أصحاب الثروات لنقل جثمانهم بعد الوفاة للدفن فى مقابر مكة المكرمة، و منهم - على سبيل المثال - ميرزا شاهى بيج (توفى عام ٩٢٨ هـ) و ابنه ميرزا شاه حسن (توفى عام ٩٦٢ هـ)، ملكا السند من سلالة أرغون، فان جثتيهما نقلتا إلى مكة للدفن فى مقبرة (١٠٣).

و جدير بالإهتمام أن عددا غير قليل من هؤلاء الناس ورد ذكرهم فى أعمال المؤرخين و كتاب السير العرب و الأتراك. فنجد - مثلا - أحوال الشيخ عبدالمالك المحدث الجليل من أصل غوجرات، فى "*الأمم لإيقاظ الهمم*" لصاحبه الشيخ إبراهيم الكورانى المدنى، و فى "*عيون موارد السلسلة فى الأحاديث المسلسلة فى الروايات المشرفة*" للشيخ محمّد بن طيب الفاسى. و ثمة أيضا العلامة الشيخ عبدالله اللاهورى الذى حمل أكبر شهادة فى علم الحديث، فقد تناول أحواله - بجانب أحوال الشيخ ابراهيم الغوجراتى - صاحب "*الإمداد لعلو الأستاد*" الشيخ عبداللّه بن سليم البصرى المكى، و صاحب "*نزهة رياض الإجازة*" الشيخ الزمجاهى (١٠٤). و نجد غيرهم من أسماء عدد من العلماء الهنود و أحوالهم فى مؤلفات المذكورين و غيرهم من أبرز المؤرخين العرب من أمثال ابن حجر الهيثمى، و حافظ السخاوى، ونجم الغزازى و البيرونى.

و لا غرابة إذا ما نجد النخبة المثقفة و الأساتذة من علماء مكة و المدينة و غيرهما من الأمصار الإسلامية، يتناولون فى كتبهم الزوار أو المستقرين الهنود الذين ارتبطوا معهم بروابط التعليم أو التعلم، إلاّ أن المهم فى الأمر أن عددا من الأعلام و كبار العلماء الذين ذاعت سمعتهم - رغم عدم سفرهم خارج الهند - و شملت معظم أنحاء العالم الإسلامى من خلال مؤلفاتهم أو تعاليمهم، أيضا لاقوا اهتمام المؤرخين فى العالم العربى و الإسلامى. فقد تطرق المحبى إلى ذكر الشيخ على بن قيام الدين الجونبورى الذى لم يغادر وطنه قط و توفى فى الهند عام ٩٥٥ هـ و ذلك فى سياق التعرض للشيخ تاج الدين السنبلى الذى كان من أشهر تلامذة الشيخ الجونبورى (١٠٥). و هكذا فان الشيخ ابراهيم الكورانى المذكور سابقا، كتب تعليقا على "*التحفة المرسلة إلى النبى صلى الله عليه و سلم*" لصاحبها الشيخ

Converted by Tiff Combine - unregistered

محمدٌ فضل الله الذي ولد و تربى في فوجهرات و درس في مكة المكرمة و كان أحد الكتاب و المؤلفين الذين تعرض لهم الشيخ الكوراني (١٠٦). و الملا عبدالحكيم السيالكوتي الذي درس العلوم الدينية، و كان من أشهر علماء عصره زمن حكم الإمبراطور شاهجهان، يتحدث عنه المحبي بكلمات رائعة و يعترف بجلالة مكانته في العلوم و الفنون .(١٠٧) المؤرخان المحبي و الشيخلي أيضا يعرفان الشيخ عبدالقادر العيدروس، أحد أعلام العلماء و المتصوفين البارزين، و صاحب المؤلف الشهير "*النور السافر*" و غيره من عدة أعمال بالعربية (١٠٨). (وافاه الأجل في أحمدآباد عام ١٠٣٨هـ).

و من بين العلماء و كبار الشيوخ الذين تناولتهم كتب السير و التواريخ بالعربية، الفواجه عبدالباقي المعروف باسم "باقي بالله، الذي توفي في دلهي سنة ١٠١٤هـ و الشيخ أحمد الفاروقي الملقب بـ "مجدد الألف الثاني" الذي انتقل إلى جوار ربّه في بلدة سرهند عام ١٠٣٤هـ و لتبني فكرة عن التأثير العميق الذي تركته تعليمات المجدد العظيم على مسار التفكير في العالم الإسلامي تكفي الإشارة إلى ما ذكره الشيخ محسن بن يحيى البكري التميمي :

> "*لا يوجد إقليم من الأقاليم الإسلامية في الهند و في خراسان و ممالك التتار و الترك في أقصى أصقاع الشرق و في العراق و الجزيرة و الحجاز و سوريا و قسطنطنية و الإمارات الخاضعة لسيادتها، إلا و هناك أتباع للسلسلة التي أسسها الشيخ أحمد الفاروقي، و السند تتردد باسمه. الحقيقة أن السلسلة المجددية هذه قد اخترقت أقصى الغرب الإسلامي، و وصلت حتى إلى بقاع المغرب.*" (١٠٩)

و المعروف لدى الباحثين و دارسي التاريخ عامة المراسلة التي جرت بين معارضي الشيخ أحمد في الهند، و الشيوخ و العلماء العرب حول أفكاره الدينية مماثلة كانت أو خاطئة (١١٠).

و من المؤكد أن عددا غير قليل من هؤلاء العباقرة عاشوا على المنح و المساعدات التي وفرها ملوك الهند و وزراءهم. و قد ساهم بعضهم في إنشاء المدارس و دور الإقامة في المدن الإسلامية المقدسة و وقفوا الأراضي لصيانتها و تعميرها (١١١)، إضافة إلى كميات كبيرة من الأموال و النقود التي حملها الملوك الحجيج سنويا للتوزيع بين العلماء و غيرهم من ذوي الحاجات و الأعيان (١١٢). لقد التحق المفتي قطب الدين محمد المكي و والده علاء الدين لمحمد النهروالي بالمدرستين اللتين أنشأ إحداهما السلطان أحمد الأول بالقرب من الحرم الشريف، و أخراهما ابن حفيده محمود الأول.

Converted by Tiff Combine - unregistered

الأمر الذى يدل على أن المدرستين كانتا تسيران - كحالهما سابقا - خلال الفترة التى نحن بصددها (إلى القرنين السادس عشر و السابع عشر). و بنى مظفر شاه الثانى، ابن محمود الأول، أيضا رباطا فى مكة المكرمة. هذا الرباط شمل مدرسة و سبيلا (نافورة عامة لمياه الشرب) بجانب عدة بنايات أخرى. و لتغطية نفقاتها وقف عقارات فى الهند، و كان يقوم بإرسال عوائدها سنويا إلى مكة فى موسم الحج لتوزيعهما بين المدرسين و الطلاب و أهالى البلدة و ولاة أمر النافورة. كما أنه بعث بالأقوات لأهالى المدن الإسلامية المقدسة، و واظب على ذلك طيلة سنوات حكمه (١١٣). هذا الإمبراطور قام بإرسال نسختين من القرآن الكريم مكتوبتين بخط يده بماء الذهب، لكى يتلوها الإمام الحنفى. و هاتان النسختان أرسلتا فى رباطين (صندوقين) مزخرفين بنقوش أيضا بخط يده. كما أنه أنشأ فى الهند أوقافا، كان مدخولها يرسل سنويا إلى مكة المكرمة لتوزيعه بين الفراء و من ولاه على أمر النسختين و خدمه، و بين الناس الذين شاركوا فى الدعاء للسلطان و سعادته و عافيته عند ختم القرآن و غيرهم من القائمين بتقسيم أجزاء القرآن بين الفراء و بالصقاية و التنظيف و التفريش. و يقول الحاج دبير :

" إن هذه المراسيم استمرت تقام سنويا فى موعدها بدون انقطاع لغاية وفاة السلطان محمود الثالث فى عام ٩٦١ هـ" (١١٤)

علاوة على ما ذكر فان الملوك كانوا يرسلون أقمشة غالية على ظهر سفن إلى ميناء جده لتوزيعها بين أهل مكة و المدينة. (١١٥). و قد سبقت الإشارة إلى أن أصف خان، أكبر الوزراء فى ديوان الإمبراطور بهادور شاه وزع هدايا ثمينة بين أهالى مكة المكرمة الذين كسوا حتى خدمهم ألبسة غالية (١١٦). إنه بنى مدرسة بجوار باب العمرة فى مكة المكرمة لتدريس فقهين رئيسيين من فقه السنة، و ولى على أمرها ابن حجر نفسه و الشيخ عبدالعزيز الزمزمى، مفتى المذهب الشافعى (١١٧). و انه حتى بعد عودته من مكة المكرمة فى عام ٩٥٥ هـ كان يرسل إلى المفتى جائزة بقيمة خمس مائة دينار، بجانب هدية خاصة و أقمشة بقيمة مائتين و مائة دينار على التوالى و ذلك متى ما استلم رسالة شعرية منه (١١٨). و واظب على ذلك السنوات الست التى عاشها فى الهند قبل اغتياله.

و محمود الثالث، حفيد مظفر، أيضا لم يتخلف عن أسلافه فى متابعة هذه الأمور. فمن بين المبانى التى أنشأها محمود الثالث كان رباطا فى سوق الليل بجوار البيت الذى ولد فيه محمّد صلى الله عليه و سلم. هذا الرباط

Converted by Tiff Combine - unregistered

اكتشف هنا جارية قديمة و تضمن مدرسة و مجمعا للمياه و دارا للأيتام بجانب غرف على الطابق الأرضي و السقف. كما أنه بنى رباطا اخر بالقرب من باب العمرة و أنشأ مجمع مياه على شارع جده. و قرب رباطه في سوق الليل بنى منزلا لسكن الشيخ العلام على المتقى الذى أنزله محمود الثالث منزلة تقدير و احترام كبير و استضافه سنويا في عاصمة مملكته لبضعة أيام. و المسكن الذى بناه للشيخ الجليل كان فناؤه فسيحا محاطا بغرف لإقامة الأتباع و المسترشدين (١١٩). و كان الشيخ يستلم كل عام أموالا للصرف على الفقراء و المساكين و لتسديد ديونه و حاجات (١٢٠).

و لقد وقف السلطان محمود الثالث عدة قرى مجاورة لمنطقة كامبيه - بما فيها ميناء جاندهار (١٢١) - لصرف محاصيلها البالغة مائة ألف قطعة ذهبية على مشاريع رفاهية مواطني المدن المقدسة. و كانت هذه المبالغ تصرف على شراء النيلة و الأقمشة للتصدير محملة على سفن ملكية من ميناء فوجها إلى جده. و الدولة تحملت نفقات الشحن، كما أن البضائع كانت تعفى من الرسوم لدى وصولها إلى ميناء جده. و كانت الأموال المكتسبة من مبيعات هذه البضائع عامة تكفي لحاجات أهل مكة لمعظم أشهر السنة. (١٢٢). و قبل وفاته قتيلا ببضعة أيام (١٢٣) أرسل السلطان محمود الثالث شحنات النيلة - ١٠٠٠ كيسة (١٢٤) من فوجرات لإنفاق الأموال المحصلة من مبيعاتها على حفر الآبار على طريق المدينة المنورة.

ظلت المنح المحمودية هذه تجد طريقها إلى المدن المقدسة حتى بعد سقوط سلطنة فوجرات لفترة من الزمن. و بعدئذ انعشها الإمبراطور المغولي أكبر، و أضاف إلى القرى الموقوفة زمن حكم السلطان محمود الثالث، قرى جديدة. و عين سيدى سعيد السلطاني - الذى بنى جامع أحمدآباد الشهير - قبل وفاته عام ٩٨١ هـ (١٢٥) بفترة، ناظرا على "الوقف الأكبرى" كما جرت العادة على تسميته في زمننا. و قبله كان الحاج دبير أمينا على صندوق الأوقاف، و مسئولا عن نقل عوائدها إلى مكة (١٢٦). تولى إدارة ذلك الوقف عند ذاك، مدير و أمين و أمين صندوق (١٢٧).

و يبدو أن محاصيل هذه الأوقاف استمرت تصل إلى مكة المكرمة بعد وفاة الإمبراطور أكبر أيضا، فيروى المحبى أن شاهجهان قام في حوالي ١٠٢٠هـ بإرسال أموال إلى مفتى الحرم الشريف الشيخ عبدالرحمن المرشدى المكى لتوزيعها على أهالي مكة و الفقراء و المساكين رجالا و نساء (١٢٨). مرة أخرى بعث شاهجهان مائة و خمسين ألف قطعة إلى أمير مكة على يد فراست خان، ناظر الخدم الملكى، عندما قصد إلى الحجاز لأداء فريضة الحج عام ١٠٦٠هـ (١٢٩).

لم تكن المنح و المساعدات تخص سلاطين فوجرات من دون غيرهم، كما أنها لم تقتصر على مكة أو المدينة فحسب. و إنما الواقع أن الملك مذبر،

Converted by Tiff Combine - unregistered

الوزير و القائد العسكري الشهير في حكم نظام شاهي و الذي ذاع صيته في أكناف العالم الإسلامي أيضا كرجل في غاية الكرم و السخاء، و سبّاق في الإنفاق على العلماء و السادات و الصوفية و المشائخ بوجه عام، كان يرسل كل عام إلى حضرموت أموالا و أقمشة كفت لحاجات المشائخ و السادات و الفقراء طوال سنة. كما أنه وقف نسخا من القرآن الكريم في مكة و في تريم بحضرموت، و اشترى بيوتا في المدينة و مكة، و وهب إياها للقراء الذين كانوا يتلون تلك المصاحف، و يدعون لخيره و سعادته. (١٣٠). و هكذا يبدو أن الملوك من سلالة قطب شاهي أيضا مارسوا نفس التقاليد، و أرسلوا أموالا إلى المدن المقدسة لأنه يقال إن الشاهي محمّد بن خليل العشائي المكي قد ولّي على أمر التقسيم بين أهالي مكة المكرمة (١٣١).

و من العرب و غيرهم من المسلمين الذين قصدوا إلى الهند، فان بعضهم أتى بحثا عن الرزق أو طلبا للخير و الرفاهية. فيما وصل آخرون كتجار، و لكن قليل منهم كانوا سواحا و رحالة. لكن القاسم المشترك بين غالبية القادمين إلى أرض الهند من الشرق الأدنى، كان طلب العلم خاصة العلوم العقلية و التصوف، و اللقاء مع العلماء و الصوفية (من أرض بلدهم على وجه العموم) و اكتساب العلم أو الخلافة في طريقة صوفية معينة. (١٣٢). و عدد منهم قدموا إلى الهند - على ما يبدو - ذاهبين أو عائدين من زيارات بلدان أخرى مثل الحبشة، و الساحل الشرقي الإفريقي، و اليمن، و الحجاز، و حيفا و غيرها. فعلى سبيل المثال وصل إلى الهند الصوفي علي بن عمر با عمر في طريقه إلى حيفا. و من هؤلاء الزوار كان محمّد بن بركات السقاف الذي لم يستقر قط في مكان، و ظل يطوف بين الأمصار و البلدان و المدن المقدسة. و في القائمة أيضا نجد أسماء الشيخ أبي بكر بن سعيد الجوفري اليمني الذي يقول عنه المحبي انه كان أكثر رجال زمنه سياحة بين الأقاليم (توفي عام ١٠٨٨هـ) ، الشيخ نجيب الدين علي المكي الشامي الأمولي و الشيخ حسين الشامي الأمولي الذين وصلا إلى حيدرآباد أثناء سياحتهما في الهند و بلدان العالم (١٣٣).

و الظاهر أن جميعهم أو كثيرا منهم اعتمدوا في معيشتهم إما على التجارة أو خدمة التجار من بلدان أخرى. فالشيخ علوي الجوفري الذي كان من كبار مشايخ و علماء عصره، و توفي في تريم سنة ١٠٦١هـ كانت له تجارات كبيرة مزدهرة في اليمن و مصر و ساحل إفريقيا و في الهند. و هكذا فان الشيخ محمّد التريمي، والد العلامة الأجل الشيخ محمّد الذي انتقل إلى جوار ربّه عام ٩٤١ هـ ، كان تاجرا كبيرا باشر أعماله في الهند و تركيا و غيرهما من البلدان. و الملك عبدالنبي المغربي، المعروف بلقب "ملك التجار" في منطقة كامبيه، و الذي ملك صندل الحبشي - عرف فيما بعد بخيرات خان - قبل بيعه و توليه منصبا هاما في الديوان الملكي، كان يقوم بأعمال تجارية

Converted by Tiff Combine - unregistered

واسعة فى غوجرات خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر. و من التجار المعروفين فى تلك الفترة من الزمن، كان فخر التجار خواجه سلامة المغربى الملقب بالشاطر. انه أيضا أداو تجارة كبيرة فى ساحل غوجرات (١٣٤) فى النصف الثانى من القرن السادس عشر. و فى قائمة التجار العرب فى مستهل نفس القرن، يذكر إسما أبى اليمن المكى. و أبى المعود القاهرى المكى (١٣٥).

لا غرابة إذا ما نجد الأجانب من التجار باشروا أعمالهم فى المناطق الساحلية الهندية، أو انتقال نظرائهم من الهند إلى بلدان غرب آسيا. الحقيقة أن غرب الهند، و منه خاصة غوجرات بسواحلها الممتدة و إمكانياتها التجارية الهائلة، باتت منذ أزمنة قديمة، ساحة الروابط التجارية مع منطقة الشرق الأوسط، و الطلب على منتجاته - كالأقمشة و النيلة - كان دائما كبيرا فى الأسواق الأجنبية.

و التجارة البرية بين الهند و العالم العربى أيضا استمرت تنتعش بتعاقب القرون. و فى الوقت الذى كانت الموانىء و المراكز المدنية - مثل عدن و صنعاء (١٣٦)، مرتعا للتجار الهنود المسلمين و الهندوس، لم يكن ساحل غوجرات يخلو فى وقت من الأوقات من التجار الأجانب، و موانئها من بورميناى - بوربندر حاليا - إلى ماهيم ظلت مكتظة بالتجار العرب (١٣٧). و من موانىء غوجرات التى ازدهرت بالأنشطة التجارية فى القرون السالفة، كانت بورميناى، مانجرول، ديف، غوجها، كامبيه، بروش، سورت، دمن، ماهيم (الأخيرة الآن جزء من بومباى). لكن أشهر هذه الموانى و لوفرها رخاء فى القرنين السادس عشر و السابع عشر، كان ميناء ديف و سورت، و كانت ديف - كما سبق الذكر - المركز المدنى الرئيسى فى جزيرة صغيرة بسواحل سوراشترا الجنوبية، و قاعدة الأسطول البحرى لسلطنة غوجرات، كما أنها احتلت مكانة مركز تجارى هام خلال القرنين السادس و السابع عشر الميلادى. فمن هذا الميناء كانت تقلع ١٠٠ سفينة مشحونة بالسلع و البضائع فى سنة، فيما تعدى عدد السفن التى أرسلت فى ديف على مدار السنة، ألف سفينة. و من السفن التى زارت ميناء ديف (١٣٨) كانت سفنا برتغالية و أوربية أيضا. و يمكن بناء فكرة عن مدى ازدهار التجارة البحرية فى ديف بملاحظة أن عدد خدم التجار الذين وقفوا فى طوابير لشراء اللحوم من المذبح المحلى عادة تجاوز ٥٠٠ (١٣٩).

و لقد تقلصت أهمية ديف كمركز رئيسى من مراكز التجارة البحرية فى غرب الهند، بعد سقوطها تحت احتلال البرتغاليين فى منتصف القرن السادس عشر. و بدا فان ميناء سورت فى غوجرات باتت مركز نشاط تجارى كبير بدلا منها، و ذلك بوجه خاص زمن تولى سفار خداوند خان و إبنه منصب حاكم غوجرات فعندئذ أصبحت سورت بوابة لمكة المكرمة و غيرها من

Converted by Tiff Combine - unregistered

البلدان العربية، و مقرا لعدد كبير من التجار العرب و الأجانب، و من ميناءها قلعت أساطيل السفن المشحونة ببضائع و أشياء ثمينة إلى مصر و غيرها من دول غرب آسيا (١٤٠). علاوة على سورت، اشتهرت كامبيه و غوغا بحركة تجارية كبيرة فى غوجرات (١٤١).

و جدير بالملاحظة أنه بجانب التجار، امتلك السلطان و الوزراء و الأعيان و كبار وجهاء و صفوة السلطنة عددا من تلك السفن، و بهذا الصدد تذكر المراجع السفن التى كانت مملوكة لسلاطين غوجرات و بيجابور و جولكوندة، و السفن التى امتلكها كبار الوجهاء و أعيان الدولة من أمثال آصف خان و سفار خداوند خان و سعيد الحبشى السلطانى و محمّد أولوغ خان، و الشيخ العيدروس، صوفى أحمدابادا الشهير و غيرهم من النبلاء و الأمراء و حكام المقاطعات. كما و العادة فى سابقات الأيام - كحالها فى زمننا - جرت على إعطاء السفن مسميات. و من بين السفن الملكية لسلطنة غوجرات (١٤٢) تذكر المراجع خاصة سفينة "دريا سرا" (عابرة البحار) و *السفينة المحمّدية* (١٤٣) و السفينة الأخرى - تيزرو، أو السفينة السريعة - التى نقلت الحاج دبير من مكة إلى الهند فى عام ٩٨٣ هـ، كانت تحت ملكية حاكم سورت. و سفينة الشيخ العيدروس كانت تدعى *"العيدروسية"*. و يبدو أن ربابنة جميع هذه السفن (إن لم يكن بعض أعضاء طواقمها) كانوا من الأجانب. و من الأسماء الأجنبية التى عثرنا عليها هى: عنبر عبدالنبى، و حسن علوان، و ربابنة سفن أولوغ خان، و خميس تاشديل و محمّد معلم ربانين للسفن التى امتلكها أصالة آصف خان، و منذال حبشى المعروف بـ موفال، ربان السفينة الملكية (المحمّدية)، و سلمان الأتيسى، ربان أمير سلمان (١٤٤).

شحنات هذه السفن تضمنت سلعا و بضائع متنوعة بما فيها الأقمشة و النيلة التى تعاظم الطلب عليها فى المدن المقدسة و غيرها من الأماكن (١٤٥). و يبدو أن بعض الحلويات و المربيات الهندية أيضا كانت رائجة فى الدول العربية (١٤٦). كما يتبين بدراسة المراجع أنه تم تصدير الصلب الهندى إلى العالم العربى، و فى المقابل وصلت إلى الهند شحنات من السلع المصنوعة من ذلك الصلب (كالسيوف بأنواعها المختلفة) سنويا عن طريق ميناء جده. و بالنظر فى مسميات تلك السيوف - مثل "الجنوبى" و "المغربى" و "المصرى" و "الديلمى"، يبدو أنها كانت تصنع فى تلك المناطق من العالم الإسلامى. و من ميناء جده نفسها وصلت إلى الهند أيضا الرماح و السكاكين المستعملة لأغراض الصيد (١٤٧). و يبدو أيضا أن مكة المكرمة بفضل وقوعها فى قلب العالم الإسلامى، صارت منتجا كبيرا للسلع المصنوعة فى مختلف البلدان الإسلامية. و لم يكن آصف خان أثناء مكوثه فى مكة المكرمة يواجه مشكلة فى الحصول على أشياء للتصدير إلى الهند لاستعمال

Converted by Tiff Combine - unregistered

السلطان و غيره من أعيان السلطنة (١٤٨). و الخيل كانت من أثمن الأشياء المستوردة من العالم العربي إلى الهند (١٤٩).

و لقد أتت الكتب أيضا ضمن البضائع و السلع أتجر فيها بين الهند و الدول الإسلامية. إلى هنا نكون قد سلطنا أضواء وافية على أن المعارف و العلوم التي وقعت عند ذاك موقع أكبر الاهتمامات - و لذا فاستغلت أية فرصة مواتية للحصول على نوادر الكتب و أهمها. و المذكور في كتب السير و التواريخ أن أصف خان الذي تخلص من حادث سفينة حطمها الاعصار، عبر عن أسفه الشديد على ضياع الكتب (١٥٠) ، و على سيف منحه أمير مكة كوسام، و فرس عربي من أجود الانسال دون أي شيء آخر.

و سيدي سعيد الصبشي السلطاني - المشار إليه سابقا - أيضا أحب الكتب حبا شديدا، و اقتناها حيثما وجدت. و إذا لم تتوافر في الهند، فارسل الناس إلى مصر لإحضارها. و ذات مرة أرسل سفينة خاصة إلى مصر بالشراف التاجر الكبير الفواجه سلامة المغربي، و حمله قائمة كبيرة من الكتب مطلوب إحضارها من ذلك البلد الإسلامي (١٥١).

و لم يكن الأعيان أو النبلاء وحدهم عرفوا بحب الكتب، و إنما الصوفية و العلماء أيضا كانوا يستهوون الكتب، و اقتنى بعضهم ذخائر غنية منها. فقد اقتنى مقبل عبدالله باعلوي الحضرمي من سادات تريم (توفي عام ١٠٣٢هـ) عدة كتب نفيسة و نادرة، و أخذها معه عندما عاد من الهند إلى وطنه. و يروى أن الشيخ ابن عبدالله، من أشهر صوفية زمنه، و الذي توفي و دفن في دولت آباد عام ١٠٤١هـ ، قد جمع عددا كبيرا من أنفس الكتب و أثمنها (١٥٢). الدارسون و طلاب العلوم من بين الناس كانوا يقتنون الكتب إما بطريق الهدية أو بالطلب. (١٥٣) ، و قد جرت العادة أيضا على تبادلها بين العلماء و المؤلفين. كما أن المؤلفين كانوا يرسلون مؤلفاتهم إلى العلماء في بلدان أخرى لمعرفة آراءهم و لأغراض التشهير. و لهذا السبب فان الكتب المدونة في بلد، كانت تجد طريقها إلى بلدان أخرى في فترة زمنية غير طويلة (١٥٤). و إن النسخ و الأخبار عن ظهور مؤلفات جديدة، أو من أنشطة العلماء خاصة في مجال التدريس، وصلت - كما كان الحال مثلا بالنسبة لمؤلفات الشيخ عبدالقادر العيدروس، من كبار مؤلفي القرنين السادس و السابع عشر في الهند - إلى مدن نائية مثل حضرموت و اليمن و مكة المكرمة (١٥٥).

بملاحظة محتويات كتب المؤرخين من أمثال علي بن معصوم و المحبي، يتضح أن العلماء الهنود و القادمين الجدد إلى أرض الهند، لجأوا إلى المراسلة للتعرف على أحوال العلماء و الأقارب في أوطانهم كما و جرت المراسلة بينهم و بين السلاطين و الأمراء أيضا. و الموضوع الآخر الهام الذي تناولته الرسائل المتبادلة بين العلماء في الهند و الدول الإسلامية، كان الاستفتاء حول مسائل

Converted by Tiff Combine - unregistered

شرعية غامضة و معقدة. فعلى سبيل المثال يروى أن شيخا يمنيا كبيرا من أهالى زبيد كان يستلم مثل هذه الاستفتاءات من الهند أيضا (١٥٦). هذه المراسلات تمت على وجه العموم باللغة العربية التى كانت لغة مثل هذه التعاملات عند ذاك. و الحقيقة أن على بن معصوم و والده نظام أحمد أثناء إقامتهما فى حيدرآباد استلما رسائل شعرية من المدينة و مكة المكرمة، تضمنت شعراً فى المديح. و الإبن على بن معصوم نقل فى مؤلفه الأجوبة المكتوبة - بعضها مؤرخا - فى نفس المنهج (١٥٧).

لكنه يبدو من المناسب الإشارة بوجه خاص إلى الشيخ محمّد بن حسين السمرقندى (توفى عام ٩٩٦ هـ) الذى كان يجيد عدة لغات، و بعد استيطانه فى مكة المكرمة كان يكتب رسائل بلغات شتى. و يروى أنه كتب لأعيان المدينة المنورة ١٠٩٠ رسالة فى ست لغات، بما فيها اللغة الهندية (١٥٨).

فى السطور السالفة الذكر حاولنا أن نسلط الأضواء على طبيعة و محيط الروابط القائمة بين الهند و المناطق المأهولة بناطقى اللغة العربية، معتمدين فى ذلك على المعلومات المدرجة فى المصادر العربية الأجنبية بوجه خاص. و علاوة على ما ذكر فانه يمكن أن نستخلص من نفس المصادر معلومات تساعد فى فهم ما ترتب على تلك العلاقات من تأثيرات على مجريات الحياة فى هذه البلدان، خاصة ما اتصل منها بالديانة و الثقافة و النشاط الاجتماعى و العقائد و الطرق الصوفية و أنظمة التعليم و الإدارة و التجارة و نظام الجمارك و الأليسة (١٥٩). إلا أن تقويما لائقا لهذا التأثير، و تفهما عميقا لعوامله الجانبية، يتطلب أن تكون المعلومات جميعها فى متناول اليد، و كما هى مدونة فى المصادر العربية التى لا يتوافر معظمها - كما ذكرنا فى بداية المقال - و حتى المطبوعة منها فى أزخر المكتبات الهندية. و إذا ما تمكنا من إكتشاف جميع هذه المؤلفات - مطبوعة كانت أم مخطوطة - و أمعنا فيها، فانها بالتأكيد ستساعد فى جمع معلومات جديدة عن الثقافة و التاريخ الهنديين خلال الألف سنة الماضية.

تعريب: راشد على

الهوامش :

١- استعرضت هذه الرحلة رقم الأقطار و مناسب السفر. و المراجع تنطوى على وقائع عدة لطرق السفن ذبيحة العواصف و الإعصارات و تعرضها للقرصنة، بجانب أحداث القرصنة و النهب أثناء السفر برا. فعلى سبيل المثال لقد الرياح العاصفة و التقلبات الموسمية إلى إغراق إحدى سفينتين لأنواع فلن، كانتا تنقلان على ظهرهما عدة أشخاص بمن فيهم أعيان بمكانة الناظر

Converted by Tiff Combine - unregistered

على أمور الأدباء و الشعراء و العلماء مثل الشيخ جمال الدين محمّد بن أفلح و شهاب الدين أحمد الدامغاني و الفقيه محمّد الزبيدي. (هذا الخليط أسفر عن موت بعض الركاب في عام ٩٧٥ هـ) و هكذا فإن سفينة وجد بين ركابها عشرة من سادات سلالة باعلوي. فرقت في خليج كامبيه عام ٩٧٥ هـ و لم يعرف أحد عما حل بالسفينة العيدروسية التي امتلكها الصوفي الشهير الشيخ العيدروس من أهالي أحمدآباد، بعد أن انطلقت في طريقها من شهير إلى ديف سنة ٩٨١ هـ. ("النور السافر لأهل القرن العاشر" لعبد القادر العيدروس. طبع في بغداد عام ١٩٣٤م الصفحات: ٢٨٦ ، ٣٥١. و "ثغر الوائه بمظفر و آله" للحاج دبير - لندن ١٩٢١م للجلد الثاني، الصفحة: ٤٩٦).

٢- بعد كتابة ذلك المقال، طالعت كتابات أخرى معظمها بالأردية - تتناول عاما أحوال الأزمنة السابقة. و هي: (١) *العرب و الهند في العهد النبوي*، *الحكومات العربية في الهند*، *رجال السند و الهند*، (نهاية القرن السابع الهجري) لصاحبها أبي المعالي ظهير مباركبوري. (٢) العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري، فصول جديدة على تاريخ الهند (*التراجم الأردية لمسالك الأبصار للعمري*) *فصل الله العصري*: *الهند القديمة في الآداب العربية* للدكتور خورشيد أحمد فارق. (٣) *الهند في أنظار العرب* للمولوي ضياء الدين الإصلاحي (لعظم جره). (٤) الترجمة الإنكليزية لأعمال البيروني بعنوان A FOURTEENTH CENTURY ACCOUNT OF INDIA UNDER MOHAMMAD BIN TUGHLAQ. للبروفيسور اقتدار حسين الصديقي و القاضي محمّد أحمد.

٣- على سبيل المثال انظر "أسفار و مغامرات لمبر البحر التركي سيدي علي ريس في الهند و أفغانستان و آسيا الوسطى خلال الفترة من ١٥٥٣م إلى ١٥٥٦م". ترجمها بالانكليزية أرمينيوس فامبيري (لندن ١٨٩٩م) الصفحة: ٣.

٤- لمعرفة طبيعة الصراع خلال الفترة موضوع البحث راجع الدراسة الوثائقية لصاحبها لوتيوجوزف دامويس بعنوان "*البرتغاليون و الأتراك في المحيط الهندي*" JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY OF GREAT BRITAIN AND IRELAND -1921 الصفحات: ١- ٢٨ ، "البرتغاليون في الهند و العرب بين ١٥٠٧- ١٥١٧م" المرجع السابق الصفحات: ٤٥-٦٢ ، المرجع السابق الصفحات: ١- ١٨.

٥- هنا يجب الإشارة إلى أن العلامة عبدالحي مدير ندوة العلماء/لكناو سابقا، و أحد أبرز العلماء الهنود من زمننا، ساهم في هذا المجال بمساهمة قيمة من خلال مؤلفه بالعربية : *نزهة الخواطر و بهجة المسامع و النواظر*. هذا المؤلف يحتوي على سير كبار الشخصيات الهندية من الأزمنة المتقدمة إلى عصرنا، و قاعدة بالمعارف العثمانية (حيدرآباد) بدكنه في ثمانية مجلدات. غير أنه يجدر بدراسة هذا المؤلف أن صاحبه العلامة الجليل، لم يتيسر له العثور على مواد (عن تلك الشخصيات الهندية) احتوت عليها بعض المخطوطات غير المطبوعة و حتى البعض المطبوع منها.

٦- لقد تعرضت لهذا الموضوع في ورقة أخرى كتبتها بعنوان "*معلومات جديدة عن أمراء البنغال المسلمين قبل العصر المغولي*". نشر هذا المقال في "*الثقافة الإسلامية*" للجلد: ٣٢ ، (١٩٩٨م) الصفحات: ١٩٥-٢٠٧.

٧- لخصت هذا الموضوع في مقال آخر طبع في ثقافة الهند المجلد ٤١ العدد ٢ (١٩٩٠م).

٨- "*النور السافر لأهل القرن العاشر*" (بغداد ١٩٣٤م).

٩- "*وفيات الأعيان من أهل الزمان*".

١٠- "*نفائس الدرر في أخبار القرن الحادي عشر*" و "*الذيل على النور السافر*" و "*الشرع*

Converted by Tiff Combine - unregistered

الرواي في لكسر سعادات بادشاهي" (الفاخرة) و "عقد الجواهر و الدرر في أخبار القرن الحادي عشر".

١١- "لطف السمر و لطف السمر في أعيان القرن الحادي عشر".

١٢- "مفكر الوالة بمظفر و آله"، ثلاثة مجلدات (لندن بين ١٩٢١م و ١٩٢٨).

١٣- "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"، أربعة مجلدات (القاهرة سنة ١٢٨٤هـ)

١٤- "الذيل على المشرع الروي".

١٥- "النور الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع" (القاهرة سنة ١٣٤٨هـ).

١٦- "سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر" (مصر ١٣٧٤هـ) و هناك عدد آخر من المؤلفات التي تتداول في أسواق العلماء و المحدثين و تتضمن معلومات مفيدة. و بالمزيد من السعي و البحث يمكن العثور على غيرها في العربية و التركية.

١٧- مما يبعث على الأسف أنه لا تتوافر من هذه المؤلفات المطبوعة أو غير المطبوعة سوى "الدور السافر" و "مفكر الوالة" و "خلاصة الأثر".

١٨- نشر لي مقال عن أهمية هذا المؤلف باعتباره مصدرا لتاريخ غوجرات في مجلة Oriental Institute, M.S. University Baroda. المجلد ١٥، (١٩٦٦م) الصفحات: ٤٦٤-٤٧٤.

١٩- الآن تقع هذه المنطقة بمديريتي كوايا التابعة لولاية مهراشترا، و تحل على جزيرة بنيت فيها قلعة جانجيرا".

٢٠ - من سوء الحظ أنه لم يتوفر لدى كتابة هذا المقال حتى النسخ المطبوعة لـ "المشرع" لصاحبه الشيخلي الذي زار الهند و استقر في المكن.

٢١- بعد قدومهم إلى الهند، تدربوا في مختلف العلوم و الفنون، و بدا و بفضل كفاءتهم المتوارثة تقلدوا مناصب هامة، فبادروا إلى استقدام أقاربهم و غيرهم من أهل أوطانهم من مختلف الطبقات إلى الهند. و لهذا السبب فاننا نجد غالبية الفرباء الواردين في هذه الفترات إلى غوجرات و الدكن، كانوا من اليمن و المناطق المجاورة في جنوب الجزيرة العربية، خاصة حضرموت.

٢٢- تواجد الأحباش و الأتراك في غوجرات و الدكن يعود إلى فترة تسبق الفترة موضوع البحث، إلا أن القرن السادس عشر شهد تدفقا هائلا في تلك الجهات.

٢٣- "مفكر الوالة بمظفر و آله" (لندن ١٩٢٨م) الصفحة ٣٣٩.

٢٤- إنهم إنحدروا من قبيلة حضرمية ذات قوة و شكيمة. و بهذا الخصوص يذكر السير إي. دينيسون روس أن "الجنود النظاميين الذين اشتهروا بهذا الإسم في حيدرابد أثناء فترات حكم النظام هاشي، كانوا في بادئ الأمر من سلالات هؤلاء الناس". (المصدر نفسه المجلد الثاني، الصفحة: ٢٥).

٢٥- يقال إنهم كانوا فرسانا من جنوب الجزيرة العربية (المرجع السابق). و المثل منير فيما انحدر من نفس الأرومة. و يبقى اسم منطقة تلع شرق حضرموت في جنوب الجزيرة.

٢٦- كانت دبو (Diu) زمن حكم محمود شاه الأول (٨٣٣ - ٩١٦ هـ) قاعدة بحرية تواجدت فيها..٢٠ سفينة عسكرية لحراسة سواحل غوجرات. (المصدر السابق . الصفحات ١١٦- ١١٧).

٢٧- المصدر السابق. المجلد الأول، الصفحة. ٣٩٠.

٢٨ - نفس المصدر السابق: الصفحة: ٣٢٨ ، المجلد الثاني، الصفحة. ٣٩١.

٢٩ -نفس المصدر السابق ، المجلد الثاني ، الصفحة : ٥٦٨

٣٠ - توجد في متحف أندور بندقيتان من البنادق التي صنعها أحمد في عام ٩٤٥ هـ زمن

Converted by Tiff Combine - unregistered

حكم شهير شاه (انظر بريسر المستشرق حول الكتابات للثقافة الهندية ١- ٦٦- ١٩٢٧-الأرقام: ٨٥ و ٩٠). و ذلك يدل على أن أحمد التحق بجيش شهرشاه بعد هزيمة همايون.

٣١ - انه كان نظرا لحرم بهادر شاه في مكة (انظر الوالد- المجلد الأول- الصفحة: ٢٨٨ ، و المجلد الثاني، الصفحة: ٦٣٧).

٣٢ - الكثرة الكاثرة منهم كانت في المستوى العادي من التربية و الثقافة- فيما لثقن صندل خالب خان و الشيخ سعيد سلطانى (الأمير بنى جامع سيدى سعيد الشهير في أحمدابادا) و عدد آخر منهم عدة علوم و فنون. و يذكر حلبي دبير (المصدر السابق، المجلد الثاني، الصفحات: ٥٢٨ و ٥٤١) مولا سميت منير نسيب و كانت على درجة عالية من التربية و الثقافة.

٣٣ - انه كان تاجرا في كامبيه، و نظم الشعر أيضا. و يقال إن القصائد التي مدح فيها جنكيز خان. أحد أعيان فوجرات- كانت تشبه قصائد الشاعر الفارسي سلمان الساوي في الأسلوب. (المصدر السابق: الصفحة: ٥١٦).

٣٤ - جدير بالإشارة أن المصادر المتوافرة لدينا لا تذكر إلا قليل من أسماء الأعيان و العظام و اليوتاع الذين انضموا إلى جيش إمارة جولكوندة.

٣٥ - يعد من المناصب التنويه بأن عددا من هؤلاء الأعيان و الوجهاء ، هاجروا لسبب أو آخر إلى إمارات أخرى أكثر من مرة. فأسد خان انتقل من فوجرات إلى أحمدنجر و تقلد مناصب هامة في ديوان مرتضى نظام شاه.

٣٦ - انه اضطر للهجرة إلى بيجابور في وقت لاحق

٣٧ - حرره مالك التجار (أبرز تجار كامبيه) من ملكيته.

٣٨ - كان أحد الأعيان الذين رافعوا حاجي دبير ("ظفر الوالد" المجلد الثاني، الصفحات: ٦٤٩ ، ٩٤٩).

٣٩ - "خلاصة الأثر" المجلد الأول، الصفحة: ٦٩٢.

٤٠ - ويروى أنه قام بشراء حوالي ألفين عبدا مما أدى إلى ارتفاع الأسعار في سوق العبيد (المرجع السابق المجلد الثالث، الصفحة: ٣٣٦)

٤١ - "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" ، المجلد الثالث الصفحة: ٣٣٦. آخر الكلمات مستعارة من كتاب مؤرخ لسبق من صاحب خلاصة الأثر (انظر الوالد- المجلد الأول، الصفحة: ٩٧)

٤٢- يقال إن الشيخ جمال الدين محمد العمروي كان من الأعيان الذين تجمع في منازلهم العرب و الأدباء. و هكذا فان الزوار إلى الهند تردوا على شيوخ العيدروس في بيجابور و دولد أباد.

٤٣- إنه قام بترجمة "العقد النبوي" لوالده باللغة الفارسية.

٤٤- توفي عام ١٠٤١هـ و دفن بالقرب من قبر مالك عنبر في خلدأباد قريبا من دولد أباد نتيجة خطأ في قراءة لوحة ضريحه أورد بشير الدين أحمد إسمه في "بالقباب مملكة بيجابور" (الطبعة الثالثة - أجورا ١٩١٥م الصفحة ٢٠٨) "حبيب شيخ"

٤٥ - "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" المجلد الأول- الصفحات: ١٦، ٨٢، ٤٨٢ . المجلد الثاني، الصفحات: ١٨٦ ، ٢٣٦ ، المجلد الثالث الصفحة: ٣١٥.

٤٦ - و لم يكن أحد من العرب أو ذوي الأنساب الرفيعة الذين زاروا سورت- إلا و استفاد من رعايتها و إكرام وجب خداوند خان ("النور الساطر لأهل القرن العاشر" الصفحة: ٨٠٨).

٤٧ -المرجع السابق : الصفحات: ٢٥٦ - ٢٧٦ .

٤٨ - " سلافة العصر في محاسن الشعراء" الصفحات: ١٠، ١١، ٣١، ٣٢، ٣٦، ١٥٨، ١٩٢، ٢٤٩، ٢٥٠، ٣١٠، ٣٣٣، ٤٦٨. في جولكندا" (بومباي) لصاحبه البروفيسور الدكتور عبد الحميد خان.

Converted by Tiff Combine - unregistered

٤٩- المرجع السابق : الصفحتان: ١٩٢ ، ٢٤٩. "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر". المجلد الثاني، الصفحات: ٣٣٦ ، ٣٣٣.

٥٠- انه كان يقوم بإرسال الهدايا و الصدقات إلى المدن المقدسة. و يروى أيضا انه اتخذ إيذا له بحسب التقاليد الهندية. ("الدور السافر لأهل القرن العاشر" الصفحة: ١٠٣).

٥١ - "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" - المجلد الأول، الصفحتان ٨٣ ، ٦٩٧. المجلد الثاني، الصفحة: ٣٣٦ . المجلد الثالث، الصفحتان: ٣٩ ، ٤٠ ، ٥١. العيبي يذكر الثاني (المرجع السابق، المجلد الأول، الصفحة ٨٣ ، و المجلد الثالث، الصفحة: ٥١) بشخصية محمود.

٥٢ - "خلاصة الأثر" المجلد الأول، الصفحة: ٧٠.

٥٣ - المرجع السابق : خلاصة الأثر، المجلد الأول، الصفحة ١٣١ لم يذكر المصدر إسم الإمبراطور في حالة الغيبي، لكنه يقول إن الملك وفر له الزاد و المركب عند ما أبدى رغبته بالعودة إلى موطنه

٥٤ - فبعضهم عادوا إلى أوطانهم بعد مكوث طويل ، و لكن عددهم كان قليلا.

٥٥- في جزيرة اندجيرى بالقرب من "علي باغ" (جنوب بومباي) يوجد ضريح السيد أحمد بن سليم مظهر باعلوى الذي استشهد عام ١٠٩١هـ في حرب ضد المرتا الهندوس في الغالب (التقارير السنوى حول الكتابات المنقوشة الهندية ٥٤- ١٩٥٥ الرقم دبي: ٤١).

٥٦- إنه ذهب مع فيضى الذى كان شاعرا فى ديوان الإمبراطور أكبر، إلى الشمال (من مقره بالجنوب) و توفى بمدينة لاهور عام ١٠٠١هـ.

٥٧- "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحة: ٢٣٦. انه جاء إلى ميناء جوا (Goa) من موطنه برفقة أحد أعمامه. و سافر إلى غوجرات بعد وفاة العم و كان مع الشاعر فيضى فى الدكن لفترة من الزمن. و يقال إنه خلف وراءه ديواناً شعريا بالعربية، و رسالة بالعربية حول فيضى. ("أكبر أبرار" الترجمة الأوردية لـ "كزار أبرار"، أجرا. (عام ١٣٢٨هـ الصفحات: ٥٨-٥٩).

٥٨ - "الدور السافر لأهل القرن العاشر" الصفحة: ٤٠٤ و "مآثر الواله" المجلد الثانى، الصفحة ٦٤٠ ، و "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحات: ١٢٠، ١٣٧. و مظاهر الأجانب فى الدول العربية أيضا تلقع منفصلة عن مظاهر العرب كما هو الحال مثلا فى دمشق حيث توجد تربة الدرباء فى باب الفراديس، و دفن هناك عدد من المستشرقين الهنود الذين ولدهم الأجل. ("خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" المجلد الأول، الصفحة ١١٢).

٥٩- "سلافة العصر". الصفحة: ٢٤٩. هذا المرجع لا يذكر إسم الملك

٦٠- إسم الوزير غير مذكور فى المصدر (خلاصة الأثر، المجلد الثالث، الصفحة ١٨٢) لكنه من شبه المؤكد انه لم يكن ملك غدير.

٦١- "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" المجلد الثاني، الصفحة ٢٤٦.

٦٢ - "خلاصة الأثر" المجلد الثاني، الصفحة ٣٣٦.

٦٣ - "سلافة العصر" الصفحة: ١٥٨.

٦٤ - "خلاصة الأثر" المجلد الثاني، الصفحة: ٦٨٧.

٦٥- هناك - على سبيل المثال - تكية ميدوسية فى رنجبورى المتاخمة على سواحل كونكان المطلة على قلعة رانديجرا، والشافعيون من مواطنى كيرالا المقيمون على سواحل مالابار، ينحدرون من أسر بالقليب الحربيـة. و للتعرف على المطومات عن عرب مالابار (من غير أصول بالقليب) و التى تم جمعها من لوائح الأضرحة، يرجى مراجعة التقارير السنوى حول الكتابات المنقوشة الهندية ٦٥-١٩٦٦م رقم: ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٨٢. (الملحق: دبي). و هناك أيضا شيخ من شيوخ الميدوس، دفن بميدوية باكجادى (PALGHAT) ولاية كيرالا (نفس المرجع السابق، رقم: ٣٩).

Converted by Tiff Combine - unregistered

٦٦- تجدر ملاحظة ما يقول المحبي بشأنه: حدث إليّ الناس في الأونة الأخيرة عن هذا العالم فقالوا إنه لم يكن بدلهيه أحد في العالم كبرا و سخاء و حبا للعلم و العلماء . إلى أن تقلبت به المقادير، فسعاد قلوي سلاطين الهند الإمبراطور محي الدين أورنكزيب و ألقاه في السجن. و أظن أنه مسجون حتى الآن (خلاصة الأثر، المجلد الأول، الصفحة: ١٩٥).

٦٧- عدد غير قليل من الهنود سافروا إلى الأماكن المقدسة بعد أن تقدم بهم السن و بلغ - في بعض الحالات - الثمانين سنة، و استقروا في نفس الأماكن بعد تأدية الفريضة.

٦٨- نفس المرجع السابق، المجلد الخامس، الصفحات: ١٤٢، ١٨٣، ٢٥٠، ٣٧٦، ٣٠٧، ٣٥٩، و كثير منهم قضوا سنوات مكوثهم هناك إما بالإشتغال في التدريس، أو في العبادات و المراقبات.

٦٩- يمكن العثور على أسمائهم في مكان واحد في "نزهة الخواطر" المجلد الرابع و الخامس.

٧٠- بعد عودته من رحلاته إلى الدول العربية عينه الإمبراطور شاهجهان معلما للأمير دارا شكوه. و بعتبر الأمير مراد (نفس المرجع السابق، المجلد الخامس، الصفحة ٥١٥).

٧١- لبث لستاذ في المدينة المنورة، لكن الشيخ عبدالوهاب البخاري اقنعه بالعودة إلى الهند (نفس المرجع السابق، المجلد الرابع، الصفحة ٢٩١)

٧٢- المرجع السابق، المجلد الرابع، الصفحات ٥٩-٦٠، ٨٥، ١٢٦، ٢٩١. و المجلد الخامس، الصفحات: ٣٣٩-٤٠.

٧٣ - المرجع السابق، المجلد الرابع، الصفحات: ٦٩، ١٠٧ - ١٠٨، ٣٩٥. و المجلد الخامس، الصفحة: ١٤٦. سيدنا برهان الدين يتولى أكبر المناصب الدينية - أي منصب الداعي - في الطائفة الإسماعيلية حاليا.

٧٤- للتعرف على أحوال بعضهم انظر نفس المرجع السابق، المجلد الخامس، الصفحة ٢٤٢. و "نزهة الخواطر" المجلد الثاني، الصفحات: ٣٢٧، ٤٧٤ و غيرها

٧٥ - "أنكار أبرار" الصفحة ٤٣٣. دعاه الإمبراطور أكبر إلى المكان الذي خصصه في قصره للعبادة. لمعرفة التفاصيل انظر "منتخب التواريخ" للملاّ عبدالقادر البدليوني، المجلد الثالث، الصفحة: ١٣٩ (كلكتا).

٧٦ - تولد و نشأ في صنعاء عاصمة اليمن، و والده عمل تاجرا هناك.

٧٧ - "خلاصة الأثر" المجلد الثاني، الصفحة: ١٢-٢٤٤. و أيضا "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحة: ٧٥-١٧٧.

٧٨- "الدور السافر" الصفحة ٢١٧ نقلا عن سيرته "الكول الذكي في مناقبة المكي" للعلامة عبدالقادر الفاسي المكي.

٧٩- نفس المرجع السابق.

٨٠ - "خلاصة الأثر" المجلد الأول، الصفحة: ٤٦ ، "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحة: ٩٩-١٠٢.

٨١ - نشر في مكة المكرمة.

٨٢ - "الأعلام بأعلام بيت الله الحرام" - مطبعة. (نقلا عن المؤرخين العرب عن أمثال الفوكاني و عبدالله الدوعيس، صاحب "الوافي بوفيات الأعيان". الصفحة : ٩٤-٢٩٤). و "الدور السافر" الصفحة : ٨٩ - ٢٨٣ و "نزهة الخواطر" المجلد الرابع، الصفحة ٨٥-٢٩٠).

٨٣ - إنسه كان مثل خالـــه مؤلفا كبيرا ("خلاصة الأثر" المجلد الثالث، الصفحة: ٨).

٨٤ - نفس المرجع السابق، المجلد الثاني، الصفحة: ٤٧٤.

٨٥ - "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحة: ٣٠١.

٨٦ - "خلاصة الأثر" المجلد الثاني، الصفحة ٣٣٦.

Converted by Tiff Combine - unregistered

٨٧ - "نزهة الخواطر" للجلد الخامس، الصفحة ٣٦٠ و ٣٦٦. و لقد أورد شمس الدين السخاوي في كتابه "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" (المجلد العاشر، الصفحة: ٥٣ - القاهرة) أحوال هندي آخر من أصل دلهي. إنه ولد في سانيبريا، و استقر في مكة المكرمة).

٨٨ - "خلاصة الأثر" للجلد الثالث، الصفحات: ٣٣٣ ، ٤١٢ ، ٤٣٦. "سلافة العصر" الصفحة: ٧٧ - ٨٨. "نزهة الخواطر" للجلد الخامس، الصفحة: ٥. يقول الشوكاني إنه رأى ديوان شعره الضخم.

٨٩- يروي الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي في كتابه "أخبار الأخيار" (دلهي، ١٣٣٢هـ، الصفحة: ٧٠-٧١) أن الشيخ علاءالدين، أحد كبار علماء و زهاد مكة المكرمة، قال له : إن جميع العلماء و الشيوخ الذين التقاهم أثناء زيارته لليمن، كانوا معجبين بأمر الشيخ عبد الوهاب، و ذكروه بإسم "طب مكة".

٩٠ - من تلامذة الشيوخ الكبار من أمثال الشيخ عبدالرحمن المرشدي، مفتي الحرم المكي، الشيخ أحمد العجيلي اليمني ("النور السافر" الصفحة: ٤٣٩ "خلاصة الأثر" المجلد الأول، الصفحة: ٣٣٧).

٩١ - الشيخ إبراهيم المدني و حسن بن علي المكي، كانا من علماء مكة المكرمة الذين تلمذوا له.

٩٢ - يقول البوريني إنه أدعي بالهندوية لدى وصوله إلى دمشق، و أعلنها من فوق منارات الجامع الأموي و مسجد سالي جامي، و انتقل إلى البيمارستان القيمري بشبهة إصابته بمرض طاعوني. ("نزهة الخواطر" للجلد الخامس، الصفحة: ٣٦-٤٣٦).

٩٣ - يقول الغزي إنه برع في الحديث و التفسير و التصوف و المنطق و البيان (المرجع السابق، الصفحة: ٤١٣).

٩٤ - نفس المرجع السابق، المجلد الرابع، الصفحة: ١٠٥.

٩٥ - "خلاصة الأثر" المجلد الثاني، الصفحة: ١٢٩.

٩٦ - نفس المرجع السابق، المجلد الرابع، الصفحة ٢١٢-٢١٩. و المجلد الخامس الصفحة ٨.

٩٧ - المرجع السابق، المجلد الخامس، الصفحة: ٦٨.

٩٨ - المرجع السابق، المجلد الرابع، الصفحات: ٢٠٧ ، ٢١٩. و المجلد الخامس، الصفحات: ٢ ، ١٢٥ ، ٢٢٧.

٩٩ - "نزهة الخواطر" للجلد الخامس، الصفحة ١٤١.

١٠٠- قام بتقسيم ١٥٠ صندوق من القطع الذهبية بين أهالي مكة و وهب النساء ثيابا مزركشة بالذهب، و كثير من سكانها حصلوا على منح و مساعدات (مظفر الوالة بمظفر و آله، المجلد الأول، الصفحة ٣٦٣).

١٠١- تبا وفاته في أحمدآباد عام ٩٦١ هـ . أوقع مكة في حزن شديد، و نعى عليه كبار علماء و شعراء البلدة ("النور السافر" الصفحات ٢٤٣-٢٤٧) و قرض شيخ الإسلام عبدالعزيز الزمزمي المكي مفتي الحرم المكي، مرثية من ٨٧ شعر. أنظر أيضا مظفر الوالة بمظفر و آله، المجلد الأول، الصفحات: ٧٧ - ٢٨٥.

١٠٢ - "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحة: ٢٧٢.

١٠٣ - نفس المرجع، المجلد الرابع، الصفحات: ٩٣ ، ١٣٦.

١٠٤ - المرجع السابق، الصفحات ٢٤٣ ، ٢٦٠.

١٠٥- "خلاصة الأثر" المجلد الأول، الصفحة: ٤٨٠ و "نزهة الخواطر" المجلد الرابع، الصفحات: ٤٥-٢١٦

١٠٦ - "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحة: ٢٤٣ . نقلا عن خلاصة الأثر

١٠٧ - "خلاصة الأثر" المجلد الثاني، الصفحات: ١٨-٣١٩.

١٠٨ - المرجع السابق : ٤٠ - ٤١٢ .

١٠٩ - لمعرفة المزيد من بيان مؤلفاته المجيد، أنظر "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحات: ٤٤- ٤٥

Converted by Tiff Combine - unregistered

١١٠ - للتعرف على خلاصتها راجع نفس المصدر السابق، الصفحات: ٤٥-٤٧

١١١ - لقد ذكر تفاصيل هذه المنح و المدارس في مكة و المدينة في مكان في "الثقافة الإسلامية" و في "ثقافة الهند" المجلد ٤١ العدد ٢ (١٩٩٠م).

١١٢ - على سبيل المثال يقول إبن فهد ("الدرر المنتثر" الصفحة ٩٢) إن محمود، ملك غوجرات، بنى رباطا في مكة المكرمة حيث كان العلماء يقطنون الدروس، و بات يرسل كميات كبيرة من الأموال لكنه انقطع عن ذلك بعد مدة، لأنه علم أن الأموال و الصدقات لا توزع وفق المطلوب.

١١٣ - "نثر الدرر" بمقارنة مع "ذيله" المجلد الأول، الصفحات ٣١ - ١٣٧

١١٤ - المرجع السابق، الصفحة ١٣٢

١١٥ - المرجع السابق، الصفحة ١٣١

١١٦ - يقول المحدث الظهير إبن حجر الهيثمي الذي لسكن معه عدة لتقارب في مكة، في رسالته حول سيرة أصف خان نقلا عن شيوخ من الشيوخ المعاصرين إن "جوده و سخاءه أعاد إلى الذاكرة سخاء الخلفاء العباسيين و البرامكة الذين نستمتع عنهم حكايات فقط" (المرجع السابق، الصفحة ٣٦٢) المرجع سابق الذكر أورد جميع ما تضمنته تلك الرسالة المسماة بـ "رياض الرضوان في مآثر المسندي لملي أصف خان"

١١٧ - أشار المفتي إلى هذه المدرسة في قصيدة له من ٨٦ بيتا (المرجع السابق، الصفحات ٢٧٩ ٢٨١)

١١٨ - إبن حجر في رسالته عن سيرة أصف خان (المرجع السابق، الصفحة ٣٨١) لسلفنا ذكر المرثية التي قرضها المفتي عندما وصل إليه نبأ وفاة أصف خان و يبدو أن صاحب مزهة الخواطر (المجلد الرابع، الصفحات ٨٩ - ١٩٢) أورد جميع ما تضمنته رسالة إبن حجر نقلا عن "عمال الحاج دبير"

١١٩ - "نثر الدرر" بمقارنة مع "ذيله" المجلد الأول، الصفحات ٣١٦ ورد في النص من "نقل المبلغ" لكنه في الغالب خطأ مطبعي، و الصحيح هو "الهند" دون "المبلغ"

١٢٠ - المرجع السابق الصفحات ١٥-٢١٦

١٢١ - جاندهار نقع بمندرية بارودهر بولاية غوجرات

١٢٢ - المرجع السابق، الصفحة ٣١٢ محاصيل "أوقاف العثمانية" التي حملها أمير الحج سنويا، كانت تفي حاجات أهل مكة لشهر ذي الحجة و شهرين تاليين، فيما كانت المنح و العطايا المحمودية تجعلهم في غنى عن الديون طيلة الأشهر التسع المتبقية

١٢٣ - قيمة الكيسة - لو السودة - عندئذ بلغت ٢٠٠ قطعة ذهب (المرجع السابق، الصفحة ٢٨٨).

١٢٤ - يقول الحاج دبير الذي كان والده يشرف على حفر الآبار في مكة، إن السلطان محمود الثاني قتل بإيماء أصف خان. (المرجع السابق الصفحة ٣١٤).

١٢٥ - المرجع السابق، الصفحات ٦١٨ ، ٦٤٢.

١٢٦ - إنه هاجر الهند في الثامن عشر من شهر ذي القعدة، سنة ٩٨١ هـ ، و رجع بعد عام إلى الهند. (المرجع السابق، الصفحة ٣٣٥).

١٢٧ - المرجع السابق.

١٢٨ - "خلاصة الأثر" المجلد الثاني، الصفحة ٣٧١ و يبدو أن إرسال الأموال و العطايا المترتبة على منقول الأراضي الموقوفة لغرض خاص، كان من العادات المتبعة في الهند منذ زمن قديم و بمراجعة مخطوطين بالعربية و السانسكرتية، و مؤرخين في ٦٦٣ (القرن الثالث عشر الميلادي) و بالتوالي من زمن حكم الأمير ركن الدين محمود، سلطان هرمز، و ارجون بها

Converted by Tiff Combine - unregistered

ملك غوجرات من أصل شافعيا، يتبين أن رصيد مدخول العطارات الوافدة لمسجد بنافا تليم من منطقة هرمز في سومطرة، كان يرسل إلى مكة و المدينة. (THE PEKIPALAHA INDIA A الملحق العربي و الفارسي، ١٩٦١م الصفحات ٦٠-١٥)

١٢٩ - "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحة ٢٥٨

١٣٠ - "خلاصة الأثر" المجلد الثاني، الصفحة ٣٢١. إنه لدينا دائرة خاصة باسم "ديوان ارباب الرسوم و القصد" أيضا

١٣١ - "سلافة العصر" الصفحة ٣٢٨.

١٣٢ - "خلاصة الأثر" المجلد الأول، الصفحات ٦٦٢، ٢٦٨. المجلد الثاني، الصفحات ١٨٨، ٣٥، ٢٢٦، ٦٢، ٢٦٤ المجلد الثالث، الصفحات ٣٩، ٤٠، ٤٩، ٥١، ٦٠، و حديقة الصراط الصفحات ٣٦، ٣٧، ٤٤ الخ.

١٣٣ - "خلاصة الأثر" المجلد الأول، الصفحات ٨٤، ١٣١. و المجلد الثاني، الصفحات ٢٦، ٢٣٧، ٣١٨، و المجلد الثالث، الصفحات ١٧٨، ٤٠٣، "سلافة العصر" الصفحات ٣١٠، ٥٥، ٣٥٦.

١٣٤ - "خلاصة الأثر" المجلد الثالث، الصفحة ١٢١. و "مفر الوالة بمظفر و آله" المجلد الأول، الصفحات ٦١، ٢١٦. و المجلد الثاني، الصفحة ٦٤١ و غيرها.

١٣٥ - "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" المجلد العاشر، الصفحات ١١٥، ١٢١ يبدو أن ثاني الذكر تواريخ التجارة من أبيه الذي كان يتاجر مع الهند و لقاء الأجل هناك.

١٣٦ - "النور السافر" الصفحة ٥١، ٣٥٨. و "نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحة ٥.

١٣٧ - "مفر الوالة بمظفر و آله" المجلد الأول، الصفحات ١١٧، ٢٨٧. و المجلد الثاني، الصفحة ٤٤١ و المولى، الأخيرة الشهيرة في سواحل كونكان الغربية كانت شيول، دابهول، جوا.

١٣٨ - للتعرف على السفينة العيدروسية التي وصلت إلى ديف من ميناء شيهر عام ٩٨١ هـ، أنظر "النور السافر" الصفحة ٣٥٦.

١٣٩ - "مفر الوالة بمظفر و آله" المجلد الأول، الصفحة ٢٨٧

١٤٠ - المرجع السابق، المجلد الثاني، الصفحة ٤٤١

١٤١ - لمعرفة النشاط البحري التجاري و العسكري في منطقة غوجرات تكفي الإشارة إلى أنه في عام ٩٤٣ هـ صنعت ٥ مائة جراب (نوع من السفن) من خشب الساج في موانئ سورت و بروش و غوجها و بمن و كامبيه

١٤٢ - عند من إمارات الدكن (البحتوب) أيضا امتلكت سفنا خاصة و لقد سافر الصوفي الشهير صبغة الله إلى مكة على ظهر سفينة امتلكتها سلالة عادل شاهي المالكة ("نزهة الخواطر" المجلد الخامس، الصفحة ١٧٥)

١٤٣ - مما تجدر الإشارة إليه أن هذه السفينة نقلت إلى خواجه علاء الدين، مدير موانيء غوجرات (شاه بندر) تسديدا لبعض الديون ("مفر الوالة بمظفر و آله" المجلد الثاني، الصفحة ٦٣).

١٤٤ - المرجع السابق، المجلد الأول، الصفحات ٢٨، ٢١٨، ٣٦٩ و المجلد الثاني، الصفحات ٤٩٦، ٥٥٢، ٦٣، ٦٤١ و غيرها.

١٤٥ - المرجع السابق، المجلد الأول، الصفحات ٢١٤، ٣٥٦ و غيرها صاحبيل الأوقاف و نفقات الزاد و الأموال المطلوبة لشراء السلع لإستردادها إلى الهند. كانت ترسل في البضائع كالأقمشة و النيلة بدلاً من النقود. و يروى أن ثمن كمية كبيرة من النيلة كانت تجلب ٢٠٠ قطعة ذهب بالمدينة المنورة (المرجع السابق، الصفحة ٢٨٨)

١٤٦ - عندما لاذ لصف خان بالهجرة إلى مكة، أخذ معه كمية كبيرة من هذه الطيوبات و الموبيلة

Converted by Tiff Combine - unregistered

(المرجع السابق، المجلد الثاني، الصفحة ٦٣٧).

١٤٧- المرجع السابق، المجلد الأول، الصفحة ٢٠٠.

١٤٨- المرجع السابق، الصفحة ٢٨٨.

١٤٩ وجد في شحنات أصف خان لدى عودته من مكة المكرمة قطيع من الفرس العربية من أجود الأنسال (المرجع السابق، الصفحة ٢٨٩) و رجب خان امتلك فرسا عربيا سمى "طيار". (مآثر الرحيم، المجلد الثاني، الصفحة ٤٨٧)

١٥٠ حزنه كان كبيرا على ضياع نسخة من "الشكرة"، اشتراها من المؤلف ولي الدين خطيب الدرمكي في مكة المكرمة بثمن كبير (المرجع السابق، المجلد الأول، الصفحة ٢٨٩).

١٥١- المرجع السابق، المجلد الثاني، الصفحة ٦٤١ السفينة التي استعملت لشحن الكتب من مصر، ألقت مراسيها في غوجا بساحل غوجرات و نتيجة لذلك ضاعت بعض الكتب

١٥٢ - خلاصة الأثر" المجلد الثاني، الصفحة ٣٣٦ و المجلد الثالث، الصفحة ٩١٤.

١٥٣ - من المؤكد أن الحجاج و السياح كانوا أهم و أسرع وسيلة لتناقل المعلومات عن الكتب المؤلفة حديثا بين البلدان.

١٥٤- الكتب المقتناة بهذا الطريق كانت تنسخ في عدة نسخ و يروى الشيخلي أن العلماء في مصر و اليمن و الهند قاموا بنسخ رسالة في عدة نسخ ("خلاصة الأثر" المجلد الثالث، الصفحة ٣٣٧).

١٥٥ - ذكر العيدروس أن العلماء في الهند و في الخارج كانوا يرسلون إليه قصائد بمناسبة ختم البخاري، و بذلك العدد نظم قصيدة بعث بها العلامة حسين الطاهر الزبيدي من اليمن ("النور السافر" الصفحة ١٣٣)

١٥٦- بجانب عدد من أماكن و مدن مقدسة مثل حضرموت و إفريقيا ("النور السافر" الصفحة ٣٠٨).

١٥٧- "سلافة العصر" الصفحات ١٠، ٢٢، ٣٦، ١٣٤، ١٥٨، ١٨٠، ٢٣٧، ٢٣٩-٢٤١، ٢٥١، ٢٥٦، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٣، ٤٢٤، ٤٦٨، ٤٦٩-٤٧٠، ٤٩١ وغيرها

١٥٨ - "النور السافر" الصفحة ٤٤٢. يشعر تحديد هذه اللغة من بين اللغات الهندية المتحدة

١٥٩- في هذا الصدد يمكن أن نتصور أصف خان، أحد وزراء سلطنة غوجرات، يجول في مكة في لباس هندي و في الهند بلباس عربي ("مآثر الرحيم" بمظفر و الله" المجلد الأول، الصفحات ٣٩، ٢٨٦).

Converted by Tiff Combine - unregistered

تيفو سلطان و الوحدة الوطنية

بقلم : أجمل مصطفى الرضوي

كان تيفو سلطان هو الحاكم الهندي الوحيد الذي كان قد أدرك عتمة الإستعباد و الشقاوة تزحف إلى الهند و تحاصرها من جميع أطرافها، لكننا و للأسف الشديد نسينا اليوم كلياً هذا المجاهد العظيم الذي ظلّ يؤمن بأنّ من واجباته الأولية محاربة الأعداء من أجل إستقلال الوطن، حتّى استشهد في سبيل تحقيق هذا الهدف النبيل على جبهة القتال في ٤ مايو ١٧٩٩م -

إن المؤرخين الإنجليز لم يعجبهم قطّ ما كان يتمتع به تيفو سلطان من الحب البالغ للوطن و الإستقلال و الحمية القومية الجياشة، و ظلّت أوصافه هذه تثير فيهم نقمة و غضباً، فوجّهوا إليه من الإتهامات و الصقوا به من المفتريات ما لايوجد له من نظير - إلاّ أن الدراسة العميقة الواعية للتاريخ، لا تزيل فقط النقاب عن هذه المفتريات التي ليس لها أساس من الواقع، بل و تكشف أيضاً من عمليات هؤلاء المؤرخين الإنجليز المتعصّبة المنحازة الفاضحة - فالمؤرخون الهندوس الموثوقون بهم كشفوا عن مؤامرات الإنجليز ضد تيفو سلطان و نفضوا عنه غبار الإتّهامات التي هو منها براء تماماً - و من بين هؤلاء المؤرخين الجديرين بالذكر هنا الأساتذه : أر. سي. مجمدار، كالي كانكر دتّا، الباندیت سندر لال، و بشمبهرناتھ بانديه - و أحدث نموذج لمثل هذا الكتاب الذي يتوخّى فيه صاحبه العدل و الحقيقة هو كتاب السيد باهوان ايس غدواني الذي كتبه بالإنجليزية بإسم : سيف تيفو (THE SWORD OF TIPU) و الذي تم إنتاجه كفيلم للتلفزيون حالياً - و السيد غدواني من ولاية سندھ الباكستانية حيث كان أبوه رئيسا لمنظمة "هندو مها سبها" الهندوسية المعروفة بتطرفها - و لقد ألف هذا الكتاب بعد الجهود المضنية الحثيثة الممتدّة إلى سنوات، بالرّغم من أنه ليس مؤرخاً

Converted by Tiff Combine - unregistered

و لا مهتما بدراسة التاريخ بصفة خاصة - و الظاهر أنه لا يصحّ أن نقول، نظراً لخلفية أسوته الهندوسية، إنه منحاز في هذا الكتاب للمسلمين و معارض للهندوس -

و الحق أنه من الصعب جداً وجود أحد مثل تيفو سلطان في عدم الانحياز و العصبية و الحب الشديد للوحدة الوطنية - و من شاء التأكدّ من هذا، فليذهب إلى مدينة "سرونغاپتنم" ليشاهد هنالك تلك المعابد الهندوسية الثلاثة التي في وسطها كان قصر تيفو و التي تشهد حتى اليوم بما كان لديه منقطعة النظير - و لو أردنا أن نذكر بالبسط و التفصيل قائمة جميع المعابد و الأملاك و الإمتيازات و المنح التي كانت تمنح من قبله لمدنة المعابد الهندوسية و خدمتهم لاحتجنا إلى كتاب مستقل -

و يرشدنا التاريخ أيضاً إلى العلاقات الوطيدة المخلصة التي كانت تربط تيفو بأكبر شخصية دينية لدى الهندوس في سرى نغر كانت تدعى "شنكر اتشاريه" (SHANKARACHARYA) و لقد بعث هو برسائل عديدة إلى "شنكر اتشاريه" في مختلف الأوقات لا يزال قسم الآثار القيمة بمدينة ميسور يحتفظ بالثلاثين منها. و قد صدّق المؤرخ بشمبهر نات بانديه هذه الرسائل في كتابه: "الإسلام و الحضارة الهندية"، و كتب أن مدير جريدة ميسور الرسمية السيد سرى كانيتا كان قد أعدّ قائمةً لمائة و ستة و خمسين معبداً هندوسيًا كان ينفق عليه تيفو سنويًا - و ذكر المؤرخ بانديه أيضاً مستنداً إلى الدلائل القوية و المراجع الموثوقة بها أنه كان من عادة تيفو الذهاب كل صباح قبل الفطور لزيارة معبد شرى رنغا ناتهه (SRI RANGANATH) كعادة ملوك ميسور الأقدمين. و معبد شرى رنغا ناتهه هذا كان داخل الحصن لمدينة سرنغا پتنم -

و البطل تيفو سلطان، الذي كان يحمل بين جنبيه قلباً كقلب الأسد في الشجاعة و الشهامة، نشأ و ترعرع بمدينة ميسور الخضراء الناضرة و بلغ سنّ الرشد حين كانت الشعب المتراكمة للتعاسة و الظلمة و الإستعباد تحلّق حول الهند، و سلّ هو سيفه في سبيل الدفاع عن الوطن حين كان الاستعمار البريطاني يعزّز سيطرته على الهند العاثرة الحظ في ذلك الوقت - و لقد وفّق الله هذا البطل الجليل لتقديم نفسه للحفاظ على الحق و الصدق حين كانت عاصفة الإمبراطورية البريطانية الهوجاء قد عصفت بخير الهند و سعادتها و جعلت شطراً أكبر منها تسقط فريسةً لقبضتها الدامية الإستعمارية - نعم، كانت الدولة على و شك الدمار و الفناء، و كانت نار الحرب الداخلية تشتعل فيها إشتعالاً و كان الملك المغولي شاه عالم قد دقّ من خلال أعماله جرساً للخطر و النهاية للحكومة المغولية، إذ نهض في مثل هذا الوقت العصيب الخطير ذلك البطل الجليل الذي كانت تهتزله قلوب أعدائه

Converted by Tiff Combine - unregistered

هلعًا و خوفًا و سجّل بدمائه الطاهرة المقدّسة على صفحات التاريخ أن الغيارى من أبناء الوطن ليس من السهل إستعبادهم و جعلهم لقمة سائغة لربقة الإستعمار .

و يشهد التاريخ أن المحاولات التى بذلها تيبو سلطان لإخراج الإنجليز من الهند لم يستطع أحد غيره أن يقوم بمثلها، فلقد سلّ سيفه ضدهم و حاربهم حتى فى عهد أبيه حيدر علي، الذى هزم فيه رغم حداثة السن و قلة الخبرة عديدًا من كبار قواد الجيش الإنجليزى من أمثال "بيلي"، و "انركوت" و "بويت ود" و "همبرستن" الذين كانت لديهم خبرة بالحرب، و استمرّ هو يحاربهم إلى أن لفظ نفسه شهيدا على ساحة القتال . و كانت الهند تمرّ بأسوأ الأوضاع و أخطرها حين تبوأ تيبو عرش الحكومة و السلطة فى عام ١٧٨٢م، و ألقى كلمة حماسية أمام الحضور قال فيها:

" أنا إنسان متواضع و حكومتى و سلطتى أيضا ليس لهما الدوام و البقاء . إلاّ أنه من واجباتى أن أستمرّ أجاهد فى سبيل الدفاع من الوطن و الحفاظ عليه ما دمت حيًا أتنفّس . و يمكن أن يموت الآلاف من المواطنين من أجل الوطن، أما الروح الوطنية فليس لها موت و لا نهاية ."

يقول الأمير اعتماد الملك أن تيبو سلطان حين كان يلقى هذا الخطاب كانت كيفية شديدة من الطرب و الوجد تسيطر عليه، و كان يستمر فى خطابه يقول :

" أيتها الهند الحبيبة ! لك حبّى و قلبى، لك حياتى و كيانى، لك نعمى و روحى ! "

(شير ميسور (أسد ميسور) لفيصر مصطفى ، ص: ٤)

و لقد بذل تيبو أقصى جهوده لتوحيد صفوف حكّام الولايات الهندية و رؤسائها ضدّ الإنجليز و قدم فى هذا السبيل تضحيات تفوق العدّ. و نذكر فيما يلى على سبيل المثال سطورًا من الرسالة التى كان قد بعث بها تيبو إلى الحاكم الفرنسى لولاية باندیتشری الهندية السيد " ماسيور موساك " فى ٣ سبتمبر ١٧٨٩م، قال فيها :

" ليس يخفى عليكم ما هو السبيل لتحقيق هذا الهدف، و بالمناسبة فإن المرهتة مرّة كانوا قد أشعلوا مدينة " بونا " نارًا خوفاً من القوّات الإنجليزية التى لم تكن إلاّ على بعد أميال منها و طلبوا منّا النجدة أيضاً فاستجبنا لهم

Converted by Tiff Combine - unregistered

و اعتمادًا على العهود و المواثيق لهم أعلنّا الحرب ضدّ الإنجليز في ولاية كرناتكا، الأمر الذي أنقذ المرهتة من الهلاك و الدّمار و الكل يعرف هذا الوضع جيدًا، لكن المرهتة بالرّغم من كل مساعداتنا لهم و لفضائلنا عليهم، حملوا واحدًا من الأقطاعيين التابعين لنا على الخروج علينا و القيام بعمليات النهب و السلب في بلادنا، و حين اتّخذنا إجراءًا ضدّه، نهض المرهتة لغير مبالٍ بالفضائل عليهم لمساعدة هذا الأقطاعي المعتدي المنحرف و بعثو إليه بقواتهم التي بدأت الآن اشتباكات بينها و بين قواتنا".

و كان تيبو سلطان هو الملك الأول الوحيد أيضا الذي كان قد اتّصل بالدول الأجنبية بعد فشله في إيجاد الوئام بين حكام الولايات الهندية ضد الإنجليز فبعث بالسفارات إليها استعانةً بها للدفاع عن الوطن و محاربة الإنجليز - فلقد أرسل مندوبيه إلى تركيا و إيران و أفغانستان و فرنسا، طالبًا العون من حكوماتها في إخراج الإنجليز من الهند - إلاّ أنه - و لسوء الحظ - لم يقدر له النجاح في تحقيق أمنيته و استطاع الإنجليز بفضل خداعه المعروف أن يجعل التاريخ يكرّر مسرحية " فلاسي " (PLASSY) على أرض ميسور و ظهرت أرواح الخونة من مير جعفر و وليم رام و البانديت فورنيـــة و المير صادق - و نتيجة لذلك الخداع و تلك الخيانة لقي تيبو سلطان مصرعه شهيدًا و انطفأ باستشهاده نور حرية الهند و إستقلالها و بدأت القوات الإنجليزية تهتف في غاية من الفرح و السّرور بأن الهند أصبحت لهم و تحت سيطرتهم بعد التخلّص من أكبر عدوّهم الذي لم يألُ جهدًا في الدفاع عن الوطن.

و ذكر المؤرخ الإنجليزي ايل، بي، بودنغ في كتابه رسالة للحاكم الإنجليزي في الهند و نائب الملك فيها اللورد ولزلي كتبها بعد استشهاد تيبو سلطان و قال فيها: " لقد مات اليوم أكبر عدوّ لنا في الهند " و كتب اللورد كارنوالس في رسالة له إلى المستر ليدوز إننا سوف نضطرّ للخروج من الهند لو أصبح بوسع فرنسا أن تساعد تيبو سلطان".

و نجد في الكتب التاريخية للمؤرخين الإنجليز أنفسهم ما يبيّن لنا كم كان سلطان تيبو محبوبًا لدى شعبه و رعاياه. فلقد ذكر مارش مين و غيره من المؤرخين الآخرين في كتبهم أنه عند ما كان موكب جنازته يمرّ بالشوارع في سرنغا بتنم، كان الناس ما أن يرونه حتى كانوا يسرعون إليـــه، و يقبّلون الأرض و ينضمّون إلى الموكب - و أن عامة الناس كانوا يقومون بالعويل الشديد و البكاء البالغ له - و ذكروا أيضاً أنه عندما دخلت القوات الإنجليزية إلى ميسور في نشوة من الإنتصار و غاية من الفرح و السّرور، خرج أهلها

Converted by Tiff Combine - unregistered

جميعاً و من المنتمين إلى مختلف الديانات و الجماعات، بما كان معهم من مالٍ و متاع و وضعوه أمام الإنجليز ملتمسين منهم أن يأخذوه و ينسحبوا من ميسور و يتركوا السلطة لأسرة تيبو سلطان الباقية .

فالسؤال أنه إن كان تيبو سلطان ظالماً مستبداً، كما يفترى عليه البعض من المؤرخين المتعصبين و المنحازين، فكيف سلك معه رعاياه من سكان ميسور و سرنغا بتنم هذا السلوك من الغرام و الحبّ و الفداء؟ فإن كان هو، كما يقال، رجل كان يعتدى على رعاياه و يقتلهم فتكاً، كان من العدل و الحكمة أن يقوم أهل ميسور و سرنغا بتنم، بدلاً من البكاء و العويل له بالإحتفال بمناسبة التخلص من ملك مستبدّ و أن يرقصوا و يطربوا فى شدة من الفرح و السّرور، لكى يلتقى المؤرخون من الإنجليز و يروّوا الناس قصصاً من استبداده و ظلمه، و لكن الأمر كان على عكس هذا تماماً، كما ذكرنا .

و نجد فى كتب الإنجليز نفسها أن تيبو سلطان كان فى حالة حرب مع الإنجليز يوماً إذ جاءه لفيف من الكهنة الهندوس و قالوا له ان اليوم ليس بسعيد، و لذلك فهم يريدون أن يدعو لحياته و يؤدّوا لها أعمالاً خاصة، و أصفى لهم تيبو سلطان جيّداً و أمر لهم بالتحف و توفير جميع التسهيلات و الأسباب اللازمة لعبادتهم، مع أنه كان بوسعه أن ينهرهم على ذلك نهراً و يردّهم إلى أعقابهم و يقول أنه لا يومن كائنٌ مسلم اخر بمثل هذه الخزعبلات و الأوهام .

رأى المهاتما غاندى عن تيبو سلطان :

كتب المهاتما غاندى فى جريدته الانجليزية المعروفة باسم "ينغ إنديا" (YOUNG INDIA) فى عددها الصادر فى ٢٣ يناير ١٩٣٠م :

" لقد حاول المؤرخون الإنجليز إثبات أن فتح على تيبو سلطان كان حاكماً دينيّاً مستبداً أكره الهندوس على اعتناق الإسلام بالقوّة، مع أن الواقع مختلف تماماً، حيث كانت له علاقات حسنة متسامحة وطيدة مخلصة جداً مع رعاياه من الهندوس . و لقد احتفظ قسم الآثار القديمة فى ميسور بثلاثين رسالةً له كان قد بعث إلى شنكر اتشارية فى سرى نافر" *الإسلام و الحضارة الهندية*، ص : ٤٠ ـ ٣٧.

رأى الزعيم الوطنى المعروف سندر لال :

يحكى لنا الزعيم الوطنى المعروف الباندیت سندر لال، صاحب كتاب : "*حكومة الإنجليز فى الهند* " كيف أن الإنجليز اختلقوا قصصاً و دسّوها فى

Converted by Tiff Combine - unregistered

تاريخنا بحيث لا نزال نحن نتعرّض لعواقبها و لا ندري إلى متى سنظل نجني ثماراً مرّة لهذه القصص الكاذبة المختلقة- يقول البانديت سندر لال :

" لقد درست حياة تيبو سلطان و تاريخه دراسة واعية و عميقاً، و وجدته في ضوء الكتب التاريخية التي ألفها عنه المؤرخون الإنجليز حاكماً كان يتميّز بالعصبية الشديدة و ضيق الصدر و الفكر، و لما أردت أن أطالع عنه كتباً تاريخية لغير المؤرخين الإنجليز، وجدت كتاباً كان ألف أحدّ من أحفاد تيبو سلطان، و هو كان يؤيّد تماماً تلك الإتهامات التي نسبها إليه المؤرخون الإنجليز، فاستغربت هذا و اندهشت له كثيراً، و من أجل الحصول على مزيد من المعرفة في هذا الصدد سافرت إلى كلكتا حيث تقيم البقية الباقية من أسرة تيبو، و أقمت هناك علاقات مع أحفاده - و يوماً من الأيام سألت أحد أحفاد تيبو السيد سليم الزمان عن هذا الكتاب فقال : " الواقع أن المخصّص المالي الذي نالت أسرة تيبو يتسلّمه من الحكومة منذ استشهاده، استمرّ يتقلل يوماً فيوماً، لأن الذي يموت منا، فإننا نحرم مخصصه المالي وفق القانون، و لذلك فكانت الأسرة يزداد عالها سوءاً كل يوم من الناحية الإقتصادية، إلى أن حدث مرّة أن أمضاء الأسرة لم يتسلموا مخصصاتهم المالية لشهور و اضطروا إلى التجوّع، فاضطرب بذلك والدي أشدّ الإضطراب و أخذ يفكر في سبيل التخلّص من المشكلة، و لم يكن هو قد وجد حلاً لها بعد إذ لقيه أحد من الإنجليز و قال له أن الحكومة الإنجليزية لها شكوك عنه و شبهات حوله، و لن يجري له مخصصه المالي الشهري إلاّ بعد زوال هذه الشكوك، و لذا، فعليه أن يسافر إلى لندن و يحاول أن يرفع عنه شكوك الحكام البريطانيين و شبهاتهم و عندئذ يمكن أن يبدأ يتسلم مخصّصه المالي من جديد، فرضي والدي بذلك و سافر إلى لندن على حساب الحكومة، و حين لقي هناك أولئك الحكام، وضعوا أمامه مخطوطة فارسية و طلبوا منه أن يوقع عليها، و أنها سوف تطبع و تنشر باسمه، و بما أنه لم يكن أمامه سبيل غير التوقيع عليها، وقّع كما قالوا و طلبوا منه، و تسلّم بعد ذلك مخصصاته المالية بالإضافة إلى مزيد من النقود التي أعطيت له من قبل الحكومة البريطانية".

و بهذا نستطيع أن نعرف كيف أن الإنجليز قاموا بمؤامرات ضدّ

Converted by Tiff Combine - unregistered

تيبو سلطان، لا في حياته فحسب بل و بعد مماته أيضا، و كيف أنهم الصقوا به اتّهامات ليس لها أساس في الواقع مستخدمًا لهذا الهدف الخبيث كل الوسائل من الخداع و المكر و الترغيب و الترهيب - و لقد نجحوا حقًا في تحقيق هدفهم من نفث السموم حده و صبّها في عقول الناس الذين لا زالوا يحملون في قلوبهم حقدًا و عداءًا بغيضًا إزاءه، و يتعاركون و يتحاربون من أجله. إن الخلاف و النفاق و العراك الذي يسود المجتمع الهندي و لم ينته حتى بعد أن مضت أربعون سنة على استقلال الهند، ليس سببه إلا وجود هذا السمّ في التاريخ و بسببه في أذهان الناس و قلوبهم.

يقول الكاتب الإنجليزي المعروف خوش ونت سنغ (KHUSHWANT SINGH) بجديةٍ جهرته على أنه ما الذي دفع البعض من أمثال " بي، اوك " على أن يسمّموا عقول الشباب حده المسلمين؟ فالدافع الذي كان وراء قيام المؤرخين الإنجليز بتسميم التاريخ مما هو يمكن فهمه و إدراكه أما الذي يدفع هؤلاء المواطنين الهنود على القيام بمثل هذه الأعمال، فهو مما لا يستطيع أحد أن يفهمه".

و الواقع أن السموم التي نفث المؤرخون الإنجليز ضد تيبو سلطان و بثّوها في الكتب التاريخية التي كتبت في عهدهم و بأقلامهم المسمومة، قد سمّمت عقول الناس و أثارت فيهم نقمة و سخطاً ضد الحكام المسلمين و الإسلام، و ما دامت هذه السموم راسخة ثابتة في العقول، كيف و لماذا يلتفت الناس إلى قراءة الكتب التاريخية للمؤرخين من أمثال بشمبهر ناتهـ و البانديت سندر لال؟.

تعريب: خالد القاسمي

Converted by Tiff Combine - unregistered

السيد أحمد خان و رؤيته للدين

بقلم : الدكتور السيد وحيد أختر
عميد كلية الآداب، و أستاذ الفلسفة
بجامعة علي كره الإسلامية ، الهند

١- خلفية : المسلمون في الهند في منعطف سياسي و معرفي حرج :

بعد منتصف القرن الثالث عشر للميلاد كان المسلمون في شبه القارة الهندية في مآزق ذات أبعاد متشعبة ، في حين تقوى فيه بطش الحكم الإنجليزي و سلطتهم السياسية و المعرفية ، و أخطر مشكلة واجهها المسلمون كانت مشكلة احتماء الدين و الثقافة و مُثل التراث في أجواء معادية لشد العداء ، فقد كانت العلوم و الأفكار الغربية - في موكبها السياسي و الحضاري، و بموقعات سيكولوجية و جماعية - قد تغلبت أرصدة التراث و الثقافة ، و اكتسحت العقول ، و بسطت سلطانها على القلوب بظواهرها في القوالب ، فكانت أرصدة المسلمين و المواطنين بعموم في التفاعلات المعرفية و الحضارية تفقد أرصيانها الثابتة تحت وطأة السياسة الإستعمارية التي كانت تهدد كيانهم في المجتمع ، و لم يكن للمسلمين سوى بديلين في مكافحة الأزمة و مجابهة المشكلة ، فهم إما أن يغمضوا العيون عن الواقع الحي ، و يحاولوا اللجوء إلى الماضي مثل النعامة في الرمل ، و هذا ما اقترحته طائفة اللاهوتيين و الأرثوذكس ، و كان البديل الثاني أن يتفتح المسلمون للثقافة الجديدة، و يرتووا من العلوم الحديثة ، و يقوموا بمهمة شرح دياناتهم و الرصيد المعرفي المتوارث من جديد ، على الأسس الجديدة ، فقد كان هذا الرصيد المعرفي - الثقافي ماضياً في تفنية الإسلام أمداً بعيداً ، و البديل الثاني اتخذه السيد أحمد خان (١٨١٧م - ١٨٩٨م) ، الكبير من زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، في العالم الإسلامي ، و كان الهنود في بنجاله قد اتخذوا البديل الثاني كذلك ، و بالتالي تمكنوا من جعل ثقافتهم

Converted by Tiff Combine - unregistered

تواكب عصر النهضة ، و تبعث نهضة فكرية و إجتماعية فى الشعب ، و الجماهير ، و لولا شخصية السيد أحمد خان لمتابعة مسير المسلمين فى هذا الطريق ، لبقى المسلمون فى الهند فى مهاوى الغفوة و اللاوعى و الاتكالية ، و لما تمكنوا من الدخول فى العصر الحديث ، و مسايرة الموكب للعرفى و الثقافى المعاصر.

كان السيد أحمد خان فى خبرة تامة بما أنجز الهندوس من التقدم فى مجال التعليم و لكن لم يستطع تبيين صلاحيتهم للتكيف بالبيئة المتغيرة المتطورة ، و معطيات الحداثة ، و الإصلاح المواتى - لأجل ذلك - نراه يتفكر لملاحظة أن الهندوس و أمراءهم بدأوا يتعودون لطراز الإنجليز فى الطعام على الطاولات (١) ، و لما رأى انتقادات ضد التعليم الغربى بأنه يقطع أواصر الهنديين بديانتهم و ثقافتهم و أنماط سلوكياتهم فى المجتمع ، كانت لديه إجابة مسبقة هى أن البنجاليين قد فصمهم التعليم الحديث عن الديانة و الثقافة القديمة لسبب بسيط هو أن ديانتهم لا تمد جموعة العلوم (٢) ، و كان يضره الإيقان بأن الإسلام مختلف عن الديانات الأخرى فى هذا المضمار، الإسلام دين لا يعترف بأى فصام بين اللاهوت و الناسوت ، و بين قيم المادة و معطيات الروح ، فهو عقيدة و إيمان و شريعة طبيعية لا تتعرض لوهن أو ضعف أو احتهاد إذا رحبت بالعلوم التطبيقية الجديدة ، و معطيات الفكر الأوربى الحديث ، و كان يؤمن بأن الإيمان الذى يحمل أو يوهنه العديد من العلوم التطبيقية لا يمكن أن يكون إيمانا صادقا ، بل مجموعة من الطقوس الخرافية ، و السلوكيات المزدوجة و المعتقدات التى لا صلة لها بالحقيقة و روح الديانة ، و التى - إذا واجهتها قضية الإسلام - التصقت بها فى حساب التاريخ ، أما الإسلام الخالص و الإسلام الحقيقى غير المسالم فهو دين خالد ، و شريعة سرمدية وضاءة ، قوية البنيان ، و السلطان مهما واجهه من تحديات العلم الحديث ، و الأيديولوجيات المتطورة الغالبة ، يقول هو نفسه :

> " *جملة الاصوليين و رجال الكهنوت كانوا فى جهل فاحش لأكبر أعداء الديانة ، هو العلم و الحقيقة ، و نوع من العقيدة التى تضاد العلم و الحقيقة ، و أن مثل هذه الديانة ، سوف لا تبقى لها أرضية ثابتة ، أنظر بين يديك و خلفك ، تجد أن مثل هذه المعتقدات فى مختلف الديانات جعلتها الأيام متاكلة و ساقطة ، و لابت ثوبان الشاع ، و فى حقيقة الإسلام الغضراء نبتت هذه الأنياب الصغيرة من السلوكيات و المعتقدات الخرافية الجهلاء عبر القرون تحكم الجهل المسيطر على المسلمين ، و التى لابد من القضاء عليها ، كما يقضى الدور الساطع على الظلام الغاسق، و كل إمرىء يعتبر نفسه*

Converted by Tiff Combine - unregistered

صديقاً للإسلام و أميناً له و حارساً لحديقته فليزمه مكافحة هذا الثبات ، و إلاّ تصاب حديقته بأضرار لا يتصورها." (٣)

٢ - مشعة الإصلاح الديني و الاجتماعي و تفكير في الألوهيت من جديد :

كان السيد أحمد خان قوياً في إيمانه بالإسلام ، و كان يغمر قلبه و عقله إيمان لا تزلزله العواصف الهوجاء ، فلم يعتريه أدنى شبهة و ارتياب في مبادئ الإسلام ، و لم يشكك في قيمتها و جدارتها في الحياة ، و قد انتقد صديقه السيد محسن الملك لنبذه المعتقدات القديمة للشيعة و اعتناق مذهب أهل السنة و الجماعة ، قائلاً إنه لم يحدث تغييراً أساسياً في الدين ، لأن هذا الانتقال من مذهب إلى مذهب آخر من المذاهب الإسلامية لا يتصل بأساسيات الدين ، بل إنما يتعلق بالفروع ، و يلومه بأنه قال راسخا قبل في التقليد الأعمى في عقيدته السالفة ، و في جوابه لثار السيد محسن الملك مسألة من أهم مسائل الفكر المعتقد ، فكتب إلى السيد أحمد خان :

" هل تتفضل بإيضاح ما يكون جوابه للفلاسفة و العلماء الجدد الذين سبقوا من غير إخفاق جملة الجماهير في نشر نور العلم في العالم ، إذا سألوك : نبذت التقليد و اعتبرت التراث القديم مجموعة من القرطاس الخراب أو عبارة عن القمامة و سخرت من العلماء و المفسرين ، و حصلت لك مكانة سامية بل تسمى في مجال البحث و المعرفة ، و حاولت التوفيق بين القرآن و الطبيعة ، مع كل هذا التنور و فخامة العقل ، و العلم و الخبرة هل تستطيع تحرير نفسك من المعتقدات التي لم "تخبرها" و التي انغرست في عقلك في الطفولة ؟ لذت - حتى الآن - تؤمن بالله و رسوله ، و بمبادىء الإيمان في الإسلام ، اعترف - في إعتذار - أنه ليس من السهل الميسور أن تقدم جواباً مقنعاً لهذه الأسئلة." (٤)

و فعلا لم يجب السيد أحمد خان من هذه الأسئلة الحرجة ، و لكنه في مناسبة أخرى قدم هذه الأطروحة :

" لولا أن هداني الرحمن إلى سواء السبيل بتحرير نفسي من مغالب التقليد ، و لو لم أكن ملتفتاً للبحث عن الحقيقة موهوباً ، لكان من الغالب أن لهجر الدين." (٥)

لا ينبغي أن نأخذ ما ادّعاه السيد أحمد خان هنا بخطورة ، لأنه يبدأ

Converted by Tiff Combine - unregistered

فى اللاهوت بمعتقدات عدة من بديهيات الإيمان ، و لما سأل الناس الشيخ قاسم النانوتوى (من كبار العلماء فى أيامه) عن رأيه فى معتقدات السيد أحمد خان ، إنه بعث إليه بثلاثة أسئلة راجياً الإجابة الجادة ، فكتب إليه السيد أحمد خان :

" أعتقد جازماً بأن الله عظيم ، أزلى ، أبدى ، خالق هذا الكون ، و ربّه ، و أعتقد أن النبى صلى الله عليه و سلم أكرم ما وجد بعد الله عزّ و جل ، و أعتقد أن الصلاة حق." (٦)

لما تسلم الشيخ النانوتوى هذه الأجوبة للأسئلة التى بعث بها إلى السيد أحمد خان ، قال للعلماء الذين طلبوا منه توقيعه فى الفتوى بتكفير السيد أحمد خان : إنه لا يستطيع أن يوقّع فيه ، لأن السيد أحمد خان مؤمن صادق فى إيمانه ، و أضاف أنه لن يوقّع مثل هذا الإفتاء إلى يوم الدين. (٧)

فى مقال باسم " الإيمان بالله " أعرب السيد أحمد خان عن إيمانه بجميع المبادئ و الأسس الفكرية العقيدية للإسلام ، (٨) و نجد تفاصيله فى مقال آخر بإسم " *مبادئ لتفسير القرآن الكريم* " و هذا فى الحقيقة رد على انتقاد السيد محسن الملك لتفسير السيد أحمد خان ، و قد أكد السيد أحمد خان إيمانه القوى بالتحكيم إلى القرآن فى الخلافات بين السيد محسن الملك و بين نفسه ، فمبادئ الإيمان التى يتشبث بها هى كالتالى :

١- الله عز و جل أصدق القائلين ، و القرآن الكريم كلامه المنزل الذى لا كتاب بعده ، و هو كلام حق يبقى صدقه إلى يوم الدين ، و لن تجد العلوم التطبيقية الحديثة سبيلاً إلى التشكيك فيها و تعديلها بشىء.
٢- لا يتصور أى تفارق و تعارض بين كلام الله و بين أعماله ، فإذا وجد تباين - و نعوذ بالله أن يوجد مثله - فيقال إن الله كاذب (و نعوذ بالله و نستغفره ألف مرة).
٣- إذا وجدنا الأعمال الإلهية تتّفق و مبدء السنن الطبيعية ، فهذا لا يعنى أن السنن الطبيعية تستطيع أن تحظر القدرة الإلهية فى أى حال.
٤- مهما كان الإنسان لدين ، أو كان الدين للإنسان ، الدين فى كل حال يلائم العقل و يتصل بشريعته ، و لا يكون مضادا له فى أى حال.

هذه المبادئ تتفق و مبدأ العقيدة الاعتزالية للمعتزلين.

و يذكر السيد أحمد خان خمسة عشر مبدأ من ضروب أخرى تفسّر هذه المبادئ الأربعة الرئيسية ، و ما عداها فهو من التفريع و الإستنتاج ، و هذه المبادئ هى التى قامت بتطوير آراءه فى اللاهوت و الصفات الإلهية

Converted by Tiff Combine - unregistered

في وفاق مع معتقدات المعتزلة ، و قد عالج طبيعة المعجزات و الخوارق و حقيقتها ، و لكنه يؤمن بالقرآن في كليته ، معتقداً أنه كلام الله ، و أن ترتيب و نظم الآيات القرآنية صحيح باعتبار النصوص ، و فند المذاهب القائلة بأن في القرآن ناسخاً و منسوخاً. (٩)

و يعترف المولانا شبلي النعماني أن السيد أحمد خان كانت له مكانة فذة في اللاهوت ، و قد أبدى شبلي النعماني تحفظه في الإشادة بموقف السيد أحمد خان ، و مكانته العلمية ، و آرائه في الدين لكي يتحفظ بذلك الآراء التي لا يوافق فيها السيد أحمد خان ، فهو إذاً يعتبره فيلسوفاً - لا عالماً دينياً - يوحي بالتحفظ الذي احتفظ به في القضايا الإسلامية.

و أمر واقع أن السيد أحمد خان كان متكلماً إسلامياً ، و قد تطور علم الكلام (SCHOLASTICISM) في تاريخ الإسلام كمحاولة للدفاع عن حوضة الإسلام و مقدساته العقيدية و الفكرية ، المواجهة لغزو الفلسفة الإغريقية . و مما يعتقده الناس أن مفكري المعتزلة القدماء كانوا متفلسفين من منطق اليونان و مذاهبهم الفلسفية ، و لكنني اعتقد أن القضايا الأساسية التي شكلت مدرسة الاعتزال في تاريخ الإسلام و المجتمع المسلم في خلفية اجتماعية و سياسية خاصة هي قضايا الحرية الإنسانية ، و طبيعة الخير و الشر ، و مكانة المذنب ، و العدل الإلهي ، و هذه القضايا في أصولها تتصل بالأوضاع و الخلفية السياسية الموالية في أوائل الحكم الأموي ، و نفس الإتجاه يشيد به الدكتور محمد إقبال في كتابه "*تجديد الفكر الديني في الإسلام*" (RECONSTRUCTION OF RELIGIOUS THOUGHT IN ISLAM) ، كانت آراء الفلاسفة اليونانيين الأقدمين ، قد تم تعريبها في العالم الإسلامي في عصر المأمون ، و من هذا المنطلق بدأ متكلمو المسلمين يستخدمون منطق اليونان و الآراء الفلسفية اليونانية في معالجة القضايا الفكرية و مساندة مواقفهم منها ، و كانت هناك موجات أخرى للتأثير ، مثل التأثير الهندي ، و البوذي ، و الإيراني ، و المسيحي ، و اليهودي ، و لكن هذه التأثيرات لم تمثل مكانة تعديل أو تحريف مغزى الفكر الإسلامي ، بل ظلت محصورة في المنهجية ، و بعض الجزئيات في العقائد.

على أن الإسلام - كما يشير إليه بعض الأحاديث - قد حظر العقل في معالجة قضايا في إطار خاص مثل : الوجود الإلهي و الصفات الإلهية ، و الخير و الشر ، و مدى حرية الإنسان ، و لكن المفكرين الإسلاميين اضطروا بحكم الأوضاع و الأجواء المتطورة ، إلى أن يعالجوا هذه القضايا ، بوجهة نظر فلسفية ، و المنطق اليوناني قد دعم المتكلمين في تشكيل آليات التفكير (ORGANON) ، و لا ينبغي أن يفسر علم الكلام كنبت خارجي على جسد الرؤية الإسلامية ، بل إنما كان منذوجا طبيعياً للعقيدة الإسلامية و القانون الإسلامي ، و كان السيد أحمد خان مدفوعاً بتأثير الآراء و العلوم الوافدة من

Converted by Tiff Combine - unregistered

الغرب أن يعرفها و يستخدم أدواتها فى مكافحة التأثير السلبى المتمخض من أرضية خاصة فى التفكير، و المارس ضد العقل السليم ، و كان العلماء يرون بعموم أن الفلسفة الغربية و الرؤية العلمية الجديدة لا يمكن توفيقهما بالإسلام ، و لذا توجدان علمناً و تغريباً فى المسلمين بحساب عليهم و ثقافتهم ، و كما أن المعتزلة استخدموا أدوات الفلاسفة اليونانيين و الأفلاطونيين المحدثين (NEO-PLATONISTS) فى الاحتفاظ بالمعتقدات و محاربة الأزمة الفكرية ، كان السيد أحمد خان قد استخدم المنطق و منهجية العلم لتدليل صحة المعتقدات الإسلامية. و هناك تماثل آخر بين السيد أحمد خان و المعتزلة ، و هو أن المعتزلة كانوا قد استحوذ عليهم مبدأ الفلسفة التى حاربوا مكافحتها ، و هذا شأن السيد أحمد خان ، كان المعتزلة و المفكرون الأوائل قد قبلوا كثيرا من النزعات الفلسفية لليونان باعتبارها لا تعادى الإسلام ، كذلك قبل السيد أحمد خان كثيرا من النظريات العلمية الحديثة ، و معطيات العلوم التطبيقية باعتبارها تلائم المعتقدات الإسلامية ، و بتعبير آخر تخيل السيد أحمد خان أن ما علمه الإسلام قديما برؤية نظرية قد دلّله العلم الحديث تجريبياً و يدعى أن رؤيته للإسلام و للعلم رؤية علمية و موضوعية ، و قائمة على البحوث العلمية الهامة فى كلا المجالين ، و لكن بالعكس مما ادعاه هو الحقيقة التى لا تقبل الخلاف أنه كان مسحوراً و مفتوناً فتنة شديدة بازدهار العلم و تقدمه فى الغرب و على أساس معرفته القشورية بالعلم التطبيقى الغربى الحديث و بالمنهج الحديث إنه حاول تفسير المعتقدات الإسلامية طبقاً لما راه و عرفه - بصفة غير مباشرة - من النظريات و الاكتشافات العلمية الحديثة ، و معطيات المنهج التجريبى الحديث ، دون أن يشعر أن هاتين المعلمتين متباينتان فى الطبيعة و المغزى ، و أن أى محاولة مركزة حول التوفيق بينهما مالها الفشل ، و أكبر من ذلك أنه حاول تطبيق المنهجية القديمة لعلم الكلام فى جهوده لتوفيق العلم و الإيمان.

و يؤكد السيد أحمد خان أن الحاجة ملحة فى إحياء منهجية المتكلمين لمكافحة التيارات الهدامة و التحديات المعاصرة ، و يبالغ فى المثابرة لتطوير كلام جديد ، و من مولدات فكره أن المدرسية (الكلام) القديمة كانت لمجابهة العلم و الفلسفة اليونانيين ، و الآن انقرض عصرهما ، و بالتالى تدبر علم الكلام (المدرسية) القديم ، و كان السيد أحمد خان يهدف إلى تطوير علم الكلام الجديد للتوفيق بين الإسلام و النظريات المتجددة الوافدة من الغرب فى ساحة العلم و الفلسفة ، و كان العلامة شبلى النعمانى - مع خلاف يسير لآراء السيد أحمد خان فى الإصلاح ، و خلاف رئيسى فى اللاهوت - يحتفظ فى ذهنه بهذا الهدف ، و كلاهما كان متكلما و عقلانيا (بالمفهوم الحديث للكلمة) ، و كلاهما كان متأثراً من فلاسفة المعتزلة و منهجهم العقلانى ، و معرفة

Converted by Tiff Combine - unregistered

العلامة شبلي النعماني بعلوم الإسلام و بصيرته في التراث الإسلامي العظيم و التاريخ الإسلامي - السياسي و الحضاري - كانت تفوق معرفة السيد أحمد خان و بصيرته ، و لم يكن مبهوراً و مسحوراً بالغرب و فرانيه ، و على انه ألف كتاباً في نقد علم الكلام و المتكلمين ، لم يستطع إرساء مدرسة جديدة في علم الكلام ، و بالعكس من ذلك حاول السيد أحمد خان - على الرغم من إطلاعه القشوري على مناهج التفكير الغربي، لإعتماده على المصادر الثانوية - التوفيق بين تعاليم و معتقدات الإسلام و بين معطيات العلم الحديث ، و لم يشعر أن العشرات في هذا الطريق سوف تدعو مهاجمات و انتقادات بعنف بتأثيرها السلبي في دعوته الأساسية ، و كل من السيد أحمد خان و العلامة شبلي النعماني سلك نفس الطريق، و لكن اختلفت الجهات ، فكان شبلي النعماني يسافر نحو الشرق ، و السيد أحمد خان يسافر نحو الغرب ، و شبلي لم يعتبر المدرسية القديمة فارغاً غير مجدية ، أما السيد أحمد خان فاعتبرها لا تجدي نفعا و لا تحوي خيراً في العصر الحديث بالنسبة للمتطلبات، و شبلي يشعـــر بطاريتـــه بماضي الإســـلام ، و السيد أحمد خان يستوحي من الغرب و يتوخى إثراء الإسلام بالعلم الغربي، و شبلي - الرومانطيكي النزعة - يغوص تاريخ الإسلام و المسلمـــين و رصيد التراث المتجمل بالمعالي و المكرمات ، لإيجاد نبراس في المسلمين لإستعادة المجد الغابر ، أما واقعية السيد أحمد خان - التي تبلغ أحياناً مدى الإنتهازية - فتدفعـــه إلى أن يعقد اتفاقيـــة بتحديـــات الحداثة فـــي الفكر و الحضارة ، و يذعن للواقع أن المسلمين - و الشرق بصفة عامة - لا يسمح لهم بالبقاء و الإزدهار دون الإنصهار في الأعلى ، و الإنقياد للأمثل ، و تبني التقنية المتطورة للغرب.

و الإتفاقية التي أراد السيد أحمد خان عقدها في أوربا و موكبها المعرفي و الحضاري لم تكن تثير خلافـــات و شقاقـــات في أوساط الديانـــة و اللاهوت إذا لم تمس معالجات في الديانة و اللاهوت ، و كان يكفيه أن يفرغ جهوده في إيجاد شعور في المسلمين بالحاجة إلى القضاء على الإنعزالية الحضاريـــة ، و الاتكاليـــة المنفورة ، و مواصلة الجهود لإصلاح اجتمـــاع المسلمين و مجتمعهم و ما يتصل بشكليات و ظواهر متعلمنة غير متوشحة بمعتقدات الديانة ، و ليس هذا افتراضاً لا يؤيده التاريخ ، و حتى في قضية السيد أحمد خان كان عديد من معارضيه اللاهوتيين لا يخالفه في تزويد المسلمين بمعطيات في الثقافة و التعليم غير المتصلة بالعقائد و مناسك الديانة ، بل النقطة التي تمركزت عليها انتقاداتهم - بدون هوادة - هي انحرافـــه الفكري و العقيدي في نظرهم.

يقول العلامة شبلي النعماني في مفتتح كتابه *علم الكلام* مشيراً إلى آراء السيد أحمد خان ، بصراحة :

Converted by Tiff Combine - unregistered

" تعتقد طائفة من المثقفين المسلمين أن الحاجة ماسة في تطوير المدرسية (علم الكلام) من جديد على الأسس الجديدة ، لأن الشبهات التي أثيرت حول الإسلام في العصور القديمة تختلف عن الشبهات التي تثار الآن في العصر الحديث ، ففي القديم كان للإسلام أن يكافح الفلسفة اليونانية القائمة على ضروب من التخمين و الافتراض ، أما الآن فعلينا أن نواجه التحديات الذابعة من اليقينيات و الحقائق التجريبية ، و هي تحديات لا يمكن مواجهتها و مجابهتها على أرضية الفروض و الإحتمالات الفكرية.

و لكني لا أرى هذا الرأي صواباً ، فجزء من المدرسية التي تعد الآن فارغة لاتجدي نفعاً ، لم يكن لها نفع كبير في الماضي كذلك ، أما جزءها النافع المستخدم في الماضي فهو نافع و مستخدم حتى اليوم ، و سيبقى نافعاً جديراً بالقبول إلى الأبد."(١٠)

لأجل ذلك نرى العلامة شبلي النعماني يؤيد نظرية تطوير علم الكلام من جديد ، على الأسس القديمة و طبقاً لمقتضيات العقلية الجديدة و الرصيد الفكري الحديث ، و قد تركزت الجهود مثلها في مصر و سوريا و ايران و أخرى الدول الإسلامية لنفس العملية ، و في ذلك يبيّن شبلي النعماني وجهة نظره عن مثل هذه الجهود في كتابه " علم الكلام " :

" علم الكلام الجديد نوعان : نوع يمثل القديم في كل من البنية و الكيان و يعالج القضايا البالية التي جعلتها الأيام متاكلة مضلية ، بالبراهين و الأدلة التي طوّرها الأشاعرة المتأخرون. و النوع الثاني هو الذي يعالج القضايا و المشكلات الجديدة التي أبدتها المعتقدات الغربية و الفلسفات الجديدة ، و العلوم التطبيقية الحديثة ، و هي القضايا التي جعلت القراء يتصورون أن الحقيقة هي ما نطقت به هذه الفلسفات و المعارف الجديدة ، و هذا النوع الثاني من علم الكلام يفرغ جهوده لتفسير القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف-طبقاً لما أثيرت هذه الشبهات ، و داخل الاشتباكات و الارتباكات العقلية ، الأول تقليد أعمى ، و الثاني اجتهاد و مبادرات للتفكير الجديد ، لأجل ذلك تفاضيت أعمال كلا الطائفتين." (١١)

Converted by Tiff Combine - unregistered

كان السيد أحمد خان وحده هو الذى اعتقد للحقيقة تقصر فى المعتقدات الأوربية و أنها تجسد الصدق ، فلابد من تفسير القرآن الكريم و الحديث النبوى الشريف فى ضوء النظريات الجديدة و التصورات الحديثة الوافدة من الأوساط الغربية فى الفلسفة و العلوم الطبيعية و التطبيقية ، و مثل هذه المبادرات لتفسير المعتقدات الدينيـــة و على رأسها القـــرآن الكريم ، تسمى " التاويل " و هى صرف اللفة عن معانيها الظاهـــرة ، و لم يرض السيـــد أحمد خان بهذا الاتهام ، بل لم يزل فى تبرءة نفسه منه تماماً ، و لكن معارضيه بل و عدد من معاصديه كذلك مثل السيد الطاف حسين حالى (شاعر أردى كبير ذو رسالة إصلاحية) و السيد محسن الملك (خلفه فى مجلس الأمناء لكلية الإنجلو - محمّدية بعلى كره) اعتبروا معظم تفاسيره تاويـلاً محضـــاً . و العلامة شبلى النعمانى سماها مبادرات الإجتهاد الذى لم يخلص نفسه من تقليد الاتجاهات الأوربية و اعتبارها معياراً لازماً لصحة المعتقدات ، كان شبلى النعمانى متضلعاً متبحراً فى العلوم الإسلامية ، و كان يصوب انشطته للدفاع من حوضة التعاليم و المعتقدات الإسلامية ضد الإتجاهات الأوربية المعادية لها ، أما السيد أحمد خان فكان قد تعلم و تثقف على الفرار نفسه ، و لكن يجب أن نتصرح بهذه الحقيقة أنه لم يكن متبحراً فيها كما كان شبلى النعمانى ، و ثانياً كان السيـد أحمد خان مبهـوراً و مفتـوناً بأوربا و بكل ما هو أوربى ، و كان يعتقد أنه سوف يستطيع توفيق المعارف الإسلامية بالمعارف و المعتقدات الأوربية ، و اختلف نظره من نظرة الشيخ شبلى النعمانى بأنه فى دفاعه عن الإســلام و المعتقـــدات الإسلاميـــة كان قد أفرغ اهتمامه فى تعبئة و تاليف العلوم الغربية الحديثة بين أوساط المسلمين الجماهيرية ، و القارئ الذى يستطيع تمييز موقف المفكرين سوف يعرف بحق نقطة الانطلاق لكل منهما فى مبادراتهما الفكرية و مهمتهما للإصلاح ، و يكتب أحد من منتقديه فى مجلة " الوكيل " الصادرة من امرتسر، بقوله :

> " و قد تكلف (السيد أحمد خان) من غير ضرورة للتدخل فى الشئون الدينية و خلطها بالشئون الدنيوية ، و هذا ما جعلـه يستهـــدف لمقت المسلمين و الأوســاط الدينيـــة ، و النتيجة التى تمخض عنها هذا الوضع أن ثار خلافاً بين المسلمين ، معرقلاً لمهمته فى الإصلاح ، و السبب فى إخفاقـه هو تكلفـه و تسرعه و قلة تفكيره لما يكون للمبادرة من المعطيات فى المجتمع " (١٢)

و قد دافع السيد أحمد خان عن نفسه أن الإسلام لا يعترف و لن يعترف

Converted by Tiff Combine - unregistered

بالفصام النكد بين ما هو دينى و ما هو دنيوى ، و بين العلم و الإيمان ، و صرّح بأن المسلمين لا يبذلون أقل اهتمام فى دراسة المعارف الحديثة ، و تعلم لغات الأعداء (الأوربين) ، و لايبسطون أيدى الصداقة و الولاء اللازم ، و لا يميزون بين العناصر الصالحة فى منهجهم و فنهم التى لا تعادى الإسلام و الإيمان ، لأجل ذلك كانت الحاجة ماسة إلى تبصير المسلمين بمحتويات المعارف الحديثة و بمعطياتها فى الدين و الأخلاق ، يقول السيد أحمد خان :

" إما أن نعتقد أن جميع ما حوته هذه المعارف الحديثة مضاد للإسلام و تعاليمه ، و مع ذلك نعمل لتعبئة المسلمين بتعليمها ، و إذا اعتبرناها معارضة مضادة لتعاليم الإسلام و نعتقد أنفسنا مسلمين فطبيعى أن نستحق المقت إذا دعونا إلى هذه الأفكار اللاإسلامية و نقوم بنشرها فى المسلمين ، أما إذا اعتبرنا أن هذه المعارف الحديثة لا تعارض الإسلام فى جملة محتوياتها (و اعتبرنا كذلك لأنه يمكن أن نكون قد أخطأنا فى الحكم) ، فلا يفسد الإيمان و الإسلام أن نبرهن لها صحيحة و نعمل لتبصير المسلمين بهذه المعارف ، و نرغبهم لدراستها و تدريسها الشعب ، كيف يمكن أن نجتنب النفاق اللاهوتى إذا اعتبرنا أن أول خطوة يجب أن نخطوها للوصول إلى الغاية هى معالجة المشكلات بالرؤية الإسلامية ، و اعتقدنا فعلاً أن ما نقوم بنشره و الدفاع عنه هو فى توافق مع الإسلام و الإيمان الذى نؤمن به ؟ ." (١٣)

على أن السيد أحمد خان يعتبر النفاق و المعالجة اللاهوتية لازماً فى مبادراته ، و لكنه يحلها المكانة الثانية ، لأنها لا تشكل هدفاً من الأهداف التى يرمى إليها ، و غاية ما فيها أنها تدعم المسير فى المعالجة ، بانتفاع المسلمين من التعليم الأوربى ، فلم يؤكد فى مقالاته حتمية المعارف الحديثة و العلوم الأوربية التطبيقية مراراً و تكراراً. بل و اعتقد جازماً و أعلن إيقانه بأنها سوف تشكل دعماً كبيراً للقواعد الطبيعة التى يشيد بها الإسلام ، و هذا الإيقان البالغ شغل جهوده لتطوير علم الكلام من جديد ، يقول السيد أحمد خان :

" أرى من الطبيعة الناصعة أن علم الكلام كان قد طوره الأسلاف لمجابهة تحديات الفلسفة الإغريقية القديمة ، و هى لا قيمة لها و لا مناسبة بالتحديات التى تحدث بها الفلسفات و العلوم الحديثة فى العصر الجديد ، فيجب على العلماء و رجال الدين و متخصصى اللاهوت أن يفرغوا جهودهم

Converted by Tiff Combine - unregistered

لتطوير علم الكلام على الأسس و الدعائم الحديثة حتى يمكنهم مجابهته و مكافحة تحديات الفلسفة و العلوم التطبيقية الحديثة ، السائدة في عصرنا اليوم." (١٤)

كان يعتقد هو أن الهنادك لم يواجهوا هذه المشكلة لأن ديانتهم لم تعنى سوى مناسك في المعابد ، و طقوس في الأعياد ، دون أن تحكمها مبادئ خاصة و لازمة في الإيمان ، فلذا لم يهدد شيء هذه الطقوس و المناسك غير المدعمة بالمعتقدات اللاهوتية المتصلبة ، لم يكونوا يزعجهم التردد و الالتواء في الترحيب بالحديثة و الحداثة ، أما المسلمون فيختلف شأنهم من الهنادك ، و لذلك يلزمهم تفسير الديانة و المعتقدات من جديد و بأسلوب يلائم المصطلحات الحديثة (١٥) ، و هذا بعثه إلى التوجه بالمسلمين لمجابهة التحديات المتجددة ، و اتخاذ موقف ملائم و معقول من العلوم الحديثة ، كما سبقت قدوة الأسلاف تجاه الفلسفة اليونانية (١٦) ، أما المعارف - قديمة أو حديثة - فيلزم المسلمين التركيز عليها باعتباره عمل الخير ، و اعتبار الشئون الأرضية المادية عملاً من أعمال العبادة (١٧) و كان السيد أحمد خان يذعن أن تقدم المسلمين في المعارف الحديثة من الشروط الأساسية لخدمة الإسلام و نشره في العصر الحديث ، لأجل ذلك يوجه هو نقده اللاذع إلى رجال اللاهوت الأرثوذكس قائلاً إنهم يحاربون المعارف الحديث دون أن يتفهموا الواقع و يتبصروا الحقيقة ، و يؤكد إيقانه البالغ أنه لا خلاف بين الإسلام و تكريس الجهود لاقتناء السلطة و الشرف في الأرض. (١٨) و يرى أن تطور المعارف الدينية بجنب علوم العرب و الفلسفة اليونانية كان قد حوّجته حاجات الماضي و التاريخ ، أما المعارف الحديثة فهي كذلك يحوّجها الحال ، و مقتضياته في الفكر ، و الحياة ، و السياسة ، و الاجتماع ، و الحضارة ، لأن علوم العرب التي لاتزال المدارس الأهلية تدرسها من غير انقطاع ، قد فقدت قيمتها و صلاحيتها لمسايرة الحياة و الحضارة (١٩) ، و علم الكلام القديم كان نتيجة الغزو الفكري الإفريقي للمعتقدات و المؤسسات الإسلامية و الآيام جعلت متكلاً و ساقطاً ميتاً ، و الكلام (SCHOLASTICISM) المطور لمجابهته فقد قيمته في العصر الحديث (٢٠) ، و أعظم من ذلك أن المعارف الإسلامية و اللغات الإسلامية لم يقدر لها قيمتها و أهميتها السالفة في العصر الحديث و بين المعطيات الحضارية و الاجتماعية و المعرفية الحالية ، فلم يعد لها دور في التوظيف و حل مشاكل المعاش ، و اللاهوتيون الذين يتربون في المدارس الأهلية الملتزمة لا يعرفون سوى الاستجداء ، و الإتكاء على كواهل المجتمع ، و كان يعتقد أن حرية التفكير و التعبير لازمة أشد اللزوم لتطوير المعارف و الرصيد الفكري المتوارث من الماضي ، و لقلة هذه الحرية أو للعربيات كان الغزالي قد لقي منه اللاهوتيون أنه مبتدع ، و انتقدوا مؤلفات

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشاه ولي الله المحدث الدهلوي (١١١٤ - ١١٧٦هـ) انتقاداً فيه كل شيء الا العلم و البصيـــرة، و هذا الفـواء هو السبب الرئيسي لتخلف المسلمـــين (٢١) ، و لتجاهات التقليد الأعمى و الجمود الفكري الأســن أدت إلى انغمـــال بل تغيب روح المعرفـــة ، و التخطي للمزيد في العلوم و المعارف في العالم الإسلامي ، و يصرح السيد أحمد خان أن الحاجة ماسة إلى بعث روح الاجتهاد و التفكير الجديد في المسلمين ، و ذلك لأنهم سوف لا يحرزون شيئاً في مضمار التقدم إلاّ إذا تسلحوا بهذا السلاح ، و أن كل عصر و بيئة يحتاج إلى اجتهاد و رجال مجتهدين :

" إذا لم يكن بيننا رجال الاجتهاد ، فكيف يمكن أن نجد الحلول للمشاكل الجديدة ؟ هل يجوز أن نحيل القضايا المتجددة إلى المجتهدين في العصور التي لم تشهد هذه الأنماط من المشكلات ؟ فلابد من مجتهد في عصرنا اليوم." (٢٢)

حينما ظهرت كتابات السيد أحمد خان بدأ معارضوه يقولون بأن السيد أحمد ينتصب نفسه مجتهداً للعصر الحديث ، و يريد أن يعرفه الناس كمجتهد العصر و الزمان ، و يتضح أن السيد أحمد خان لم يكن أراد أن ينتصب نفسه مجتهداً ، و لكن بعض معاصريه و المنتصرين له أعلنوا عنه أنه مجتهد و مجدد بجدد الإيمان و الديانة ، و يظهر ذلك من ديباجة مجموعة كتاباته التي حققها و نشرها السيد محمّد إمام الدين الغجراتي ، و السيد أحمد بابا مخدومي ، و ألحقا بإسم مؤلفها : " المجتهد ، المجدد ، و زعيم الأمة و إمام العصر السيد أحمد خان ". و الحقيقة التي يدركها القارئ بدراسة مؤلفات السيد أحمد خان أنه كان يتميز بالاحتواء الفكري و روح الإجتهاد على الرغم من أن معاصريه من العلماء الأرثوذكس اعتبروه كافراً و ملحداً من الملاحدة القائلين بالطبيعية (NATURALISM) ، أما علمـاء العصـر الحـديث و رجال الدين فلا يرون في السيد أحمد خان كفاءة و جدارة للاجتهاد لسبب يسير و هو قلة تضلعه بالعلوم و المعارف الإسلامية ، و مهما اعتبروه جديراً و كفيئاً بالإجتهاد أو غير قمن به، لم يعد متنازعـاً بين إثنين أنه حاول لإحيـاء التعاليـم و المعتقدات الدينية في تفاعل بمقتضيات العصر الحديث ، و أدى ذلك إلى بعث جديد في الأمة لمبادرة الإجتهاد و الحاجة إليه في شبـه القارة الهنـدية ، و قد لاقت جهوده لتطوير علم الكلام من جديد و إحياء الديانة مجابهة من العلمـاء و رجال الدين لسبب هو كونه موضع شك لديهم ، و مع هذا الإخفاق في تحقيق غاياته في الإصلاح الديني ، فقد استطاع هو أن يوجد و دوافع قوية في قلوب المسلمين لمواجهة التحديات الأوربية في العلـوم و الآداب و الحضارات ، و استعادة هويتهم و مزاياهم المعرفية و الثقافية على

Converted by Tiff Combine - unregistered

الصعيد الدولي.

و رغبة السيد أحمد خان فى القضايا الدينية و شئون اللاهوت - كما أشرنا إليها آنفاً - لم تحتل المكانة الأولى فى رصيد الإصلاح المتمركز على نشر المعارف الحديثة فى المسلمين ، و طالما يختلف منتقدوه فى تفسير آرائه بهذه الزاوية ، لأنهم يعتبرون آراءه الدينية أساساً لبقية مبادراته و مشاريعه فى الإصلاح ، و يجب أن يبحث العلماء و المفكرون فى أن أولا انفماره فى قضايا اللاهوت ، هل كان السيد أحمد خان ليحرز النجاح فى مهمة إصلاحه للمجتمع الإسلامى ؟ و قد اعتقد السيد أحمد خان بإيقان بالغ أن المسلمين سوف لا يهتدون سبيلاً إلى التقدم و التخلص من مرابط التخلف و مهاوى الإنحطاط و الركود إذا بقى هذا الانفصام من المعارف الحديثة ، و كان يتيقن أن هذا التجافى المشئوم لابد من القضاء عليه بمبادرة التوفيق بين العلم و الإيمان. أما منهجية السيد أحمد خان لهذه المبادرة للتوفيق فهى واضحة جلية ، و فى متناول كل انتقاد و تعقيب ، و لكن لن يعد متنازعاً بين إثنين إخلاصه للمسلمين ، و الدافع الجياشة فى قلوبه لاستعادة مجد الإسلام و الحضارة الإسلامية ، و هناك جانب آخر مهم من شخصية و قد تخاطأها عامة معارضيه ، و هو حبه و تفانيه فى النبى صلى الله عليه و سلم ، فالحقيقة التى لا يتذكر لها حتى الأعداء أن السيد أحمد خان باع جزءاً كبيراً من أملاكه للدفاع عن شخصية النبى صلى الله عليه و سلم حينما استهدف المستشرق البريطانى سير وليام ميور (SIR WILLIAM MUIR) و شنّ هجوماً منيفاً لتشويه السيرة الطيبة ، فذهب السيد أحمد خان إلى بريطانيا ابتغاء مواد الدراسة ، و تجشم فى ذلك أنواعاً من المشاكل و المشاق ، و الحوادث الأخرى من حياته ترتبط بسخطه على الحكومة البريطانية ، فقد صرّح السيد أحمد خان بهويته كمواطن هندى ضد سياسة الإنجليز التمييزية و السلوك التمييزى للمسئولين الإنجليز فى مناسبات حكومية ، كما أبدى عن وجهة نظره المعاكسة ضد العمائد الإنجليز لكلية الإنجلو - محمدية بعلى كره (ANGLO - MOHAMMADAN)، و أحياناً كان يشدد فى ذلك ، و هذه الجوانب من حياته تبعد عن كل الاتهامات التى تصور شخصيته كرجل متوغل فى السيكوبانتية و الإنتهازية ، فبعد ثورة ١٨٥٧م لتحرير الهند - التى باءت بالفشل - ألف السيد أحمد خان كتابا فى تعليل أسباب الثورة ، و جعل المسئولين الإنجليز يرجع إليهم الفضل فى إلتهاب الثورة ، لأنهم اختاروا سياسة التمييز العنصرية و سياسة الكبت و القمع فى البلاد ، و خاصة مرّح بالإجراءات الظالمة و الاستبدادية ضد المسلمين فى الهند ، و بالتالى دفعت الآلاف من أشراف المسلمين و أكرامهم داخل الزنزانات الحديدية. و القارئ الذى يعرف هذه الجوانب المهمة من شخصية السيد أحمد خان لخدمة الإسلام و المسلمين فى شبه القارة الهندية ، و خدمة الوطن فى إطار شامل

Converted by Tiff Combine - unregistered

يستطيع تقدير القيمة لمآثره فى هذا المضمار، و لو لم يتجه السيد أحمد خان للمواصف الموجاء هذه داخل المجتمع الإسلامى فى الهند، لبقى المسلمون مغمورين فى الجهل و الأمية و التخلف و التبعية فى المعارف الحديثة و الأنشطة فى الدوائر السياسية و الاجتماعية الحديثة فى البلاد، كما هو الحال حالياً فى دول الشرق الأوسط الإسلامية، و كان يعتقد - محقاً أو مخطأً - أن لا سبيل إلى مواصلة مهمة الإصلاح و التقدم فى المجتمع المسلم فى شبه القارة الهندية إنا لم يتم التوفيق بين الإسلام و الغرب بتفسير التعاليم و المعتقدات الإسلامية من جديد فى ضوء العلوم و الفلسفات الجديدة، و على أن جهوده كانت تهدف إيجاد بحث فى المسلمين و إيقاظهم من السُبات الطويل الذى استغرق القرون، و من الفترة الدوغماتية المعقدة، و سقوط السلطة السياسية و الاقتصادية للمسلمين فى الشرق و خاصة فى الهند، كانت قد فصمتهم من موكب التقدم فى العلوم التطبيقية و الصناعات، و كانت سبباً فى تخلفهم التقدم المادى، و انسيابهم وراء الغيب و اللاهوت التقليدى غير الجدوى، و لم يستطع السيد أحمد خان إنجاز نجاح أكبر فى هذا المضمار، لكنه مهد سبيلاً لمفكرى الأجيال اللاحقة مثل الدكتور محمّد إقبال، و مولانا أبى الكلام آزاد، و مولانا محمّد علي جوهر، و هؤلاء المفكرون يمثلون منهج السيد أحمد خان و أهدافه فى الإصلاح.

يرى السيد أحمد خان أن الانصهار فى بوتقة الآخرة أو الغيب و تخاضى كل ما هو دنيوى لايوافق و لن يوافق روح الإسلام، فالإسلام يعتبر الشئون الدنيوية و المغامرة فيها بحق جزءاً من العبادة و الجهاد، فالدنيوى (MUNDANE) و الأخروى (PROFANE) متلاحمان غير منفكان فى الإسلام و حياة المسلمين، و لن يقرر الإسلام أن الاشتغال بالدنيا يعرقل ممارسة الروحانية، كذلك لا يعد الإسلام خطأ فاصلا بين العلوم الدينية و المعارف الدنيوية التطبيقية و النظرية، و الفصام الذى نجده فى المسلمين بينهما هو وليد عصور الانحطاط و الأذهان المغلقة و المجتمعات المتزمتة، و أهواء رجال الكهنوت و اللاهوت، فلا العلم يمكن فصله عن العمل، و لا هو متجزء فى الدينى و الدنيوى، و جملة أنماط العلم مفيدة و مدعمة للنشوء الروحى للإنسان، و كان السيد أحمد خان فى خبرة بالغة بأن العلوم التطبيقية أخذت فى التطور و التقدم بعد أن حررت نفسها من براثن الكنائس و اللاهوت، و أفرغت جهودها لعلمنة (SECULARIZATION) المعرفة، و كان يعرف تماماً أن المعرفة الصحيحة لا تعارض الإيمان و لا تعادى المعتقدات الدينية، مع أن بعض المحتويات العلوم الحديثة تعادى المعتقدات الإيمانية، و مناهيك الديانة، و تتفق رأيه مع المستر هنتر (W. HUNTER) أن الديانات الشرقية لا تستطيع عقد التفاهم بالكتشافات العلوم الحديثة، و لكنه كان يعتقد جازماً بأن الإسلام كدين الطبيعة يختلف عن أخرى الديانات

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشرقية و الغربية ، و أن مواقف الإسلام و معتقداته سوف تعاضدها و تؤيدها المعارف الحديثة بله أن تعارضها و تؤمنها . و هذا الإيمان الغامر في قلبه و عقله دفعه إلى تفسير المعتقدات الدينية الإسلامية في ضوء العلم الحديث ، و لم يشعر السيد أحمد خان بحكم إطلاعه القشوري على الفكر الأوربي أن الفيلسوف الألماني الشهير إمانويل كانط (IMMANUEL KANT. 1724 - 1804) قد فنّد التوفيق بين العلم و الإيمان ، و الفلسفة تعتبر هذا التوفيق ماله الفشل ، و تشبثت الأوساط الأوربية بهذه المنهجية في التفنيد. و السيد أحمد خان في تحمّسه للعلوم التطبيقية كان متهيئًا لقبول أي نظرية علمية باعتبارها في اتساق بالمعتقدات الإسلامية التي اعتبرها علمية في البنية و المغزى ، و هذا يدلل نظرته الخاطئة تجاه الديانة و العلم الحديث على السواء ، و في محاولاته لتقريب المسلمين و تدثيرهم بالعلوم الحديثة كان يرى من اللازم تجسير الشقة بين المسيحية و الإسلام ، و ساهم في ذلك بتاليف تفسير للأناجيل و القرآن ، و كانت هذه مبادرة خاطئة ، فالعلم و الإيمان مؤسستان متباينتان ، و من الخطأ أن نتصور أن إحداهما تدلل خطأ أو صواب الأخرى في معتقداتها و نظرياتها . أما المحاولة للتوفيق بين ديانتين و تجسير الشقة بينهما فيمكن أن تنال حظاً من النجاح ، و لكن المسلمين كانوا يعتبرون المسيحيين موضع الارتياب إلى أحد لا يصغون إلى مثل هذا النداء ، بحكم الرصيد التاريخي الهائل من العصبيات و الخلافات التي رصدها المسيحيون ضد المسلمين ، فتمخضت هذه المحاولة عن النتائج المعاكسة ، لأن المسلمين رأوا فيها تنصيرهم و إبعادهم من الإسلام ، و اتهم الناس بالإلحاد و ممارسة المذهب الطبيعي ، و بذلك انخفض مكانه بين المسلمين و المسيحيين على السواء ، فلم يرحب المسلمون بشخصيته و لا بمهمته في تزويد المسلمين بالعلوم الحديثة.

٣- آراءه في اللاهوت و منهجيته في التحليل :

كتابات السيد أحمد خان في الديانة و اللاهوت تحمل في مجموعة مؤلفاته إسم " *البحوث الفلسفية* " و الفلسفة ـ في منهجيته لها ـ لاهوت ديالكتيكي جديد ، و على أن نظرته لاقت هجوماً عنيفاً من المفكرين ، فقد مهدت ـ بلا جدال ـ السبيل للتفكير الجديد بين مسلمي شبه القارة الهندية ، بإحتضاء المكافحة الدؤوبة للعلوم و إجتذابهم إلى التعليم الأوربي ، و مهما وجّه إليه من النقد والتعقيب ، لم يعد متنازعاً بين منتقديه و منتصريه على السواء أنهم انتفعوا من مهمته و دعوته المركزة حول ملئ تجافي المسلمين من المعالم الحديثة في العلم و الحضارة ، و لا يمكن أن تصور بروز عمالقة و أفذاذ مثل المولانا محمّد علي جوهر، و الدكتور محمّد إقبال ،

Converted by Tiff Combine - unregistered

و المولانا أبى الكلام آزاد ، و السيد أبى الأعلى المودودى بل و كثير من العلماء الأرثوذكس فى عصرنا الحديث فى معزل عن التأثير الذى مارسته دعوة السيد أحمد خان الإصلاحية فى التعليم ، و الخطوط التى تطورت عليها عقلية المسلمين فى الهند و باكستان و بنجلاديش ليست - و لم تكن - فى معزل عن التفاعل اللازم بها.

أما المعتقدات الأساسية للإيمان فلم يكن تفسير السيد أحمد خان لها يحيد عن المنهجية و المعالجة التقليدية للإسلام ، و الخلاف الناشىء بينه و بين العلماء و رجال الدين يرجع فى أصوله إلى بعض الفروع من القضايا مثل : العلة ، و الوحى، و المعراج ، و حشر الأبدان ، و الساعة ، و الملائكة ، و الجحيم، و الجنة ، و الشيطان ، و الجن ، و طبيعة الوحى ، و التجربة الروحية ، و فيما يتصل بوجود البارى تعالى و صفاته ، و الجبر و القدر ، و التنزيه ، و التشبيه ، و التجسيم ، فموقفه منه نفس الموقف الذى اتخذه أقطاب الاعتزال فى تاريخ الإسلام. و النمط الثالث من القضايا التى تعالجها كتاباته ، يتصل بميدان المناظرات و التنفيهات الجدلية ، إما بصورة تذكير العلماء الأرثوذكس الذين شمروا عن ساق الجد لمجابهته ، أو تفنيد اعتراضات اللاهوتيين المسيحيين و المستشرقين (ORIENTALISTS) ضد الإسلام و مؤسساته ضد السيرة النبوية العطرة. و بالجملة إن كتابات السيد أحمد خان يغلب عليها طابع المناظرة و التفنيد الجدلى فى طبيعتها مهما كانت تتصل بمؤسسات الإيمان ، أو فروع المسائل ، أو تفنيد معارضيه ، فهو أقرب إلى الاسكولائى (SCHOLASTIC) منه إلى الفيلسوف ، و أشبه باللاهوتى منه بالباحث المتحرر من العقل.

يبدأ السيد أحمد خان بعدة مؤسسات ، فيعتقد أن الديانة كلمة الله ، و الطبيعة فعل الله ، فهما شىء واحد فى البدية و الأصول ، و هذا الاعتقاد لاينطبق إلا على الإسلام الذى هو وحده دين الطبيعة ، و يرى أن النبوة ليست سوى نتيجة طبيعية لما بينه من الاعتقاد السالف ، و الطبيعة لا تنتخب النبوة و الأنبياء بصورة عشوائية و طريق تلقائى محض ، بل الأنبياء تزودهم الطبيعة كفاءات خاصة و جملة أوصاف الخير، فهم أكفياء لأن يتحملوا لمسؤليات النبوة (٢٣) ، و يعتبر الوحى ملكة خاصة ، و بالتالى يفسر شخصية جبريل لنه ليس كائناً خاصاً وجودياً يحمل رسالة الرب إلى الأنبياء ، بل إنها هو رمز للملكة الخاصة التى يتميز بها الأنبياء، يقول السيد أحمد خان :

> " *لا واسطة بين الله و الرسول ، سوى الملكة الخاصة للنبوة التى نعنيت بالملك جبريل فى لغة الشرع.، و قلب النبى مرآة ينعكس فيه النور الإلهى ، و هذه الملكة الداخلية تحمل رسالته إلى الله ، و تتلقى كلمة الله.*" (٢٤)

Converted by Tiff Combine - unregistered

و باعتبار الوحي ظاهرة طبيعية يرى السيد أحمد خان أن كل شيء متزود بهبة الملكة في اتساق بالصلاحية التي يملكها كل شيء للاقتباس ، و يصر على أن كل شيء و كل ظاهرة من ظواهر الوجود تتلقى الوحي الذي يعني تلقي النماء الداخلي للوجود ، فيعتقد أن هذا الوحي الذي لقن كالفن (CALWIN, 1509 - 1564) و مارتن لوثر (MARTIN LUTHER, 1483 - 1546) للاحتياط من السنن القديمة ، و صرف كيشاب تشاندرا سين (KAYSHAB CHANDRA SEN) إلى الله ، و أرشد السوامي دياناند سرسوتي (SWAMI DAYANAND SARASWATI) إلى أن يجهر عبادة الأصنام ، حتى إن هنهاً كذلك يتلقى الوحي (٢٥) ، و الوحي - في نظره - إرشاد و توجيه إلهي يرثه الإنسان في طبيعته ، و انقطاع الوحي يرادف انقطاع التوجيه الإلهي ، و لكنهم - مع ذلك - يعتقد جازماً أن ختم النبوة صحيح ، و أن ذلك لا يؤدي إلى انقطاع التوجيه الربانى (٢٦) ، و يرى أن المكاشفة أو التجربة الدينية الروحية عملية نفسية خاصة (٢٧) ، و هي تختلف من الوحي و الإلهام ، و في نظره لأجل أن الوحي ظاهرة طبيعية فالتشريع الإسلامي الذي يخطط الأوامر و النواهي هو طبيعي كذلك (٢٨) ، و الطبيعة الإنسانية التي تتلقى الوحي أو التوجيه الإلهي هي العقل نفسه ، فالعقل طبيعة و ظاهرة طبيعية على السواء (٢٩).

و يعتقد السيد أحمد خان كالمطلب الأمتزال في تاريخ الإسلام أن الإيمان بالله يجب أن يؤسس على العقل و الأسس العقلية ، فلا يقبل موقف الأشاعرة أن الخير و الشر يتوقفان على الإرادة الإلهية ، و أن أوامره - تعالى - هي التي تحدد الخير و الشر، فكله أمر تلقائي ، و يوضح أن الأوامر الإلهية في انسجام مع معطيات العقل ، فهي صحيحة و معقولة (٣٠) ، و لما أن قوانين الطبيعة كذلك قد أوجدها الله فلا تعارض بين الطبيعة و العقل و لا يتصور تعدد السلطة الإلهية بتصور شريعة العقل و قوانين الطبيعة في أي حال ، و لا تبديل في شريعة العقل و قوانين الطبيعة ، لأن ما يفعله الله هو قانون (٣١) ، و على هذا يؤسس تفنيده لما شاع من المعتقدات في المعجزات و الظواهر ما بعد الطبيعية ، و يعتقد أن الخوارق أو المعجزات كذلك تحكمها شريعة العقل ، و يفند فكرة ما فوق الطبيعة ، و يعالج مثل هذه القضايا في غير موضع (٣٢) ، و بهذا يختلف موقفه من موقف الشاه ولي الله المحدث الدهلوي رحمه الله (٣٣).

و في تحمسه لمبادرة التوفيق بين الديانة و العلم الحديث يتخطى السيد أحمد خان حدود المعقول ، و من أمثلة ذلك أنه يعرّف الروح أو النفس كجسم لطيف و جوهر مستقل (٣٤) ، بجنب هذا الاعتقاد أن الروح أمر إلهي كذلك ، لعله لم يدرك أن تعريفه للروح سوف يدفعه إلى شفا المادية المذهبية أو المذهب الطبيعي الجامح ، و في تفسيره لسورة يوسف ، نجده يفسّر الرؤيا

Converted by Tiff Combine - unregistered

طبقاً لأصول التحليل النّفسي الحديث ، فهو يعتبر الرؤيا تعبيراً و تبلوراً للأحوال الذهنية و الأمانى التى ينزع إليها الإنسان (٣٥) ، و كذلك تفسيره للعرض و الصعوبات يخالف مذهب المسلمين و المعتقدات السائدة ، مع اتساق بمنهجيته الطبيعية المغالية (٣٦) ، و يؤمن هو بالآخرة (القيامة) و لكنه يقول إن الموت قيامة لكل إنسان ، و كل من مات قامت قيامته ، و يفسّر الحشر و آياته بأسلوب يقرب من المنهج العلمى (٣٧) ، و لا يقبل النظرية أن الأجسام الميتة سوف تحشر من القبور (٣٨) ، و يؤكد إيمانه بحشر الأجسام كذلك (٣٩) ، و لكن باعتقاد أن الحياة بعد الموت تكون بدون الأجسام (٤٠) ، و الجنة و النار ليس لهما وجود زمكانى (SPATIO - TEMPORAL) ، و لا نعيم الجنة و عذاب النار يحمل الطبيعة المادية ، و يقول إن الجنة تمثل أرفع درجات السرور الروحى (٤١) ، و فى مسألة الحشر جزئياً و مسألة الجنة و النار كلياً نجد الدكتور محمّد إقبال يتفق ما ذهب إليه السيد أحمد خان ، و لكن العجب العجاب أن الدكتور إقبال لم يستهدف لقت المسلمين لتبنى " المعتقدات المبتدعة " كما استهدف السيد أحمد خان ، و السبب فى ذلك أن إقبال قد أسس تفنيده على الدعائم الدينية ، أما السيد أحمد خان فيبقى موضع ريبة فى أنظار متزمتى العلماء ، و هذه المسألة نجيرة بأن تعالج بتفصيل أكثر من هذا. و السيد أحمد خان كذلك ينكر المهدى الموعود (٤٢). هذه و أمثالها من التصورات و المعتقدات يمكن أن نحيلها إلى إتجاهاته ذات المذهب الطبيعى ، و قد فسّر المذهب الطبيعى كشريعة الناموس الإلهى ، فلا يصح أن نجعل مذهبه الطبيعى مرادفاً للمادية أو الإلحاد ، و على كل حال فقد ارتكب السيد أحمد خان خطأً كبيرا فى تسويته للمذهب الطبيعى بالإسلام و فى تصوراته الغافلة عن الإسلام و العلم على السواء.

و تسوءُ بالُ ستن الأرسطاطاليسية يرى السيد أحمد خان أن الله هو العلة الأولى و علة العلل و واجب الوجود (٤٣) ، و هو فى نفس الوقت العلة النهائية ، و يرى أن البرهان الكونى لإثبات وجود الله (COSMOLOGICAL ARGUMENT) هو برهان أشمل ، إضافة برهان الغاية (TELEOLOGICAL ARGUMENT) و أن الطبيعة محكومة بإله يفرض عليها شريعته و قوانينه (٤٤) ، فلم يكن فى حيرة بالاتجاهات الحديثة فى الفلسفة فى أوربا ، و أن كبار الفلاسفة أمثال "أمانويل كانط" قد لثبتوا بعدم كفاءة هذه الأدلة الكونية و الغائية لوجود الله ، و حتى فى عصرنا هذا ينزع المفكرون الإسلاميون إلى الاستناد إلى هذه الأدلة التقليدية غير آخذين فى الاعتبار أن وجود الله فوق أدلة العقل و المنطق و العلوم ، و أن سلطة الديانة فيرٍ سلطة العقل و العلم ، و قد اعتقد السيد أحمد خان وجود الله على أس هذه البراهين ، لأجل ذلك استهدفه السيد محسن الملك بانتقاد فى إسلامه العقلانى ، و هذا الانتقاد ملائم للمعالجة الحديثة للديانة ، يرى محسن الملك أن

Converted by Tiff Combine - unregistered

إله الفلسفة غير إله سيدنا محمدٍ صلى الله عليه و سلم ، و يقول :

" إذا كان إله داروين و هيجل يدعى في لغتهما FIRST CAUSE "علة العلل" بالعربية ، (CAUSE OF THE CAUSES) فهذا الإله ليس له كفاءة و لا أهمية بالنسبة لنا نحن ، فلا هو خلق شيئاً بإرادته و مشيئته و لا كان يمكنه هذا العمل ، و لا هو رب الأشياء ، و لا يستطيع ممارسة أي تأثير عليها ، و لا يعرف شيئاً و لا يصغى إلى شيء ، فلا هو قاضي الحاجات و لا مستجيب الدعوات ـــ " (٤٥)

و يظهر أن محسن الملك كان أعرف بالفلسفة و قضاياها من السيد أحمد خان لها ، فإله الإسلام ـ تعالى ـ حقيقي للغاية ، واجب وجوده ، في حين نجد إله الفلسفة و أنظمة لبعض العلماء الطبيعيين له أهمية أقل و أقرب إلى الافتراض ، أو القاعدة ، و الإيمان بالله الذي تقرره الديانة يقوم على دعائم النداء الداخلي الذي هو وراء العقل و العقلانية ، و يقول محسن الملك بحق أن العقل لا يجوز الاستناد إليه إلا في مرحلة خاصة ، و يفقد جدارته بعدها (٤٦) ، و على المرحلة المذهبية الروحية الصحيح الجدير بالاستناد إليه هو التجربة الوجودية أو الروحية ، و الذي لم يعرف هذه التجربة ، فهو إما أن يؤمن بالله بصفة دوغماتية ، أو يلحد فيه مشوشاً ، و لا يمكن تقديم أو تصور دليل له أو عليه ، و الفيلسوف الدينماركي الشهير سورين كركيجارد (SOREN KIERKEGARD , 1813 - 1855) ، و الفيلسوف الألماني امانويل كانط قبله ، كانا قد توصل إلى نفس النتيجة ، أما السيد أحمد خان فبقي مشدوداً في الاتجاهات المدرسية للعصور الوسطى التي اعتقدت في العقل كفاءة للتدليل على قضايا الديانة و اللاهوت ، فلم يقدر لهذا النمط من التفكير سوى الفشل في مجابهة موكب المعارف الحديثة ، و يتضح فشل السيد أحمد خان في هذا التفكير في أجوبة بعث بها إلى السيد محسن الملك الذي كان قد سأل منه الإجابة عليها :

١- هل تستطيع التدليل على أن معتقداتك في انسجام بقوانين الطبيعة ؟

(يجيبه السيد أحمد خان بالإثبات)

٢- هل تؤيد آراءك المعارف الحديثة ؟

(الإجابة بالإثبات أيضا)

Converted by Tiff Combine - unregistered

٣- لثبت أن الله باريء و رب الكون مستدلاً بأدلة الفلسفة الحديثة.
(يجيب السيد أحمد خان : لاشك فيه)

٤- قدّم وهات بأدلة الفلاسفة المعاصرين في مساندة الإيمان بالله و أنه خالق ، و قوي ، و عليم و خبير.
(يجيب السيد أحمد خان : لست في حاجة إلى مثل هذه الأدلة (٤٧)')

يتبين القارئ في هذه الأجوبة أن في السؤالين الأولين يتخذ السيد أحمد خان موقفاً مقنعاً ، أما الأجوبة للأسئلة سواهما فهي تنفي عنه صبغة العقلانية ، و كما يقول الفيلسوف كارل بوبر (KARL RAIMUND POPPER b. 1902) كل من العقلانية و التجريبية مؤسس على الافتراضات ، و يؤيده ما أجاب به السيد أحمد خان ، و بذلك يتضح ضعف ثقته و إطلاعه على العقلانية المطورة في العصور الوسطى ، و عدم اطلاعه على الفلسفة و المعارف الحديثة ، و هذا الاتجاه يعود تفكيره الديني في محاولته لربط عقلانية المعتزلة بنظرة وحدة الوجود العالمية ، فيرى أن الله هو عين الطبيعة ، لأجل توفيق قوانين الطبيعة بالوجود الإلهي. (٤٨)

و قد دعى السيد أحمد خان " وهابيا " (سلفيا) لتفنيده نزعة التقليد، و كان يعتقد أن التقليد يدفع المرء إلى التسوية بين النبي صلى الله عليه و سلم و بين الآخرين من العلماء في النبوة و بتعبير آخر : التقليد شركة في النبوة (٤٩) ، فلم يكن يخالف إتباع أحد من الأئمة في الفقه ، فحسب ، و إنما ينتقد الفقه و منهجية الفقهاء منه ، و كان يعتقد أن المقبول من الفقه هو ما كان منسجما بالقرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة ، الثابتة بالأسناد القوية ، و ما كان يؤيده العقل الإنساني ، و تدلله البراهين العقلية (٥٠) ، و ناقش مشكلة حجية الحديث ، و مكانة الحديث في التشريع و الاجتهاد ، في غير موضع من مقالاته ، و تفسيره للقرآن الكريم ، و منهجية المعالجة التي اختارها هو جدلية الطابع و منهجية المتكلمين ، و قد حاول في إخفاق ، بعث عقلانية المعتزلة ، و هذا شيء حاوله العلامة شبلي النعماني كذلك ، و لكنه بتأكيد يختلف في بنيته و مغزاه من تأكيد السيد أحمد خان.

يحيل السيد أحمد خان إلى مفكرين بصفة خاصة ، و هما الغزالي (المتوفى ١١١١ للميلاد) و الشاه ولي الله الدهلوي الهندي ، و الأول لم يعتبر عدم التقليد اجتهاداً من سنن الهدى في الإسلام ، و فعلاً حاول لتفسير و تكوين المبادئ الإسلامية من جديد (٥١) أما الآخر (الشاه ولي الله الدهلوي) فتركزت محاولاته لإحياء روح الاجتهاد ، وليس من العجب أن الدكتور محمد إقبال كذلك كان يحيل إلى هذين المفكرين لتكوين الفكر الإسلامي من جديد ، وجّه إلى كل منهما نقداً لأنهما أخفقا جهودهما في إحياء الاجتهاد

Converted by Tiff Combine - unregistered

لمواضع الضعف في المنهجية ، و قد عمل السيد أحمد خان لترجمة و تلخيص و تفسير بعض أعمال أبي حامد الغزالي باللغة الأردوية ، لسبب يسير هو أنه وجد فيها ما يلائم ذوقه و منهجيته ، و لكن يبين في غير موضع أن الغزالي لم يستطع تحرير نفسه من التقليد (٥٣) و يعتقد أن منهجية الغزالي - في جملتها - في معالجة الإيمان منهجية غير تقليدية في جرأة بالغة (٥٤) و أعد موجزا من " *المنقذ من الضلال* " للغزالي باللغة الأردوية ، و قد قال فيه الغزالي إنه شك أول مرة في صحة المعرفة التي تحصل بواسطة الحواس ، ثم شك فيما يعرف بالعقل ، و شعر أخيراً بأهمية و مكانة التجربة الروحية الصوفية. أما السيد أحمد خان فقد حصن نفسه في تفكيره بين الحواس و العقل ، و لم يعترف بأهمية و مكانة التجربة الروحية الصوفية ، و قد تعددت الأوساط الدينية الأرثوذكس لتأليه الغزالي لمجرد معارضته للفلسفة ، أما شكه و نزعاته الحكمية فلم يفطن لها العلماء الأرثوذكس ، بل تغاضوها في غالب الأحيان، و يميل السيد أحمد خان إلى جوانب شخصية الغزالي التي شككت الحواس و العقل ، و جعلت العلم المتلقى بها موضع ريبة و تشكيك ، و لكنه لم يستطع فهم نفسه من عقلانية العصور الوسطى و تجويفه منها كاملاً .

أما منهجية الشاه ولي الله الدهلوي في الإيمان فكان يغلب عليها طابع العقلانية ، بجذب نزعة التوفيق بالتصوف الذي لم يهجره البرهة ، و هو ينتمي إلى سلسلة الشيخ أحمد السرهندي الذي هو " متصوف - لا - متصوف أرثوذكس " و يرى السيد أحمد خان أن الغزالي في " *إحياء علوم الدين* " و الشاه ولي الله الدهلوي في " *حجة الله البالغة* " إنهما يرفعان لواء الاجتهاد ، و يثني عليهما لتفسير الإسلام في ضوء المعرفة المواتية في عصورهما ، و السيد أحمد خان إذا كان ينزع لإرواء تعطشه للتفكير الاعتزالي فكان يناسب له أن يختار منهجية ابن سينا - (٩٨٠ - ١٠٣٧م) و ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨م) و الفارابي (٢٥٧ - ٣٣٩ هـ/ ٨٧٠ - ٩٥٠ م) ، و لكن العجب لمه نزع إلى الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م) و الشاه ولي الله الدهلوي ، و لا نجد في كتاباته إحالات إلى ابن رشد الذي دافع عن الفلسفة و الفلاسفة بعد هجوم الغزالي عليها و عليهم بعنف للقضاء عليها و عليهم ، و هذه ظاهرة من ظواهر تحمس السيد أحمد خان للدين أكثر من تحمسه للفلسفة ، فطبيعي أن لا يقرب من الفيلسوف بل يبقى متكلماً كالآخرين من المتكلمين ، و لقلة رقيته في التفكير الفلسفي لم يقدر هو على تبيين مواضع الضعف في فكر الغزالي ، و الدهلوي ، و التي عرفها الدكتور محمد إقبال ببصيرته النافذة وتفكيره العميق ، و منهج السيد أحمد خان لاهوتي النزعة و مدرسي الطابع، الذي يهدف تجريف العصبية في المسلمين ضد العلوم الغربية الحديثة ، و توفيق الإيمان بالاكتشافات الحديثة و النظريات العلمية المتطورة قصد التجسير بينما على الفجوة للتطاولة ، و استهدفت جملة

Converted by Tiff Combine - unregistered

محاولاته تشجيع المسلمين لتعلم المعارف الحديثة ، و قامت المحاولة على خليط مزدوج من التصوف ، و الاعتزالية ، و " التفسير التجديدي الدهلوي " للديانة برؤية سلفية جادة.

و يرى السيد برهان أحمد الفاروقي أن التأثير السرهندي دفع السيد أحمد خان إلى أن يعتبر التصوف هدفه هو تزكية النفس و تزويدها بالفضائل و تفسيلها من الرذائل ، و لا يتأتى ذلك إلا طبقاً للسنن المحمدية و الشريعة ، و قد أكد الشيخ السرهندي أهمية الحديث ، و بالتالي وجوب الاهتمام إلى استعراض التراث الحديث قصداً لتمييز الصحيح من السقيم، و بالغ السيد أحمد فيه إلى مدى دفعه إلى رفض مكانة الحديث كمصدر للتشريع و الاجتهاد في شئون الدين ، و اعتبار القرآن المصدر الوحيد للاجتهاد و التشريع ، و بذلك يتضح أن السيد أحمد خان ينتمي إلى المدرسة الفكرية التي أسسها السرهندي و التي بلغت أوجها في السلفية التي قام بتطويرها ولي الله الدهلوي ، و لكن هنالك فرق كبير بينه و بين أقطاب هذه المدرسة الفكرية ، فقد تركزت جهود الشيخ السرهندي و الشاه ولي الله الدهلوي و السلفيين حول إنقاء الإسلام من العناصر الأجنبية التي التصقت به في حساب التاريخ ، أما السيد أحمد خان ، فأفرغ جهوده لزرع الرؤية العلمية الجديدة و حقن الاكتشافات العلمية الحديثة في جسد الإسلام ، فحين كان أسلافه يهدفون تأسيس الإيمان على الأرضيات الإسلامية الخالصة من الشوائب ، كان السيد أحمد خان يهدف إرساء المسلمين من جديد في المجتمع على أسس العلوم الغربية الحديثة.

و لم تكن مهمة السيد أحمد خان لتحرز إلا نجاحاً متجزءاً بحكم رؤيته الجديدة للدين ، فقد استطاع أن يخلق جواً لتقييم المعتقدات السائدة في ميزان العقل و الواقع ، و تمهيد الخرافات و الخزعبلات من المناسك العقيدية للعبادة و التعبد ، و خاصة في شبه القارة الهندية ، و لكنه تخطى كل حدود العقل و الواقعية لنسج و ترقيع التصورات العلمية و الاكتشافات الجديدة في كساء الإسلام ، و في ذلك باءت محاولاته بالفشل ، و في نظري هناك سببان لإخفاقه ، السبب الأول : إخفاقه في الشعور بالخلاف في منهجيته الديانة و ساحتها ، إضافة لنفس الخلاف في حقول الفلسفة و العلوم التطبيقية الحديثة ، و تطبيق منهجية بعضها في البعض الآخر ، و نتائج بعضها على البعض الذي لا تضارعه في النوعية و الكيان ، و السبب الثاني : خوضه فروع المسائل و تفسيرها بطريق لا يرضاها العلماء و أوساطهم المتزمة ، في جنب تفسيره للأسس و المبادىء ، فقد أخطأ السيد أحمد خان في منهجه حينما تركزت جهوده حول فروع المسائل التي أثارت خلافاً حاداً بينه و بين العلماء ، و لم تكن هنا أي حاجة إلى مثل هذا الخوض في الجزئيات ، و مع ذلك كله فقد استطاع هو أن يمهد سبيلا تسلكه الأجيال القادمة من المفسرين للقرآن

Converted by Tiff Combine - unregistered

و مبادئ الإسلام ، و لذلك عم هذا الشعور في المفسرين أن تفسير القرآن الكريم في ضوء الإكتشافات و النظريات العلمية الحديثة سوف لا يتمخض إلاّ من نتائج سلبية معاكسة ، خطرة لمبادئ الدين و المعتقدات الدينية ، كما شعر بها فعلا مولانا أبوالكلام آزاد الذي انتقده بعنف لمثل هذا الإتجاه و لستنكره بشدة (٩٦). و على أننا نصادف تأثير السيد أحمد خان في كتابات عدد من المفكرين و الكتاب في الهند (مثل الدكتور محمّد إقبال ، و السيد نياز الفتحپوري) إلا أنهم لم يستحوذهم هذا النمط من التفكير ، و يظهر أن الدكتور محمّد إقبال يتفق معه في قضايا عديدة مثل الجنة و النار و القيامة و الوحي ، في كتابه "*تجديد الفكر الديني في الإسلام*" (RECONSTRUCTION OF RELIGIOUS THOUGHT IN ISLAM) و لكن شخصيته الفذة كبطل القضية الإسلامية و قضية المسلمين جعلت تأثير السيد أحمد خان عليه يمحّي و يقتمره التعتم ، في أعين المنتقدين ، لسبب بسيط هو أن كتاب الدكتور محمّد إقبال كان باللغة الإنجليزية ، و لم تعرفها أوساط العلماء و رجال الدين في شبه القارة الهندية آنذاك حتى موته ، أما السيد نياز الفتحپوري فاعتبرته أوساط العلماء مبتدعاً ، و تفاعلت كتاباته بصفة عامة باستثناء تعقيبات متفرقة و مفاجأة من مولانا عبدالماجد الدريابادي ، (عالم و مفسّر للقرآن من العلماء الأرثوذكس).

و برز السيد أحمد خان بدعوته في زمن كان المسلمون بعموم و العلماء بخصوص قد اعتبروه موضع شك لإحلال التعليم الأوربي محل التعليم الديني في المسلمين ، و تفسيره للجنّ و الملائكة و رفضه للمعجزات و الخوارق أثارت خلافاً من كبار العلماء و المفكرين مثل السيد جمال الدين الأسدابادي أو الأفغاني ، و يعاهم إلى أن يسموه ملحداً من الملاحدة الدهريين ، بل و عدد من أصدقاءه لم يتفقوا معه في تفسيره للقرآن الكريم ، و فضلاً من السيد محمدن الملك الذي خالفه بشدة في تفسيره ، نجد السيد الطاف حسن الحالي (شاعر أردي كبير و مصلح اجتماعي و ناقد شهير) يقول :

> "*إن السيد أحمد خان كان قد تجاوز الاتزان في تبرير مواقفه و تسويغ آراءه بدون فوائد*".

و بين خلافه معه بوضوح و الجدير بالذكر أن السيد الطاف حسين الحالي كان يقمره الهالين بالتفسير التقليدي للإسلام ، و لما ألف سيرة السيد أحمد خان بإسم "*حياة جاويد*" اتخذ موقف الاعتذار من جوانب شخصيته الدينية و آراءه في الدين. و قد صرّح بعض العلماء بأن موقف الحالي من تلك الجوانب كان موقف معارض و منتقد ، و هذه العلائق تدلل

Converted by Tiff Combine - unregistered

إخفاق السيد أحمد خان في مبادرته لتفسير الإسلام من جديد في ضوء العلوم العقلية و التطبيقية الحديثة ، و كان يتوخى نشر التعليم الديني اللاهوتي بمنهج عقلاني ، إلا أن ذلك لم يزل حلماً من الأحلام في حياته و كذلك بعد مماته ، و في كليته نفسه التي برزت الآن كجامعة شهيرة في العالم الإسلامي.

و لكن هذا الإخفاق لم يكن بدون الاعتياض ، بحيث نرى أن المسلمين في الهند و في العالم بصفة عامة انجذبوا بالتعليم الأوربي الحديث ، و اعترفت الأجيال العالية بمساهماته لأحقية (MODERNIZATION) العقل السليم ، و من العجيب أن الأوساط الدينية التي خالفت مشاريعه في التعاليم في حياته تنتصب نفسها كحرس هذه المؤسسة ، و المفكرون الإسلاميون و كوادر القيادة الإسلامية في شبه القارة الهندية أمثال الدكتور محمّد إقبال ، و مولانا محمّد علي جوهر، و مولانا أبي الكلام آزاد ، و مولانا أبي الأعلى المودودي ، بل و الشيخ حميد الدين الفراهي (مفسّر تقليدي) كان يحيطهم التأثير - المباشر أو غير مباشر - الذي مارسته شخصية السيد أحمد خان ، لأجل ذلك النظرة السائدة الآن في الدول العربية و في إيران عن السيد أحمد خان أنه لم يخدم المسلمين ، و لا القضية الإسلامية ، بل ظل يمارس أنشطته العلمية و السياسية كعميل للانجليز ، سياستهم في الحكم ، هي نظرة خاطئة بعيدة من الصواب ، و قائمة على الانتقادات العشوائية ، و جهل الأوضاع التي ركّز فيها جهاده و جهوده حول إنقاذ المسلمين من براثن الإنجليز، و عمل بحماس دعوي و حيوي لتقدمهم في مضمار الفكر و الاقتصاد و الحضارة ، و إيجاد صحوة سياسية و بعث ثقافي من جديد، و جماهير المسلمين في شبه القارة الهندية - سواء المتنورون و التقدميون ، أو المتزمتون و الأصوليون - مَدينة لجهوده في تعبئة المسلمين بالعلوم الجديدة و التقدم الفكري الأوربي ، أما انتقاد العالم الإسلامي له بعنف و في معظم الأحوال رفض شخصيته و استنكارها لا يمثل سوى شخصية المنتقدين في غير خبرة بالأوضاع السياسية و الاجتماعية لمسلمي شبه القارة الهندية ، و جهل بالدور الريادي الذي مثله هو لنهضة المسلمين ، هذه النهضة التي لمستها بصيرة السيد أحمد خان و غرست بذورها تبلورت بعد كعامل حاسم في السياسة و الحكم ، و من وثيق الصلة بالموضوع أن ننظر تحليلياً لما أن بعض الباكستانيين يعتبرون السيد أحمد خان مؤسس الأيديولوجية الباكستانية ، و لا شك فهو مجاهد متحمّس و بطل باسل للقضية الإسلام و المسلمين ، و حبه للنبي صلى الله عليه و سلم و اهتمامه بلغة الثقافة للمسلمين في الهند (اللغة الأردوية) لا يتنازع في واقعيته حتى لقد أعداءه و معارضيه ، و سياسته و مشاريعه لتعليم المسلمين في الهند فهي بادية و موضوعة للدراسة و التحليل ، و لا نريد أن نحرم أحداً حقه في الإستعراض و الإنتقاد،

Converted by Tiff Combine - unregistered

أما إخلاصه و الدوافع الداخلية لخدمة الإسلام و المسلمين فيجانب العدل أن لا نشك فيها ، و لولا اجتراءه الفكري و الخلقي و حماسه لتمهيد السبل لتجديد الفكري الإسلامي و المعتقدات الإسلامية ، لم تبرز شخصيات و كوادر أمثال الدكتور إقبال ، و محمد علي ، و أبي الكلام آزاد ، و مما لا يتنازع فيه إثنان : دور السيد أحمد خان في تطوير اللغة الأردوية و أحداثه أدبها في الهند ، فهو الذي حوّر الكتاب باللغة الأردوية و شعراءها من مخالب الدوغمائية و التزمت ، و قام بتطوير النشر الأردوي كأداة تعبير عن الآفاق الجديدة في الفكر و الثقافة و الحضارة.

٤- تقييم انتقادي لآراءه و منهجيته :

لاستعراض انتقادي لآراءه و منهجيته سوف يدعم القارئ في تقييم الآثار لجهاده ضد التقليدية في الفكر و الديانة و الحضارة ، و كما أسلفنا ، كان السيد أحمد خان قد أثار منهجية متينة الزئ لأعلة المعتقدات الدينية من الفلسفة الإغريقية - الإسلامية الهجينة (الديالكتيكية) ، رغم ما ينكره من نزعات الفكر اليوناني للقدم و اللاجدوى ، و لم يستطع تصليح نفسه من النظريات الفلسفية القديمة ، و اعتقد أن يدافع عن تصور قدم و أبدية المادة . أخذاً في الاعتبار أن النظرية سوف تكون دعامة للتقدم العلمي ، و معرفته بالفلسفة و العلوم الحديثة لم تزل قشورية ، و قد أبدى عن تذبذبه في الترحيب بنظرية داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) في النشوء و الإرتقاء ، و اعتبرها في غير اتساق بنظرية الإسلام في الخلق ، و بنظريات الفلاسفة المسلمين في سالف الأزمان. (٥٧)

تركزت جهود السيد أحمد خان حول توفير النظريات العلمية الحديثة و توفيقها بالآيات القرانية إضافة تفسير القرآن الكريم في المصطلحات العلمية الحديثة ، و كان يتوقع النجاح في محاولته الثانية ، إلا أن الأولى لم تتمخض إلاّ من الإخفاق في معظم الأحوال و تصريحه بأن التعاليم و المعتقدات الإسلامية هي في اتساق مع قوانين الطبيعة و شريعة العقل لم يكن في حاجة للمساندة إلى انتحلا منهجية خاصة في إثبات كل اكتشاف في العلم الحديث في ضوء القرآن الكريم ، و لم يكن العلماء المسلمون ليقبلوا هذه الاتجاه المتحمس للتوفيق بين العلم و الإسلام في حساب المعتقدات الدينية ، و بالتالي رفضوا كونه مجتهداً ، بل و كثير من آراءه تعكس الموقف التقليدي للعلماء ، و كان للسيد أحمد خان أن يتجنب هذه المعارضة من العلماء و أوساط الدين باتخلا موقف أكثر احتياطاً و بصيرة ، و أقل تحمساً لتأسيس الطبيعة العلمية و العقلانية للإسلام و معتقداته و مما يتعجب له القارئ أن الشئون العملية و ذات الأهمية الاجتماعية التي كان يجب أن

Converted by Tiff Combine - unregistered

تصوب اهتمامه إليها أكثر منه إلى قضايا اللاهوت ، قد أخفقت في احتلال مكانة تدنو بها في دعوته . فقد رأى أن فكرة الخلافة ليس لها مكانة في الإسلام ، بحكم الإخفاق منذ ثلاثين سنة من الخلافة الراشدة ، و لم يشعر بأهمية الإمبراطورية التركية الإسلامية التي هددتها المخططات الاستعمارية الأوربية ، و دعوى تركيا للخلافة يمكن أن يحكم عليها أحد بقلة المناسبة و الاستحقاق ، و لكن الحقيقة التي لا يتنكر لها أحد أن وجودها كان ينبوع القوة للمسلمين في العالم ، الذين كانوا ينظرون إليها كشيء يذكر المقدس و روائعه و مجده ، و وفاء السيد أحمد خان و ولاءه للحكم البريطاني حرمه المكانة السياسية و البصيرة التي كان يمكن أن تحدس مؤامرة الغرب التي وزعت فعلاً المناطق المحكومة لتركيا في إفريقيا و الأقطار العربية في ديباجات بعد الحرب العالمية الأولى ، و كذلك مواقفه الإصلاحية عملت لإخمال شخصيته و إخفاءها ، و عرقلت سبيله في ملاحقة نهوض الوهابيين البوريتانيين (المتزمتين) في الحجاز نتيجة مؤامرات الاستعماريين الانجليز، ضد اتحاد العالم الإسلامي و التضامن الإقليمي في الإمبراطورية التركية. أما الشريعة الإسلامية و قوانينها فأحس السيد أحمد خان بضرورة إدخال تعديلات فيها لمواجهة التحديات التي تحدى بها العصر الحديث ، و لكن في ساعة كانت تركيا و دول الشرق الأوسط تستعد لمنح المرأة حقوقاً أكثر ، كان السيد أحمد خان قد خالف فكر التعليم الحديث بين الفتيات و النساء ، و أبّد أن يبقين في البيوت و يشتغلن بأعمال البيت ، و في تسويغه لتعدد الزوجات في الإسلام صرّح السيد أحمد خان أن ما يشترط له يتعسر على المرء إلى مدى لايجتزه بعده لتعدّد الزوجات (٤٨) ، و امتنع بصفة عامة عن الإدلاء بدلوه في قضايا السياسة و الاجتماع ، و بالعكس من ذلك أبدى مقالاً في الجدال اللاهوتي ، و كان السيد محسن الملك معلماً في تبصيره بالأخطار المحدقة بتطبيق النظريات العلمية على الإسلام ، مشيراً إلى أن النظريات و التصورات آخذة في التطور ، و لا تزال تتجدد ، و تدخل فيها تعديلات بحكم الاكتشافات المتجددة و المتطورة ، و ساء إذا كان مستعداً لتعديل الإسلام نظراً إلى التطورات العلمية ، و لم يستطع السيد أحمد خان تقديم إجابة مقنعة و معقولة ، و ينتقده محسن الملك بتفاضي قواعد اللغة العربية بين حين و آخر، و سياق العبارة ، و أهداف الإسلام الحقيقية ، و مرامي القرآن و السنة في محاولته لتكييف الوجهة الغربية للعقلانية ، و هذه الأخطاء هي التي عملت لإخفاق مهمته في تجديد الفكر الديني للإسلام في هدى العلوم الحديثة ، إلاّ أن هذا الإخفاق لم يخل من امتياض بالنجاح في تحبيب التعليم الحديث بين أوساط المسلمين في شبه القارة الهندية.

و يجدر بالذكر - في نهاية المطاف - أن ما اتهم به السيد جمال الدين الأفغاني (الأسد أبادي أو الأسعد أبادي) و الزعماء المسلمون المعاصرون من

Converted by Tiff Combine - unregistered

ايران، السيد أحمد خان و محاولاته لمنح الإسلام حياة جديدة ، قائم على قلة التبين لمتطلبات و أوضاع العصر الذى واصل فيها مهمته لمكافحة التحديات على صعيد فكرى ، و لا يمكن التشكيك فى إخلاصه و دوافعه الداخلية لمواصلة الجهود للإصلاح ، لأن حبه للنبى صلى الله عليه و سلم و تفانيه للقضية الإسلام و المسلمين يبقى متوطده الدعائم و البنيان إلى أن تفسى نحبه ، و تفسيره للقرآن الكريم و لتعاليم الإسلام و للمعتقدات الإسلامية لكونه مبنياً على التصورات الخاطئة عن مقلانية الدين ، هيأ فرصة لمنتقديه و المعارضين له للإرتياب و الإرتياب فى ولاءه للإسلام و المسلمين ، و الدراسة الموضوعية و السمبتاوية لمساهمته فى نهضة المسلمين و تقدمهم فى شبه القارة الهندية سوف تزيل عنه سوء التفاهم عن اتجاهه نحو الحكم البريطانى ، و تقدم القرب فى مضمار العلم و الحضارة ، و لو لا شخصية السيد أحمد خان لتعبئة المسلمين فى الهند بالمعارف الغربية الحديثة ، لبقى مسلمو شبه القارة الهندية فى مهاوى التخلف و التبعية كما هو حال المسلمين اليوم فى معظم دول الشرق الأوسط و القارة الإفريقية ، و هذه وحدها لوحدت مآثرة يستهان بها فى التاريخ. (٥٩)

تعريب: محمد ثناء الله الندوى

الهوامش :

١- السيد أحمد خان: مقالات سر سيد(باللأردية) تعليق : محمد اسماعيل البانى بتى ، طبعة لاهور، سنة ١٩٦١م ، ٣٦٢/١٣

٢- المصدر نفسه ٣٦٢/١٣-٣٦٦

٣- المصدر نفسه ٥٣/٢

٤- المصدر نفسه ٥٢/٢

٥- المصدر نفسه ٥٢/٢

٦- المصدر نفسه ٥٢/٢

٧- المصدر نفسه ٥٢/٢

٨- المصدر نفسه ٦-٣/٢

٩- المصدر نفسه ٢٥٦/٢ـ ٢٥٧

١٠- شبلى النعمانى: "علم الكلام" طبعة دار المصنفين ، لعظم كره ص: ١

١١- المصدر نفسه ص: ٨

١٢- السيد أحمد خان ، المصدر السابق ٣٦١/١٣

١٣- المصدر نفسه ٣٦٤/١٣-٣٦٥

١٤- المصدر نفسه ٢٨/١٣

١٥- المصدر نفسه ٣٦١/١٣

١٦- المصدر نفسه ٩٩/١

١٧- المصدر نفسه ١٤٨/١ و ١٥٦

١٨- المصدر نفسه ٢٧٨/١

Converted by Tiff Combine - unregistered

١٩- المصدر نفسه ٢٢٤/١
٢٠- المصدر نفسه ٢٢١/١
٢١- المصدر نفسه ٢٢٢/١-٢٢٣
٢٢- المصدر نفسه ٢٩١/١
٢٣- المصدر نفسه ٩٣/١-٩٤
٢٤- المصدر نفسه ٦٨/١
٢٥- المصدر نفسه ٣٩١/١-٣٩٢
٢٦- المصدر نفسه ٣٩٢/١
٢٧- المصدر نفسه ١١٣/١
٢٨- المصدر نفسه ٢٠٤/١
٢٩- المصدر نفسه ١١٢/١
٣٠- المصدر نفسه ٦/١
٣١- المصدر نفسه ٢٧/١
٣٢- المصدر نفسه ٨٠/١-٩١ ، ٩٩-١٠٠ ، ١٠٢
٣٣- المصدر نفسه ٨٦/١-٨٧
٣٤- المصدر نفسه ٢٠٤/١-٢٠٥
٣٥- المصدر نفسه ٢٢٦/١-٢٢٦
٣٦- المصدر نفسه ١١/١ ، ٢٤١
٣٧- المصدر نفسه ٣٣٧/١
٣٨- المصدر نفسه ٢٤٠/١
٣٩- المصدر نفسه ٣٤٨/١
٤٠- المصدر نفسه ٣٣٦/١
٤١- المصدر نفسه ٢٥٢/١
٤٢- المصدر نفسه ٦٣/١
٤٣- المصدر نفسه ٨/١-٩
٤٤- المصدر نفسه ١٣/١
٤٥- المصدر نفسه ٣٠/٢
٤٦- المصدر نفسه ٢١٣/٢
٤٧- المصدر نفسه ٢١٩/٢
٤٨- المصدر نفسه ٢٤/١٣-٢٥ ، ٢٢٩/٦-٢٣٠ ، ٢٨/١٢
٤٩- المصدر نفسه ٣٩/١٢-٤٠
٥٠- المصدر نفسه ٣٣/١٢-٣٨ ، ٣٩/١
٥١- المصدر نفسه ١٠٤/٢ ، ١٠٧/١-١٠٨
٥٢- المصدر نفسه ١١٢/٢
٥٣- المصدر نفسه ١١٢/٢
٥٤- برهان أحمد فاروقي : "شيخ محمد كا نظريه ترجمه" (بالأردوية) طبعا لاهور، ص: ٢٤
٥٥- المصدر نفسه ص: ٢٣
٥٦- ابوالكلام آزاد: ترجمان القرآن، طبعة ساهتيه اكاديمي ١٩٧٦م ١/٤٥-٤٦ ، المقدمة.
٥٧- المصدر نفسه ٣٦/١ ، المقدمة.
٥٨- السيد أحمد خان ، المصدر السابق ٢٥٩/١٢ ، ٣٦٥
٥٩- للقارئ العربي أن يراجع ما كتبه الدكتور أحمد أمين عن السيد أحمد خان في كتابه "زعماء الإصلاح في العصر الحديث"

Converted by Tiff Combine - unregistered

الرسامون المسلمون
من القـرن العشريـن

بقلم : الدكتور أنيس فاروقي
مدير المعرض الوطني للرسوم المصرية ـ نيو دلهي

شهدت الهند في القرن العشرين إنقلابا سياسيا و إنقلابا فنيا متزامنا البعض للبعض. و المسلمون الهنود لم يتخلفوا عن غيرهم في السباق الثقافي و الفني تماما كحالهم في السباق السياسي. و نجد في كل مرحلة من مراحل التطور الفني معلما يتمايز عن معاصريه من الفنانين. إلاّ أن الفن التصويري، هو الموضوع الذي نتناوله في هذا المقال، عليه فاننا سنركّز الحديث على مساهمات الرسامين المسلمين في هذا المجال.

و لو تطرقنا إلى الموضوع من وجهة نظر تاريخية ، لقلنا أنه بإنهيار الحكم المغولي تخلى المصور المسلم عن تقاليد الفن التشكيلي الذي لم يتبق منه في القرن التاسع عشر سوى نماذج مشوهة و متناثرة و لذلك ايضا بفضل الرعاية التي حظى بها الفن التصويري المغولي في قصور الأمراء و النوابين. و من ناحية أخرى فتزايد المسلمين إحتكاكا بالحضارة الأفرنجية ، بلغت الأفكار و الرؤى الإسلامية نصب في قوالب القيم الأفرنجية، و دون أن نستقر حكم الإنجليز ، و انشئت المؤسسات و المعاهد الفنية في مختلف أقاليم الهند برعاية الأساتذة الأفرنج بدأ الطلبة الهنود يتعلمون أساليب الفن التصويري الغربي، و تتاح لهم الفرص لإبراز صلاحياتهم الفنية في الدول الأجنبية. عندئذ تقدم المسلمون و بذلوا الجهود في سبيل ملاحقة الركب و مسايرة الزمن.

إن للحركة الفنية في الهند، سارت في إتجاهين ، تأسس أحدهما على الأسلوب الأفرنجي، و الآخر ارتبط بالأسلوب التقليدي الشرقي. و في مطلع القرن العشرين عمل إي . بي . هيول ، عميد مدرسة الرسم في كلكتا ، على خلق شعور فني جديد، و بدأ الفنانون الهنود يعون أن الإنصهار في بوتقة التفكير الغربي و الإنحصار على الأساليب الأفرنجية في التعليم و التربية ، جعلهم يعيشون في إنقطاع كامل عن التقاليد الفنية الوطنية ، باعتبارهـا ـ من سوء الحظ ـ تقاليد من مرتبـة سافلـة. و تحت تأثير ذلك التفكيـر، شنّ حفنة من الرسامين الشباب حركة فنية تعرف عامة بالحركة النهضوية. هذه الحركة كانت في أهدافها الرئيسية موجهة الى تعريف جماهير الهند

Converted by Tiff Combine - unregistered

بالقيم الفنية الوطنية، و العمل على إنعاشها من جديد ، و لاريب فى أن ظهور الحركة الفنية عند ذاك كان حدثا تاريخيا هاما ، خاصة إذا ما أخذنا بعين الإعتبار الظروف السياسية التى عاشتها الهند فى تلك الفترة من الزمن. و لابد من الاعتراف أيضا أن الحكام الأفرنج وقفوا بجانب الرسامين الهنود ، فساهموا فى تعزيز تلك الحركة و إنعاشها مساهمة لايستهان بها فلا يمكن لأحد أن ينكر على هيول مكانته فى تقدير الفن ، و لسنا نبالغ إذا قلنا إنه اضطلع بدور ريادى فى تعريف العالم الأجنبى بما كان عليه الفن التقليدى الهندى من جمال و بداعة. و فى نفس الوقت لا أتردد فى القول بأن الأفرنج ساندوا النهضة الفنيـــة و عملوا علـــى ترقيتها من منطلق تأمرى منتظم و هادف - على ما اعتقد - إلى إبقاء الفنان الهندى يعيش بمعزل عن القيم الفنية الغربية ، و إلى ألا تترسخ فى تراب شبه القارة الهندية جذور الوعى الفنى الذى شهدته فرنسا ، و يتم بذلك الطريق إجلاء مؤثرات الأكاديمية الملكية من الهند. خلاصة القول أن جميع ما حدث فى الهند إبان تلك الفترة ، لم يكن سوى محاولة موجهة إلى تضليل الوعى الفنى الوطنى على وفق مقتضيات الظروف السياسية. و نتيجة لذلك فان الفنان الهندى بات طوال ثلاثة عقود يعايش صراعا فكريا ، و لم يتمكن من تحديد إتجاه ييسر له مسايرة العصر و متطلباته.

كان محمد عبد الرحمن شوغتاى (Chagtai)، أول فنان مسلم انضم إلى رواد هذه الحركة النهضوية ، و نجح فى إحقاق مكانة بين أبرز أعلام تلك الحركة - و على الرغم من أن شوغتاى لصبح - منذ إنشاء دولة باكستان - ينكر هذه الحقائق ، و يقول فى إحدى كتاباته :

> *"يتصور عامة الناس كنت من بين المنضمين إلى الحركة الفنية التى ترعرعت فى البنغال ، أو أننى تلمذت لأحد من الفنانين المنضمين إلـــى تلك الحركـــة. الواقع أننى لم ألز البنغـــال لذلك الغرض ، و لم أستفد من أستاذ من أساتذة الفن البنغالى. لا شك فى أن حركة الفن الهندى الجديد بلغت أشدها عندما بدأت حياتى الفنية، و إننى بدورى ساهمت فى هذه الحركة بحسب مقدورى ، و لن يكتمل تاريخ الفن الهندى الحديث من دون ذكر مساهماتى فيه"*

إلاّ أن هذا العرض بحد ذاته يحتوى على تناقضات ، فانه من جانب ينكر إنضمامه إلى الحركة النهضوية، و من جانب آخر يقول إنه ساهم فيها بحسب مقدوره. و لعله يقصد بذلك الإيحاء بأنه إتخـــذ ذلك الأسلوب لكنـــه لم يتلق دروسا على يد الأساتذة - و بأنه يتفرد بفنه بغض النظر عن الأساليب و الأنماط.

إنطلقت الحركة النهضوية فى بدايتها من تقليد الروائع الفنية الموجودة فى الكهوف و المغارات الهندية منذ آلاف من السنين. و فى الفترات اللاحقة ،

Converted by Tiff Combine - unregistered

و بعد تجارب عديدة و متواصلة ، تكوّن أسلوب خاص من مزيج الأساليب الفنية المغولية و الراجبوتية و البهانية مستمدا من أضواء و ظلال الفن الغربي ، و سمّي بالرسم المفصول. و الإقبال العام على هذا الأسلوب يرجع إلى كل من السياسة و الإتجاهات الوجدانية الناجمة من التبعية و العبودية. هذا الأسلوب أو خليط الأساليب صار يعتبر ممثلا للفن الهندي التشكيلي في جميع أكناف البلاد، و طائفة من الرسامين الهنود باتت تتخذ منه شغلا شاغلا لها. و بالرغم منه فان شوفتاي تميز بين أقرانه بتركيز العناية على تطوير ذلك الأسلوب. فانه مارس عدة تجارب أثبتت تفرده وراء الشبهة ، كما و حجم روائعه الفنية أيضا كان أكبر نسبيا من حجم إنتاجات معاصريه من الرسامين.

لم يكن أحد من دعاة هذا الأسلوب قد اجترأ - قبل شوفتاي - على تجاوز الحجم المحدد للرسم المصغر ، و ذلك على اعتقاد منهم بأن الرسوم في اللوحات الكبيرة، ستكون ضعيفة من ناحية التأثير بالقياس إلى الرسوم المصغرة. إلاّ أن عددا غير قليل من الفنانين من تلك المدرسة اضطر لتقليد شوفتاي بعد أن قام الأخير بعدة تجارب ناجحة بالاعتماد على صلاحياته الفنية. و تجربته الثانية تجسدت في رسوم مستوحاة من المختارات الشعرية الهندية و الفارسية ؛ مثل شعر عمر خيام و غالب و راباكريشنان. الحقيقة أن الأسلوب النمطي الذي اتخذه شوفتاي في الرسم ، كان أكثر الأساليب الرائجة إتساقا مع مقتضيات تصوير هذه المواضيع. فالرسوم في لوحاته هذه ، تتكون من خطوط دقيقة و لطيفة ، و البيئة الشعرية تنعكس أيضا في مجمل الخلفية الضبابية و في الهدوء و الجو السحري الغالب. هذه الروائع من إنتاجات شوفتاي تجعل من الشعر و الرسم يلتصقان و لا ينفكان بعضا عن البعض، حتى أنه لا يدري الناظر إليها أن الرسم مستلهم من الشعر أو الأمر بعكسه. و بالرغم منه فان الصورة لا تفقد سماتها البارزة ، و بخلفيتها البديعة تجذب الناظر ، و تترك تأثيرا سحريا عليه سواء كان عارفا بالشعر أم لا . كما و رسومه لا تبرز جمال الأنوثة الهندية بتقسيمات رشيقة تقليدية ، و إنما تضفي عليه طابع الوقار. فالصور في لوحاته ، لها أنوف رشيقة و أعين من نوع فريد ، و ظل من شعاع عليها يعطي الصورة لونا من الجلال و العظمة. و الابتسامة المطبوعة على شفاه بعض هذه الصور، تنم عن معان تفوق إبتسامة موناليزا ألف مرة الفائضة أن رسوم شوفتاي نتاج جهد و عناء كبيرين ، و البسة الشخوص التصويرية في لوحاته ، و العمارات التي تشكل خلفياتها ، في جمالها و بداعتها تخلبه بلغة يمكن تسميتها ببلغة الأحلام.

و من بين الفنانين المسلمين الذين اتبعوا شوفتاي في أسلوبه التصويري ، نذكر هنا إسمي لبى الكلام و عظمت شاه. أولهما ننتمي إلى الجيل الثاني من الحركة النهضوية ، فيما إنحدر الآخر من الجيل الثالث. لقد حصل أبوالكلام على شهادة في الفنون الجميلة من جامعة شانتي نكيتان ، و بعدئذ جعل من تعليم الفن و ترقيته نصب أعينه ، و لنفس الغرض التحق بجامعة كولمبيا ، و بعد التخرج منها ، إنضم إلى الجامعة الملية الإسلامية بدلهي مديرا لقسم التعليم الفني و تقاعد عن وظيفته في أعقاب أداء خدمات لفترة طويلة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

أما عن مظفر شاه فانه أكمل دراسته فى المعهد الفنى بلكناو ، و يعمل محاضرا فى قسم الفنون الجميلة بكلية الآداب فى جامعة عليجره ، و يبذل جهودا لإيقاظ الوعى الفنى بين الطالبات.

لقد رسم مظفر شاه عدة لوحات قوبلت بتقدير و نجاح كبير، و حقق لنفسه مكانة فريدة بين معاصريه من خلال تجاربه فى الرسم المائى بالظل و الضوء الغربيين. إلاّ أن مظفر شاه تأثر كغيره من الرسامين من مذاهب و عقائد فنية مختلفة ، و من الحركات الفنية الغربية الحديثة . فاتخذ الرسم الزيتى ، و رسم - و لايزال يرسم - المناظر الطبيعية و الصور الظلية على طراز مذهب ما بعد التأثير، و عدد من قطعه الفنية بهذا الأسلوب فاز بالميداليات أيضا.

لقد ذكرنا فى الفقرات السابقة أنه مع ظهور الحركة النهضوية فى البنغال ، أخذت الأساليب الأفرنجية أيضا فى الشيوع و الرواج. و فى هذه الأساليب نجد اتجاهين بارزين ، أولهما يحتوى على ما ساد الأكاديمية الملكية ، و الثانى يمثل الإتجاه الحديث و الرائج حوليا. و يأتى اسما الله بخش (الثانى) و سيد حسن عسكرى فى طليعة أسماء رواد الفن التشكيلى الذين يمثلون الاتجاه الأول ، و يعرفون بالتمسك بالتحفظ و الرجعية و بالتركيز على الواقعية. فاتخذ حسن عسكرى من الوجه و الكشف عن الأحاسيس المحتدمة من خلاله ، موضوع فنه ، بينما كرس الله بخش على تصوير القصص الدينية، و تميز بمهارة فائقة فى رسم الصور و إبراز تفاصيلها بشكل دراماتيكى ساحر. و رسومه المعبرة عن جمال الطبيعة تجذب المشاهدين شابا و كهلا. و لعل روائع الله بخش لا تقع موقع تقدير و إعجاب لدى بعض النقاد المعاصرين ، إلاّ أنه لا يجوز الإغفال عن فنان نذر حياته لفنه ، و اتخذ ترقيته و تطويره واجبا دينيا بالنسبة له. و مع أن الرسامين المنتمين إلى هذا المذهب ، عامة عاشوا تحت رعايات النوابين و المهراجات ، و بعد تقسيم الهند إلى دولتين ، انتقل جميعهم إلى باكستان ، إلاّ أنه فى معرض الحديث عن مساهمات الفنانين المسلمين فى الرسم الهندى ، لا يمكن إهمال حسن عسكرى و الله بخش و أمثالهما من الرسامين الذين استقروا فى باكستان بعد قضاء سنوات طويلة من أعمارهم فى الهند.

و لقد أراد البروفيسور جاك استون سولومن، عميد الكلية الفنية فى بومباى ، أن يخلق حركة فنية مقابل الحركة النهضوية البنغالية، فدعا الرسامين المعاصرين إلى إتخاذ أساليب الماضى و احتذا بمراعاة مقتضيات الرسم العصرى. و جميع من خلفوه فى منصبه بالكلية الفنية (بومباى) من الأفرنج ، ساروا فى دربه ، و قادوه فى معارضة الحركة البنغالية. و المصورون من مذهبه ، تركوا الرسم المائى ، و اتخذوا فى محله الدهن الذى بات الوسيط الوحيد للرسم الهندى على مدى قرون متعاقبة. إلاّ أن هذا الأسلوب أيضا لم يكن يخلو من الإزدواجية ، فاستمر ينتقل من مرحلة تجريبية إلى أخرى من دون أن يتسنى له الفروج من نطاقه الضيق: الرابطة الفنية لبومباى. و على المستوى الوطنى فان الحركة التى بدأ بها سولومن، لم تكن سوى شعار خاصة بالقياس إلى الحركة النهضوية البنغالية ، و من الرسامين

Converted by Tiff Combine - unregistered

البارزين الذين اتبعوا هذه الحركة فى أسلوبها، كان سيد أحمد و عبدالحميد. و بالرغم من هذا و ذاك فان الأساتذة و الطلبة فى كلية بومباى الفنية باتوا يمارسون تجارب و لم يملكهم شعور باليأس وخيبة الأمل على ما ألم بحركة سولومن من خمول ، إلى أن طلعت على مسرح الرسم الهندى امرتا شيرجيل (AMRITA SHERGIL) فى عام ١٩٣٨م و أنارت بفنها معالم الطريق الذى كان الرسامون فى بومباى يتطلعون إليه ، و يسعون لإنشائه منذ سنين. و مع أن رسوم شيرجيل لم تثر إعجاب المدرسة البنغالية ، و غدا المنتمون إليها من الأساتذة و أتباعهم يتهمون شيرجيل بمعاداة الوطنية ، إلاّ أن تجاربها الفنية قوبلت بتقدير كبير فى الأوساط الفنية فى بومباى ، و أصبحت بمثابة نبراس بالنسبة للفنانين فى مدرسة سولومن.

و تجارب شيرجيل نفسها تركت تأثيرا عميقا على الفنان مقبول فدا حسين الذى كان مقيما فى بومباى حينذاك ، و قضى معظم أوقاته فى الرسم التجارى. فبعد تأثره من فن شيرجيل ، أدرك حسين أن الرسامين الهنود وقعوا فى ضلال ، و بسبب تشبثهم بتقاليد الحركة النهضوية البنغالية تخلف الرسم الهندى عن الرسم المعاصر بخمسين سنة. بل الحقيقة أنه لو تعمقنا فى فن شيرجيل من منطلق الموضوعية لوجدنا أنه - إبان سنوات ظهوره - بدوره لم يكن يساير المقاييس الدولية المعاصرة ، و إنما مثل التقاليد و الأساليب الفنية التى أخذت فى الرواج قبل أربعين سنة. و لذلك لأن أمرتا شيرجيل نفسها تأثرت من روائع فانان و من الأساليب التى قام فانان و معاصروه من الفنانين الفرنسيين بترويجها خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر. الخلاصة أن أمرتا شيرجيل ظلت ترسم بهذا الأسلوب الفرنسى فى القوالب الهندية ابتداء من ١٩٣٤م إلى أن وافاها الأجل عام ١٩٤١م ، و تركت وراءها عددا من الفنانين من مدرسة بومباى يقلدون خطاها و يقلدون فنها تقليدا أعمى. إلاّ أن حسين حاول - رغم تأثره من شيرجيل - أن يكون له نهج ، فظل يمارس تجارب واحدة تلو أخرى ، و بعد مضى ست سنوات على وفاة شيرجيل ، أقام أول معرض لرسومه فى بومباى. إنه استعمل الألوان الزيتية لتصوير مختلف ملامح التقاليد و الثقافات الهندية ، لاسيما ما اتصل منها بحياة الريف ، و اكتسب اعترافا مديدا بصلاحياته و مواهبه الفنية. و فى الفترة نفسها وافق على دعوة المجموعة التقدمية للفنانين (هذه المجموعة أنشئت فى عام ١٩٤٦م) للانضمام إليها. و منذئذ بات يقيم معارض كل سنة تقريبا. و من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن حسين لم يلتحق بمدرسة فنية ، و لم يتلق دروسا فى الرسم بوجه انتظامى، و مع ذلك فانه أول رسام نال أكبر جائزة وطنية على لوحته - الأرض - التى عرضها فى معرض الفنون الجميلة - المعرض الأول الذى نظمته الأكاديمية المركزية للفنون بعد خروجها لحيز الوجود. هذه اللوحة موجودة فى المتحف الوطنى للفنون الصبيشة ، و الذى اقتناها بعد إنتخابها لجائزة رئيس الجمهورية. لسنا نبالغ إذا قلنا إن حسين يأتى فى طلائع الفنانين الهنود الذين يواصلون التجارب منذ أربعين سنة بدون كلل.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و اعترافا بخدماته نفسها منحته الحكومة خطابات "بدام شري" و "بدام بوشان"

يطلق حسين فرشاة مرهفة الإحساس. إنه يستمتع بالأشكال الخارجية في رسم العناصر المجردة، و لوحته تكون عبارة عن مزيج جميل للتصورات الحقيقية و غير الحقيقية ، و في مساحتها تتجسد قدرته الفائقة على إعطاء الرمز و التمثيل و الاستعارات لون الحقيقة. و بما أن رسومه تمثل هدوءا غامضا و غير متناه ، فان بعض النقاد يرى أن فنه مصاب بنوع من الركود و الرتابة. لكنني أعتقد أن أمر حسين لا يختلف من كثير من عمالقة الفن الفرنسي الجديد من أمثال فاغان أو ونفا و وحتى بيكاسو، و روائعه الفنية - كروائع الأساتذة الفرنسيين - تنطبع بشيء من الصمت يسهب لاستقرار تفكيره الذي.

عمل : مقبول فـــدا حسين

و في خمسون الخمس عشرة عاما طلعت على مساحة الفن التشكيلي الهندي جماعة من الرسامين المسلمين، و بحق لدعت بأهمية مساهمتها، د بالتفرد و الحداثة و التعاون في تنمية الفن و تسييره على درب التقدم.

Converted by Tiff Combine - unregistered

فكل مصور من جماعة المصورين هذه ، جاهد جهادا ، و تمكن من إتخاذ أسلوب يميزه عن غيره . و قائمة المصورين من هذه الجماعة تنطوى بحسب الترتيب السنى لأسماء الميلكر و رضا و رائبا و سلطان علي و سانتوش و بدامسي و طيب مهتا و يسين و الشيخ غلام محمد و زرينة هاشمي و أمينة أحمد و نسرين محمدي و أنيس فاروقي و فاطمة أحمد و شمشاد حسين و عددا من الرسامين من حيدرآباد مثل فرخ رفاقت و محمد سعيد.

تولد الميلكر فى عام ١٩٢٠م ببلدة الميل من مديرية بيجابور، و فى عام ١٩٤٠م حصل على الدبلوم فى الرسم من مدرسة السير جاى. جاى. للفنون فى بومباى، ثم انضم إلى إحدى استديوهات بومباى الشهيرة و عمل كمصور تجارى لديها لغاية سنة ١٩٥٣م. و بعدئذ عمل عملا حرا مستقلا ، و بجانب الجوائز التى منحته إدارة إقليم بومباى ، حصل على ميدالية فى المعرض الفنى الوطنى الذى أقامته أكاديمية الفنون المركزية فى عام ١٩٥٦م. و من الناحية التقنية فان الميلكر حقق مهارة فائقة فى الرسم بالألوان المائية ، و فى أسلوبه التصويرى نتلمس بصمات التقليد بكل وضوح. و مع أن رسوم الميلكر عامة تكون تعبيرا عن مختلف جوانب الحياة الإجتماعية الهندية ، لكن هناك رسوما أخرى انتجها الميلكر أثناء إقامته فى دول جنوب شرق آسيا، و ضمنها هروبا من ألوان الحياة الإجتماعية لتلك البلدان ، بما فيها - مثلا - محافل الرقص و الغناء ، و الأعمال اليومية للفتيات ، و البرك و الأحواض ، و مناظر صيد السمك ، و الحياة الأسرية للفلاحين. و هذه اللوحات حلا روائع فنية عديمة النظير، و تتميز عن غيرها بحدة الألوان و قوة الخطوط و سلاستها. و حتى المشاهد التى ينعم بتشكيف عادى ، لا يفتقر لكثير من الجهد أو الوقت لفهم رسومه التى تصور الحياة الاجتماعية بتقاليدها و عاداتها المألوفة ، و تخلق لديه شعورا بالانتماء إليها. انتاجات الميلكر الفنية كلها نقلت بعد وفاته إلى المتحف الوطنى للفنون الحديثة.

ولد رائبا فى بومباى فى عام ١٩٣٣م ، و بعد تخرجه من مدرسة السير جاى. جاى. للفنون ، تفرغ تماما للفن و منذ عام ١٩٤٦م بات يمارس تجارب فنية متنوعة. لقد عرضت روائعه فى معارض دلهى و بومباى و سويسرا و الروم و فرنسا ، كما أنه اشترك فى معرض دولى ، و قد اقتنيت بعض إنتاجاته لمبنى البرلمان الهندى أيضا.

فيما يتعلق الأمر بالمواضيع التى يتناولها رائبا فى رسومه ، فانه - مثل زميله الميلكر - يلقى الأضواء على جوانب الحياة العامة. إلا أنه فى رسمه للحياة العامة و لشعر غالب ، اتخذ أسلوبا شعريا بجمال الأنوثة ، و على خلاف رسوم الميلكر التى تبرز المرأة بعينين متحركتين فى غير لذامة و وقار، فان تقاسيم الوجوه فى رسوم رائبا تنم عن هدوء و إنانة ، و أعينها تتبدى غامضة لشد الغموض ، و تترك إنطباعا مميتا على تفكير المشاهد. و مع أن الألوان فى رسوم رائبا أيضا صاخبة ، لكنها تتحمل بتناسق بديع ، و تعطى اللوحة جاذبية. الطريقة أن رعاية التوازن فى اختيار الألوان تكون أكبر دلالة على براعة الفنان. و الإدعاء بأن رسوم الميلكر أو رائبا - كما

Converted by Tiff Combine - unregistered

يزعم بعض النقاد - عامة تهذب السواح من أمريكا و فرنسا فقط ، إبداء بدون أي مبرر، إذ الواقع أن القيم الفنية استمرت قابلة للتغيير، و في القرن العشرين تغيرت بسرعة أن القيم التي اعتبرت قبل حين أعز و أثمن تراث ، غدت مرفوضة اليوم. هذا الإتجاه في تفكير الفنانين، أتى يعزز ملكات الإبداع و الإنتاج ، و يخلصهم من براثن التقليد الأعمى، و من ناحية أخرى فانه أسقط التقاليد المتوارثة من الإعتبار و جعلها محل الريب و الشكوك. و مع أنه لا يستبعد أن الحداثة و التجدد في مجال الفن التشكيلي ، و النتائج التي تترتب عليها في زمننا هذا ، قد تصبح مرفوضة لدى الأجيال المقبلة ، إلاّ أنه لا يعني أن تعتبر القيم الفنية المعاصرة قيما مهجورة بالية.

و في المنظور التاريخي يمكن القول إن الهيلكر و رائبا اختلف أمرهما عن المدرسة البنغالية في العكوف على الميول و النزعات العصرية. ففي الوقت الذي فشلت الأخيرة في مساعيها لإحياء و تجديد القديم من القيم الفنية ، عمل الهيلكر و رائبا و غيرهما من فنانى مدرسة بومباي على خلق مزيج من القيم التقليدية و القيم العصرية.

و يأتي إسم رضا في طليعة الدعاة للحداثة و التجدد. لقد ولد في ناجبور في عام ١٩٢٢م ، و بعد الحصول على الدبلوم في الفن التشكيلي من بومباي ، انتقل إلى فرنسا في عام ١٩٥٠م ، و اشتغل في مطالعة الفن في الاستديوهات. بدأ رضا حياته الفنية بتصوير المناظر، و في لوحاته نجد مزيج الضوء و الظل بالأسلوب الغربي. هذه اللوحات ساعدت رضا في كسب اعتراف و تقدير لفنه. بعدئذ قام رضا بعدة تجارب ، إلى أن بات يكتفي بالتخطيط الأساسي و تدوين الخطوط على اعتبار أن الضوء و الظل لا يشكلان جزءا غير قابل للإنفكاك عن المنظر. و بذا فانه سار أولى خطوة على درب التجديد ، و صارت لوحاته المرسومة على ذلك الأسلوب تتكون فقط من الخطوط المتناسقة تناسقا بديعا هادئا. هذا التصميم الفطي أصبح أساسا لفنه التجريدي ، و مهد الطريق إلى بلوغه المستوى الدولي للرسم المجرد. و في المراحل اللاحقة ، تخلى حتى عن الخطوط ، و اعتمد كليا على تنظيم الألوان و بلغ ذروة الكمال في التجريد. و مع ذلك فان كل لوحة من لوحاته تتألف من الهيكل الأساسي للمنظر، و يستأنس إليها المشاهد بمجرد أن يدقق في تصميمها. لهذا فان الذين يعرفون رضا و تجاربه المرحلية المتعددة ، ينظرون إليه و إلى صلاحياته الفائقة ، و تطور فنه تدريجيا ، بنظرات الاحترام و التقدير. و ذلك لأن رسمه التجريدي و التنظيمي لم يكن وليد صدفة أو موضة ، و اختلف أمره عن الشباب من الفنانين الذين يقبلون على التجريد في الرسم ، و يعتبرونه قمة الكمال.

ولد سلطان علي في فوجرات عام ١٩٢٥م. إنه اعتاد على كتابة إسمه مع الحرف الهندي من إسم والده : "عمل جعفر علي سلطان علي" موقفا مسئولا عن المعارض في أكاديمية الفنون المركزية . و لم يستطع أن يتفرغ للرسم بسبب زحمة العمل ، فقدم الإستقالة عن خدماته لدى الأكاديمية في

Converted by Tiff Combine - unregistered

عام ١٩٦٩م ، و انتقل إلى مستعمرة - هولا مندال - انخشت للرسامين خاصة ، و يمكن عده بين حفنة من الفنانين الذين ساعدهم النمط ، و انتاجاتهم الفنية ظلت تحظى بقبول واسع منذ أول يوم من بداية حياتهم الفنية و لغاية الآن.

إتخذ سلطان علي من حياة البدو في الهند موضوعا للرسم، و صورها بجوانبها المتنوعة مثل الأعمال و الأشغال اليومية و العقائد و التقاليد و العادات و الأصنام. و على الرغم من أن عددا من الفنانين اتبعوا على في رسم نفس المواضيع بما عليه أمرها من إتساع و تنوع ، لكن أي أحد منهم لم يتمكن بعد من الوصول إلى مستواه. بالنظر في رسومه البدائية يتضح أنه استعمل مزيجا من الألوان الزيتية و الدهن. إلاّ أن جميع رواشمه المنتجة حاليا ، مرسومة بالألوان الزيتية ، و من الناحية التقنية تخلو من أي خطأ أو نقص. سلطان علي يجيد استعمال الألوان الصاخبة و الشاحبة بحسب مقتضيات الموضوع ، و الرسوم التي انتجها في بداية حياته الفنية تتناول المواضيع العامة ، و منها - مثلا - لوحات تصور النساء البدويات و على

عمل : جعفر علي سلطان علي (المتوفى ١٩٩٠م)

رؤسهن و اكتافهن جرارى مليئة بالماء ، و بعضها يصورهن راكبات على

Converted by Tiff Combine - unregistered

عربات تجرها الثيران و أفرادا تعرضهن فى أعياد و مناسبات أخرى ، محليات بالأسوار و الأطواق ، و مرتديات ألبسة مزخرفة. هـذه الصـور بسذاجتها و جمالها القروى تعطى اللوحة إثارة تثير على العجب. غير أنه عندما يستعمل فرشاته لرسم مقاتل البدو ، يبدو كأنه جمع عوالم الأرواح كلها فى ساحة اللوحة. و إننى بدورى شاهدت لوحات سلطان علي عدة مرات فى غرفة الرسوم ، و بدا لى أنه يرسـم الأرواح و عوالمها مـن دون قصـد أو إرادة ، بل يمكن أن يقال أنه فى لاوعيه كنوز لا متناهيـة لعجائب الدهـر و غرائبها، و أنها تتدفق على أرضية اللوحة كمين فائض ، و من هذه الغرائب يبدو الثور أهم عنصر من عناصر اللوحة ، فانه يعكس وجوده على اللوحة من أولها لآخرها ، و يتبدى بمظهر روح تضفى على المنظر نوعـا مـن الجـلال و الهدوء.

و الآن يبقى علينا أن ننظر فى رسوم على من الناحية الجمالية فنقول أن أية محاولة لإفراز جوانب الجمال فى عصرنا ، لا تعود بنفع ، ذلك لأن النظرة إلى هذه القيم خاصة فى الرسم ، تختلف بين إنسـان و إنسـان ، و تتصف بطابع الفردية. إذن فان رسوم على تنطوى على معانى الجمال من رؤية الفنان الشخصية، و إدراكها يفترض علينا أن نمعن فيها مـن منظاره، و هذا ما لا يتيسر لعامة الناس أو المثقفين من الدرجة العادية ، و إنما يتطلب قسطا من معرفة الفن و تطوره من النواحى التاريخية و النقدية.

و هناك فنان آخر من مواليد كشمير فى عـام ١٩٣٩م ، ألا و هـو غلام رسول سنتوش الذى توجه إلى الرسم بعد إكمال الدراسة البدائيـة فـوراً ، و بمساعدة من الحكومة الهندية يواصل تجارب متنوعـة بكل جهـد. و اعترافا بمهارته و عبقريته نال عدة جوائز و ميداليات بما فيها الجائزة الوطنية التى منحته أكاديمية الفنون المركزية مرتين. بالإضافة إلى ذلك فان سانتوش من الأعضاء المؤسسين لهيئة الفنانين فى بارودا ، و لعدة لجان فنية فى مسقط رأسه ـ كشمير ، و مثل الهند فى عـدة معارض دوليـة. و علاوة على الرسم أنه يعرف بالإقبال الشديد على الشعر، و يعد من كبار شعراء اللغة الكشميرية و ميله إلى التجريد فى الشعر يجد إنعكاسا فى الرسم أيضا. و لقد كتب سانتوش سيرته الذاتية ـ البحر العطشان ـ فى اللغة الأوردية ، و خصصها تجارب حياته كلفان بكل أمانة.

لقد بدأ سانتوش حياته الفنية بتصوير المناظر الطبيعية و المجتمع الكشميرى بنواحيه المختلفة. و لوحاته المنتجة عند ذاك تناولت حياة الجماهير الكشميرية و أشغالها اليومية و مناظر تساقط الثلوج و شواطئ الدلائر و غيرها. هذه الرسوم جميعها تبتنى على أسلوب تصوير الواقع ، و الصور فيها تتسم بالبساطة. و فى المراحـل اللاحقة. إتجـه إلى التجريد و إلى ما يمكن تسميته بنصف التجريد أو شبه التجريد. و رسومه المجـردة

Converted by Tiff Combine - unregistered

عمل : غلام رسول سنتوش

Converted by Tiff Combine - unregistered

و المنتجة فى المرحلة الأولى ، تتألف من تناغم الألوان فقط. و مع أنه يستطيع المشاهد أن يجد فى إنسجام الألوان و منّها و جزرها ، معنى و موضوعا من المواضيع ، لكن الحقيقة أن هذه الألوان الزيتية تنطبع بطابع تنظيم جميل و دقيق، و تعطى الرسم جاذبية و مغزى ، و يفتتن بها المشاهد إنما ما نعم بمذاق الألوان و الإستمتاع بها. و المرحلة الثانية ، هى مرحلة نصف التجريد و نصف الواقعية. بيد أنه يصعب تحديد العوامل التى دفعته إلى الرسم شبه المجرد. و جملة ما يمكن أن يقال بهذا الصدد أن التجريد المحض لم يتلاءم مع نزعاته ، و إنه دفعته الظروف المعيشية للتظاهر إلى الوراء لأن الفن و المعاش يلتصقان البعض بالبعض و استقرار الظروف المعيشية ضرورة لا مناص منها بالنسبة لإرتقاء أسلوب من الأساليب. مع العلم بأن الطبقات المثقفة الهندية عامة لم تبلغ المستوى المطلوب للتمتع بالتجريد البحت ، و إنما التربة الهندية تبدو مهيأة - من وجهة النظر المعيشية - لإزدهار الفن شبه المجرد. و بغض النظر عن هذا و ذاك ، فان سانتوش فى تجاربه الفنية شبه المجردة يصور الأجسام الإنسانية من زوايا مختلفة و بألوان خلابة. و هذه الأجسام تعرض بدون إبراز الرؤوس ، فيما تتكون بعض اللوحات من شكل مفرد ، و بعضها تنطوى على أشكال متعددة ، و فى أقل قليل منها نلمح انعكاسا للأعمال الجنسية أيضا. و مع ذلك فانه لا يسعنا فى هذه المرحلة أن نحدد أسلوبا من الأساليب المذكورة ، فنعتبره الأسلوب الذى سيعطى سانتوش مكانته فى تاريخ الفن.

ولد أكبر بدامسى فى بومباى عام ١٩٢٨م ، و حصل على شهادة فى الفن التشكيلى من مدرسة جاى جاى للفنون ، و مثل بلده فى كثير من المعارض الدولية. و فى عام ١٩٥٠م سافر إلى باريس و أراد أن يجعلها مستقرا له ، لكنه بدافع حب الوطن اضطر للعودة إلى الهند عام ١٩٦٨م. و فى أثناء مكوثه بباريس لم يلتحق بمدرسة أو أكاديمية فنية ، و إنما اتخذ من المتاحف مدرسة له ، و انشغل فى مطالعة الروائع الفنية من إنتاج ألقاب الفن التشكيلى الحديث. و فى عام ١٩٥٢م حصل على جائزة الفنون من الهيئة الفنية الفرنسية، و منذئذ توالت لوحاته تعرض فى المعارض الفنية بباريس و لندن و الهند. و فى عام ١٩٥٤م اضطر للسفر إلى الهند لأن حكومة بومباى فضت بمحاكمته على بعض رسومه التى وجدت مناقضة لمبادئ الأخلاق. إلاّ أن المحكمة العنيفة برأت ذمته ، و لم تجد فى رسومه مخالفة للأخلاق. و قالت فى قضائها أنه لا مهرب لمطهر الجنس فى الفن بالنظر إلى أن المعابد فى كهاجوراهو (KHAJURAHU) و كونارك (KONARAK) و بورى (PURI) جميعها مشكون عديمة الشرعية إذا ما تم تطبيق مثل تلك القوانين. الحقيقة أن محاكمة بدامسى كانت تحديا كبيرا بالنسبة للفنانين ، إلاّ أن القانون سار دربه ، و بقضاء الرشيد (فى محاكمة بدامسى) أقام مثالا سيؤمن حرية الفن على

Converted by Tiff Combine - unregistered

مدى العصور المقبلة. و في العام نفسه منحته رابطة الفنون الجميلة (كلكتا) ميدالية ذهبية. ثم عاد بدامسي إلى باريس و ظل يعرض لوحاته في المعارض الفرنسية. و في سنة ١٩٦٩م انتخبته الحكومة الهندية لمنحة نهرو قدرها ثلاثة آلاف روبية شهريا. الآن يعمل بدامسي على إعداد دراسة من الفن و الحكومة تعطيه عشرة آلاف روبية كل سنة للسفر خارج البلاد.

و قبل التعمق في رسوم بدامسي ، يبدو من المناسب أن نذكر شيئا عن نظريته الفنية. إنه يرى أن التصميم لا يرتبط فقط بسطح الكنفاس ، و إنما له علاقة مباشرة بعمل الفنان ، و أن تصميم الكنفاس يختلف أمره عن تأثيث الغرفة ، بمعنى أن التصميم الفني لا يكون موجودا فنيا ما لم يرتبط به عمل الرسام ارتباط الروح بالجسد. و طبعا فان التخيل أيضا يتصل بعمل الرسام و لا بالأطروحات الخلفية أو التوقعات المستقبلية. الثواني و التصور في بادئ الأمر كوائن لا يختلف بعضها عن البعض. فاللحظات التي يقضيها الرسام قبل عمله التصويري ، هاتها هان اللحظات التي يمر بها إنسان يشق طريقه بين الثلوج. فالرسام - كباحث عن طريقه بين الثلوج - يجتهد ليجد في طيات وجدانه شكلا. إذن يمكن القول بأن الصورة في إطارها المنظور عالم مشهود بحد ذاته ، و في فني عن منظر خارجي. فالمشهد - كما ينظر إليه بدامسي من منظوره الجمالي - في وجوده لا يدين لأشكال هندسية فقط ، بل انه يستمد من الدمى الوجداني الذي يحفز الرسام و يبعثه على التعبير عن أحاسيسه و مشاعره الداخلية.

عمل : أكبر بدامسي

بدأ بدامسي حياته الفنية بعرض سلسلة من الصور بعنوان " الوصول "

Converted by Tiff Combine - unregistered

خلال الفترة ٥٢- ١٩٥٥م ، و مع أن هذه التجربة لم تكن تجربة فريدة من ناحية الموضوع ، إلا أنها تمتاز بالتركيز و الرصانة لو نظرنا إليها من الناحية الجمالية. و هكذا فان رسومه في تصميمها العام تبدو في أقصى البساطة ، و للصور وجوه متمايزة و صدور و أكتاف رحبة ، و هي مصورة عامة إلى السرّة . و بعبارة أخرى يمكن القول إن صورا مختلفة تمثل شخوصا مختلفة ، و لو تعمقنا فيها لوجدنا أن اللوحات التي رسمها بدامسي خلال عام ١٩٥٢م، انطبعت بطابع الرسم الشعبي ، و في صياغتها العامة تشكلت من عناصر تعد من خصائص الفولكلور. إلاّ أن رسومه المنتجة أثناء ١٩٥٥م ، تنم عن النضج و التجدد ، و في تصميمها اللوني و خلفيتها المفعمة بالأسرار و في جلال وجوهها و نقاسيمها الرشيقة :"تلمس ثقة الفنان على أتم وجه. ثم اتجه بدامسي إلى مواضيع أخرى مثل التعري و سكون الحياة ، و في عام ١٩٦٠م اتخذ من الموضوعين - رسم المنظر و التعري - شغلا شاغلا عن غيرهما. و أولهما صار قاسما مشتركا بين الصور التي أنتجها في الفترات اللاحقة. إلاّ أن رسمه للمنظر يختلف عن رسمه عند رضا ، فالأخير - كما ذكرنا سابقا- لم يعد يهتم بشيء سوى التجريد ، بينما لم يقبل بدامسي على التجريد المحض، و إنما اقتنع بتنظيم يعكس الموضوعية و لكن من دون أن تكون لها صلة ما مع البيئة أو المؤثرات الطبيعية. في هذا الأسلوب يكون لفعل الرسام دور كبير و لذلك فان الصور المرسومة فيه تكون مزيجا رائعا لفعل الرسام و انفعاله.

أما عن طيب مهنا فانه ولد في بومباي عام ١٩٢٥م ، و أكمل دراسته في مدرسة جاي. جاي. للفنون خلال ٤٧-١٩٥٢م ، و في عام ١٩٥٩م انتقل إلى لندن و استقر هناك لغاية ١٩٦٤م. و في العام اللاحق عقد معرض منفرد ، و منحته الأكاديمية للفنون الجميلة الجائزة الوطنية. أنه مثل الهند في عدة معارض دولية. و في شهر مارس ١٩٦٨م ، سافر إلى لندن على دعوة من معهد الكومنويلث ، و عرض في متحف المعهد بعض روائعه الفنية. و أثناء سفره إلى لندن تلقى منحة من مؤسسة روك فيلار، فذهب إلى الولايات المتحدة لمدة سنة. و هو مقيم حاليا في دلهي.

في المرحلة الأولى من حياته الفنية عمل طيب مهنا تحت تأثير تجارب بدامسي. و لوحاته المنتجة في هذه الفترة عامة تألفت من صورة أو صورتين و بألوان شاحبة و هادئة للزرقة أو السواد. و خلفية اللوحات عامة تألفت من مناظر حزينة شاحبة ، و الصور بدت في أقصى البأس و الحزن. و في تلك المرحلة كان مهنا يركز جلّ الإهتمام على إبراز المسافة بين الصورة و الخلفية عبر تنظيم الألوان. و بذا فان الصورة تارة تميزت عن الخلفية ، و تارة بدت كأنها تتحلل في البيئة المحيطة بها. و في عام ٦٥-١٩٦٦م ، زار طيب مهنا بعض المناطق الحدودية التي كانت ساحة حرب ثانية بين

Converted by Tiff Combine - unregistered

عمل: طيب مهتا

Converted by Tiff Combine - unregistered

الهند و باكستان ، فتركت أهوال الحرب تأثيرا عميقا على تفكيره الفنى ، و انتاجاته الفنية من تلك الفترة تكونت من صور و أشكال متفسخة و بأعضاء ملتوية بفعل الألم. و لا مجال للشك فى أن هذه التجارب حررت أسلوب مهتا من تأثير بدامسى ، و أعطت فنه نوعا من الفردية. إلاّ أنه بتركيزه على جانب من مختلف جوانب الحياة ، بات يكرر نفس الموضوع و نفس الوحدات مرة تلو أخرى.

و يأتى إسم محمد يسين فى طليعة قائمة الفنانين الشباب من مدينة حيدرأباد. إنه درس الفن التشكيلى فى الكلية الحكومية بمسقط رأسه ، و لدى انعقاد المعرض الوطنى السنوى فى عام ١٩٥٩م، منحته أكاديمية الفنون الجميلة أكبر و أهم ميدالية " البليكة الذهبية " لم يحصل عليها أى رسام أو نحات منذ ذلك الوقت. و فى العام اللاحق أتيحت له الفرصة للسفر إلى الولايات المتحدة لدراسة فنون التخطيط " الغرافيا " ، و فى أثناء نفس الفترة زار يسين عدة متاحف و معاهد فنية فى امريكا و أوربا. و بعد عودته إلى الهند ، التحق بكلية دلهى للفنون، و ما زال يؤدى الخدمات فى نفس الكلية. لكنه - على ما أعرف - لم يساهم فى أى مسابقة فنية منذ فاز بجائزة " البليكة الذهبية " فلنا منه بأن مثل هذه الأنشطة لا تتلاءم مكانته الرفيعة. غير أننا نحن جماعة الفنانين نعلق آمالا كبيرة عليه كفنان ، و نرجوا أن يقوم بعرض منتجاته و روائعه على جمهور المشاهدين من حين لآخر، و إلاّ فانه يمكن أن ينساه التاريخ على عظمته و جلالة مكانته.

إنتاجات يسين خلال الخمسينات من القرن الراهن، تأثرت من الأسلوب المكعبى. و بالرغم منه فقد سرت فيها روح الهند ، و انه ظل يركز على الحضارة و التقاليد الشرقية بألوانها المتعددة.

و لقد التحق غلام محمّد شيخ بكلية بارودا للفنون ، و تخرج منها بعد الحصول على شهادة الماجيستير فى الرسم ، ثم انضم إلى نفس الكلية كمحاضر.

زار غلام محمّد شيخ بعض الدول الأوربية لتعلم المزيد عن الرسم ، و حاليا يمارس تجارب فى الأسلوب العجائبى، و يتولى أيضا رئاسة تحرير مجلة فنية "ورفتشلك". و هو أحد أبرز أعضاء جماعة بارودا للفنانين.

و عن زرينه هاشمى ، فانها اكتسبت سمعة فى الفن التخطيطى (الغرافيكس) و حصلت على جائزة وطنية من أكاديمية الفنون الجميلة / نيو دلهى ، و كانت فى باريس لفترة قصيرة لتعلم هذا الفرع من فروع فن الرسم.

اتخذت زرينه هاشمى من عرض قشر الأشجار و إبراز سطوحه الطبيعية ، موضوعا لفنها. و رسمها يمتاز بالسذاجة و الرتابة. لكننى لمغنى أن اتصالها بموضوع و عرضه متواصلا فى نفس الشكل ، قد لا يتسبب فى

Converted by Tiff Combine - unregistered

إصابة فنها بالجمود ، مع العلم بأن هذا الوضع ينبئ بأخطار كبيرة خاصة بالنسبة للتجريد العملي - و رغم أن بعض النقاد يصف هذا الوضع بالاستقرار الفني ، إلا أنه في نظري ينذر بزوال الإبداع لدى الفنان.

و تتمتع أمينة أحمد كُرْ بمعرفة واسعة لدقائق فن الرسم ، و تتناوله في مقالات باللغة الإنكليزية من حين لآخر. و فيما يتعلق الأمر بأسلوبها في الرسم ، فانها تتميز من غيرها من الفنانين بالإنهماك في الرسم التجريدي. و إنتاجاتها الفنية باتت تتسم بالطابع الأمريكي منذ أن عادت من الولايات المتحدة.

و نصرين محمدي و فاطمة أحمد و شمشاد حسين من الفنانين الذين اتخذوا من التجريد النسبي أسلوبا خاصة من الناحية التقنية. و للفنانتين المذكورتين أولا، رواتع يزدان بها المتحف الوطني للرسوم. و لكاتب هذه الأسطر أيضا ثلاث صور في المتحف الوطني للفنون الجميلة ، و صورة في أكاديمية الفنون بكلكتا. و إنني أحاول أن أجرب الرسم الجديد مع رعاية مقتضيات العناصر الشرقية. و في عام ١٩٨٩م حصلت على جائزة من الأكاديمية الوطنية للفنون.

و يوسف أرمكي و يوسف البوبالي و إ. ك . قدواني و أفتاب أحمد و فيروز حسين و إيه. آر. جان و شائستة إمجاز و أم. إيه محبوب و شبير قاضي و أكمل حسين ، من الرسامين و النحاتين المسلمين الذين يسعون لكسب الإعتراف على المستوى الوطني.

• تعريب: راشد علي

Converted by Tiff Combine - unregistered

الرامايانا فى المنظور العالمى

د / تارا شرن رستوجى
جوتا هاتى، أسام

تحتل الديانة الآرية التى سميت قبل القرون الوسطى بالديانة الهندوسية مكانة بارزة بين أقدم الديانات فى العالم. و يعد الرامايانا و المهابهارتا من أشهر الملاحم فى العالم و خاصة الرامايانا له سمعة فريدة منقطعة النظير. و ينظر إليه من وجهات نظر مختلفة فى العديد من البلاد فى العالم.

إذ أن الرامايانا من الميثولوجيا أو الأساطير القديمة ، فلا بد من التعريف أولا بهذه الكلمة لأن ترجمتها فى بعض اللغات الهندية الحديثة ليست دقيقة. إن كلمة الميثولوجيا (Mythology) المستعملة بالإنجليزية تتركب من لفظين: الأول Myth يعنى " البطولة الخارقة " و الثانى logy معناه "العلم".

و ليكن معلوما أن اللغات اليونانيـــة و السنسكرتيـــة و اللاتينيـــة و الفارسية القديمة كلها تنتمى إلى أسرة واحدة ، فتعنى كلمة (Myth) أيضا هذه المعنى كما أنها تنطوى على أسرار غامضة فى صور القصص. لذلك ليس استعمال كلمة Mythology بمعنى أسرار خرافية صحيحة. و هذا ما يتفق عليه خبراء علم الإنسان.

إن البورانا (الكتب الهندوسية القديمة) أيضا مخصوصة بالأساطيـر و دائرة كلمة البورانا (Purana) بالسنسكرتية وسيعة جدا. إلا أنها تعنى على وجه عام الحوادث القديمة، و ذلك إلى جانب احتوائها معان حديثة و مفاهيم عصرية أيضا.

كان الحديث قد بدأ من الميثولوجيا (Mythology) و إنّ الرامايانا الذى يعد ضمن هذا النوع ، يتعلق بالديانة و الثقافة أيضا. و لا يراد بهذه الكلمة، البوذية فى اندونيسيا و الملهزيا ، لا عند الهندوس و لا المسلمين بمعنى البلوغ إلى المعرفة. و إنما يقصد بها الثقافة. فنريد أن نستعرض الرامايانا فى هذا المقال فى المنظور العالمى.

Converted by Tiff Combine - unregistered

يلقب مؤلف هذا الكتاب، باللغة السنسكريتية ، المهارشي فالميكي بـ "آدي كوي" " [illegible] " أي "أقدم الشعراء" أو بكلمة أخرى إنه كان أول شاعر عبر عن أفكاره و خيالاته بطريقة أصبحت منظومته رائعة من الروائع العالمية، كما يقول شاعر الهند الذي أن الشاعر ينحت بوجدانه و فكرته تماثيل رائعة.

كانت مدينة أجوبهيا (AYODHYA) عاصمة مملكة كوشل في القرن الثاني ق.م. و قد بدأت ديانة ملوك كوشل و صفاتهم و أعمالهم البطولية المجيدة تجد مكانا بارزا في أفلان و حكايات شعبية. و كان فالميكي ملهما بثلاثة أشياء و هي : الإبداع (Creativity) و العمل (Action) و التركيز (Concentration) فقد جمع كلها في ملحمة واحدة. و تشتمل هذه الملحمة على القصص البطولية و فلسفة الحياة و الموت و العلوم و الفنون و الفلسفة و المعرفة و الوجدان و ما إلى ذلك من الأشياء الأخرى المتعلقة بالإنسان.

على هذا ، الرامايانا قصة طويلة و يلعب فيها راما (Rama) دورا رئيسيا و تدور منظومته الطويلة كلها حوله في أسلوب شعري رائع. إن الرامايانا في هذه الملحمة تجسيد للروح حيث أن روحا مجردة من الجسد لا تنفع لعامة الناس و لا تحقق الغرض المنشود في تبليغ رسالة الأمن و السلام. لذلك اقتضت حاجة إلى التجسيد. و الرامايانا رسالة من هذا النوع. و هذا هو السبب بأنه لقي إقبالا كبيرا في العالم كله.

عقدت جمعية الرامايانا مؤتمرا دوليا بدلهي في ٢٧ نوفمبر عام ١٩٨٤م و اشترك فيه عدد كبير من المندوبين من جميع أنحاء العالم. و فيما يلي تفاصيله :

الملايشيا :

تشتهر الرامايانا في الملايشيا بحكايات السري رام. و قد قيل في الحكاية أن آدم عليه السلام كان جدّ الملك دستراتا. و مرة كان دستراتا يذهب إلى مكان و هو راكب على فيل ، فحدث أن سقط فجأة في الطريق على الأرض. فانطلقت إحدى خادماته، فسر بها الملك و وعد بأنه سوف يمنح لإبنها حكومته. فلما ولدت له إبنا سماه بإسم "وردان". و كان ذلك أصغر سنا من أولاد الملكة "منذ وري" و هما راما و لاكشمان. و وفاء بذلك الوعد عيّنه الملك وليا للعهد. كانت الملكة " مندوري " جميلة جدا. فالتقى " راونا " بجمالها الباهر. كان راونا قد عبد الله لمدة عشرين عاما واضعا رأسه على الأرض و رافعا رجليه نحو الفوق. فجزاه الله بإعطائه مملكة الأرض و السماء و البحار. و كان لراونا ثلاثة لأطفال و هم "إندرجيت" و "مها راونا" و "مها شري". و قد سلّمهم راونا حكومات الأرض و السماء و البحر بالتوالي.

Converted by Tiff Combine - unregistered

ثم حاول اغتصاب مندورى الفاتنة الجمال ، فاختفت هى و خلفت مـن عرقهـا مندورى أخرى لتقدمها له ، فانخدع راونا بها و أخذها معه. و ولدت تلك الإمرأة المختلقة بنتا له سماها "سيتا" و تكهن المنجمون بأنها سوف تكون سيئة الطالع و تتسبب الهلاكة لوالدها. فلما سمع راونا ذلك وضعها فى صندوق و ألقاها فى البحر. ظل الصندوق يسبح فوق الماء حتى وصلت إلى أيدى ناسك. فأخذها الناسك و لما بلغت سيتا سن الزواج اشترط الناسك بأنه سوف يزوجها مع الشاب الذى يخرق أربعين شجرة بسهمه برمى واحد. فلم يفعل ذلك إلاّ راما و هكذا أصبحت سيتا زوجة له. و بعد مدة قليلة اغتصب راونا "سيتا". و فى أثناء الطريق قامت معركة شديدة بينه و بين جتايو. و لم يكن راونا على علم مطلقا بأن سيتا هى بنته التى ألقاها فى صندوق و ألقاها فى البحر. و فتح راما لنكا بمساعدة هنومان (إله الهنود بشكل قرد) و سكريو. ثم أصبـح " لو " إبن راما ملكا على لنكا. و بعد ذلك تزوج هنومـان مع بنت " لو " ، و تزوجـت أخت راما "كيكئى" مع ويبهوشن. و خلاصة القول إنه بعد حكم دام لمدة طويلـة ذهب راما مع سيتـا إلى الغابـات بعد إعطـاء المملكة لـ "كشن".

إن حكايات راما شائعة كثيرا فى الملايـو. فقد ألفت مسرحيات عديدة مستوحاة من قصص راما. و من الطريف أنه مع كون إسم راما و القصص تختلف باختلاف الأماكن و اللغات ، فانها تنال شعبية كبيرة و حتى فى الملايـو التى توجد فيها أكثرية المسلمين.

إندونيسيا :

قد نظم الشاعر "يوگيشور" أقدم رامايانا فى اندونيسيا فى لغة تشبه اللغة السنسكرتية. و توجد حكايات راما منقوشة حتى الآن على الأحجار فى مدينة جاكرتا التى كانت تعرف قديما بإسم برابهن (Prabbana). و إن دلّ ذلك على شىء فانما يدل على أن آثار الهندوسية قد بدأت تظهر خلال القرن الأول من الميلاد ، فى حين جاء التجار العرب بالإسلام إلى هذه الجزائر فى القرن الثالث عشر الميلادى. إلا أن أهمية الرامايانا و المهابهارتا لا تزال بادية فى ثقافة هذه البلاد. فتعرض الحكايات المستوحات من راما و سيتـا و هنومان و جتايو و راونا و غيرها فى رقصات فى إندونيسيا. و كذلك توجد آثاره فى الأزياء و الرقص و الروايات المنظومة أيضا. و فضلا عن ذلك إن فن الرمى شائع كثيرا فى إندونيسيـا. و عن طريقة لعبتهـا تقدم حكايات الرامايانـا و المهابهارتا هناك.

و خلاصة حكاية الرامايانا فى إندونيسيا أن الملك دسترلتا ، هو ملك أيوديهيا و كان متصفا بكل الصفات الحسنة. و كان قصره مشيدا بالرخام

Converted by Tiff Combine - unregistered

الأبيض و مرصّعا بالذهب و الفضة. و لما بلغ التسعين من عمره ، أصدر أمرا بتسليم الحكم لأكبر أولاده " راما ". و كذلك تذكر حكايات متعلقة بكيكنى و إقامة راما فى كانش وتى ، و اغتصاب سيتا ، و المعركة بين راونا و جتايو و ذهاب هنومان إلى لنكا ، و عبوره البحر، و فتح راما للنكا ، و رجوعه إلى أوديا و تتويجه و ما إلى ذلك. و يظهر أن كلها مستوحاة من الرامايانا.

إن حكايات الرامايانا مندمجة فى الثقافة الإندونيسية بطريقة لا تعدّ غريبة من الإسلام مع أن أكثرية الهندوس لا تسكن إلاّ فى جزيرة واحدة فقط.

لاؤس (LAOS) :

كانت لاؤس تسمـــى قديمـــا بـ "سوانان فـــوم بتيت" (SVANAN PHOM PATHET) و هو نطـــق مشـــوه لكلمـــة ســـوران براديس (SVARN PRADESH) فقـــد كتب المـــؤرخ الشهيـــر للاؤس فيـــراودونج (VERAVDONG) أن بورما و الملايو و التيلاند و كمبوديا و فيتنام كانت قبل الفين و خمسمائة سنة من أجزاء لاؤس.

و قد أنشئت شمبا (الموجودة الآن فى فيتنام) فى القرن السابع الميلادى. و إن معبد ثالميكى مازال موضع اهتمام بالغ هناك لأنه لا يوجد معبد آخر يلهم شاعر الرامايانا العظيم فى قارة آسيا كلها. إن آثار الرامايانا تتجلى هناك فى الرقص و المسرحية ، و الموسيقى و الرسم و نحت الأصنام و التماثيل و الكتب التى تتلى فى مناسبات خاصة ، و كذلك فى مخطوطات و عددها ست مخطوطات حسبما ذكره كملا رتنم و منها مخطوطة تنقسم إلى ثلاث و أربعين جزءا و قد شاهدها البروفسور كملا رتنم تلك الأجزاء فى عام ١٩٦٠م فى متحف ذلك البلد. و تذكر الرامايانا هنا باسم بريا لاكشمان بريارام (PRIYALAKSHMAN PRIYARAMA) و يقام مسرح ضخم لعرض حكاية راما. و هكذا هناك أثر كبير على أسمـــاء الأماكـــن مثل انشناكهـــون (أندر برستوتكر) بى كانج (مان جنج) رامهلناسان (راوليشور) بارى (بالى) كروك ثاهناهجن (كروكيفر) و كلسى (كاشى) انكوت (انكر) و غيرها.

إن الرامايانا تعتبر رمزا للنظام الرأسمالى ، و راما يرمز إلى عصر برونيتارى. و قد خاض الناس هناك معارك من أجل الحرية و الاستقلال مستلهمين حرب العصابة لراما و هنومان و لو أن العديد من حكايات الرامايانا هنا تختلف من رامايانا ثالميكى.

صنغوليا:

جمع إيستين (Aelstein) المخطوطات المتعلقة بحكايات راما المكتوبة

Converted by Tiff Combine - unregistered

خلال القرنين الثامن و العاشر من الميلاد من تركيا الشرقية فى عام ١٩١٦م. إن راما فى تلك المخطوطات مذكور باسم " رمن " و كما يعتقد بأن حكايات راما قد وصلت إلى منغوليا عن طريق كشمير و تبت. هذه الحكايات كلها مأخوذة من كتاب دسترااتاجاتاكا (DASRATHAJATAKA) من تاليف راهب بوذى. و ترجم هذا الكتاب السنسكرتى إلى اللغة التبتيـة فى القرن الثامن عشر و كذلك يعتقد بأن حكايات راما قد وصلت إلى منغوليا بواسطة لغة خصان المتشابهة باللغة البالية فى القرنين السابـع و الثامـن الميلاديين. و قد ذكر والد راما بإسم " اوبرا " و ليس " دسراتا " و مهما يكن من الأمر، فان شخصيات راونا و سيتا و غيرهما ممزوجة فى تلك الحكايات.

اليابان (JAPAN) :

يوجد فى اليابان كتابان ، كتبا فى القرن الثانى عشر و هما : تاترادوتاسوفورى(TAERANOYASOPURI) و هو بوتسوشو (HOBUTSUSHU). و يوجد فيهما حكايات عديدة عن راما. و لهذا التاليف مخطوطـات عديـدة. و الكثير فى هذه الحكايات تتشابه مع حكايات الرامايانا للفالميكى و لكن بعضها الأخر تختلف منها.

الصين :

فى الأدب البوذى هناك كتاب إسمه جاتاكا (JATAKA) و هو يعتبر مخزنا للآداب الهندية بل آداب العالم كلها. و فى الكتاب حكايات يمكن اعتبارها حكايات الرامايانا مثلا نالنكا (NALINIKA) و البوسا (ALAMBUSA) و جـكـديش (JAGADDIS) و مها جـاناك (MAHAJANAK) و نمى (NIMI) و كذلك فى انّاما كام (ANNAMAKAM) ليضا قصص من الراما. و قد كتب هذا الكتاب ناسك فى سنـة ١٠٥٢م و ترجم إلى اللغـة الصينيـة باسم كانج لينجـواى (KANGLINGHUI) من اللغة البالية و هكذا إنتقلت حكايات الراما فى القرى الصينية خاصة من جيل إلى جيل.

بورما :

هاجر الناس من المناطق الساحلية فى الهند و خاصة من تاميل و تيلغو و أوريـا و البنغـال إلى بورما فى القرن الأول الميلادى و إستوطنوا هناك. و قد انتشرت الديانة البوذية خلال القرنين الحادى عشـر و الثالث عشـر و تحوّل معظم الناس هناك إلى الديانة الجديدة فى مدة قليلة. و كان هناك

Converted by Tiff Combine - unregistered

ملك إسمه كايانجيتا (KAYANJITTA) يدّعى بانه ينتمى إلى أسرة راما. و قد وصلت حكايات كثيرة متعلقة براما إلى بورما من الهند. إلاّ أن مسرحية الرامايانا التى تعرف باللغة البورمية باسم يامابوى (YAMAPVY) . قد وردت من "سيام" إن بعض الحكايات منها تختلف من حكايات قامبكى. فمثلا لما سقط هنومان و هو يحمل جبلا مملوءا بعقاقير ثمينة بعد أن اختل توازنه فى مكان فنشأت منه جفرة و تحولت بعد ذلك إلى بحيرة فسميت بـ "أن بونج" (INBAUNG). و كذلك الحكايات الأخرى مثل حكاية إخفاق راونا فى حمل قوس سيتا. و إن خط لاكشمن و غيرها من الحكايات التى مازالت تحكى هناك بدون أى تغيير.

يقام المسرح فى بورما مزدانا و متألقا بطابقين و يلبس الممثلون أزياء ملونة بهيجة مزينة بأدوات الزينة البراقة اللامعة. و تستمر المسرحية طوال الليل. و يضع الممثلون وجوها مصطنعة بالجلود على وجوههم.

التيلاند : (Thailand)

يعرف الرامايانا فى التيلاند باسم رام كين (RAMAKINA) و هو ملخوذ من كلمة سنسكرتية "رام كيرتى". و يعتقد أهالى التيلاند أن قامبكى هو الذى نظم رام كين قبل ألفين سنة. و يعرف اسم سيتا فيه بـ " سيدا ". و مسراتا بكلمة دوسروت. و البهاراتا تنطق " بروت " و شوربنكها (و هى أخت راونا) تشتهر بـ "سمّن" و لصبح سكريدهنا "سكليب" و كشكندهيا "كهندرى".

للمسرح فى التيلاند أهمية خاصة فتعرض حكايات راما بصور تضاء بالأنوار من الخلف حتى يزيد رونقها و بهاءها. و يقال لها بالإنجليزية TRANS-PARENT STAGING و تكون هناك معظم الصور مصنوعة على الجلود.

و المراد من كهون (KHAUN) منهج العمل و يعرض به حكايات راما بواسطة الموسيقى و الرقص.

تتشابه أسماء العديد من الأماكن فى التيلاند مع الأسماء الهندية. فمثلا كان هناك ملك تسمى مهى بال برجا دهيباك (MAHIPAL PARJA DHIPAK) و تعرف هذه الكلمة بالسنسكرتية " مهى بال برجا ادهى باتى (MAHIPAL PRAJA ADHI PATI).

كمبوديا :

كان التجّار الهنود يأتون هنا من مواني، ولايات أوريسة و أندرا براديش و آسام و البنغال عن طريق بورما ليتجروا فى البلاد.

Converted by Tiff Combine - unregistered

المجاورة لها. لذلك تعززت روابطهم مع القبائل الساكنة في جنوب شرق آسيا. و يشهد تاريخ الصين و بورما بأن الهنود قد سيطروا على المناطق العديدة هناك خلال القرن الأول الميلادي. و قد أسس برهمي هندي إسمه كوندية (KAUNDI) نظام الملكية في كمبوديا. و قد كتب الكاتب الشهير آر. سي. موجومدار أن الآثار الهندية واضحة تمام الوضوح على طريقة الحياة هناك. إن الرامايانا الذي يسمى هناك رام كير (RAMAKIR) له أثر بالغ على ثقافة خمير و الفنون الجميلة. و إن الجزء الكبير فيه مبني على رامايانا فالميكي مع وجود بعض الخلافات بينهما. إن قصة راما لها دور مركزي ، فتجسيد الإله في صورة راما و القضاء على السيئات ثم العودة من الدنيا ، هذه كلها موجودة في رام كير. إلاّ أن هنـــاك بعض التغيـــرات في الأسمـــاء. فيعرف فشنـــو بـ فرانارايا (FRANARAYA) ، و الإله يعرف بـ فرا ايشو (FRAISU) و سيتا بكلمة نيانجرا سيتـــا (NAYANGRA SITA) ، و مندوري بلفظـــة نيانجرا مندوجري (NAYANGRA MANDOORI) و راونا باسم "راب".

رغم أن أكثرية الناس في كمبوديا تعتنق الديانة البوذية ، إلاّ أن الناس هناك يحتشدون بأعداد ضخمة لسماع حكايات راما التي تقدم في شكل أفلام و تمثاليل أو بصورة مسرحية تعرض على مسارح عامة و يتمتعون بها. و إن فتح راما يحتفل به احتفالا كبيرا.

شـــــرى لنكا:

رغم أن أغلبية الناس في شرى لنكا تؤمن بالديانة البوذية إلاّ أنها ليست خالية عن حكايات راما. فقد أخذ مبشرو الديانة البوذية دشراتا جاتاك (DASRATHA JATAKA) معهم.

بيد أنه تختلف راما و سيتا من القصص المذكورة في الرامايانا للفالميكي شيئا مّا. كما تعتبر سيتا أختا لراما و لكشمن. و بعد التتويج هي تصبح ملكة للأخوين. و لما رجع رام من المنفى في الغابات إلى بنارس ، اغتصبها راونا ، و بسبب ذلك قامت حرب بينهما.

كانت لنكا تعرف قديما بجزيرة سنهل (SINHALADUEPA) و تسمى كتاب "جانكي هرن" (JANAKI HARANA) المكتوب باللغة السنسكرتية بمكانة مرموقة في الأدب السنهالي. و كانت تطلق كلمة لنكا على جزيرة سنهل كلها. و لكن كم كانت مساحة لنكا المذكورة في الرامايانا هذه فقد بقيت لغزا. و حتى الآن تحتاج إلى الحل. و قد نظم الشاعر "كمار داس" كتابها بعنوان " جانكي هرن " قبل قرن من الميلاد. و إن لنكا التي ذكرها "جانكي هرن" كانت لنكا أخرى. و كذلك ذكر ذهر الفوداوري باسم "لنكا ورن". و توجد في بعض مخطوطات جانكي هرن أسماء أنهار تامراواني (TAMRAVANI)

Converted by Tiff Combine - unregistered

الكاويرى ، و الريوا (نهر النرمدا الآن) و من الممكن أن كانت المنطقة الممتدة إلى هذه الأنهار تحت سيطرة راونا. و الحروب المذكورة فى الرامايانا جرت هناك ، فلا يوجد هناك ملك باسم راونا فى تاريخ شرى لنكا. و إنما كان طبيبا ماهرا ألف كتابا و ذكر فيه علاج الأطفال بعقاقير الغابة بالتفصيل ، و غير ذلك من الأشياء.

ماريشيس:

بدأ تجنيد الهنود فى ماريشيس منذ عام ١٨٢٤م و كانت أغلبيتهم من ناطقى اللغة البهوجبورية من ولاية بيهار. و قد زاد عدد الهنود هناك بمرور الزمن حتى أصبح السكان الأصليون فى الأقلية إلى حد أنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على هويتهم و مميزاتهم الخاصة.

و قد حمل المهاجرون من ولاية بيهار معهم مخطوطات رام چرترمـــانس (RAMA CHARITRA MANSA) التى نظمها تلسى داس بخط كيتهى. (و ليكن معلوما أن خط كيتهى يتشابه بخط ديوناگرى - الخط الهندى الحديث) و فى هذا الخط توجد كتب أرجن غيتا ، و وشنو پوران، و غوركهـ شنكهـ و يم غيتا ، و هنومان چاليسا ، و دوارکا پورى مهاتمه ، و هنومان باہك ، و شرى رادها انوگره ، و يوى موهن و غيرها.

و قد ظلت أجزاء الرامايانا المسبعة تكتب على انفراد. لذلك لم يكن يوجد الرامايانا قبل عام ١٩٤١م فى مجلد واحد. فقد عنى مجمع الأدب الهندى بطباعته فى عام ١٩٤١م فى ماريشيس و نتيجة لذلك قد طبع طباعة أنيقة باللغة الهندية فى ماريشيس. و الآن توجد هناك مدرسة خاصة لكتاب الهندية التى تحوى فى طيها خصائص الهند و ماريشيس.

نيبال :

إن نيبال بلد هندوسى وحيد فى العالم. فيمكن رؤية مخطوطات عديدة للرامايانا التى كتبها قاليكى فى متحف كاتماندوا (KATHMANDU)، عاصمـــة نيبـــال. و بالإضافة إلى ذلك ينطوى الأدب السنسكرتى النيبالى على أهمية كبيرة. فقد ألف كبار الشخصيات الدينية و النساك العديدون المذاهبون من الهند كتبا عامرة بالروحانية فى اللغة السنسكرتية و لم تترجم منها إلاّ بعضها إلى اللغات الهندية و الإنجليزية. و لنيبال لغة وطنية خاصـــة يقال لها لغـــة غوركهـــا (GORKHA) و هى تزخـــر بالتراث النثـــرى و الشعرى. و فى هذه اللغة تتوافر الكثير من الحكايات الشعبية. و إن رامايانا بهانو بهكتية المكتوب باللغة النيبالية يحظى بشعبية كبيرة. و قد ألفـــه بهانو بهكت الساكـــن فى منطقـــة تنوة الواقعة فى غرب كاتماندو و المولود فى عـــام ١٨٦٩م. إن هـــذا الكتاب مبنى على أدبيـــات رامايـــنا

Converted by Tiff Combine - unregistered

(Adhyatma Ramayana) المكتوب باللغة السنسكرتية و يختلف قليلا عن الرامايانا للفاليكى و توجد له أيضا سبعة أجـــزاء مثل الرامايانا لتلسى داس و قد استخدمت البحـــور السنسكرتية فى هـــذا الكتاب. إن النيبالية لا تختلف كثيرا من الهندية من ناحية اللغة. فهناك ألفاظ كثيرة من اللغات البهوجفورية و البنغالية ، و الأوديهية و البنجابيـة و غيرها بوفرة حيث أن الطلاب الكثيرين من الطبقة العليا فى النيبال قد تعلموا فى جامعات بنارس و كلكتا ، و هم تركوا أثرا كبيرا على اللغة النيبالية. فقد كان رئيس الوزراء السابق فى النيبال السيد " كونريلا " كاتبا معروفا. و الآن تتوفر تراجم لرام چرترمانس (من تأليف تلسى داس) باللغة النيبالية.

إيـــــران :

تبرز من الدراسة المقارنة بين الشاه نامه و البورانا (الكتب الهندوسية القديمة) مشابهات كثيرة منها على سبيل المثال الأسماء الآتية:

الشاه نامه	البورانا
جمشيد	يم ديفا سوت (Yama Devasot)
	(و تنطق "يم" "جم" أيضا)
اژدهاك	أهى دانافا (Ahi Danava)
كاوه	كوى أشنا (Kavi Ushna)
	(الذى أسند العرش لفريدون)
فريدون	فاروترى (Varetri)
سهاوش	شراڤاشترا (Shiravastra)
لهرا سپ	هريشفا (Haryshva)
گستا سپ	كريشنيفا (Krishneshva)
دراز دست	تريس دوسيف (Tris Dosiv)

ورد فى الشاه نامه ذكر ملك باسم جمشاب. و نفس الإسم ذكر فى البورانا بكلمة كوشلشو الذى كان ملكا لأيوديا. و كانت إمبراطوريته ممتدة إلى ما وراء حدود إيران.

لا توجد ذكر راما و سيتا فى الشاه نامه فى إيران. و لكن ملكا لأيوديا ، كما قيل آنفا ، قد ذكر ضمن أسلاف راما. إن فى الشاه نامه أدوار عديدة لشخصيات من المهابهارتا. و قد ذكرها المستر م . ژ. دارستتر فى مقالته القيمة بعنوان *"العناصر المشتركة بين الشاه نامه و المهابهارتا"* فى العدد ١٢ ، لمجلـة "هند و مريم" ، الصادرة فى الطهران.

Converted by Tiff Combine - unregistered

غير البلاد الأوربية الأخرى :

فيجى (Fiji) : بلد صغير تشتمل على جزائر متعددة قرب استراليا و إذ أن هناك يوجد الهنود بأغلبية فقد حاول الجنرال ريبوكا (Rebuka) القضاء على سيطرة الهنود بإقامة نظام عسكرى. و يوجد هناك مسلمون و هندوس و مسيحيون من نسل هندى. و يشاهد الهنود مسرحيات مستوحاة من الرامايانا و ما تحكى قصة "الرام ليلا" برغبة شديدة ، و يحضر فيها الناس من كل الأديان من أصل هندى بدون أى تمييز من العقيدة.

سورينام (Surinam) (الغيانا البريطانية سابقا) دولة صغيرة و كانت مستعمرة بريطانيا و هى الآن مستقلة. و يسكن هناك الناس من أصل هندى بأعداد كبيرة و لهم إلى جانب ذلك نفوذ سياسى أيضا فى الشئون القومية.

و كذلك الرامايانا لتلسى داس و الرامايانا المكتوب باللغات الهندية الأخرى تحظى باحترام كبير.

ترينيداد:

استقلت فى عام ١٩٦٢م. و إنها كانت قبل ذلك من المستعمرات الإنجليزية و قد استوطن العمال الهندوس من ولاية بيهار و اترابرديش الشرقية بالهند بأعداد كبيرة و تجنسوا هناك. و هم أحرزوا تقدما كبيرا أيضا. و قد كان وى. ايس. نيهال (V.S. Naipal) من سكان ترينيداد. و كانت لأخيه الصغير مكانة مرموقة فى الآداب الإنجليزية. و إن اللغة البهوجفورية تستخدم كثيرا بين الهندوس من الأصل الهندى. و اللغة الهندية أيضا تستعمل فى الأسواق و يعقد هناك حفلات دينية فى معابد الهندوس و تلقى فيها الخطب من الرامايانا. إن حكايات راما و سيتا و لكشمن معروفة جدا لدى الجميع.

أوربا: (Europe)

ألمانيا و إنجلترا و الإتحاد السوفيتى و إيطاليا هى فى مقدمة البلاد التى لها رغبة شديدة فى العلوم الهندية.

فتوجد مخطوطات عديدة للغة السنسكرتية و اللغات الهندية الأخرى فى المتحف البريطانى فى إنجلترا. "و قد درس اف. اس. گرو (F. S. Grow) الرامايانا لفالميكى و رام چرت مانس لتلسى داس درسا عميقا و نشر ترجمة رام چرت مانس ترجمة شعرية فى عام ١٨٧٦م و فى مقدمة الكتاب سلط الضوء على الحقيقة بأن رام چرت مانس لتلسى داس لا تقل روعة و عظمة من أية ناحية من الرامايانا لفالميكى. و هكذا استعرض سر جارج گرائرسون (Sir George Grierson) الرامايانا بدقة مما لفتت إليه أنظار الناس المهتمين

Converted by Tiff Combine - unregistered

بالعلوم الهندية في جميع أنحاء العالم و قد ترجم ريفد اتكنس (Revid Atkins) الرامايانا لتلسي داس ترجمة شعرية و طبعتها جامعة أكسفورد.

يعتبر ميكس مولير (Max Mueller) الألماني صاحب شهرة عالمية في العلوم الهندية. فقد ترجم كتبا سنسكريتية أكثر من أي مترجم أوربي اخر. و إنه لم يترك الفلسفة الهندية و ديانتها و العبادات و غير ذلك من العلوم الأخرى إلاّ و قد سلّط عليه الضوء. و قد نشرت الترجمة الأولى لرامايانا لتلسي داس في عام ١٩٢٥م و في برلين و الثانية في عام ١٩٥٤م في بريسلبه. و قد أنشئت جامعات كثيرة أقساما خاصة لتدريس لغات هندية متعددة.

و قد جرت دراسة الرامايانا لڤالميكي و الرامايانا لتلسي داس في إيطاليا دراسة عميقة. و نشرت جمعية جيورنل الإطالية مقالة قيمة لكاتبها الأديب المعروف ، الدكتور إيل. بي. تيستري في عام ١٩١١م. كما نشر له كتابان عن تلسي داس فيما بعد.

هكذا في كل جمهوريات الإتحاد السوفيتي أقسام لتدريس اللغات العالمية. و قد تعرف الروس بالرامايانا أولا في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر من المهاجر عن طريق ملخصات مكتوبة باللغة المنغولية. و قد وصلت حكايات راما بواسطة الأتراك و المنغول إلى ولغى ڤالجا (Volga). و قد إندمجت حكايات راما في القصص الشعبية بولغى و ڤالجا. و في القرن التاسع عشر ألقى تولستوي الضوء على حكايات عديدة لرامايانا. و قد نشر وارنكوف للحلق الشهير في العلوم الهندية ترجمة الرامايانا لتلسي داس في عام ١٩٤٨م بعد جهد دام لمدة عشر سنين. و منذ ذلك الحين تتقدم الدراسات حول العلوم الهندية باستمرار. و قد أقيم في الإتحاد السوفيتي معرض عن الرامايانا في عام ١٩٧١م و الآن يأتي الطلبة من جميع جمهوريات الإتحاد السوفيتي للإلتحاق بجامعاتنا من أجل دراسة اللغات الهندية و أدابها.

و كذا في المعاهد التعليمية المتعددة بالمملكة المتحدة و أمريكا أقسام لدراسة العلوم الهندية. و قد ترجمت الروائع لڤالميكي و تلسي داس إلى اللغة الإنجليزية في أمريكا أيضا.

فجملة القول إن الرامايانا مع كونه من الروائع الكلاسيكية فانه يعد بين روائع هومر ، و فرجيل ، و دانتي ، و الفردوسي و غيرهم من العباقرة الآخرين و ينظر العالم الهندوسي إليه بعين التقدير و الإجلال. و هكذا ، اندمجت أحداث الرامايانا و المهابهارتا في ثقافة البلاد الإسلامية في جنوب شرق آسيا. بحيث أنه قد أصبح جزئيا من الفنون الإسلامية مستحيلا.

إن هذا الكتاب لصحيفة دينية و مصدر هام للثقافة و الحضارة الهندية العريقة. و ينطوي على كل الفنون الجميلة مثل المسرحية ، و الموسيقى ، و الرقص ، و الرسم ، و النحت و ما شاكل ذلك.

تعريب : سراج الحسن

Converted by Tiff Combine - unregistered

حركة " بهاكتى " الروحية
و الحضارة الهندية المركبة

بقلم : ك . ك . كوالر
المستشار فى قسم التعليم
بالمؤسسة الهندية البشرية
نيو دلهى

الأسطورة ترجع إلى عام ١٣٩٨م، بعد نهب دلهى، حين كان الأمير تيمور يرجع إلى وطنه، مرتاح البال، مثقلا بالصفراء و البيضاء، يدوس المحاصيل فى الحقول و يقتل البشر و الدواب على السواء. كان ذلك شتاءا نموذجيا فى مقاطعة بنجاب، و امتزجت الرياح فى الحقول بدماء الأبرياء.

و على شاطىء نهر ستلج (Satlej) فى مكان يقال له "باك بتان" (Pak Patan) وقفت خيوله فجأة فضربها الفرسان بالسياط حتى بدأ الدم يسيل من أجسامها و لكنها أبت أن تذهب قدما. اضطرب الجنود، و أصيب القواد بالهستيريا، و سرت هذه العدوى فى سائر الجنود. و إذ أن الرئيس التركى لم يكن اعتاد مثل هذه الوقفات غير العادية، فوثب إلى الأمام، و زئر كالأسد، و طالب بالجواب.

لم يحر أحد جوابا، فصرخ مرة أخرى. فلم يتنبس أحد هذه المرة أيضا، حتى أخيرا برز رجل علت به السن، و قال : " فخيلتكم ! هذه أرض مقدسة".

" ممن ؟ " سأل الأمير تيمور.

" جعلها ولى من أولياء الله، الذى هاجر اباءه من آسيا الوسطى فرارا من الموت على أيدى آباءكم " أجاب الرجل العجوز. جعل كل واحد ينظر لحذاء، و وصلت يد الجنرال إلى سيفه، و قبل أن تعمل السيف عملها، حدثت معجزة – كما تزعم الأسطورة – و جاء صوت من مكان ما و دعا الشيخ فريد، ملك الملوك؟

أمر الجنود بمغادرة القرية، و طافا تيمور نفسه رأسه فى ذكرى الشيخ فريد، و سمع شعره الصوفى، و أيضا بات ليلة فى زاوية الشيخ و أكل

Converted by Tiff Combine - unregistered

الطعام البسيط، و نام على الحصير، و عاهد أن لا يقتل الأبرياء مرة أخرى، و بارك له أولاده، و قالوا أن كلمة الله سوف تأتي إليه يوما ما. و ليس من المعلوم أحدث هذا أم لم يحدث.

و من المعلوم بكل ثقة أنه أول شاعر " بهاكتاوي " (ناصلد) في اللغة البنجابية، و أسدى إليها ما كان أسدى "تشوسر" (Chaucer) إلى اللغة الإنجليزية، فجعل اللغة البنجابية شعرا و الشعر لغة بنجابية. و حين جمع المعلم الروحي الخامس للسيخ بعد كتابهم المقدس " أدي غرانث " (Adi Granth)، نال فيه شعر الشيخ فريد مكان التجلة مع " كبير " و " ناميف " (Namdeo) و " راڤي داس " (Ravidas). كان هؤلاء البهاكتاويون أجمعون يتغنون، في لغة الناس، بمجد الحضارة الهندية و عظمة نظام القيم الهندي و تفوق الفكر الهندي.

ولدت حركة " بهاكتي " مع الشيخ فريد (١١٧٣ - ١٢٦٥م) في بنجاب، الأرض التي كانت تهرى آنذاك خمسة أنهار في طولها و عرضها. و سوف أعود إليه بعد قليل، و لي كلمة لابد أن أقولها قبل ذلك.

إن تحليلا نقديا دقيقا لتيارات التاريخ الهندي المدون و تياراته المعارضة، الذي يمتد على أكثر من ألفي عام، يكشف لنا عن أنه، بعد كل ثلاث مئة سنة، تجتاح الهند حركة من طولها إلى عرضها، هادمة جميع حواجز الطبقة و اللون و العقيدة، و تتحول تدريجيها إلى حركة دينية، و أخيرا تتمخض عن نتائج سياسية وافرة. فلما قامت البوذية على خراب البرهمانية في القرن السادس ق . م. فظن من ظن أن البرهمانية لا تقوم لها قائمة أبدته، و لكن لم يصدق ظنهم. و بعد ثلاث مئة سنة أخرى أصاب البوذية على عهد " أشوكا " ما كان أصاب الديانات الأخرى. و خلال القرن الأول المسيحي حدث الشقاق مرة أخرى في جماعة البوذية في صورة " الهينيانية " (Hinyana) و " المهايانية " (Mahyana). و شوهد هيجان ديني آخر على عهد هارشا (Harsha) لا في الهند فحسب بل في الدنيا بأسرها، و ظهر الإسلام كقوة دينية جديدة، الذي غير مصير عديد من الدول و البلدان. و حينما دخل الإسلام في الهند تمخضت عنه حركات جديدة مثل نزعة الصوفية (Sufism) و السلاسل الأخرى التي أثر من نظام الدين الأولياء و الأمير خسرو. و بعد ثلاث مئة سنة بالضبط، ولدت حركة " بهاكتي "، التي وجدت على إثرها، بعد ثلاث مئة سنة، النظم الدينية الجديدة في القرن التاسع عشر أمثال " براهمو ساماج " و " آريا ساماج " و المجتمع الثيوصوفي و ما إليه. إن دراسة حركة " بهاكتي " في هذا الإطار الزمني، ليست مملة فحسب، بل تحمل أهمية تاريخيا و اجتماعيا و اقتصاديا. فبعض الحركات كانت بسيطة و الأخرى معقدة. و لكن نظام القيم و المعايير الذي تبناه كل منها كان واحدا، فلم تفرض أية حركة تهديدا لوحدة الهند، بل أثرت

Converted by Tiff Combine - unregistered

كل منها، بدورها، الحضارة المركبة لشبه القارة الهندية مترامية الأطراف.

إن الأمير خسرو (١٢٥٣ ـ ١٣٢٥م) أول من استخدم كلمة " الهند " للبلاد كله، و خصص كلمة " هندوستان " لما يقال له اليوم " اتراپرادیش "، ثم استعمل غورونانك ديف كلمة " هندوستان " للبلاد بأجمعه، و صوّر في إحدى قصيدته بلاد الهند كمجموعة موحّدة يتواجد فيها اثنا عشر سهلا و هضبة و جبلا و اقليما ساحليا متميزا بوضوح، و سمى هذه الأقاليم "ديسا" (Desa). لقد ناضل غورو نانك من أجل وحدة البلاد الحضارية، كما ناضل قبله الأمير خسرو بثلاث مئة سنة، و السوامي " في فيكا نانندا " (Swami Vivekananda)بعده بثلاث مئة سنة.

و سافر غورو نانك (١٤٦٩ ـ ١٥٣٩م) في طول البلاد و عرضها، و جمع أغاني الصوفية و القديسين، التي همهما غورو أرجون ديف بعد إلى " آدي غرانث "، كتاب الشيخ المقدس. فقد جمع تراتيل الشيخ فريد من ملتان و باك پتان، و أشعار السانت " سادانا " و " دهانا "، من طبقة زط الهندوسية من السند و عثر في فجرات و مهاراشترا على أشعار الشاعر المسلم المدعو بـ " عالم "، و " أبهانفا " لـ " ترى تشان " و نامديف ، و سافر أيضا إلى كرناتكا و سرى لانكا. و قد مس شعر " كبير " و " راهيداس " و " راما نانند " و " سور داس " و " بهنى "، مؤلف " غيت غوفيندا " (Geet Govinda) الشهير، قلب غورو نانك، و بما أنه كانت له معرفة كبيرة بكتابات " شانكر ديو " من آسام و تشيتانيا ماها پرابهو (Chaitanya Mahaprabhu) من بنغال، فأسس ديانة جديدة تدعى السيخية (Sikhism)، و هي مشتقة من كلمة (SHISHYA) السنسكريتية أو الكلمة البالية (SIKHIA). و لكنه لم يجد بطريقة أو لأخرى سبيلا إلى أغاني ميرابائي ، الأميرة الراجپوتية التي كانت تعبد كرشنا في شكل زوجها.

إذن، لقد أنجز غورو نانك ديف عملا هائلا و جمع مجموعة مختارات شعرية وطنية تمثل عقائد البلاد المختلفة و ديانتها، و التي حفظت فيما بعد في آدي غرانث و تغطي ١٤٣٠ صفحة و تشتمل على أكثر من مئتي ألف كلمة. و إضافة إليه أضيفت إليه ثمار ١٦ «بهات» (Bhats)، و قام بتعليقه بهائي غورداس و فرغ منه عام ١٦٠٥م، الذي مات فيه الملك المغولي أكبر. و بعد عام منه أعدم الغورو بـ(لاهور) بحكم الملك المغولي الرابع جهانغير.

إن كلمة بهاكتي مثل كلمة " الإسلام " تعني الإستسلام الكامل لله ـ جلّ و علا ـ أما في اللغة فتستعمل في معنى الحب الشديد و التفاني (Devotion). هذا المذهب الهندي أيضا ينقسم إلى مدرستين : الأولى مدرسة سافونا (Saguna) التي تؤمن بأن الله ـ سبحانه و تعالى ـ له أشكال و سمات مميزة، و المدرسة الثانية " نيرغونا " (Nirguna) التي تقول إن الله سبحانه و تعالى لا شكل له و لا صفة مميزة. إن كلتا المدرستين تحترم مبادئ الصدقات

Converted by Tiff Combine - unregistered

و الإحسان إلى الآخرين، و أنزلت الإبتهالات البشرية منزلة الإجلال و الإحترام. و هكذا نستطيع أن نتتبع منابع حركة «بهاكتي» في الديانة الفيداوية، و لكن تأثير الإسلام عليها من الوضوح بحيث لا يمكن انكاره. و هناك في أدب اللغة الهندية عصر كامل لـ " بهاكتي كلا "، عصر الحب و التفاني، و يبتدأ من عام ١٣١٨م و ينتهي إلى ١٦٤٣م. نشأت هذه الحركة في (تاميل نادو) في القرن السابع المسيحي، و ظل السانت التاميليون ينشدون أغاني الحب و التفاني إلى أكثر من قرنين حتى ظهر راما نوجا (Ramanuja) في القرن الثاني عشر و جمع و صاغ فلسفتهم الصوفية في شكل منتظم. و ألهب حماسنا بهذا (١٢٧٥ ـ ١٢٩٦م) و نامديف (١٢٧٠ ـ ١٣٥٠م) الناس في ولاية مهاراشترا برسالة " بهاكتي " من معبد فيثوبا (Vithoba) الواقع بـ بانديبر فور (Bandher Pur)، كما فعل ذلك يكناث (Ekanth) و توكارام و رامداس في القرنين السابع و السادس عشر المسيحي بعد. دخلت هذه الحركة شمال الهند على يد راما ناندا، أحد تلاميذ راما نوجا، الذي قام بتبليغ " بهاكتي " في اللغة الهندية، لغة الناس، و بغض النظر عن جميع حواجز الطبقات الدنيا و العليا، نشر رسالة الحب و الخير العام عن طريق كرتان (Kirtan) و الأدعية و الشعر و الخدمة الإجتماعية. و كان ممن تابعوه رائي داس الإسكاف، و كبهير الحائك المسلم، و دهانا فلاح من الطبقة المتخلفة، و سينا (Sena) الحالق، و بيبا (Pipa) العامل العبيد.

و بمعزل عن الحركات المذكورة أعلاه، بدأ الصوفية المسلمون حوارهم مع الله مستخدمين لغة الحب المجازية و خاطبوا الله ـ سبحانه و تعالى ـ كما يخاطب عاشق معشوقته. و أقدمهم الشيخ فريد الذي عاش في ولاية بنجاب في القرن الثالث عشر المسيحي، و نظم تراتيل في اللغة البنجابية تنطوي على مزايا شعرية ما لم يبزّها أحد حتى اليوم. كان الشيخ فريد صوفيا من طريق حواسه، و كان في شعره ما يماثل الأدعية و المراقبة، و تحدث إلى الناس في لغتهم، و طلب منهم أن يستعملوا اللغة البنجابية للأغراض الدينية. و أنشأ سلسلة من السلاسل الصوفية بـ باك بتان و بنى زاوية على غرار المعاهد اللاهوتية الأوربية (Monastery)، التي تؤيد حكم الفكر على المادة في تعليل الشئون البشرية النهائي.

إن أناشيد الشيخ فريد صغيرة في الحجم، و لكن أثارت مشاعر البشرية طوال ثمانية قرون ماضية. إن المحتويات الفنائية و الألحان العزيزة المنتابة التي تتسم بها الأبيات كانت هائلة إلى حد أن كل من مرّ ببنجاب كان يقف و يقدم إجلاله لهذه الروح التي ابتكرتها. و قد استخدم الشيخ فريد، طبقا للتقاليد الصوفية المعقدة، الصور الحسية للبلوغ إلى المعاني الصوفية. لقد اعتبر المتصوفون الشعراء الذات الإلهية جمالا سرمديا في كل من الهند و إيران، و أنشأوا وجهات جديدة في الشعر، و ميزتها البارزة

Converted by Tiff Combine - unregistered

هـــى أنه ما لم يعلم أحد أغراض الشعراء، لا يمكنه أن يميز ! هذه قصيدة غنائية فى حب بشرى أو ترتيلة خوطب بها الله ؟ خذ ـ على سبيل المثال ـ أغنية الحب التالية للشيخ فريد :

الزقاق موحلة ، يا فريد !
و بيدد العشيقة بعيد،
إذا ذهبت، تبتلّ عباءتى،
و انقض ميثاقى إذا ألممت،
ذلك أمر الخالق، هذا المطر القامر،
سأذهب إلى عشيقتى، لإحكام
صلات الحب، و أترك ملامتى الصوفية،
تبتلّ فى المطر الغزير.

ولد الشيخ فريد فى وقت حين كانت البنجاب ينازعها الخبل العسكرى و اللاتسامح الدينى و الفوضى الإجتماعية و الإقتصادية، و ألهب فى عامة الشعب أملا جديدا مقيما. يقول البروفسور خليق أحمد النظامى مؤلف كتاب " *الشيخ فريد ، حياته و عصره* " : "إن مقدم الشيخ فريد كانت مقدمة قلب حنون، فقد عالج ليل نهار مشاكل الشعب البائس و وضع البلسم على جروحهم و هدأ قلوبهم و نفخ حياة و ثقة جديدة فى جاشهم، و بحدبه عليهم و لطفه بهم شجعهم على مواجهـــة محـــن الحياة "، كما قال نفســـه فى أنشودته :

ظننت أن الأسف بصورة بارزة كان فى مقدورى،
يا فريد !
من فوق بيتى ، وجدت
أن كل بيت تحترق فى هذه النار.

اقنع بقشرة الرغيف الجافة
و الماء البارد ، يا فريد !
و لا تطمع فى الرغيف المزبّد
ليس ذلك لك.

قضى الشيخ فريد أيام طفولته بـ كهوتوال من مقاطعة ملتان و نشأ بها، و تلقى تعليمه الإبتدائى على أمه التى كانت إمرأة عالمة تقية. و هناك قصة أخرى كيف لقب بـ " گنج شكر " (خزينة السكر) و حدثت معجزة و هو لم يزل فى طور المراهقة. يقال أن أمه كانت تعطى الطفل شيئا من السكر بعد كل صلاة، فذات مرة نسيت أن تضع السكر تحت السجادة كما كان من

Converted by Tiff Combine - unregistered

دأبها كل يوم، فلما فرغ الطفل من صلاته و قلّب السجادة ليتال جائزته، ظهر شيء من السكر من تحت السجادة بمشية الله ـ سبحانه و تعالى ـ.

و منذ ذلك اليوم إلى الأمام، عرف الشيخ فريد بـ " گنج شكر " و مازال أولاده يستعملونه إلى يومنا هذا، و مع ذلك كان الطفل يؤمن بأن العلاوة الحقيقية إنما هي في اسم الله تعالى. و فيما بعد عبر الشيخ فريد نفس هذه الفكرة في بيتٍ معروف.

السكر، و القندية، و العلاوة ، و الزبد،
و لبن الجاموس ، كله حلو كثير،
و لكن ليس بأحلى من إسمك.

لقد بدأ حركة التصوف من النبي صلى الله عليه و سلم بنفسه و من أصحابه، و بلغ ذروتها على أيدي العلماء و الشعراء أمثال الغزالي و رومي و المشائخ العظام مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله. و إذ أن الصوفية كانوا عامة يلبسون الصوف الخشن و يعيشون حياة شظف، فعرفوا بالمتصوفة أو الصوفية، و يزعم البعض أن كلمة " الصوفي " مشتقة من " الصفا " و معناه النقاء و الطهارة. إن التصوف ليس مسلكا في الإسلام فقط بل مظهرا فلسفيا له أيضا، و ليس هذا فارق كبير بين سنياسي (SANYASI) للهيدانتا و درويش من الصوفية. إن البوذا للفلسفة البوذية هو عين ما هو الإسلام للصوفية، فإن كليهما يؤمنان بأنه لا يمكن اعتناق الروح بدون معونة المعرفة. فالتصوف هو مثل حركة " بهاكتي " في الإسلام، و بهاكتاوي مسلم هو الصوفي.

و أيضا نشأ التصوف عن ردّ فعل ضد الحياة البذخة التي بدأ المسلمون يعيشون في العهد الأموي، و إلى ذلك إن الإنتفاضة الإجتماعية بين العرب بعد وفات الرسول صلى الله عليه و سلم قد انتهى بعديد من المسلمين إلى حياة روحية من التهرب. فالصوفي الذي لا يملك شيئا و لا يملكه شيء. و كانت هذه الحياة الروحية التي أنشأ الشيخ فريد حولها فلسفة كاملة في الهند :

السواد لون ملابسي، يا فريد !
و عباءتي أيضا سوداء،
مغمما بشعور الذنب أنا أهيم،
و يخاطبني الناس " درويشا ".

لما ذا تهيم في الغابات، يا فريد !
تدوس الأشواك و الأحساك تحت أقدامك.

Converted by Tiff Combine - unregistered

ابحث الله في نفسك أنت،
لا في الكتب و الأرض القاحلة،
اقطع يا فريد ! هذا الجسم إلى أجزاء.
لا تزهق قطرة من دم.
جسم مشبع في إسم الله،
محروم من الدم.

حتى إن الفلاحين الأميين كانوا يفهمون ذلك و يتمتعون به و يستوعبونه، و المجاز و الصور التي استخدمها الشيخ فريد أرضية. مثلا إنه تحدث عن لحن الفرانيق الطيارة في الخريف، و ثار الغابة في الصيف و الالتماعات الخاطفة في " بهادو " (شهر المطرالثاني و الشهر الخامس من السنة الهندية) و العصية التي تأتي بعد الالتماعات في " ساوان " (شهر المطر الأول و الشهر الرابع من السنة الهندية). و تغنى أيضا بالغربان الناقرة على هشاش الأنهار و انقضاضات الصقور خفيفة الحركة التي تهبط من السماء، و نهر الحياة الطويل الذي يجري إلى الأمام بهدوء ضفافه رملية. و قال إنه لا فائدة في أن يحمل المرء السجادة على كاهله و يلبس الصوف و يحمل السكاكين، بل المطلوب هو قلب صاف رقيق :

هب ، و انته من وضوءك ، يا فريد !
و اخضع أمام الله تحية له ،
و الرأس الذي يرفض السجود،
يستحق لا شيء ما عدا الإدانة.

لا تغيظك عمامتك الغبراء ، يا فريد !
الرأس الجاهل الذي يرتديه،
سيلتهمه الغبار،
و ذلك التراب عمامتك.

و ولي آخر من أولياء الهند القروسطية هو نظام الدين الأولياء (المتوفى ١٣٢٥م) مرشد الأمير خسرو (١٢٥٣ - ١٣٢٥م) الذي هو أول شاعر للغة الهندية و من أقدم الشعراء الفارسية خارج إيران، و حظي بالصيت الدولي. كان الأمير خسرو أول مسلم الذي لم يناصر اللغة المختلطة فحسب، بل الحضارة المختلطة أيضا، و التي تعرف اليوم عامة بالحضارة الهندية المركبة. كان الشيخ نظام الدين الأولياء قديسا من المنزلة الدولية، و عاش حياة حرة و لم يطلب الحظوة و المعروف من حكام دلهي. و قديس آخر من

Converted by Tiff Combine - unregistered

السلسلة البشتية هو الشيخ نصير الدين چراغ الدهلوي (المتوفى ١٣٥٦م) الذي ردّ على محمد بن تغلق، سلطان دلهي، ردًا قاسيا حينما أراد أن يتدخل في حياة الزاوية الدينية. و إبن بطوطة، الرحالة المغربي، الذي زار الهند على عهد محمد بن تغلق يشير إلى عديد من الزوايا و النكايا من ملتان إلى ديو غري (Deogiri) و من دلهي إلى لاك نوتي (Lakhnauti).

إن الأمير خسرو شاعر عظيم آخر الذي نظم شعره في وقت حين كانت الهند تمر من عهد الفتن و الإضطرابات. و كان يذكر عامة كـ " هندوستان هند "، و تغنى ملأ شدقيه بمجد الحضارة الهندية في لغة الناس المفضلة حتى حين لم تزل الفارسية لغة البلاط الرسمية. و كتب في مدحة موطنه الأم و المجالات التي تتفوق فيها مثل الفلسفة الهندية و الموسيقى و الأنبج و الرياضيات و المواسم الهندية، و تغنى أيضا بالحياة الهندية في جميع مظاهرها و ظلالها، من أغاني الأسى و فراق الحبيبة و الموسم المطير و سقوط الأوراق في الخريف. و أطرى على النساء الهنديات و قال إن عيون نساء تركستان و الصين صغيرة جدا، و الروسيات بيض و باردات مثل صفائح الثلج، و لا توجد الإبتسامات على شفاه التتاريات، و نساء "خوتان" Khotan يعوزهن الإتقان و الطاعة، أما جمال خراسان فلا أرج فيه و لا حلاوة، كما أن جمال سمرقند و قندهار لا حلاوة فيه، و كذلك إنه لم يجد أي سحر في المصريات فضية الوجوه و الأجسام. أما الهنديات فيوجد فيهن كل شيء. إنهن أنيقات و مطواعات و يمتلكن حلاوة و سحرا لا يضاهى في جمالهن، و فريدات في حديثهن الرقيق، و مهذبات و ظريفات و نكهات، و إن مئات دولة مثل الصين ليست بمماثلة لشعرة واحدة لهن. و كتب الأمير خسرو أيضا مئات من الألغاز و الأحاجي التي شائعة حتى اليوم بين الصغار و الكبار على السواء. و طبقا لجواهر لال نهرو : و لا يوجد مثال في تاريخ الأدب العالمي في مكان ما للأغاني التي كتبت قبل ستة قرون، و لا تزال تحتفظ بشعبيتها و إعجابها الجماهيري و تغنى بدون تغيير في الكلمات و الألفاظ. إن الأمير خسرو يمثل حضارة الهند التركية بحيث مثله شعراء قليلون قبله أو بعده.

و من أعظم تراث الأمير خسرو هي خزينة الأغاني الشعبية الشهيرة التي يقال أنه خلفها وراءه، و كتبت في اللغة التي كان يتكلم بها عامة الناس، و تغنى فيها بحماسة بالمواسم و أساليب الهند الموسيقية طبقا لتقاليدها الكلاسيكية نفسها. هذه الأغاني تتحدث عن الموضوعات العامة من ولادة طفل و ما تجلب الفرح إلى الأسرة و مجيء عروس في بيت و الأمطار و الفيوم و الأرجوحات و السيدات القرويات و شجرة " ببيل " و الأنبج و " جامون " و الياسمين و الآلريون و مئات من الأشياء الأخرى التي تثير انتباه القرويين الهنود و عامة الشعب. و كتب أيضا مئات الألغاز و الأحاجي للأطفال الصغار و السيدات الجميلات بالإضافة إلى الآخرين. و كان ،

Converted by Tiff Combine - unregistered

بدوره صورت حضارة الهند العامة المختلطة. و هو افضل مثال للإندماج الاجنبي المتزايد في الهند في القرن الثالث عشر. و من اعظم ميزات الحضارة الهندية هي قدرتها للإستيعاب و صلاحيتها لقبول الافكار الحديثة و النمو. و عرّف نفسه تماما بالمطامح الهندية و نهض بوضع الحياة الهندية. و على انه كان يتقن اللغة السنسكرتية و لكنه لم يكتب فيها. و بصفته مغنيا كبيرا، قولب الامير و ركّب الإتجاهين السائدين للموسيقى الهندية و الفارسية.

و كان أميرا بين عامة الناس و الموسيقيين، و كان جوادا كبيرا. و تروى قصة أن درويشا اختلف إلى أبوابه أربعين مرة فتصدق عليه الشاعر على كل باب و قال إن الرحمة و الصدقة لاتحدهما الحدود. و لم يكن يستحيي من مقابلة الناس، و كثيرا ما كان يخرج إلى القرى و الأرياف لإثراء معلوماته. و ذات مرة فاجئته فتيات القرية على بئر تقدم إليه للماء حتى يروى غلته في أصيل حار و كان وحيدا، فسألنه إذا كنت الأمير خسرو الذي يكتب الألغاز و الأحاجي فاحلل أحجيتنا لكي تفوز بكأس من الماء. و اقترحت الفتيات أربع كلمات مختلفة و طالبنه أن يلفّق قصة نظما. و الكلمات الأربع هي " كهير " (أي الرز المطبوخ مع اللبن) و "جرخا " (أي دولاب الغزل) و الكلب و الطبلة. فجمع الأمير الكلمات الأربع بعضها ببعض، و جاء بهذين البيتين الخالدين توا .

كهير پكاش جتن سيو
اور جرخا ديا جلا
ايا كتا كها گيا
تو بيٹهي ڈهول بجا

(لقد طبخت "كهير" في الرز مع اللبن بطريق الدهاء و احرقت دولاب الغزل لأجله إذا جاء كلب و التهم الطبق كله، فاجلسي الآن و اقرعي الطبل بمرح).

و كان الأمير خسرو شاعر بلاط سبعة ملوك في القرن الثالث و الرابع عشر، و كتب عديد من المدائح و أغانى حبهم و استقلالهم، و رغم ذلك كان وليا هاشما بالله ، و كانت الهند له جنة على الأرض.

و بصفته مورخا اجتماعيا، إن إسهام الأمير خسرو يحمل الخطورة على السواء، إن ملاحظاته حول المناطق اللسانية المختلفة مهمة جدا. و كتب عام ١٣١٧م : "و هناك في الوقت الراهن في كل ولاية لغة تخص بها و ليست مستعارة من الأخرى ـ السندية و اللاهورية و الكشميرية و الكابرية (الدوفرية) و دهوت سمندرية (كاناريزية) و التيلانغية (التيلغو) و الغورية (جنوب البنغال) و البنغالية و الدوجارية (الدوجرانية)

Converted by Tiff Combine - unregistered

و المارهاتية (التاميلية) و الأودهية و الهندية و البراجية و الهندوية (الأردية) و التي تعرف أيضا بالدهلوية، و استخدمت هذه اللغات في أغراض الحياة العامة من سالف الزمان". و يتحدث أيضا من المناطق التي كانت تنطق فيها كلها، مثلا إن اللغة البنجابية كانت تنطق من السند إلى نهر ستلج، و " كهاري بولي هندية " (KHARI BOLI HINDI) كانت تنطق في ولاية أوتر و البهوجفورية في ولاية إله أباد و الكشميرية في وادي كشمير و الدوغرية في جامو و المناطق الجبلية في ولاية هيماتشل و اللغة الجبلية في مناطق بنجاب الجبلية و المناطق الجبلية الأخرى في عوالي الهند.

و ليؤكد أن معظم ولايات الإمبراطور أكبر كانت تطابق مناطق النطق المذكورة أعلاه. و هكذا نشأت حركة واعية للوحدة الحضارية التي نتجت أخيرا في تكوين الولايات اللغوية في الهند الحرة و تطوير اللغات الهندية الحديثة.

كان الأمير خسرو يتمتع بشخصية ساحرة، و كان وحيد عصره الذي كان يحترمه الملوك و الصوفية لعصره، كما كان يحبه عامة الناس.

و شخصية عظيمة أخرى تلألأت كالنجم و جعلت مشعل الحضارة الهندية المركبة إلى الأمام، هي شخصية غورو نانك (١٤٦٩ - ١٥٣٩م). ولد غورونانك في أسرة " كاتري " الهندوسية من طبقة " بيدي " بـ تالواندي (Talwandi) قريبا من لاهور، و تعلم في أيام طفولته القرآن و " البورانا " (Puranas). و صحيح أن القديسين أمثال راما ناند و غوراك ناث (Gorakhnath) كانا قد مهدا الطريق له، و لكنه هو غورو نانك الذي كشف اللثام عن تفاهة الحياة و رمز بالتحرر من الكهانة و العقائد الخرافية و الشرك، و نفخ روحا جديدة في الفلاحين في البنجاب، و وضع الإنسان فوق كل عرف و قانون، و قال كفى بالمرء كاهنا أن يكون بشرا. و قال إن المادة بشرها تابعة للإقتضاءات الخلقية، و دافع عن المساواة في جميع مظاهر الحياة. قد كان راما ناند أيضا بلّغ المساواة و لكن غورو نانك مارسها أيضا، فطرح عباءة زاهد متنسك و صار ربّ بيت، و خاطب العلماء المسلمين و الكهنة الهندوس و المتصوفين و الزهاد و الدراويش و طالبهم بأن يعبدوا إلـه واحدا فقط الذي هو واجب الوجود و لا يدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار. و سافر غورو نانك في طول البلاد و عرضها و زار جميع الأمكنة المقدسة لدى البرهميين و ارتحل أيضا إلى كابول و بغداد و مكة المكرمة. و تروى عنه قصة، جهلا بعد جميل، أنه حين كان بمكة المكرمة وجد مرة ، و هو يستقبل المسجد بأقدامه في نومه، و لما سئل لماذا يهين بيت الله - جلّ و علا - فابتسم و قال : " أ يستطيع أن يجعل أقدامه في شطر لا يوجد فيه بيت الله - جلّ و علا -؟". و لما كان في ملتان لبس ملابس درويش مسلم و مشى مجالس النساك المسلمين، و قال لهم إنه مثل نهر جنج (Ganga) المقدس الذي ينصبّ في بحر القداسة. و خلال

Converted by Tiff Combine - unregistered

إقامته فى إيران كان يرافقه تلميذه المسلم مردانا (Mardana)، و كان عازفا فكان يغنى قدسية الله تعالى و جمال الحضارة الهندية. إن حواره مع العلماء المسلمين و المثقفين البرهميين يكشف عن أنه كان يسعى إلى تضييق الفجوة بين هاتين الديانتين العظيمتين فى الهند، و لم يمض طويلا حتى اعتبره كلتا الديانتين زعيما، كما يبدو جليا من المثل السائر :

" بابا نانك شاه فقير

فورو للهندوس و مرشد للمسلمين "

و خلال الهجمة الثالثة عام ١٥٢١م التى قام بها بابر على أمين آباد و ما يردفها من السلب و النهب، قابله فورو نانك، و كانت تدعى آنذاك بـ (سعيد فور) و كانت قريبا من (جوجران والا) و تقع الآن فى باكستان، و لم يستطع أن يصبر على ما ناب أهالى سعيد فور من ويلات هذه الهجمات و سمى بابر " جبارا " و جنوده "أشرارا" يتبخترون فى نشوة الفتح. و لما ألقى عليه القبض مع تلميذه المسلم مردانا، سئله مير خان قائد وحدة النهب، أن يحمل على رأسه أحجارا بجانب فرسه و يعمل مردانا كمائس له. ففى حال من النشوة أخذ فورو نانك ينشد ترنيلة هزت القائد من مفرقه إلى مخمصه، فأسرع إلى بابر و التمسه أن يزور هذا السانت فى المقتل. فلما دخل عليه بابر سئله عن دينه، فردّ عليه أنه لا يخلص ولاءه إلاّ لإله واحد، و أيضا طلب منه فورو نانك أن يرجع عن طريق القتل و السلب و النهب. إن الروايات السيخية تحتفظ أيضا بأن فورو نانك أخبره أن كلا منهما ـ أعنى فورو نانك و الملك ـ كانا ملكين، و سوف يتخلل سلالة حاكمة تمتد إلى عشر.

و يزعم أن بابر تأثر كثيرا برسالة " بهاكتى " لفورو نانك، و أطلق سراح جميع أسراء الحرب، و تعهد بأنه لا يخوض غمار حرب كرة أخرى، و لكنه لم يبرّ به بعد. قد بلّغ فورو نانك فلسفة بسيطة، و قال : إن الأعمال الحسنة خير من الصلاح و التقوى نفسها. "إن الحياة ظل طائر مارّ فى السماء، و لكن روح الإنسان مثل مولاب الغزاف الذى لا ينفك يدور على محوره". و خاطب الناس فى لغتهم حتى إن شعره الذى أثار مشاعر ملايين من البشر، كان نظم كما يزعم فى الخلفية القروية، و استخدم فيه كل نوع من التشبيهات و الإستعارات الريفية، فلم يكن فنى قبله أحد مثل ما فنى فورو نانك ، و لم يمس قياس (Vyas) قلوب الناس مثلما فعل هو.

إن حركة "بهاكتى" قد «هذّبت» الحكام المسلمين، و أوجدت حضارة مركبة، و خلقت بيئة التسامح و الإصلاح بين الناس و احترام وجهات نظر الآخرين، أو بكلمة أخرى إن مرونة الحضارة الهندية العتيقة فرضت نفسها مرة أخرى لكى تعترف بها، و برزت خصائصها الوطنية من الإستيعاب و النمو. و فى هذه البيئة أرسى بابر قواعد دولة مغولية عظيمة، و عانق

Converted by Tiff Combine - unregistered

إخوانه الهنود و تزوج العليلات الراجبوتيات، و لنشأ ما يمكن أن تسمى حكومة وطنية بمعنى الكلمة. يقول الدكتور عابـــد حسين فى كتابـــه "*حضارة الهند الوطنية*" : و واحد من أهم العوامل التى أسهمت فى الإصلاح بين الناس كان الدور التاريخى للوسطاء الذى لعبه المتصوفـــون المسلمـــون و الكهنة الهندوس من أتباع مدرسة " بهاكتى ". إن معظم الصوفية المسلمين اعتقدوا و قاموا بتبليغ وحدة إلهية فى لغة وحدة مثالية، فالهندوس الذين وجدوا أفكارهم تشابه الفلسفة الفيداوية كثيرا فوجدوا المساهمة منهم. أعجب الهندوس بفكرة الحب و المساواة و الأخوة التى بلغها الإسلام، كذلك أعجبت المسلمين شخصية "كرشنا" و "راما" . و صار " بهاكتى "، الذى كان فى جوهره انتفاضة روحية، حركة اجتماعية و لم يمض طويلا حتى صار يتدفق بالمعانى الإضافية السياسية.

قال الشيخ فريد إن الزهد يشتمل على أربعة أشياء :

(أ) أن يعمى عن زلات الآخرين.

(ب) و أن يصم للإفتراءات و القذف.

(ج) و أن يبكم إذا اضطر إلى الكذب.

(د) و أن يتعرج إذا حدثته نفسه بزيارة مقابع الإثم.

و ذهب غورو نانك فى ذلك إلى أبعد مدى، فأعطى ثقة جديدة فى قلوب الناس لكى يتمكنوا من مواجهة محن الحياة، و نفخ أملا جديدا و رغبة ملحة للتعايش السلمـــى، و طلـــب منهم أن لا يفنعـــوا إلى الشـــر، و لا يظلموا و لا يجهلوا، و يستأصلوا الفساد من المجتمع بالفور.

إن حركة " بهاكتى " قد استقربت الهندوس و المسلمين و خاصة فى مجال العضارة. إن الرسم و الموسيقى اللذين لم يكن يحظوان فى بلاط الحكام المسلمين، قام برعايتهما الملوك المغول فى الهند، و خلال حكم بابر بلغت الموسيقى الهندية الكلاسيكية ذروتها الشاهقة، و جها نكير نفسه كان رساما بارعا. و إن الرسامين الواحد و العشرين الذين نجـد أسماءهم فـى كتاب *أبين أكبرى* ، أربعة عشر منهم هندوسيا. و إضافة إلى المدرسة الهندية الفارسية فى الرسم، هناك مدرسة أخرى فى فن العمارة، التى أضيفت فيها الخصائص البارزة لمساجد سمرقنـــد و بخارى إلى مزايا أجنـــا و ايلورا، ليتمخض عنه ما يمكن أن يدعى بمعناه الواسع مدرسة قومية لفـن العمـــارة. و الملوك المغول كانوا عامة يوظفون المرفيين الهنـــدوس لتحديد و نقش الجمال المعمارى، و أحسن مثال للمدرسة الهندية الفارسية فى فن العمارة، هو تاج محل الواقع بـ أجرة، الذى حرى بأن يقال عنه أنه تجسيد الحضارة الهندوس و المسلمين.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و أما بالنسبة لـ أكبر ، فرغم أميته، كان يتمتع بثقافة عقلية لازمة، و محاولة منه لتركيب الحضارتين أمر بترجمة الملاحم السنسكرتيه إلى اللغات الفارسية و العربية، و العكس بالعكس، و هكذا بدأ " أخذ و عطاء " و شاهد البلاد انتفاضة وطنية لم يكن شاهدها قبل. و محاولة منه لرفع جمال الحضارة الهندية، طلب كلا من الهندوس و المسلمين أن يتخلصوا من الفلو الى الوطنية و الطائفية، و يصيروا مسلمين أو هندوسا بمعنى الكلمة. و لما أشار عليه " برهمنى " أن يلبس الخيط المقدس سئله أن يجلب له خيطا يمكن أن يدعى خيطا مقدسا فى الواقع.

اجعل الشفقة قطنا
و القناعة خيطا
و العفة فتلا
و هذا هو
الخيط المقدس للنفس
يا برهمنى ! البسنى ذلك
إذا كنت تملك واحدا منه.

و كذلك ، طلب من الزهاد المسلمين أن يؤمنوا بالمعتقدات الإسلامية الصحيحة.

دع الرحمة تكون مسجدك
و الإخلاص سجادتك
و حياة الأمانة قرانك
و التواضع ختانك
و الإيثار صيامك
و حينئذ فقط تكون مسلما صادقا.

إن شعر غورو نانك ليس حساسية محمومة فحسب بل إنه صرخة قلب تخرج من قلب و تدخل القلوب بدون عائق. و باستخدامه التشابيه و الاستعارات البسيطة التى كان مخاطبوه الريفيون يدركونها بسهولة، أشار غورو نانك الفكر القروسطى و طلب منهم أن يصيروا إنسانا قبل أن يدعوا أنفسهم مسلمين أو هندوسا.

لست هندوسيا و لا مسلما
إنما أنا إنسان.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و وضع غورو نانك الإنسان فوق المادة و المال، و كان نبيلا دمث الخلق، و إذا دعت الضرورة كان جازما و ثائرا. فإذا أخفقت جميع الطرق فانهض إلى السيف. و قد وردت إشارات إلى هجمات بابر في آدي غرانث (Adi Granth). و في كلمة غورو نانك :

إنه موكب عرس للشيطان، و بالقوة
يطالب تسليم أنوثة الهند.
إن العدالة و القانون قد اختفيا،
و الشر يختال في نشوة الفتح.
إن نساك الهندوس و المسلمين قد نبذوا،
و الشيطان يتخذ أزواجا له.
نانك ! إن الدم فكرة الفناء الرئيسية
لمثل هذا الزواج.
و الدم أيضا اللون الذي يليق به.

إن إحترام الأديان و المذاهب بأسرها لم يزل صفة مميزة للحضارة الهندية منذ أشرق فجر الحضارة على الهند. و مراسيم الملك أشوكا التي نجدها منقوشة على الصخور، تشير بوضوح إلى احترام المذاهب و الأديان الأخرى في الهند أساس احترامك لدينك نفسه، و كان الملك العادل هارشا (Harsha) يحترم جميع الديانات كسياسة لدولته. و هذه الرسالة بذاتها تخللت في تعاليم البهاكتاويين الذين قاموا بتبليغ وحدانية الله تعالى و الأخوة البشرية في القرون الوسطى. و طبقا لغورو نانك، إن رام و رحيم و رحمان أسماء إله واحد، الذي هو رحيم و رؤوف و مفهم لمصائب البشرية. و في الواقع إنه لم يؤسس ديانة جديدة، بل ألحّ على الحقائق الأساسية للهندوسية و الإسلام، التي يسمع صداها في جيتا (Geeta) و القرآن. لقد وضع غورو نانك حياة صادقة فوق الصدق نفسه، و قال إن الصدق شيء عظيم، و لكن الحياة الصادقة أعلى و أفضل من الصدق، و لم يترك الدنيا و لم يعش حياة نسك و زهد بل مارس الصدق كربّ بيت و طالب من إخوته القرويين أن لا يستسلموا للجور و الاجحاف و اللامساواة و الاستغلال و الذل. يقول لفواجة غلام السيدين :

" لو كان غورو نانك اليوم حيا لما وجدناه في المعبد الذهبي (Golden Temple) بل في مكان آخر، يسعى أن يضع البلسم المسكن للألم على القلوب الجروحة، كما حاول ذلك غاندي بعد ٤٣٥ سنة، و كما فعل قبلهما بوذا و عيسى و محمد

Converted by Tiff Combine - unregistered

- عليهما الصلاة و السلام - قبل عدة قرون، و لتمثل مارتن لوثـر (Martin Luther) و كالفن (Calvin) في شخصية فورو نانك الواحدة، و سبق لنكون (Lincoln) و لينين (Lenin) في نظرية مجتمع عديم الفئات و الطبقات المؤسس على الإنصاف الإجتماعي و المساواة الإقتصادية، و القيم التي يحتفظ بها دستور الهند الحرة. و كان رجلا هائما بالله، و أشبه إسم البلالة بالمصباح الفزفي، و الأسف بالزيت الذي يحترق فيه، يقول : " طالما اشعل المصباح يذبل لسفي مثله، و لذا لا تواجه سكرات الموت ".

إن الدور الذي لعبه الدين و الحضارة الهندية المركبة في توجيه الفكر الشعري في العصور المختلفة مهم و خطير. و واحد من أجمل زهور الفكر الصوفي القروسطي، كان تلسي داس (١٥٣١ - ١٦٢٣م) الذي لا يذكر إسمه لا في تاريخ البلاط و لا في قائمة الشعراء الذين ذكروا في كتاب آيين أكبري، و لكن لم تزل تلهج كل لسان بإسمه إلى يومنا هذا. و كاتب السيرة الشهير للملك المغولي العظيم أكبر (V . A . Smith) يصف رام تشاريت ماناس (Rama Charitra Manas) لطول شهر في حديقة شعر اللغة الهندية. و يقول : إن كتاب آيين أكبري كله لا يساوي ورقة واحدة لـ تلسي داس، و لقبل ملايين من البشر عبر القرون على " بهاكتي " و التفاني بمجرد قراءتهم لهذا الكتاب الخالد. يزعم أنه ولد و قد نبتت لسانه في " مولا نالك شترا " و لذلك كان يعتبر مشؤما سئي الطالع، و نبذه أبوه لتما رام دوبي، و ماتت أمه على إثر ولادة هذا الطفل العجيب بالفور.

و هناك عدة أقوال عن مولده، و لكن ما يعتقد عامة هي أنه كان ولد بـ راجا فور في ولاية اترا برادیش، و هام طفلا من " دير هندوسي " (Math) إلى آخر حتى لقي معلمه الروحي الفورو نارها ريداس (Narharidas) الذي ذهب به إلى كاشي، و هنا على بنج جنجا غات (Panch Ganga Ghat) إنضم إلى دير راما ناندا في ليلة " ماها شيفاراتري " (Maha Shivratri). و تزوج رتنا فالي بنت دينا باندها باشاك (Dina bandhu Pathak)، و لكن الصد الذي لقيه من زوجه الذي كان يحبها حبا جما غيّر حياته تغييرا كاملا. قالت له زوجته ذات يوم : " و بدل أن تضيع اخلاصك على عظامي و لحمي، وجّه صلواتك إلى راما و إذاً لا تخاف ولادة ثانية ". فخرج يطوف في الأرض لمدة عشرين سنة لغرى حتى ألقى عصا التسيار بـ تشترا كوت (Chitra Kot) و شعر بتجلي اللورد راما. و سافر تلسي داس إلى أيودهيا لكي يكتب راشحته، و انتهى منها في سنتين و سبعة شهور و ستة و عشرين يوما. و هو كتاب الصلوات لرجل عام الذي يقرأه في كربته و وجده. و هو رائع ككتاب شعر و فذ ككتاب دين. و يوحّد

Converted by Tiff Combine - unregistered

بين رجل من الجنوب و أخيه من الشمال، و كليهما مع إخوانه في الشرق و الغرب، و صدرت مئات طبعة لهذا الكتاب في اللغات الأخرى، و لكن أكثرها شيوعا ما كتب فيه لصلاة، و هو لغة " برج بهاشا ".

انقسم شعراء " بهاكتى " في جماعتين متميزتين : الذين كانوا يتغنون بمجد راما، و الذين كانوا يتغنون في حب كرشنا ، و تلمس داس كان زعيم اتباع راما ، بينما صور داس كان على رأس اتباع كرشنا. و صحيح أن فيديا باتى (Vidyapati) كان تغنى قبل بقصة غرام رادها و كرشنا في اللغة الميثيلية (Maithili)، و لكن ازدهر كرشنا كنهيا في الواقع على يد سور داس. و بينما اعتبر الهندوس كتاب "رامتشاريت ماناس" مجموعة مبادىء السلوك، اعتبره المجتمع الهندوسي كتابا في علم الأخلاق الإجتماعية. و برع سور داس في تصوير المشاعر الإنسانية ورقتها و خطا على أثره ناندا داسا و هيتا هاري فامشا (Hita Hari Vamsha) الذي أسس فرقة رادها فالابه (Radha Vallabh) و ميرا بائي. و وصلت أغاني " بهاكتى " من كانشي و فريندا بن (Brindaban) إلى البلاط المغولي به أجره و فتح فور سيكري، و هذبت الجو للعلمانية التي نشرها الملك أكبر. و لم يكن عجيبا أن نظم المسلمون أمثال راس خان و عبد الرحيم خان خانان شعرا جميلا في اللغة الهندية.

هذه هي الحركة التي منحت قوة دافعة لـ أردو ، اللغة الحرة التي نشأت من كهاري بولي، و استخدمها المسلمون و الهندوس على السواء، و اقتبست الكلمات من اللغة التركية و العربية و الفارسية إضافة إلى اللغة السنسكرتية و البنجابية و السندية و البهجرانية. ازدهرت اللغة الأردية في الجنوب بإسم " دكني " (Dakhni)، و في جنوب غرب بـ " غوجاري " (Gujari)، و بينما في دلهي تغير إسمها من هندي إلى هندوي و هندوستاني و أهالي دلهي كانوا يسمونها دهلوي أو زبان دهلوي إذ أنها نشأت في حي نظام الدين حيث كان يعيش نظام الدين الأولياء و الأمير خسرو. و هناك فكرة أخرى تقول إن أردو نشأت في زاوية الشيخ فريد بـ باك بتان في القرن الثالث عشر، و إسمها القديم ماتاني، و توجد فيها كلمات اللغة " اللاهورية البنجابية " بوفرة وافرة.

كانت حركة " بهاكتى " تحمل تأثيرات إجتماعية و نفسية هائلة، و وجد بفضلها شعور الوحدة و التضامن بين سكان الهند، الذين اعتبروا كل غاز أجنبي عدوهم المشترك. و إنه لممتع أن نعلم أن جميع الغزاة، واحدا فواحدا، اندمجوا في الحضارة الهندية المركبة. و كان ذلك مشهدا عظيما، الذي قد يقارن بمشهد قطار مزدحم متحرك، يدخل فيه الركاب الجدد على كل موقف و الركاب الجالسون فيه يناورونهم قدر المستطاع. و كثيرا ما سميت هذا القطار قطار الحضارة الهندية الذي لا يزال يتحرك على الرغم من المقاومة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و إذن، يصير غزاة المحطة السابقة مقاومي للمحطة القادمة. فلما يحاول الركاب الغزاة الدخول بها مهما كلف الأمر بما فيه الوسائل العنيفة، فيتحالف نزلاء القطار القدماء، بما فيهم الركاب الغزاة على المحطة السابقة، و كلهم يتحالفون لمقاومة الغزاة الجدد بكل ما يملكون من قوة. و هكذا، على كل محطة، يسمح ليعض الركاب الغزاة بدخول السلسلة الواسعة لقطار الحضارة الهندية. و القطار لا يزال يتحرك إلى الأمام. إن هذه العملية ما انفكت دائبة منذ أيام الأريين، و قائمة أولئك الذين غازوا الهند طويلة جدا، منهم الإيرانيون و اليوناتيون و البيكاتريون و الباريثون، و الهونيون و اليوتشيون و الساكاوون و العرب و الأفغان و الأتراك، كلهم صاروا جزءا لا يتجزى من نظام الهند الاجتماعي. إن روح التركيب و الإستيعاب أيضا بادية في أساطير الحب لـ بنجاب، أعني " سوهنى ماهيوال " و " سسى بونو " و " سيهاثى مراد " و " موزا صاحبان " و " هيرا رانجا " و وارث شاه الذى نظم "هير" فى القرن الثامن عشر، يتحدث عن الأعياد العامة و تقاليد الهندوس و المسلمين. و "رانجا"، رجل مسلم، كان يلبس الملابس زعفرانية اللون كـ " جوغى " هندوسى ، و الحلقات الكبيرة كان تتدلى فى أذنيه، و يمسح الرماد على جسمه و يعزف على الفلوت ، تلك الآلة الموسيقية العزيزة جدا على اللورد كرشنا. و يشير أيضا إلى زواج مهابيو مع باربارتى، و يتحدث عن بيراجى (Vairagis) و أودلسيين (Udasin) و راماناندين (Ramanandis) و الفرق الهندوسية الأخرى، و كان أيضا يحضر " سيدها سيلا " قرب نهر (جهيلم)، و كانت له صلاة كاملة على ٣١ "راغا" (Rajas) هندوسي كلاسيكي. و حينما لدغت حية "هير" فعولجت بالطب الأيورفيدى، و كانت تضع الزنجفر فى مفرق رأسها، و كان جهازها جهازا هندوسيا تقريبا، و عرض فى بيت أم زوجها. و "رانجا" أيضا مولع بالقنب الهندى الذى لا يقدم إلاّ فى الأساطير الهندوسية، و مع ذلك يتحدث عن الصوفية المسلمين. و طبقا لـ وارث شاه، ليس هناك أى فارق بين يوغى هندوسي (Yogi) و صوفى مسلم، فإن كليهما يعتقدان أن الله فيهم، و العبادة هى السلم الوحيد الذى يمكن أن يصلوا به إلى النجاة. و لا يزال تقليد اليوغانيين المسلمين باق فى وادى كشمير، و لا يزال يوجد بها بهاكتاوو شيفا (Shiva) المسلمون. و سكان السند فى باكستان يستبقون أعرافهم الهندوسية حتى الآن، و نساءهم يضعن الزنجفر فى رؤوسهن.

لستبدلت حركة " بهاكتى " راما بالذات الإلهية نفسها كمحور للحب و الإخلاص، و أصبحت شخصية راما الهندوس كما أصبحت المسلمين. و أنشأ كبير (Kabir) تلميذ راماناندا، حركة لفتت انتباه المسلمين و الهندوس على السواء، إنه كان يعتبر الأسس الروحية لكل من الهندوسية و الإسلام واحدا، و كان تأثر بكليهما تأثرا عظيما. فناضل من أجل مجتمع عديم الطبقات

Converted by Tiff Combine - unregistered

و العقائد، و لما مات طالب بجثمانه المسلمون و الهندوس كلا هما. و هذه كانت حال فور نانك

كان حركة فور نانك مؤسسة على مزج فكرة وحدة الله كما قدمتها العقيدة الإسلامية و العقيدة الهندوسية القائلة بالولادة الثانية، و كان أكبر حواريه مسلما إسمه مردانا. و اندمجت معظم المعتقدات الإسلامية و الهندوسية و نشأت عنه نحلة مستقلة أثرت الإتجاه المركب للحضارة الهندية القديمة.

و في بنقال و مهارا شترا، حققت حركة " بهاكتى " مجموعة كبيرة من الأتباع من بين الهندوس و المسلمين، و لاغرو أنه لما أسس السيخ دولتهم في البنجاب و المراثا (Marathe) في مهاراشترا، كان عمادهم المسلمين الذين منحوا مناصب كبرى. إن أسطول شيفاجي (Shivaji) و مدفعيته كلها كان مزودة بالمسلمين، و وزراء الخارجية و الداخلية و القانون و الإيرادات الحكومية في حكومة رنجيت سينغ، كلهم كانوا مسلمين. و على أثر الملك أكبر تزوج خارج دينه و منح حرية دينية كاملة للأديان الأخرى. إن الإمبراطورية المراثاوية في مهاراشترا و الإمبراطورية السيخية في البنجاب، كان فرها سياسيا مباشرا لحركة " بهاكتى ". و خلال أربعين سنة حكمها شيفاجي و رنجيت سينغ على حدة، لم يحدث أي شغب طائفي و اعتناق قسري لدين أو مذهب.

إن مقياس حضارة ما، هي كيف تعامل أقلياتها. و اعتبارا من وجهة النظر هذه، إن حركة " بهاكتى " إحدى الحركات الكبرى في التاريخ الهندي التي أفضت إلى الانسجام الطائفي بين ثلاث جاليات هندية كبرى، أعني الهندوس و السيخ و المسلمين. و هناك قصة تروى أن خطاطا مسلما قرع أبواب قصر المهاراجا رنجيت سينغ في لاهور، و طالب بمئة ألف روبية عوضا عن نسخة حسنة الخط للقرآن الكريم و قال إنه قصد بلاط جميع الأمراء المسلمين تقريبا بـ رامفور و لكناؤ و حيدر اباد، و لكن لم يستطع أحد أن يدفع قيمته. و قد كان سمع علمانية الحاكم السيخي و سخاءه، و لذلك يحلل لماذا قطع كل هذه المسافة إلى لاهور. فأصغى المهاراجا إلى الخطاط و قام من كرسيه القدسي و قبّل الكتاب المقدس و أمر وزيره للمال أن يدفع القيمة التي طلبها الخطاط. و كان فقير عزيز الدين، وزير خارجية السيخ، حاضرا في تلك المقابلة، و سئل المهاراجا لماذا أمر بهذا الجزاء الهائل عن كتاب لا يمت إلى دينه، فطرفت عين المهاراجا الوحيدة، و قال :

" أمرني الله أن أنظر إلى الأديان كلها بعين واحدة، و لذلك سلب الضوء من الأخرى ".

و كان ذلك روح الدين نفسها التي أعجبت القديسين في القرن التاسع عشر، و يردد السوامي في فيكا نانندا (Vivekananda) أفكار " بهاكتى " حين

Converted by Tiff Combine - unregistered

يقول :

" لا أريد دينا لا يستطيع أن يمسح الدموع من عين أرملة، و لا يستطيع أن يعد الجياع بما يسد جوعهم، و الذي يفرق بدلا من أن يوحّد ".

و واجهت الحضارة الهندية، بين الفينة و الفينة، صدمات عنيفة، و لكن مثل مياه شاطىء البحر في هزه أرضية هائلة، إنها تراجعت لمدة قصيرة لكي ترجع فيضانا كاسحا أقوى منه بألف مرة، و لما إنقضى اندفاع الإضطراب و الفتن، اندمجت كل هذه الإنتقاطعات و استوعبت في صورة مذاهب و نحل جديدة في الجسم الهائل للحضارة الأم.

و قد كان قال اللورد كرشنا : " إنما أنا في كل دين و مذهب مثل الخيط في عقد من الدرر، و أينما ترى قدسية فوق العادة و قوة غير عادية تطهّر و تنهض بالبشرية، فتعلم بأني هناك ".

إن ذلك يرمز إلى روح الحضارة الهندية، التي دائما اعتقدت بأن هناك رجالا بالغين حد الكمال حتى خارج نطاق حضارة واحدة.

إن حركة " بهاكتي " لم تلهم سكان الهند حب الذات الإلهية فحسب، بل حب بلادهم أيضا الذي ما فعلته أية حركة قبل. و الروح الوطنية التي أبداها الهنود عبر السنين في الصلام و الحرب، ليوضح ذلك بجلاء، و الحروب الوطنية التي خاضها الراجبوتيون ضد المغول قصص مثيرة زاخرة بالأعمال البطولية في تاريخ الهند. و قد ليلى رانا براتاب و لواءه، جانيمال وفوتا، بلاء حسنا في الحروب ما لا يوجد مثله في أي تاريخ. و طبقا للكولونيل تود (Colonel Tod) مؤلف كتاب " حوليات راجستان " (Annals of Rajasthan) إن جميع المعارك الأخرى ضئيلة مقابل معركة " هالدي غوت " (Haldi Ghat)، و البسالة التي أبداها الرومانيون و اليونانيون في حروبهم الكلاسيكية ضد " أتيلا " و الهون و القبائل الرحل الأخرى، ليست بشيء إذا قورنت بالبلاء الذي أبلاه الراجبوتيون في معركة " هالدي غوت ". و في تحليل تاريخي أوسع، كان الموقف الراجبوتي تجاه الحرب ينسجم على نحو تام، مع القيم التي تتجسد في الحضارة الهندية، و التي يحظر الملوك الهنود أن يخوضوا الحروب خارج بلادهم. و الملك الراجبوتي " سورجان هارا " مثال نموذجي الذي بعدما هزمه " أكبر " أصرّ على أن لا يكره على الذهاب خارج حدود وطنه الأم التقليدية لفوض الحروب. و على أنه كان يلبس البذلة المغولية و عاد بالفتوح على " أكبر " داخل الهند، و لكن رفض الذهاب خارج وطنه الأم ليقاتل له. و لكبر الذي كان مفرط الشعور بالمظاهر الرائعة للحضارة الهندية، أعجب به إعجابا عظيما و لم يكرهه على أن يحمل السلاح ضد الإيرانيين و حتى الأفغان.

و بالإضافة إلى الوطنية، أبدت الإمبراطوريات الجديدة، التي قامت على خرائب الإمبراطوريات القديمة، القوة الخلاقة للحضارة الهندية بالمغايرة مع

Converted by Tiff Combine - unregistered

التلمسح الخلقي للفرنجة. ، لما قدمت ابنة حاكم مقاطعة كالبان المسلمة إلى شيقاجي كتعويضات عن خسائر الحرب، عاتب الحاكم المراثاوى هبناطه لهذا العمل الطائش، و ردّ السيدة بشرف كامل رسمي. قد كان شيقاجي أصدر تعليمات دائمة إلى جنوده أن لا يهدموا مسجدا، و لا يهينوا كتابا مقدسا لدى المسلمين، و لا يغتصبوا إمرأة مسلمة، و كان أوضح ذلك أن احترام الدين يعني احترام الأديان الأخرى قبل أن تحترم دينك. إن التسامح و الموافقة الكونية ميزتان بارزتان للحضارة الهندية، و نتيجة لذلك دائما وجد اللاجئون من الشعوب الأخرى المأوى في الهند. فلما تشرد اليهود في وطنهم نفسه قبل عدة قرون، لم يجدوا ملجأ إلاّ في كيرالا، و كذلك لما هجر البارسيون بالتعصب الديني من قبل حكامهم الجدد في فارس في القرن السابع المسيحي، نظروا إلى العالم كافة و لكن استوطنوا جحرات في نهاية المطاف. و رغما من أنهم اليوم ٠,٠٩١٦ ٪ من مجموع عدد السكان و لكنهم أعضاء محترمون للجالية الهندية، و قد أسهموا أكثر من نصيبهم المطلوب في تطور الحضارة الهندية. و هنا أنقل من خطاب السوامي في شيكاغو، الذي ألقاه بـ شيكاغو في برلمان العالم للأديان بتاريخ ١١/ من سبتمبر ١٨٩٣م. لصغوا إلى مرونة الحضارة الهندية حينما يتحدث :

" إنا لا نؤمن بالتسامح الكوني فحسب، بل نحن نسلم بأن جميع الأديان صحيحة صادقة. و أنا مفتخر بأنني انتمي إلى شعب قد أوى مضطهدي و لاجيء جميع الأديان و الشعوب المتواجدة على الأرض، و أنا مفتخر بأن أقول لكم إننا قد جمعنا في أوساطنا أخلص بقايا اليهود، الذين جاؤوا إلى جنوب الهند و احتموا بنا في السنة نفسها التي حطم فيها الرومان معبدهم المقدس، و أنا مفتخر بالانتماء إلى شعب قد أوى و لا يبرح يرعى بقايا الشعب الزرادشتي العظيم. و أنا أنقل لكم، إخوتي، عدة سطور من ترتيلة رددتها كما أذكر منذ طفولتي المبكرة و يرددها كل يوم ملايين من البشر " كما أن أنهارا مختلفة تخرج من منابعها من الأمكنة المختلفة و يمتزج مياه كل منها في البحر، كذلك، يا رب ، إن الطرق المختلفة التي يسلكها الناس بسبب نزعات مختلفة، و رغم أنها تبدو مختلفة، ملتوية أو مستقيمة، و لكنها كلها تهدي إليك ".

و عبر المهاتما غاندي هذه المشاعر بذاتها حين قال :

" لا أريد أن يحاط بيتي بالجدران من جميع الجوانب و أن تغلق شبابيكها كلها. أريد أن تصل ريح ثقافات البلدان كلها إلى بيتي، و لكني أرفض أن تطير بي واحدة منها ".

Converted by Tiff Combine - unregistered

و توجد رواية مثيرة جدا للمشاعر عن مقابلة اللاجئين البارسيين الأولى فى بلاط ملك ججرات ، " جادداف رانا "، و هذا المشهد موضوع للفناء و التمثيلة فى الأدب الفارسى، و ينشد فى الأغانى الجماعية لهم، و التى تعرف عامة كـ " غار باس " (Garbas) ججراتية، و لا تزال تغنى فى مناسبات الأعراس البارسية. و يزعم أن " جادداف قيرما " دعا الغرباء إلى بلاطه من واسطة اعلان، فاحضر اللاجئون البارسيون فى البلاط، و كان على رأس موكبهم كاهن علت به السن رافعا النار المقدس فى يديه. سئل الملك اللاجئين الخائفين ماذا يريدون ؟ و لماذا جاءوا من مثل هذه البلد النائى ؟. و قد خلق حوار دقيق مضبوط فيما يلى من كتاب "البارسى" (The Parsis, 1977) لـ بيلو نانافوتى (Pilo Nanavutty) " ماذا تريدون منا أيها الغرباء من بلاد قاصية ؟ " سئل جادداف رانا.

" حرية العبادة، مولاي " أجاب الكاهن العجوز.

" خولناها. و ماذا تريدون أيضا ؟

" حرية تثقيف أبنائنا حسب أعرافنا و تقاليدنا "

" خولناها. و ماذا تريدون أيضا ؟ "

" قطعة من الأرض يمكننا أن نحرثها حتى لا نكون كلا على الذين نعيش بينهم ".

خولناها. و ماذا تفعلون مقابل ذلك للبلاد الذى اخترتموه ؟"

فطلب الكاهن العجوز بأن تملأ قصعة نحاسية باللبن و يؤتى بها إلى الإجتماع، ففعل به، فمزج مقدارا هشيلا من السكر فى القصعة و رفعها فى يديه المرتعشتين و سئل :

هل من رجل يرى السكر فى هذه القصعة المملوءة باللبن ؟ "

فكلهم هزوا رؤوسهم بالنفى.

" مولاي ! " قال الكاهن : " نحن نسعى أن نكون مثل هذا القدر الضئيل من السكر فى لبن لطفكم الإنسانى".

و كان هناك لفظ الموافقة و الإستحسان من الجماهير. و بعدئذ على إشارة الكاهن، انبطح جميع اللاجئين من الرجال و النساء و الأطفال على الأرض بالقصى امتداد أجسامهم، و أخذ كل منهم حفنة من التراب، و الدموع تسيل على وجوههم، و أمرّوها على أعينهم و نواصيهم.

و لا يمكن أن يوجد مثال أفضل للإندماج الثقافى فى الهند من البارسيين، إنهم اتخذوا اللغة الججراتية لغتهم الام، و لبست نساءهم "الساري" و أخذن كثيرا من تقاليد هندية أخرى. و لا ريب إن إسهام البارسيين فى تطور الحضارة الهندية المركبة بارز و هام، و نادرا ما يوجد مجال من حياتنا الوطنية من السياسة إلى الفنون و العلم حيث ليست

Converted by Tiff Combine - unregistered

مشاركة البارسيين ببارزة، و صلتهن فى تعهدهم لا يزالون يضيفون إلى حلاوة و ضوء الحضارة الهندية.

و طبقا لـ " موسوعة برتانيكا " يعرف " بهاكتى " كضرب من دين الحب و التفانى داخل الهندوسية. على كلٍ مع مجىء الإسلام تغير مفهوم "بهاكتى"، و كان من بين المسلمين أيضا من دعى بـ " بهاكتاوى ". و اشتق بهاكتى من الأصل السنسكريتى " بهاج " الذى يعنى التلاوة، و المورخون أيضا يرون بأن مصطلح "بهاكتى" كان يستعمل أصلا للقرابين التى كانت تقدم للإلـه، و أضيفت إليه المعانى العاطفية بعد بكثير. و يستعمل اليوم كمصطلح شامل للعلاقة مع الإله، الذى يشعر به الأتباع ربطا عاطفيا.

نشأ " بهاكتى " كعين من الطوائف الفيداويـة، و طبقـا للفيـدا إن " بهاكتى" وسيلة لا تخفق إلى " موكتى " (النجاة). و من بين أسراب و أنواع من الآلهة، يعظم الهندوس اثنين منهم الذين برزوا عبر السنين أكثر شهرة و قوة، أعنى شيفا و فيشنو. إن النحوى السنسكريتى، باينينى (Panini)، أيضا يشير إلى طبقة من " بهاكتاوى " فيشنو. ثم جاء عصر " بهافوانيتين " الذين اتخذوا " كرشنا " إلههم المفضل. اكتسبت حركة " بهاكتى " قوة دافعة حول القرن الثامن المسيحى، و زوال البوذية و ظهور مجتمع هندوسى قوى قويت فكرتها، ثم منحها " ألفارون " (ALVARS) المعروفون من جنوب الهند قوة دافعة جديدة. و " ألفار " (ALVAR) كلمة تاميليـة تعنى الإنهماك فـى الحب و التفانى، و تدل على طبقة من قديسى جنوب الهند المغنين التائهين السكارى باسم فيشنو، ثانى أقانيم الثالوث الهندوسى. و يشهد التاريخ على أن " ألفارى " جنوب الهند هم الذين جاءوا بحركة " بهاكتى " إلى الشمال. كان راما نوجا يتغنى بمجد كرشنا و منح الحب للإله أبعادا جديدة، و قام بنشر رسالته راما ناندا فى شمال الهند. و يمكن أن يوضح هنا أن " بهاكتى " ليس بـ " يوغا " (Yoga). إن اليوغا هو إنضباط ذاتى و استعداد خلقى للفكر، بينما " بهاكتى " يقدم النجاة إلى جميع أولئك الذين هم راغبون فى أن يقوموا بمحاولة لحب الله . كان " اليوغـا " دين الصفوة مـن الناس، بينما بهاكتى كان حركة جماهيرية.

و بدءاً من القرن الثانى عشر حتى القرن الثامن عشر، كان بهاكتى يتميز بأربعة طرق مختلفة :

١ ـ " فاتسالا بهافا بهاكتى " (Vatsalab Bhava Bhakti) الذى يرمز إلى حب الله كما يحب الأبوان أطفالهما.

٢ ـ " ساكهيا بهافا بهاكتى " (Sakhya Bhava Bhakti) كما يحب صديق صديقه.

٣ ـ " داسيا بهافا بهاكتى " (Dasiya Bhava Bhakti) الذى يرمز إلى حب خادم لمولاه.

Converted by Tiff Combine - unregistered

١ - " مادهو ريا بهاكتي " (Madhurya Bhava Bhakti) الذي يعني حب زوجة لزوجها. و إضافة إلى ما ذكرنا أعلاه، هناك طقس مفصل لعبادة " راما ". و الشاعر المتاز كبير ترفع عن النظرية اللاهوتية للمسلمين و الهندوس على السواء، و حاول أن يعبر عن حبه المتقد لله تعالى، الذي يؤمن بأنه غير قابل للوصف و التحديد. و إذن، قدم كبير فكرة جديدة عن " بهاكتي " بكل ما في الكلمة من معنى. و الهندوس عبر العالم يعتقدون بأن *بهاغوات غيتا* (Bhagwat Geeta) أكبر موعظة حول " بهاكتي ". إن الموعظة التي تلقاها النصارى على " الجبل "، و *بهاغوات غيتا* الذي للقنها اللورد كرشنا أرجونا، هو نفسها للهندوس. و من أعظم فلاسفة بهاكتي فياس و شانكرا و راما نوجا و مادهاوا و نيلا كا نثا و سري دهارا و مادهو سودانا. و كتب بال جنها دهار تيلاك و ادرو بيد بحوثا و رسالات عظيمة حول بهاكتي في القرن التاسع عشر، و قدم السوامي رامها كرشنان و السوامي شيفا نانداز تاويلات و تفسيرات جديدة. و الحق أنه يوجد " بهاكتي " مادام يوجد البشر. إن " بهاكتي " إنسانية و حب و شفقة و معرفة و عمل.

كانت حركة " بهاكتي " أول احتجاج منظم ضد الإستغلال و اللامساواة الإجتماعي، و قادها القديسون و الصوفية و المفنون و ناضلوا من أجل التسامح و الإحترام المتبادل للأديان و التفاهم و حب الإنسانية قاطبة. إنها حدّت من شر تعدد الزوجات و النظام الطبقي، و قدمت فرصا جديدة للنساء و غيرت هدف حياتهن بالذات، و إنها لم ترفع منزلتهن الدينية فحسب بل زودتهن بالأدب الذي يقرأنه و ينعمن به. و لأول مرة ألفيت المنهولية في الهند. إن حركة " بهاكتي " مثل الحركة البروتستانية في أوربا أفضت إلى الوحدة الوطنية و تطوير اللغات الهندية الحديثة مثل اللغة الهندية و البنجابية و الأردية و الجهراتية و البنغالية و أخواتها.

قدمت هذه الحركة للنساء ما حرمن منه حتى الآن، أعني حق الحصول على النجاة (Moksha) بأنفسهن، و حررتهن من آلام الولادة الثانية، التي هي المعتقد الأساسي للفلسفة الهندوسية الدينية. و كان سمورتي و البوراذا تكدا على أن النساء لا يستطعن الحصول على النجاة إلاّ أن يكن زوجات مخلصات لأزواجهن. و قدمت هذه الحركة الجديدة النجاة حتى إلى النساء المنحطات من طريق الحب الخالص لله تعالى. و رفضت ميرا بائي، شاعرة و أميرة من راجستان، أن تعيش حياة عائلية، و رغم ذلك قامت بقيادة حركة عظيمة للرجال لإحراز النجاة عن طريق " بهاكتي "، و كانت هي التي حصلت للنساء على حق و حرية عبادة الله المباشرة. و من النساء القديسات الأخرى في ذلك العصر، هي موكتا بائي أخت فذا نديفا و جانا بائي الخادمة و كانهو بالترا الراقصة المحترفة و ابنتا دانو و قريبتان لـ تشاران داس، كسيما و غانغو بائي. إن بهاكتاويين كانوا ينتمون إلى جميع المراتب

Converted by Tiff Combine - unregistered

الإجتماعية و الإقتصادية و الطبقات و الجاليات العالية منها و الدانية. و هكذا تأسست ديموقراطية جديدة، و افتتحت آفاق جديدة و أصبحت الهند وكرا للطيور الفريدة. و تغنى تانسين و سور داس و هاري داس، في حماسة و حبور ، بوحدة إله و أهمية الإنسانية، الذي جعل غير منظورا منظورا، و أنار المظلم و نشر الأرج و بعث النور و الضياء، في كل إتجاه.

و هكذا حصل الرجال و النساء على بعض الحرية الإجتماعية. و ألغى غورو أمارداس (المعلم الروحي الثالث للسيخ) الحجاب بين أتباعه ، و غشيت النساء مجالس كاتا (Katha) و كيرتان (Kirtan) مع الرجال على السواء ، و نظم كرتان في تشيتانيا (Chaitanya) على المستوى الجماهيري و حضرت فيها آلاف من الرجال و النساء، الذي أدى إلى القضاء على النظام الطبقي و الفصل بين الجنسين. و بما أن هؤلاء القديسين كانوا يبلغون في اللغة العامية ، فصار أدب جديد في متناول أيدي النساء. و افتتح تشانديداس و في ديابانيا في بنغال ، و نار سينغ و بها لان في ججرات، و تاميديف و توكا رام في ولاية مهاراشترا و غورو نانك و غورو أرجون في البنجاب، و كبير و سور داس و تلسي داس في شمال الهند بأسرها ، افتتحوا عهدا أدبياً جديداً . و برز نمط جديد من الثقافة في كل منطقة ، كان من الممكن أن تشاركها النساء و يتمتعن بها. إن ساكهي لـ كبير و تشوبائي (Chaupai) لـ تلسي داس و بهاجان لـ ميرا بائي و سور داس أثر تأثيرا عظيما في الرجال و النساء ، و صارت أغاني محببة لديهم. و على المستوى الرسمي أدت هذه الحركة إلى قيام الامبراطورية المغولية في البنجاب و الامبراطورية المراثاوية تحت قيادة شيفاجي ، و إلى سيادة جات و ساتنامي في اترابرادیش.

إن ميزة بارزة لهذه الحركة ، هي أن القديسين لم يطالبوا الناس بأن يعتزلوا الحياة العائلية ، و على العكس تماما إنهم ناضلوا من أجل حرمة العلاقات العائلية ، و لم يكن يؤذن أي سانت بأن يعتزل العالم بدون موافقة أسرته. لخطر والد " فانديفا " إلى الرجوع إلى الحياة الدنيوية التي كان هجرها بدون إذن من زوجته. و كانت الزوجات يملكن حق استرجاع أزواجهن السانت متى شئن . و كانت الزوجة تستطيع أن ترافق زوجها في حياتها الجديدة. هذه هي المساواة الدينية التي ركز قديسو حركة القرن السادس عشر الإنتباه عليها ، و منح ذلك حقا مهما للنساء ـ حق المشاركة لا في معنى زوجها المادي فحسب بل الروحي أيضا. لخطر الإمبراطور بابر، بعد ما كان هجر الدنيا ، أن يذهب بزوجته معه إلى الغابة للسبب البسيط أنه لم يكن مأمونا أن يقرر مصيره وحده. و قال له السانت راما نانداً بوضاعة إنه لا يملك الحق أن يرغض الإذن لزوجاته ، إذا هن راغبات في هجر رفاهياتهن الملكية ، و مستعدات لمتابعته في حياته العامية . و بالاختصار ، إن حركة بهاكتي

Converted by Tiff Combine - unregistered

أفضت إلى الوحدة الإجتماعية ، و مكنت النسوة الهنديات أن يستردن بعض منزلتهن التي خسرنها.

على كل ، كانت الحركة تعوزها نظرية اجتماعية ، و لم يكن لها برنامج إجتماعي محكم ، و فوق ذلك لم تكن فكرة الرأي العام معلومة انذاك . و لذلك مهما تم تحقيقه ، كان في الأغلب يقتصر على المجال الديني. أما للتغييرات الأكثر خطورة و أهمية ، كان للبلاد أن ينتظر ثلاثة قرون أخرى ، حينما رأينا في القرن التاسع عشر اريا سماج و براهمو سماج و ديف سماج و بعثة راما كرشنا تحت قيادة السوامي في ڤيكا ناندا و السوامي راما كرشنا بارام هانسا و السيدة بلافاتسكاني من المجتمع الثيوصوفي الهندي.

إن حركة " بهاكتي " لتقذف الآلهة من الأسر في السماء ، و تحلّهم على درجة أبواب عامة الناس ، فاختلط الآلهة المعتقون مع تجاري الخشب و ما تحي الماء ، و شدت الإنسانية كلها بعضها ببعض في رباط الاخوة الوحيدة. إنتل تراتيل علوية ، و ستحصل على التنور الروحي لجميع العصور. قد كان هذا أغنية البهاكتاويين طوال تاريخ الهند ، و كان ذلك نقطة أساسية لخطابات في ڤيكا ناندا ، و كان ذلك روح غاندي.

و هذه هي أيضا روح نظام القيم الهندي و زبدة الحضارة الهندية المركبة الفذة.

إن الميزة المركبة للحضارة الهنديـــة إنما تحققت بتفاني القديسين و الصوفية أكثر بالنسبة عن سياسات الملوك المتنورين الحكومية مثل أكبر و أشوكا ، و أكثر بالـ " بهاكتاويين " المتجولين الذين ذهبوا من قرية إلى قرية يغنون التراتيل في تمجيد الله بالنسبة إلى المؤلفين الحكوميين الذين طافوا بالبلاد ينشرون الدارما (Dharma) لـ أشوكا أو "الدين الإلهـي" لـ أكبـر ، و أكثر بتقاليد البلاد الشفهية بالنسبة ما نسميه اليوم الحضارة الوثائقيـة. و ذلك هو السبب ، أن الحضارات الرومانية و الإفريقية يمكن أن تدرس في صالة عرض الآثار الفنية و متاحف الغرب، أما الحضارة الهندية فلا يزال يمارسها الدهماء حتى اليوم في شبه القارة الهندية ، إذ أنها حضارة وحيدة بقيت حية من بين العديد منها التي قامت في العصور القديمة. و ارتأى أن تقاليد الهند الشفهية قد أسهمت أكثر بكثير من الفنون الكلاسيكية في المظهر المركب لحضارتنا. إن الفكر الهندي في الأصل هُو فكر علماني ، يؤمن بمشاركة الأتراح و مشاطرة الأفراح ، و في طبعها أنها حضارة ديموقراطية . و طبقا لـ اي. بي. هاويل (E. B. Havell) مؤلف كتاب " الحكم الآري في الهند" (Aryan Rule in India) إن " البهاكتاويين الأميين الهنود يستطيعون أن يعلموا الغربيين الأكثر تعلقا دروسا في الحضارة ". و أنا لختم مقالي على شعر الدكتور محمد اقبال ، الذي حاول فيه أن يصف سعـي الفكـر الهنـدي

Converted by Tiff Combine - unregistered

من أجل المعرفة ، يقول

ماذا نستطيع أن أعمل ، يا ربي
إن عقلي لا يعرف الراحة و الطمأنينة
و لما تقع عيناي على شيء جميل
فيتوق قلبي إلى شيء أجمل منه.
و بقلب نابض
و عين هائمة
أمرّ من بتلة إلى بتلة
و من زهرة إلى زهرة
و من ومضة إلى كوكب
و من كوكب إلى شمس
هذا مجال مسعاي
و لذلك أطلب
غايتي الذي
لا نهاية له.

تعريب: ولي لختر الندوي

Converted by Tiff Combine - unregistered

قصة قصيرة

رائحـــــة

بقلم: أميتا بريتم

صهلت الفرسة فخرجت جوليرى مسرعة من البيت. و عرفت صوت الفرسة. إنها كانت قد جاءت من بيت أمها. أسندت جوليرى رأسها برقبة الفرسة كأنها بوابة بيت أمها و ليست رقبة الفرسة.

كانت بيت أمها بمدينة شامبى، و قرية حمامتها فى الطريق بين لكرمندى و كهربار على مكان مرتفع مسطح. و كانت على بعد ميل تقريبا من كهربار هضبة تطل منها مدينة شامبى فى مكان منخفض و بعيد جدا. ففى أيام الحزن و القلق كانت، جوليرى تذهب إلى ذلك المكان مع زوجها "مانك" لتشاهد منه بيوت المدينة، كأنّ لنورها تتلألأ مثل الكواكب. و كانت هذه الأنوار توجد فى نفسها ضوءا باهرا.

كانت جوليرى تزور بيت أمها فى السنة فى شهر يوليو بمناسبة إنعقاد مهرجان شوفان. فكان أبواها يرسلان شخصا لإحضارها. كما كان يفعل الآباء الآخرون لإحضار بناتهم فى هذه المناسبة. فكانت هذه فرصة نادرة للبنات الزميلات لتبادل ما تجمع فى قلوبهن من ألم و سرور طول السنة. و كن يجرين مثل الغزلان فى العارات المجاورة لمنطقة بيوت أمهاتهن و يتنقلن بحرية.

و إذا كان لهن أطفـــال. يتركـن الأطفال الكبار عند الجـد و الجـدة و الأطفال الصغار عند أمهاتهن فور وصولهن إلى بيوت الأمهات. فكن فى الاستعداد للذهاب إلى المهرجان بتنظيف الملابس الوسخة و تلوين الخمار و تزيينها ليشترين فى المهرجـان البلدى أسورة زجاجيـة و أقراط فضيـة و غيرها. و يستحممن بذلك صابون معطر على أجسامهن بطريقة كأنهن يردن أن يشممن رائحة أجسامهن و هن عذراء.

كانت جوليرى تتحين بغدة مجيئة هذا اليوم ، فى موسم المطر عندما يزول الغبار تماما من السماء و تغتسل و تتجلـى نكهتهـا و نضرتها

Converted by Tiff Combine - unregistered

رائحـــ

Converted by Tiff Combine - unregistered

" لِمَ لا تعزف المزمار -؟ " قالت جوليرى مرة أخرى.

وضع مانك المزمار على شفتيه و نفخ فيه. فخرج منه لحن كأنه مجروح.

" لا تذهبى - يا جوليرى - ! أنا أقول لك مـرة أخـرى - لا تذهبـى ، لا تذهبى هذه المرة " و أعاد مانك المزمار إلى جوليرى.

" هل هناك سبب -؟ إذنْ عليك أن تعال يوم المهرجان ، و سوف أرجع معك. و لن أتخلف أبدا. أنا أتكلم بجد.

لم يقل مانك شيئا. و لكنه نظر إلى وجه جوليرى كأنه يريد أن يقول لها شيئا. و هو أنه ليس هذا كلام مضبوط بل إنـه كلام غيـر مضبوط. و لكـن لم يقل مانك شيئا. كأنه لا يعرف الكلام.

وقف مانـك و جوليـرى مستنـديـن إلى صخرة على بعد من الطريق. و لوقف ناتو الفرصة على بعد عشرة أقدام.

و لكن قلب مانك لم يكن قد استقر فى مكان. رجعت ذاكرة مانك فى هذا العالم من الإضطراب و القلق إلى ما قبل سبع سنين من الآن. ففى مثل ذلك اليوم كان مانك قد وصل إلى شامبى لحضور مهرجان شوهان مع أصدقائه مارا بهذا الطريق. كل شىء كانت تباع و تشترى هناك ، ابتداء من لعبة زجاجية حتى البقرات و الأغنام. و فى ذلك المهرجان كان مانك قد رأى جوليرى و جوليرى مانك. و اشترى كل واحد منهما قلب الآخر.

ثم التقيا فى أحيان كثيرة كلما سنحت لهما فرصة مناسبة. فيوما أمسك مانك بيد جوليرى و قال :

" انك مثل سنبلة الذرة البيضاء "

" و لكن لا تقتربْ بالسنبلة الفجة إلاّ الحيوانات "

ثم استخلصت جوليرى يدها و قالت مبتسمة : " يأكل الإنسان سنبلة الذرة بعد أن يشويها على النار. فاطلب يدى من أبـى لو كانت فيك شجاعة -؟ "

كانت هناك عادة دفع الصداق فى أسرة مانك ، يُدفع من أصحاب الولد لأولياء البنت.

كان مانك خائفا. كم يطلب أبو جوليرى من الروبيات.

كان أبو جوليرى ميسور الحال. و كان قد أمضى بعض الأوقات فى مدينة بعيدة. فقرر ألاّ يطلب من أهالى الولد شيئا من الزواج و يزوّج ابنته بولد طيب من عائلة طيبة. فلم يجد مانك صعوبة فى هذا السبيل فقد أحب كل واحد منهما الآخر. و الطريق للزواج كان سهلا أمامهما.

" مالنا نفكر اليوم -؟ لماذا لا تعبر عما يدور فى نفسك -؟ " سألت جوليرى و هى تهز كتفه.

نظر مانك إلى جوليرى كأنه أخرس.

صهلت الفرسة. فتذكرت جوليرى الطريق إلى الأمام. فاستعدت

Converted by Tiff Combine - unregistered

للسير. و قالت لمانك : " إنه على بعد مسافة ميلين من هنا تأتي غابة من الزهور. هل تعرف ، تصم آذان كل من يمر تلك الغابة."

" نعم -" قال مانك.

" يبدو لي كأننا نمر بتلك الغابة. أنت لا تسمع شيئا من كلامي"

" صدقت يا جوليري - أنا لا أسمع شيئا من كلامك. و أنتِ لا تسمعين شيئا من كلامي."و تنفس مانك نفسا طويلا.

" نظر كل منها إلى الآخر بدون أن يفهم أحد كلام الآخر."

" هل أرجع الآن -؟ إرجع ، فأنت بعدت جدا من البيت." قالت جوليري بحنان.

" أنتِ قطعتِ كل هذه المسافة الطويلة ماشية على الأقدام و لم تركبي على الفرسة. الآن اركبي عليها."

" خذ مزمارك معك "

" فلما تأتي يوم المهرجان تعزفه " ضحكت جوليري. و كانت عيونها تلمع مثل الشمس.

أدار مانك وجهه إلى ناحية أخرى. كان عيونه تبللت بالدموع. أخذت جوليري طريقها إلى بيت أمها. و قفل مانك راجعا إلى بيته.

لما وصل مانك إلى بيته سقط على سريرة كأنه وصل إلى هنا بصعوبة جدا.

" تأخرت كثيرا. فظننت أنك ذهبت لتوصيلها إلى الآخر." قالت له أمه.

" لا يا أمي - ! ما ذهبت إلى الآخر. تركتها في منتصف الطريق " ثم تثاقلت حنجرته.

" لماذا تبكي كالنساء -؟ كن رجلاً. قالت الأم بحدّة.

أراد مانك ليقول لأمه. لكنك إمرأة. فلماذا لا تبكين مرة كالنسوة.

تذكر مانك كلاما مما قالته جوليري له.

نحن نمرّ بغابة الزهور الزرقاء. حيث تصاب آذان كل واحد بالصمم.

و بدا لمانك أنه لا يسمع اليوم شيئا. و كأن العالم كله قد أصبح مثل غابة الزهور الزرقاء. و أصبحت آذان كل واحد صماء.

مضت سبع سنين و لم تلد جوليري طفلا. كانت الأم تقول " إنني لن أسمح بأن تمرّ السنة الثامنة هذه. " و قررت خفية لزواجه مع زوجة أخرى و صرفت لذلك خمسمائة روبية و كانت تتحين وقتا تذهب فيه جوليري إلى بيت أمها حتى تأتي هي بعروسة جديدة إلى بيتها.

و أحس مانك بعد ذلك بأن قلبه قد نام.

في اليوم السابع كانت عروسة جديدة جالسة في بيته كان كل أعضاء جسم مانك يقظا ماعدا قلبه. و قد أخذت أعضاءه اليقظة قلبه النائم إلى كل مكان، إلى بيت حماته الجديد، و إلى سرير عروسته الجديدة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

كان مانك جالسا صباحا باكرا فى حقله يدخن التنباك. فمرّ صديق قديم له بذلك المكان " إلى أين فى هذا الصباح الباكر يا بهوانى -؟ "

اندهش بهوانى لبرهة ثم توقف مع أنه كان يحمل على ظهره رزمة صغيرة. إلاّ أنه قال بهدوء : " لا إلى أى مكان ".

كلا — إنك ذاهب إلى مكان. على أى حال إجلس و لندخن التنباك. جلس بهوانى ، و أخذ الشيشة من ليدى مانك و قال و هو يدخن : " لأذهب إلى شامبى. فهناك مهرجان اليوم " فرزت كلمة مهرجان شوكاً فى قلب مانك فشعر بألم داخل جسمه.

" اليوم مهرجان -؟ " نطق مانك بدون قصد هذه الكلمة.

" كل سنة بعقد هذا المهرجان فى مثل هذا اليوم " أجاب بهوانى. ثم نظر إلى مانك كأنه يسأله هل نسيت هذا المهرجان -؟ مضت سبع سنين لما زرت أنت هذا المهرجان. و أنا ليشا كنت معك و كنت قد أحببت حبيبتك فى هذا المهرجان.

لم يقل مانك شيئا لبهوانى. و لكن شعر مانك بأنه سمع كل شىء. فكان يشعر بالغضب على بهوانى. لماذا يسمع كل شىء. فترك بهوانى الشيشة.

و نهض من ذلك المكان. كان رأس مزماره يظهر من رزمته على ظهره. و مشى بهوانى.

ظل مانك ينظر إلى ظهره. و رزمته على ظهره. و رأس مزماره الخارج من رزمته الصغيرة.

كان بهوانى و مزماره فى الطريق إلى المهرجان. تذكر مانك مزماره و لما قال لجوليرى الذاهبة إلى بيت أمه: " خذى هذا المزمار معك "

أراد مانك أن يجرى هو ليشا وراء بهوانى. و يجرى وراء مزماره التى وصلت قبله إلى المهرجان.

قذف مانك الشيشة من يده و جرى وراء بهوانى. لكن تزعزعت أرجله فجلس فى نفس المكان.

كان لذلك يتراءى ظهر بهوانى طول الليل و النهار و هو ذاهب إلى المهرجان.

و فى اليوم الثانى بعد الظهر لما لاح له وجه بهوانى العائد من المهرجان و هو جالس فى حقله ، أدار وجهه و شاء ألاّ يرى وجهه و لا ظهره. و لكن دار بهوانى و جاء ليجلس أمام مانك. كان وجه بهوانى مثل فحم مشتعل ألقى عليه الماء لتوه. و صار لونه أسود.

نظر بهوانى إلى وجه مانك و هو خائف و قال :

" ماتت جوليرى "

" ماتت جوليرى " ؟

" إنها سمعت خبر زواجك. فصبّت على جسمها زيت الغاز و احترقت."

Converted by Tiff Combine - unregistered

و لم يقل لمانك بعد ذلك شيئا.

خاف بهواني أولا ثم والدا مانك و زوجته الجديدة أيضا و لم يعرف أحد ماذا حدث لمانك. فما كان يتحدث مع أحد. و ما كان يعرف أحدا.

مكث أيام. كان مانك يأكل الطعام و يشتغل في حقله و لكنه كان يفحص وجه كل شخص كأنه لا يعرف أحدا.

" كيف أذا زوجته ـ؟ أذا مذنبة الزواج به فقط " ظلت الزوجة الجديدة تبكي طول النهار و الليل. و لكن أصبحت ذنب الـــزواج هذا أصلا لأم مانك و زوجته في الشهر التالي. كانت الزوجة حاملا. أخبرت أم مانك له بذلك في عزلة. و لكن نظر مانك إلى وجه أمه كأنه لم يفهم شيئا.

لم يفهم مانك شيئا لا بأس. و لكنه شيء عظيم. شجعت الأم الزوجة الجديدة على أن تقضي هذه المدة بهمة و جرأة. فلما أضع طفلك في حجر مانك، فسوف يعود إليه كل الإفراج. ثم انقضت تلك الفترة. و تولد في بيت مانك طفل فسلمت الأم الطفل و نظفته و لفته في ثوب حريري و ألقته في حجر مانك.

ظل مانك يحملق الطفل الموضوع في حجره ثم صرخ : " أبعدوه ـ ! أبعدوه ـ ! "فإني أشم منه رائحة زيت الغاز".

تعريب : سراج الحسن

Converted by Tiff Combine - unregistered

استعراض الكتب:

الدراسات العربية

في الجامعات الهندية الشمالية منذ الاستقلال في ١٩٤٧م

تاليف : عبدالحق شجاعت علي

الناشر: المعهد العلمي للدراسات الإسلامية
تغلق اباد ، نيو دلهي ـ الهند ـ

استعراض : شميم الحسن أمانة الله، جامعة جواهرلال نهرو ، نيو دلهي

ليست اللغة العربية كاللغات الأخرى في العالم و إنما هي لغة تمتاز منها من نواح عديدة. إنها لغة دينية و كذلك لغة ثقافية و حضارية. لها علاقة روحية بشعوب منتشرة في جميع أنحاء العالم لأنها ترتبط بالقرآن الكريم دستور الإسلام و المسلمين. و بسبب هذا الارتباط وصلت إلى جميع أنحاء العالم، و منها إلى الهند. فاعتنى بها المسلمون و درسوها، و أتقنوها و استخدموها في كتاباتهم و مؤلفاتهم في مختلف العلوم و الفنون. و هذه الكتب تعتبر تحفة نادرة و ذخيرة قيمة في العلم و الأدب. و اليوم إذا أراد أحد أن يكتب تاريخ الثقافة الإسلامية و الآداب العربية في العالم، فلابد له أن يتناول بالتسجيل الدقيق و البحث الشامل من التراث العلمي لعلماء الهند و عنايتهم بالعلوم الدينية و العربية و بدون هذا لا يمكن أن يتم هذا التاريخ. فقد برز عدد كبير من العلماء و المؤلفين في الهند و أخرجوا كتبا كثيرة في اللغة العربية و العلوم الإسلامية و الفنون الأخرى، و ساهموا مساهمة فعالة في نشر التراث الإسلامي و العربي و تكوين أدب عربي خالد فيها.

و في هذا الصدد تفضل الدكتور عبدالحق شجاعت علي، الأستاذ المشارك، بجامعة جواهرلال نهرو، فكتب رسالة في ١٠٠ صفحة تقريبا من القطع المتوسط. تتضمن تسعة فصول و خمس كل فصل بالبحث القيم و جمع فيها ما قامت به الجامعات العصرية في شمال الهند، و خاصة جامعات

Converted by Tiff Combine - unregistered

عليجره ، و دلهي ، و جواهرلال نهرو ، و الجامعة الملية ، و إله اباد ، و لكنلو من تاليفات في الأدب العربي و العلوم الإسلامية.

فعند تناوله لولا جامعة على كره، كرس جهوده كثيرا على أعمال الأستاذ عبدالعزيز الميمني، أستاذ الدراسات العربية قبيل الاستقلال في الجامعة و مؤلفاته العديدة التي تبلغ حوالي ١٨ مؤلفا و رسالة و استعرض عليها. ثم ذكر بعض كبار الباحثين الهند مثل الدكتور عبدالعليم، و الدكتور مختارالدين أحمد، تلميذ الشيخ عبدالعزيز الميمني و غيرهما.

و لما ينتقل بنا إلى جامعة دلهي فيعطينا أولا فكرة موجزة عن دراسة اللغة العربية فيها و عن العديد من المؤلفات الثمينة التي دبجها أقلام كبار الأساتذة المعاصرين فيها في مختلف العلوم و الفنون و من أبرزهم الدكتور خورشيد أحمد فارق الذي له مؤلفات كثيرة بالعربية و الإنجليزية و الأردوية بالآداب و العلوم العربية ، و بعضها يحتوي على المعلومات الخاصة بالهند القديمة خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي و يبلغ عدد كتبه حوالي عشرين كتابا. ثم ذكر كتب الدكتور نثار أحمد الفاروقي (الرئيس الحالي لقسم اللغة العربية و آدابها بالجامعة نفسها) و غيرهم.

و لما يذهب بنا إلى الجامعة الملية الإسلامية ، يقدم لنا كتبا عربية و دينية كتبت في هذا القرن من أقلام كبار أبناء الجامعة مثل المولانا أسلم الجيراجبوري و الدكتور عبدالعليم الندوي و الآخرين.

ثم لا يترك أن يستعرض الأبحاث و الكتب القيمة التي أخرجتها جامعة جواهرلال نهرو الفتيّة. ثم يسافر المؤلف إلى شمال الهند ليقوم بجولة في مؤلفاتها باللغة العربية.

و أخيرا أضاف قائمة للجرائد و المجلات العربية و المساهمين فيها بالمقالات.

إن الكتب التي تناولها المؤلف باستعراضها ، تبلغ حوالي ١٥٥ كتابا و رسالة و هي تعطي لنا فكرة قيمة و كافية عن النشاطات العالية في حقل التاليف و التصنيف باللغة العربية في الهند.

Converted by Tiff Combine - unregistered

شعر المقاومة فى الفلسطين

من محاضرة سعادة سفير الفلسطين بنيو دلهى
فى يوم الخميس ٨ من فبراير ١٩٩٠م

إعداد : سراج الحسن

يحتل شعر الحرب مكانة موموقة فى دنيا الشعر العربى و لكن زاد نشاط هذا النوع من الشعر فى أيامنا هذه كثيرا. و ذلك بسبب تواجد شعر النضال و المقاومة. فان هذا الشعر يعبر تعبيرا رائعا مما يختلج فى نفوس الشعب الفلسطينى الباسل ، و يوضح طموحاتـه و تطلعاته و كذلك وقوفـه و صموده أمام جميع المؤامـرات و الشدائد و المحن ابتداء من وعد بلفور حتى الآن.

إن الفكرة القيمة عن شعر المقاومة فى فلسطين قد اتضح جيدا فى أذهاننا، نحن المتعلمين للأدب العربى بعدما استمعنا إلى المحاضرة القيمة الرائعة التى تفضل بإلقائها سعادة سفير الفلسطين السيد خالد الشيخ حاليا فى قاعة المحاضرات بالجامعة الملية الإسلامية فى نيو دلهى استجابة لدعوة رابطة طلبة قسم اللغة العربية بالجامعـة و التى شهدها شيخ الجامعة السابق و شيخ الجامعـة الحالـى السادة الدكتور على أشرف و الدكتور سيد ظهور قاسم، و عميد الكلية الدكتور مجيب الرحمٰنى ، و رئيس قسم اللغة العربية الدكتور زبير أحمد الفاروقى ، و جمع من الأساتـذة و المثقفين و الطلاب الجامعيين. و قد أعطى السيد السفير فكرة صادقة و رائعة لهذا الشعر فى المراحل المتعددة من النضال الفلسطينى.

إن فترة الكفاح تشمل مراحل متعددة و يمكن تلخيصها إلى أربع مراحل :

أولا ، مرحلة الشعر ما قبل النكبة و هى التى امتدت منذ الاحتلال فى عام ١٩١٧م حتى قيام إسرائيل فى عام ١٩٤٧م.

و من الشعراء الكبار لهذه المرحلة هم إبراهيم طوقان ، و عبد الكريم

Converted by Tiff Combine - unregistered

أبو سلمة و عبد الرحيم محمود. فهؤلاء الشعراء الثلاثة يشكلون طلائع الشعر الفلسطيني المقاوم الذي وضع فيه الأسس الشعرية التي يقوم عليها شعر المقاومة بمعنى أن شعر المقاومة ابتدأ مع هؤلاء الشعراء، و هم الذين وضعوا أسس هذه الحركة الشعرية. و هذه المرحلة تتميز بمرحلة الواقعية الملتزمة بالواقع و القضية. فانها تصارع الإحتلال.
و كان هذا واضحا في شعر هؤلاء الرواد في نهاية العشرينات و في بداية الثلاثينات. و إذا ما عدنا إلى التاريخ في تلك الفترة ، فهذه الفترة هي المرحلة التي تعددت فيها الثورات الفلسطينية و حركات المقاومة منذ عام ١٩٢٩م إلى أن انتهت في عام ١٩٣٦م بقيام الثورة الفلسطينية الكبرى التي قادها البطل الشهيد عزالدين. و كان دور الشعراء الرواد في هذه المرحلة واضحا في التحريض على الثورة كما تميزت من منطلق واقعيتها إلى التعبير عن مرحلة سياسية مهمة و حماسية. و إنها تحذّر من النتائج السياسية المترتبة على الحملة الصهيونية و الإستعمارية.

ثانيا: مرحلة الخمسينات و هي تتسم بسمات رومانسية لأن النكبة خلقت حالة من الرثاء و البكاء و الحزن و تشخيص حالة المعاناة و التشرد التي عاشها الشعب الفلسطيني بعد النكبة. و تميزت هذه المرحلة بمحاولة رسم حدود الوطن الضائع من خلال نفسه. فكان الشاعر يبحث عن الوطن السليب في معاناة في قصيدته من خلال الأرض و شجرة الزيتون و شجرة البرتقال. و هي مرحلة القصائد المفجعة التي كانت تتسم برومانسية كبيرة لا حدود لها.

ثالثا: ثم بدأت مرحلة الرمزية التي تشكل البذور الأولى لشعر المقاومة المعاصر داخل الأرض المحتلة. فكان الشاعر يعبر عن تجربته بالرمزية و واقع جديد للظروف التي عاشها الشاعر تحت الاحتلال. كان الشاعر يحس نوعا من العزلة من الشعب و عن ثقافته الممتدة عبر الوطن العربي بكامله. و أيضا إن الأسلوب و الإجراءات الجديدة كانت تفرض على الشاعر أن يخلص من ملمس الرقابة و من العقاب و لذلك كان يعبر عن طموحاته و آماله و عن مستقبله من خلال الرموز بالحضارة و التاريخ و من خلال الأساطير التي كانت جزءا من حضارته أو تراثه أو ثقافته و تميزت أيضا بتثبيت الهوية. إن الشعراء تحت الإحتلال كانوا يسمون بعرب اسرائيل. و كان ممنوعا أن يطلق عليهم إسم أبناء الفلسطين. لأن المخطط كان هو طمس الهوية الوطنية و الحضارية و الثقافية الفلسطينية و بكل شيء ينتمي إلى الفلسطين. لذلك كان

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشاعر يستعمل إستعارات كثيرة من خلال التراث و القصص و الأساطير لخلق حالة شعرية.

رابعا: ثم تأتي مرحلة شعر المقاومة من منتصف الستينات حتى الآن و هو شعر فترة الثورة و صعود المقاومة. و هذه الأوضاع خلقت أحاسيس الشاعر بالإنطلاق إلى طموحاته و إلى آمال جديدة و يتميز بالإلتزام بالتحرر و النضال و بإعادة بناء الدولة المستقلة. لذلك كان الشاعر في هذه المرحلة بعيدا عن الرمزية. لأن الشاعر كان يعيش في أجواء تتسم إلى حد كبير بالإنطلاق و الحرية تحت حماية الثورة للشعب المتعطش للتحرير و إقامة الوطن المستقل. و إضافة إلى ذلك كان الشاعر يجسد حقيقة مهمة في رفض الهزيمة التي عانها الشعب أو الأمة العربية في مرحلة ما بعد هزيمة حزيران و ما بعدها. ثم في بداية الثمانينات أصبح التعلق حول الذات الفلسطيني أو الشخصية الفلسطينية بعد التجارب المريرة التي عانها الشعب الفلسطيني. و تتميز المرحلة الأخيرة بالإنتفاضة التي يعيشها الآن و التي تتميز بالإبداع و الصمود و هذا طبيعي جدا لأن الشاعر يعكس الإصرار و القصص المبدعة التي ابتكرها الشعب.

و بعد هذه اللمحات السريعة الرائعة أنشد السيد السفير قصيدتين له كنموذج للشعر الفلسطيني في الوقت الراهن.

و أخيرا أود أن أقول إنه بعد هذا لم يبق أمامنا إلاّ الرجوع إلى أشعار الشعراء لبدء دراسة شاملة عن شعر المقاومة في فلسطين.

Converted by Tiff Combine - unregistered

Converted by Tiff Combine - unregistered

Converted by Tiff Combine - unregistered